

obeikandi.com

السَّامِرَة

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

اسم الكتاب: السَّامِرَة

المؤلف: طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

الناشر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

التجهيزات الفنية: القسم الفني بالدار



٢٥ شارع شريف - القاهرة

Email: borsatelkotob@gmail.com

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٥٥١٩

التَّرقِيم الدَّولي: ١-١٨-٠١٨٧-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية- دار الكتب المصرية

طنطاوي، طنطاوي عبد الحميد.

السَّامِرَة: رواية/ طنطاوي عبد الحميد طنطاوي- ط١- القاهرة: بورصة
الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

٤٣٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ١-١٨-٠١٨٧-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

أ- القصص العربية.

ب- العنوان.

السَّامِرَة

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي



الطبعة الأولى ٢٠١٦

إهداء

لأغلى الأسماء في حياتي

ماجدة

محمد - محمد - مروة - منى

كنزي - رودينا

وأحلى ابتسامة... ياسين محمد إسماعيل

شكر وتقدير

الشكر لكل من

الدكتور الأديب / محمد سمير عبد السلام

والفنان الرائع / محمد جمال الروح

لمجهودهما

طنطاوي

الفصل الأول

جلال منصور

الزمن... المرض... الطريق إلى الموت، عندما تزحف السنون، فتغيّر الأشكال والوجوه، وتركض كالأرانب، يتلون الشعر، ويجفّ جلد الوجه ويتجعد، وترتعش الأطراف، وتهتزّ الخطوات وتستعين اليد بمقبض عصا معقوفة الطرف، ويتسارع النبض، ورغم أنّ القلب مازال يضحّ الدم، يتذكّر ويود أن يضحك ويتساءل... هل يجوز لهذا الجسد العشق؟! هل يمكن أن يتورّد المحيّا؟ ويتذكّر أنّ سيّدنا إبراهيم - عليه السلام - رزق بمولوده الأوّل سيّدنا إسماعيل - عليه السلام - بعد الخامسة والثمانين من العمر، إذن، فهو مازال في سنّ الشباب، ينظر في المرآة، ويتأمل أسنانه البديلة، يعاود السخرية، والسؤال يتردّد داخله من جديد... هل ترتعش الشّفاة؟ وهل تستطيب الأذن سماع الكلمات؟ أم تنصت بمزيد من الاهتمام، ولا تدرك المعنى؟

أنا مازلتُ على قيد الحياة، نعم، تجاوزت السّتين، لكن مازال القلب نابضًا، هل أستسلم، وأذهب في سبات يسبق الموت؟ الأبناء تأكلهم متطلّبات الحياة، الجميع من حولي يعملون ليلَ نهار... كلّهم يتمنونّ القفز

فوق حاجز حياتهم، بل يريدون إزالة ما يعترض أمنيّاتهم في الوصول والترّبّع على القمّة، ولا أدرك أيّ القمم! عمومًا هي حياتهم، ولهم ما يريدون، فلا ترى عيونهم سوى طريقٍ واحدٍ هو الثراء، يضحك بصوت يتردّد صداه في شقّته الواسعة... يحدث نفسه بصوتٍ مسموعٍ، ضحكوا على الحمار، فعصبوا عينيه ودار بالسّاقية وظنّ أنّه ماضٍ في طريقه ولم يدرك أنّه يدور... لو فكّوا العصابة لأحسّ الحمار بالدوار ووقع على الأرض...

تذكّر وهو يحاول أن يستردّ ذكرياته... كيف يستردّها؟ كيف مضت به الأيام وأسّرت وما سار عليه في دربه وها هو الآن يتأمّل ما مضى وكم بقي من رحلة الحياة، في تحدّد غريب يردّد لنّ أستسلم ولو كان ما بقي في العمر يوم واحد سأعود وأعيش ما تبقى لي، كيف تكون العودة؟ هل يغمي عينيه ويستلهم الذّكريات؟ هل يدور بالسّاقية للخلف؟ في هذه الحالة لن ترفع الساقية المياه لأعلى، بداية الذّكريات التي أتته كانت مستفزّة وقاهرة، فهبّ واقفًا من جلسته، كيف يبدأ... إذن ليصوغها على الورق.

هل يستطيع إنسان أن يفرّغ ذاكرته على الورق؟ أتمنّى ولو جزءًا أعتقد أنّه مستحيل أو شبه مستحيل، هل تأتي لحظات الذّكريات وتفتح صفحاتها ويتذكّر أيّام الفشل والنّجاح أعتقد أنّها فكرة مجنونة... يهزأ من أفكاره... انتظر... فيوم الحشر قادمٌ، وسوف يعلنون على الملأ ولن يتركوا صغيرةً ولا كبيرةً... انتظر الموت، أنا أتمنّاها الآن قبل أن أموت أتمنّى أن أرصد ذكرياتي فهل تستطيع ذاكرتي؟ هل أكتبها بكلّ ما فيها؟... نعم، الخوف أن تقع هذه الأوراق بين يدي أحد، هل أرصد وأكتب بعضًا وليس الكلّ؟... لأبدأ وليكن ما يكون.

حاول، وجاءت الذكريات وربما كانت ضبابية كغيش الصبح، لكن لم تسعفه الذاكرة بالكلمات للصياغة، لم تتوافق الحروف لصنع الكلمة التي يبتغيها ولم تتناغم الكلمات في صوغ العبارات، لأبدأ بطفولتي... بشبابي... أم... أم... أحاكم نفسي أم أغمض عيني عن... وأقص بعض... أيّ الموازين أستخدم؟! هل أستعمل ميزان الهموم؟ في ميزان الهمّ البداية دائماً خفيفة، وكلّما زاد العمر ثقلت كفة الميزان، هل يمكن أن يؤدي ذلك لفائدة؟ كلّما أخرجنا شيئاً من الذاكرة خفّت أحمالها وانتعشت، هل يصبح العقل مثل ذاكرة الحاسوب وكلّما حُذِفَ منه بعض... استطاع أن يستقبل المزيد من المعلومات، مستحيل فقد شابت وشاخت خلايا الحفظ في المخ، فمن أين يأتي بذاكرة جديدة أو... ضاحكاً "رامات" مثل ذاكرة الحاسوب، ستظلّ كما هي ولن يجدّ جديد، كانت المتعة الوحيدة لعبه مع أحفاده ومشاركتهم مداعباتهم، في لحظة استشعر وكأن آباءهم أو أمهاتهم يتخوفون من تلك الأفعال، فظنّ أن أفعاله تخرج عن المألوف أو ربما فيها آفاق قديمة... ابتعد... الملل والتكرار وعقارب السّاعة ونفس الطّعام ونفس الوجوه، يحلم بشورة تبدّد ضباب الحياة حوله، لم يكن يوماً ثورياً... ويقول طوال عمري كنتُ راضياً مرضياً... أنا كذّاب كبير يقتل داخله كلّ تمرّد أو فكر...

خيالاته تذهب به لآفاق بعيدة، فكم كان يتمنّى أن تكون حقيبة سفره مقعداً متنقلاً تصاحبه وهو يسافر في أرجاء الدُّنيا! يجلس فوقها ثمّ يحملها ويرتحل وبدلاً من أن ينتظر الموت جالساً فليأته مسافراً... أيموت في بلدٍ غريب؟! الموت في أيّ مكان هو الموت... يسخر من جديد... هل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟!!

شيء جديد ينتفض داخله، في حركته وجنونه وربما ثورته الجديدة أحسَّ
وكانَّ البيتَ استيقظ، هذا البيت الذي ظلَّت نوافذه مغلقة وستائره مسدلة،
غرق في الضياء والحركة رغم أنه مازال وحيداً في البيت، شعورٌ غريبٌ يدبُّ
في أطرافه ومصمّم هو أن يعيشه، ثورة ولكلِّ ثورة مفرداتها وكلماتها وآفاقها
وطموحات تزخر بعقول مفكّريها، هل هو في رحلة ثورة؟ ربّما... فالثورة ردٌّ
فعلٍ لفعلٍ قائمٍ قاتمٍ جائمٍ فوق صدورٍ تبحث عن الحرّيّة...

ماذا تعني الكتابة؟ وخاصّة (لشيخ) يتأمّل ويرصد ذكريات الصبا، من
فاته سنّ العشق هل يسترد عافيته ويصبح عربيّاً؟ هل يستطيع أن يخطِّب بمداد
قلمه فوق براءة الأوراق البيضاء فيفضّ عذريّة صمته؟ ولادة جديدة أم
استعداد لترك وصيّة لاستقبال الموت، مازال مصمّمًا ألاّ يستقبل الموت سوى
مسافر أيّما كان نوع السّفَر والتّرّحال، وأيّا كانت الكلمات.

هل يغفل الموت عنيّ ريثما أنتهي من سرد ذكرياتي، يتركني ويساعدني
الماضي لأتواصل مع الحاضر، يغفل عني وأنا أقلّب الأوراق وتتّضح الصور
وتظهر وتتابع الحكايات أم تفشل المحاولة! أزال يد القدر وعبثت الأيام
بشريط الذكريات، سأجرّب... سأبدأ... أعتقد أنني واهمّ، لن أستطيع كتابة
كلّ أيّامي السّالفة... وهنت الذاكرة، أظنني لا أتذكر أيّام طفولتي، حكايات
أمي وأقاصيص جدتي، وجه أبي وكل أسرتنا التي كانت فضيحة كبيرة إن
كتبت كلّ شيء؟! كلّ من كتبوا ونسجوا أقاصيصهم فوق الورق فضحوا
أنفسهم وخاصّة أنني أنوي الكتابة بلا مواربة.

ينظر في الورقة البيضاء، تسقط نقطة حبر سوداء وكأني رسمت وجهًا
قمرياً يبدّد ليل العاشق... آه... صدرت منه لا إرادياً... كم كانت رائعة!

كانت تحتفظ بالمسافة بينهما وكان اتفاق مبرم بين قلبيهما، استرجع كلمات...
لو التصقت بلوحة جميلة وانعدمت المسافة بين عينيك وسطحها ما استطعت
التقييم، فإذا انعدمت المسافة بين العاشقين ضاعت المعالم، لم ينسَ في شرح
شبابه حكايات أبيه - كان آدم وحواء في الجنة لباسها نور فلا تظهر عورتها
- وعندما كانت المعصية، ذهب لباس النور، فقد طمعا في الخلود والتكاثر
والتوالد... ففي الجنة لا جوع ولا ظمأ ولا تعرُّ، وكذلك الحال... دوام
العشق الحقيقي كلباس النور في الجنة، يتذكر صاحبة الثغر الباسم والوجه
المتألق واللؤلؤ المنثور في أسنانها عندما تبسم، كانت أول عشق وحب،
تشاركا في حلم المراهقة يتأملها من بعيد ولا يقترب أكثر من المحدود، يتأمل
قدَّها الممشوق وتضاريس أنوثتها العذرية... تمضي أمامه، فيدفع هواء
المروحة عاصفة تكاد تطير بالورق بين يديه وتضيق الذكري، ولكن يتذكر ما
حال بينهما أكثر... اختلاف عقيدتيهما، ولكن استمرت علاقتها ببعضهما،
وهجر ما قيل عنه حب أفلاطوني أو حب عفيف...

لم يستمر الحال كثيرا، فقد انسلخ عن ركب قديم وولج لدنيا أخرى
فتحت له أبوابها فتمرس وتعرف، وذاق حلاوة خمر شفاه عذرية، وطافت
عيناه تتأمل تضاريس الأجساد ففضت بكارته، وتمرد لحظتها على العادات
والتقاليد وهام بكل ما تجود به الأنثى، تربعت على أولويات حياته المرأة أيا
كانت فأصبح كالبيستاني... فليديه سحر خاص، كأنه يتحدث بلغة الأزهار،
فهي تناديه فقد تبرعمت وانتفخت وانتظرت لمسات أنامله لتشق كأسها
المغلق وتطل برأسها، وصار يمتهن مهنة عنوانها "عاشق حدائق النساء"
وهن يتربصن به... يصفق بيديه، ويضحك... آآآه... مازلت أتذكر بداية

العصيان، لم يصب الذّاكرة العطب... يرتمي فوق مخدعه، ويغمض عينيه وبعد قليل يجد نفسه شاخصاً بعينه لسقفِ الحجرة.

كثيراً ما كنت أتحصّن بمثالية كاذبة، فأمل مكبوت وحب مؤجّل وفقاً للظروف وما تقتضيه الحاجة، تصنّعت في كلّ شيء فلم تنمُ أيّ بذور للحقيقة داخلي وبقيت في ظلّ شجرة الكذب والرّياء طائعاً وتابعاً، وحتىّ لحظتي... أأكتب؟!

قرّ عزمه أن يكتب دون الاهتمام بالمراحل السّنّيّة، وكلّما أته ذكري خطّها بلا تخطيط ولتأت كما تشاء، الشّيخ والكتّاب والدّرس والحفظ بعد صلاة العصر والخوف من الجلد بالفلقة، حفظ الآيات دون إدراك معانيها، مجرد الحفظ والخوف والكتابة فوق اللوح الأسود... هل عقاب الله يشبه عقاب سيدنا في الكُتّاب... سيدنا يكتفي بجلد الأيدي والأقدام، وجهنّم عقاب من الله وفي جنونٍ طفولي يحرق إصبع يده اليسرى، ويتحمّل في البداية، ويصرخ في النهاية... وبمرور الوقت يتبدّل جلد الإصبع بجلدٍ آخر، وفي جهنّم تتبدّل الجلود، ويشعر المذنبون بذنوبهم.

رقعة الشّطرنج هل كانت يوماً لوناً واحداً؟ تختلط وتمتزج الألوان وفي عينيه تقترب كلها من لون واحد، هل أصاب العين الوهن والضعف فلم تدرك الألوان؟ كيف يتحرّك الملوك والوزراء والجنود، فلا حدودَ فاصلة ولا طرق محدّدة سواء للفرسان أو للفيلة وتختلط الأمور، تتشكّل الرؤية وفق ذكريات الصور الأولى التي كانت قديماً، يتحرّك على أرضية شقّته حافياً... كلّ الأطعمة بمذاقٍ واحدٍ، المرآة كاذبة لا تعكس الصّورة الحقيقية... لا يستسلم للنوم، ولكن قرّر أن يفصّ صمت الحياة من حوله، ليس كلّ ما حدث تاريخ مدون في ذاكرة التاريخ فهو مجرد إنسان نكّرة لا يهتمّ التاريخ

باسمه أو نسبه أو حياته أو مماته، يتأكد أنّ حياته تاريخ مدوّن فوق سبورة درس كلّ يوم، وفي نهاية كلّ درس يُمَحَى، ويصير في طيّ النسيان، ولا يحفظه سوى تلاميذ المدارس حتّى يأتي يوم الامتحان، وغالبًا أغلبه خطأ، لكن هناك تداخل في الصور فهل كلّ الذكريات عاشها حقًا أم كذبًا؟ ... كثيرًا ما قصّ أكاذيب وحكايات عاشت في ذاكرته فصارت حقيقة من كثرة قصّها على الآخرين، متى يدرك الحقيقة؟ وأيّ منها زيف؟ وكيف يعود للأصل والجوهر؟

كان يلحلم بالقوميّة العربيّة وحفظ أغانٍ تندّد بالإمبرياليّة العالميّة والصّهيوينيّة وتقلّصت هذه الأحلام، بل صارت سرابًا وأطلقت النكات على من صاغوها، وتوقع الحلم وأصبح أكثر ذاتيّة، وصارت الأحلام أكثر محليّة، وكلّ يسعى للغد... شقّة جديدة وأثاث وسيارة، وكيفيّة الوصول والحصول لا يلزمها أحلام... على الطالب أن يستفزّ ويستنفر، ويصوغ أكاذيبه، ويغرّد ويسبح بفضل أصحاب العزّ والجاه... ملوك اليوم... حلم عام، ورؤية خاصّة وسجين يخرج للحياة التي فتتت أوصالها، حتّى صلوات الرّحم أضحّت مقطوعةً غالبًا إلا من رحم ربه، فلا يترقّق صديقٌ بصديق، ولا نفكر أبعد من موطن أقدامنا، وشهواتنا تدفعنا.

قالوا... "امشِ عدلٍ يختار عدوك فيك" مقصود مستقيم يعني الخطّ المستقيم، وهو أقصر مسافة بين نقطتين، فالتعرج والانحراف يبعد المسافة... أيّ مسافة... أمقصود بها المسافة بين العبد وربّه؟ أم المسافة بين الإنسان وقلبه؟ أم هي المسافة بين القلب والعقل؟... فيوم تحرك رائد الفضاء الروسي في طريق مستقيم عاد إلى النُقطة نفسها... نقطة البداية، هل تتساوى البداية والنّهاية؟ هل يمكن أن تكون النّهاية بداية؟... المصريون القدماء

أشاروا إلى أنّ الموت بداية الخلود، والأديان لم تجعل من الموت نهاية... النظريّات الحديثة شكّكت في صحّة الخطّ المستقيم، فالأرض كروية، وكلّ الخطوط المرسومة فوق سطح الكرة الأرضية ليست مستقيمة، بل كلّها خطوطٌ منحنية... أدرك كلُّ العارفين بالدُّنيا اليوم صحّة النُظريّة...

تغازله الذّكريّات بحلوها ومرّها، كما يتناوب المدّ والجذر شاطئ البحر، وذكريات الموت والأجساد التي كانت تفيض بالأمل، وكيف كانت لحظة المات أو عندما تتحسّسها الأيدي، فالوجوه والأجساد باردة وبلا نبض، يفكّر في اجتياز صحراء وحدته، فيشعر بالوحدة والاعتراب... لمن يشكو؟ يتوكّأ على أوجاعه وآلامه وينهض... الموت قادمٌ لا محالة، لكن مازال في الحياة بقيّة، هل أصبح مثل شجرة تتحرّك فروعها دون إرادة منها؟ يعلم أنّ أغلب الأوراق الخضراء سقطت من فوق أغصان جسده، فهي لا تحتل رعثات الصباح أو المساء؟... سفينة بين الأمواج بلا دفة، لكنّ العقل يفكّر والقلب ينبض، العين أصابها رمّد، ولكن مازال يستطيع الاستعانة بنظّارة طبيّة... تستقبل أذناه همس الكلمات، وضجيج الشارع، وآهات الذاكرين، كلمات الحقّ تمنحه حقاً مشروعيّاً... أن يحيا ويعيش... فنفض عن نفسه الملل والجمود، وتحركّ.

كانت جميلة تمنّاها وتحوّف... تجرّأ... تمرّد... ولكن في خياله... فجرّدها من ملابسها، وحقيقة الأمر أنّها جرّده من قلبه... صار أسيراً من يومها وساعتها خلعت الساعة من معصميه... أمسكت بها، ونظرت إليها بإمعانٍ وطالبت أن يتغير وألقت بها في سلّة المهملات، وتحركت وهي شبه عارية وهو مازال متحوّفاً مُتردّداً... فتحت دولاب ملابسها، وأخرجت علبة جميلة من

القطيفة الحمراء، وأخرجت من داخلها ساعة ذهبية اللون وسلمتها له... هديته اليوم... شكرها وأدرك أن الساعة أساس الحياة ولكنه يومها نسي وذهب لوائي الهوى.

ضحكت بقوة، وسحبته من رباط عنقه، فأصاب الجسد نشوة مصحوبةً بخوفٍ... امتدت يدها تخلع عنه وتفك أسر ملبسه، فاهتزت أطرافه، وتدفقت الدماء غازية فلم يتمهل وأسرع يساعدها... ماذا يكتب؟ وكيف يكتب هذا الحدث؟ وربما يقرؤه... ربّما يوماً يقع في أيدي... ليقع... يغمز لها بعينه قائلاً... لا أعشق الساعة في المعصم، لا أحب دقات عقاربها فوق شرايين ذراعي... أنصتي لدقات قلبي متناغمة مع إيقاعات هيامي وحبّي... يحسُّ بهزةً، ولكنها كاذبة، فيضحك...

معلوم أن الساعة ستون دقيقة، واليوم أربع وعشرون ساعة، هل القيمة الزمنية للزمن ثابتة؟ وإذا كان سؤالي أكثر دقة... هل ساعة عشق تتساوى بساعة ألم؟... والسعادة التي ينالها العاشق بين أحضان معشوقته كم تساوي؟... لكن كم يتبقى منها؟... هل يختلف الزمن من مكانٍ لآخر؟... هل ينظر الزمان للخلف؟!... نعم... أخذت منها ساعة وساعات حنان وعشق... وأخذت ما تريد وبموجب ما أعطته، وافقت وتنازلت وأعطيتها ما تريد، ورفعتها فوق الآخرين، وليس من مالي الخاص، وذهبت وانطلقت، ويوم هام الشوق بي اجتمعنا... طلبتُ منها أن نعيد الكرّة... قالت ساخرة... لا تجعل وجهك دائماً لأسفل، مثل الحمار دائم البحث عن الطعام... فقد أصبحت اليوم في مكانة مرموقة... آه... لا يُلدغ مؤمنٌ من جحرٍ مرتين... ضحك بشدة، وسأل سؤالاً بصوتٍ مسموع... يا ترى كم عدد الجحور في جسد المرأة؟!... ها... ها... تجاوزت الستين، ولم أدرك

الإجابة... نعم إنَّهَا الشَّهْوَةُ، فهي مرحلةٌ حُبٌّ لا تتجاوز الصورة والجسد،
والحاجة للذَّة واللحظة.

أظنَّني واحدًا من هذا الشعب الذي استطاع ولاة أمورنا ترويضنا على
الغباء، مرَّتْ بي السَّنون، وكيف مرَّتْ؟ عشتُ حياةً طويلةً، لكن هل الحياةُ
عادلة؟ لا أعتقد ذلك، وبعد هذا العمر أوكدُ أنَّهَا عاهرة تهبُّ نفسها لمن
يغضبونها!!

هل سيذهب لصوص بلدنا إلى جهنَّم؟... لا... سيذهبون للتسوقِ في
أسواق أوروبا... وللحظةٍ ظننتُ نفسي أمنيًا، فتذكَّرتُ عندما يفسد
المجتمع يبدأ بالضَّياع، ويكون مجتمعًا سهلًا في حكمه، ليتمتَّع المفسدُونَ
ويحكمون... أغلبنا ضائعٌ، وتكمن علَّاتنا في خوفنا، فأغلبنا وكأننا يوميًا
ننسج أكفاننا ونحفر قبورنا بأيدينا... هل كان مخطَّطًا منظمًّا للتَّخريب؟
ولصالح مَنْ؟... فوضى من الأفكار والأعمال العبيثية التي نطلق عليها
إبداعية... عندما نصل لليأس نستسلم لولائنا، فتملَى علينا القرارات وكأنَّهَا
مقدَّرات، ولا يستطيع الأمل أن يكون سوى رسم طباشيري كُتِبَ فوقَ
سبورةٍ مستقبلنا السَّوداء... كثيرًا ما كنتُ أحسُّ داخلَ روحي أن هناك نبضًا
لجنينٍ قادم، وظللتُ أنتظر هذه اللَّحظة، ولم تتمكَّن روحي من الولادة
وضحكوا وقالوا إنَّ الرُّوحَ تولد من جديدٍ بعد موت الإنسان ومفارقتها
الجسد وساعتها تتحرَّر من عبوديَّته... وقالوا وصلت لسنِّ اليأس الوظيفي،
ومضتُ أعوامٌ كثيرةً، ولم تهتزَّ شجرةُ الأمل القائمة المستسلمة في أحشاء
جسدي، وعرفتُ أنَّ هذا نبضٌ كاذبٌ وحلم ضبابي شتوي فاستسلمتُ
للنَّوم...

أصبحتُ تابعًا لهم، وهم يستطيعون أن يُسَخَّرُوا كُلَّ ما تحت أيديهم في خدمة أغراضهم فينجحون... إنَّهم أصحاب رؤيةٍ وفكر... فهم من أطلقوا على غزو العراق فَوْضَى خَلَّاقَة... ولم أتحرك ولم تتحرك داخلي أيُّ ملامح لعدم الرضا وكأنَّ شيئًا لم يكن، ولم نتحرك، واشتعلت النَّيران وأتت على بلدٍ عربيٍّ وشعبٍ عربيٍّ وبشرٍ ينتمون لسلالة الإنسان وانكمشنا وفق رؤيتهم، لنرى معالم الفوضى التي ستعم، وبعدها سيأتي من رجمها خلق وفكر جديد رائع... ويوم الأضحى نفذ الإعدام في صدام حسين... آه... لا أبكيه، ولكن أبكي أحوالنا... عندما تعيش امرأةٌ بغِيٌّ في فوضوية حياةٍ بهيميةٍ حيوانيةٍ... قد يتخلَّق داخلها جنين لعلاقة عابرة آئمة... ابنًا سفاحًا... إنَّها فوضى خلقت إنسانًا!!... عازمٌ هو ألا يبكي في ذكرياته، ولكن انثالت دموعه قسرًا عنه هذه المرَّة، مرَّةً قلت لنفسي وهذا قديمٌ أو بداية كانت... لن أكفَّ عن البحث، ويوم أجد السَّكن الملائم لن أتركه... ربما أجده في صدر حبيبي، فأجعله ملاذي وأوثقه برياش العشق والمحبة... تزوجنا وأنجبنا... أمَّا اليوم فقد مضى الجميع، وأصبحتُ وحيدًا، فكلُّ يوم يموت الإنسان قالوا... الله يتوفَّاها في النَّوم... النَّوم ميتةٌ صغرى... لأكثر من نومي حتَّى تأتي الميتة الكبرى!!... هل تأتي أرواح طيبة متجرِّدة من الجشع والطمع فتؤنس وحدتك في حلمٍ قد يطول بطول موتك اللَّحظيِّ أو النهائيِّ، انفض رأسك، وتذكَّر أنَّ الأعشاب البريَّة تنمو على جانب النَّهر فتزهر الضِّفاف، وقد تدهسها أقدامُ الجاموس ساعة العصاري، وهي في طريقها للنهر، تغرسها في الطِّين، لا تستسلم الأعشاب، وتعاود النَّمو وتتَّجه بأزهارها صوب السَّماء فتتأمَّل الطيور البيضاء التي تطير في أسراب وتشكيلات هندسيَّة منظمَة...

هل تدرك طريقها؟ أم تسير لمجهول؟ لا تنتظر الصّرخات الجنائزيّة التي تطلقها الغربان.

ينبش في ذاكرته علّة يجد صديق اليوم... الجميع ذهبوا ويوم كان في مكاتته المرموقة التي وصل إليها مع نهاية سنوات خدمته، كان الجميع يبادلونه الودّ... تذكّر الإمام عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - عندما سُئِلَ... كم صديقاً لك؟... فقال... لا أدري الآن... لأنّ الدنيا مقبلة عليّ، والنّاس كلّهم أصدّقائي، وإنّما أعرف ذلك إذا أدبرت عنيّ، فخير الأصدقاء من أقبل إذا أدبر الزّمان عنك... لم يفكّر جلال باشا يوماً مشاركة حقيقيّة بقلبه لصديق... كلّ أصدّقائه أو من يدعّون صداقته تربطهم مصالح مشتركة... كم المكسب والخسارة الذي يأتي من وراء هذا وذاك؟ دائماً يحاول أن يلتمس الأعذار لأفعاله، فالحيّة ومتطلباتها... الأولاد والخوف من الغد... اللهاث الدائم والساعي لمزيد من الكسب، لولا محاولاته المستمرة لإرضاء من حوله ومن يرأسونه ما أصبح هذا حاله... الأولاد كلّهم تزوّجوا وكلّ منهم أصبح لديه شقته التّمليك في المدن الجديدة وسيارته وحياته، ولكنّه اليوم أصبح وحيداً يلتمس من يؤنس وحدته فلا يجد، هل يدفع ثمن معصيته؟... يتذكّر والده وهو يحدثه حكاية تتردّد اليوم كثيراً على قلبه... فالإمام مالك كان يقول لتلميذه الشّافعيّ: "يا شافعيّ... إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية"... يسأل... هل انطفأ نور قلبه؟ هل ذهب معاصيه التي اqترفها بالنور الذي وهبه الله لعبده الشّكور؟ عندما يتحدّث إلى نفسه فحكايته منتهية، انتهت منذ زمن، فلم العتاب على ما مضى؟ مصمّم أن يُعيد سرّدها وقصّها من جديد، فهاضيه معروف ومستقبله رهن إشارة قادمة يحسّها قريبة جداً، ودعوة للمضي للنهاية،

والمضارع فيها حالته الراهنة، لن يستطيع أن يُغيّرَ ما مَضَى، فَلِمَ يُعَذِّبُ نَفْسَهُ بِالسَّرْدِ؟... فَمِيلَادِ حِكَايَتِهِ وَبِدَايَتِهَا حَتَّى يَوْمِهِ هَذَا لَنْ يَغْيِرَ مِنْهَا شَيْئًا، لِيَتَحَمَّلَ مَا مَضَى، وَكَأَنَّ عُرُوقَهُ تَنْفِرُ، وَتَهْرُولُ الدَّمَاءُ فِي مَجْرَاهَا لِتُؤَكِّدَ أَنَّهُ مَازَالَ حَيًّا يُرْزَقُ، وَلَنْ يَسْتَسْلِمَ...

عندما يصبح الطعامُ غَصَّةً في الحلق، ومرارةً في المعدة، وتتوالى الذِّكْرِيَّاتُ، وَحَاصَّةُ السَّيِّئَةِ... إِنَّهَا الْوَحْدَةُ وَالشَّيْخُوخَةُ... انتظار الموت... داخله يهتف إنني مازلتُ على قيد الحياة... يذهب بفكره متى يستطيع الإنسانُ أن يتصالحَ مَعَ نَفْسِهِ، ويتعاقق هو وآلامه في محبَّةٍ وَوَدٍّ، وساعتها يعقد معاهدةً وَصُلْحًا مَعَ كُلِّ الْمَشَاكِلِ الَّتِي تَجَاوَهُ وَتَعَشُّشِ دَاخِلِ رَأْسِهِ، هَلْ تَدْخِينِ الْحَشِيشَ أَوْ اسْتِحْلَابِ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَفْيُونِ يُمْكِنُهُ عَقْدُ مَعَاهِدَةٍ وَصُلْحٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ؟ عندما يطبع الفارسُ على خَدِّ غريمه قبلةً وتتكسَّرُ السُّيُوفُ وَالرَّمَاحُ الَّتِي رَفَعَهَا كُلُّ مَنْهَا فِي وَجْهِ الْآخِرِ؟... هل يعود لأَيَّامٍ سَالِفَةٍ؟... رَفَضَ الْفِكْرَةَ... رَفَضَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى وَادِي التَّيْهِ رَفَضَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى الْبَحْرِ يَلْقَى بِقِطْعِ السُّكَّرِ أَوْ الْمَلْحِ، فَكِلَاهُمَا لَنْ يَغْيِرَ مِنْ مَلُوحَةِ الْبَحْرِ... لَمْ يَكُنْ يَوْمًا يَمْتَلِكُ نَاصِيَةَ الْأُمُورِ فِي حَيَاتِهِ، فَكَانَ يَسْتِظِلُّ بِسَادَتِهِ فِي أَيِّ مَحْطَةٍ يَتَوَقَّفُ بِقِطَارِ حَيَاتِهِ!!...

بعد موت زوجته، جلس يفكِّرُ كثيرًا، تحمَّلتَهُ بِكُلِّ هَفْوَاتِهِ وَنَزْوَاتِهِ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَرْهُونَةٌ بِبَيْتِهِ وَأَوْلَادِهِ، مَطَالِبُهَا مَحْدُودَةٌ، فَكُلُّ مَا تَهْتَمُّ بِهِ الْبَيْتُ... الْمَأْكَلُ وَالْمَشْرَبُ... كَيْفَ تَحَافِظُ عَلَى الْمَظْهَرِ الْعَامِ لِلْأُسْرَةِ، وَأَمَانِيهَا لِلْأَوْلَادِ وَنَجَاحِهِمْ فِي دَرَاْسَتِهِمْ... يَنْظُرُ لِمَخْدَعِهَا الْقَدِيمِ قَدَمِ أَوَّلِ أَيَّامِهَا مَعًا... كَمْ نَبَتْ فَوْقَهُ نَبَاتَاتٌ، وَتَوَالَدَتْ أَزْهَارٌ أَلْقِيَا بِبِذُورِهَا فِي سَاعَةِ الْعَشَقِ الْحَلَالِ! هِيَ الْيَوْمَ كَبُرَتْ، وَأَيْنَعَتْ، وَسَافَرَتْ، وَابْتَعَدَتْ، كَمْ كَانَا يَتَرَقَّبَانِ نَمُوَهَا!...

لم يكل من المشي في جنبات الحجرة أو الشقة، ينظر إلى أرضيتها الملساء الصلدة التي لا تنبت ولا يتشقق سطحها بنبات قادم، أو يعوزها الماء إنَّها جذباء مثل عمره، أو قُلْ أُجِدْتُ... ضحكات وصرخات طفولية تنمو وذكريات كانت... الأثاث القديم وكأنه ينتظر معركة بين الصَّمْتِ وَالْأَيْنِ بلا توجُّع... تدفع يده مقعدًا يهتز... ثمَّ يصمت.

بعدهما فارقه... أطلق لحيته، وظلَّ وحيدًا رغم دعوات أولاده التي كان يشعر بأنَّها مجرد كلمات وتعازٍ له... كان دائمًا يصلي، فالصَّلَاة ليست جديدةً عليه منذ طفولته... كم اُقتربَ إثمًا وأدى الصَّلَاة!... وكم من شرِّ ارتكَب، وأقام الصَّلَاة!... فاللهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ... فلم يكن جديدًا عليه الذَّهاب إلى المسجد والصَّلَاة... أمَّا الجديد فهو التقرُّب لآل البيت، ومجالسة الشيوخ بعد الصَّلَاة... يلتمس مكانًا بين مجالس أصحاب الطُّرُق الصُّوفِيَّة، يندبن، وكثيرًا لا يدرك المعنى، يهتزُّ برأسه ويتصنَّع السَّفَر بعيدًا، يستمع للشيخ، ويصبح مريدًا... تختلف النَّداءات، فهذا يدعوه بشيخنا، وهذا يدعوه بعمَّنًا... هل هو مولودٌ جديد، يضحك بلا صوت أو حركة شفاه؟ الولادة نوعيَّة... ولادة صلب وولادة قلب... كثيرون ينتسبون للرُّسُولِ ﷺ لقوله "أَنَا جَدُّ كُلِّ نَقِيٍّ"، وهناك قرابة شعائريَّة من خلال تنظيَّيات، وخاصَّة الدِّيَّنيَّة، كما في الطُّرُق الصُّوفِيَّة، أو تنظيَّيات غريبة مثل أخوة الدَّم التي دانت بها عِصابات المافيا والألوية الحمراء، حتَّى جماعات التَّكفير الغربيَّة التي آمن منها كثيرٌ بعبادة الشَّيْطَان وَالسَّحَر الأسود، هي مرحلةٌ غربيَّةٌ لعمر صاحبه الذي يقترب من السَّيِّئِ عَامًا، يستمع لأحاديث عن الأولياء الصالحين... الوليِّ مثل السيف، وهو على قيد الحياة في جرابه، وعندما يموت يخرج السيف من الجراب، وتظهر الكرامات، يصيح أحدهم... المدد... المدد... ويصرخ

آخر بالمدد في ساحة الذِّكر يقولون الوليِّ مستور ومحجوب بالعناية الإلهية... مازالت ذاكرته عامرة بحكايات المجازيب، وكيف كان يرفض عقلاً وفكراً حتى مجرد انتسابهم لآل البيت، فالمجازيب كثيراً ما تخرج عنهم أفكار بلهاء وسذاجة مفرطة... يتذكَّر الرجل الذي أتى لأبيه في المنام، وطلب منه أن يبيّن له مقاماً أو ضريحاً، ولكن بشاهد، وكيف نفذ أيامها أبوه الوصيَّة، وكان الرَّجل عادياً في حياته، وملتزماً دينياً وخلقيّاً... أشياء كثيرة تعود تطرق أذنيه، دائماً كان قلبه يرفضها، يحسُّ أنَّه في أمسِّ الحاجة أن يغرق نفسه، ولو في أقاصيص بلهاء... ويأتي الشيخ بصوته داعياً... ما أحلى أن تصل لمقام الفناء يا بُنيّ فتنني ذاتك، وتبقى حياً بالإرادة الإلهية!... وحتى تصفو نفسك عليك بالخلوة والذِّكر وآخر التجليات في الفيض الأعمّ، يوم تنجذب سيغيب عقلك عمّا حولك وتتصل بعالم آخر!!...

قالوا إنّ الأرض لأجساد الأولياء كالماء للسّمك، تتحرّك فيه وفق ما تريد، وتظهر في أيّ مكان، وهذا هو السبب في أنّك تجد شواهد الأولياء في أكثر من مكان... نعم في بعض الأحيان كاد يصدّق ما يدور حوله... يعود ويتذكر أنّ الكرامات التي يتحدّثون عنها أغلبها مناميّة ورمزيّة، وموعدها غالباً في النّوم، فلا يصدّقها... يتذكَّر خادم المقام للولي، أو كما يسمّونه "نقيب الشيخ" مصدر رزقه الأساسي في إيمان الناس حوله بكرامة مولاه، فكثرت رؤاه، واختلط عليه الحلم بالأمنيّ... "وحلم الجعان عيش"... ربّما كانت عملية تنفيس لكبّت أو ظلم، أو ربّما كان مقهوراً ليصنع لنفسه مكانةً. صمّم أن يكتب... لا يعلم أنّ الكتابة ولادةٌ وبدايةٌ، وليست نهايةً، رحلة عشق وليست وهماً، عاشقٌ ومعشوقٌ، مداد أسود فوق وجه القمر الأبيض، كلمات تتعانق تراقص تزفُ بشريّ، قد تصنع أملاً، قد تنمو وتكون بدايةً

ملوودٍ قادمٍ من رحم الكلمات العاشقة، وقد تكون مرحلة نجسة تستوجب الغسل من الجنابة، مَنْ يدخلها يعرف قدرها، وإن صمّم على ممارسة الحياة بعدها فليمارسها بعد الطّهارة والوضوء، شيءٌ غريبٌ يسيطر عليه... أن يترك أثراً مكتوباً يحكي عمّا مرَّ به فيخرج به من وحدته أولاً، ويفتح عليه باب الذكّريّات بحلوها ومرّها، كلّما حاول، وبعد أن يخطّ بعض عبارات يعود ليمزّقها... تذكّر أنّ هناك كتبة متخصصين في ذلك... عزم أمره أن يقابل أحدهم، ويخرج من حيّز شقّته وسكنه... بعد عبارات قصيرة بادّره...
— يعني... كلّهم سرّ قوها... أقصد أغلبهم سرّ قوها، ولم تقطع أياديهم، وأنت عاشق لها... أليس كذلك؟...

— أودُّ أن أكتب الحقيقة... كنت يوماً سارقاً... لكن...
— ربّما لم تجد الفرصة كافية، لتقتنص الفريسة كما أردت...
— يا أخي... لم آت إليك لتحاسبني... أتيت أستكتبك وتأخذ المقابل...
— حقك عليّ... أنا آسف... أظنّك حزينا على ما فاتك... أليس كذلك؟...

— لستُ حزينا... وعموماً شكراً لوقتكَ الضائع...
جاء يبحث عمّن يعلمه فنّ الكتابة، أو كاتب يجيد صياغة عبارات الذكّريّات بعد هذا العمر... أحسّ بأنّه فشل، وساقته قدماه إلى هذا الجالس أمامه فظنّه قادماً يتعلّم منه فنّ الكتابة والصياغة، فانهاّل عليه لاعتنا سوق الكتابة والثقافة، ومعلناً عن الذين يتاجرون بأقلامهم الرخيصة مدّعياً أنّه صاحب فكر... أمام زجاجة البيرة الأولى انفكّت عقدة لسانه، وبدأ يبيع نفسه... أقصد كلماته وعباراته التي تمجّد صاحبنا... بعد الرّجاجة الثانية والثالثة باع كلّ المبادئ التي تحدّث عنها... فرش أوراقه البيضاء ليكتب عنه،

ووفق ما يمليه عليه من حكايات... يصمت وكأنه يحاول التذكُّر فيدفعه للقصِّ، وهو يرشف من شفا الزُّجاجة مباشرة، تفور من جديد وتغرق فوهتها، فيسرع بابتلاع زبدها الفائز ضاحكاً... دفع حساب مشروباته، وأوصى له بزجاجتين أخريين، وشكره ثمَّ خرج.

كان مجردَ موظَّف يمضي به العمر، فينتقل من كرسي وظيفي لآخر وفقاً لأقدميته... مجردَ مقاعد، ولكنَّ كلِّما تقدَّم في العمر أصبح المقعدُ أكثر راحة حتَّى يصل للكرسي الدوَّار أمام المكتب الضخم في الحجرة المترامية الأطراف التي لا يتوقَّف تكييفها عن العمل صيفاً أو شتاءً... وصل لمبتغاه وجلس فوق الكرسي الدوَّار، ولكنه اكتفى بنصيبه فلم يبحث عن المزيد من المال، فكان راضياً بما وصل ليديه وما اقتنصه بعمليات سريعة بعيدة عن العيون، وأبدى طاعة رائعة لأولي الأمر وأصحاب النفوذ، لكنَّ درجة ذكائه لم تسعفه حتى يلحق بركب السَّادة ممن يأخذون درجة المستشار بعد سنِّ السِّتين وإحالة أوراقه للمعاش، فكل من يجيدون اللعب والرَّقص فوق حبال السلطة استمروا واقتنصوا واكتسبوا المزيد والمزيد، نعم... الزَّواج ضرورة بشرية وفق الحسابات الاجتماعية، وكثيراً ما يهاجم المدَّ والجذر الحياة الزوجية، وخاصَّة عندما ترتفع المكانة الاجتماعية فيطرق الرِّجل أبواب العشق للحياة أو للنساء، والعشق جنون جميل بلا عقل... الزَّواج... أصبح بعد كلِّ العمر الذي مضى يُسمِّيه مقصلة، اليوم يحس بحاجته للمرأة فقد تقتل المرأة الوحدة التي يعيشها، يضحك وهو يتذكَّر ضحكات صاحبه الذي رفض الزَّواج، وخوفه من كلمة عقد قِران، وكان يفسِّرها بمعنى عقدة تربط عنق الزَّوج فلا يستطيع منها الفكَّاك، لا يعلم أنَّ علماء الفلك والدارسين لحركة الكواكب يسمُّون التقاء كوكبيْن من درجة واحدة قراناً... لجأ للكتب

القديمة التي ذهب بريقُ أوراقها البيضاء... كانت أيام عشق القراءة لبعض الوقت... نفص الثُّرابَ عن الكتبِ القليلةِ في مكتبته التي تاهت عن عينيه وجودها في بيته... استردَّ وعيهُ وهو يقرأ في سيرة الإمام عليٍّ إمام المتقين وخليفة المسلمين... تذكَّر... "سرك أسيرك، فمتى تحدَّثتَ به صرتَ أسيرهُ؟!"... هل يحكي ويقصُّ على أمثال هذا الكاتب الأفَّاك الذي يشتريه يبضع زجاجات من البيرة المثلَّجة... هناك كثير من أقاصيص فيها تجريحُ لأناسٍ يعرفهم... يتمنَّى أن يخلع عن وجهه القناع، ويتكلَّم كما يشاء... رفض الفكرة... أعلن أن ذلك خروج عن النص وعن الحياء، كيف يحكي عن خياناته لزوجته؟... نعم هي قليلة، لكن إن أراد الحقيقة لابدَّ وأن يقصّها... يقصُّ عن جارتها التي كانت تترك الباب مفتوحًا في موعد محدّد ويدخل بعد منتصف الليل، وكيف أنّها حملت منه سفاحًا؟ ولطمتُ خديها... فقد أكَّد الأطباء أنّ زوجها عقيمٌ، وأنّها تعيش معه خوفًا على أملاكه التي تعيش بها في رغدٍ وسعادةٍ... كيف انتهت حكايتها معه بعد أن سافر معها للإسكندرية وأوصى بها لطبيب أجهضها، فقد قاربت على الموت، لا ينسى بكاءها وكم تمنّت ساعتها أن تطلق من زوجها وبتزوجها حبًّا في طفلٍ صغيرٍ بين ذراعيها وكيف كان رفضه قاطعًا، حتّى الفتاة الصغيرة التي كانت صديقة لابنته... لم تسلم من أمانيه القذرة... أم نظراته شبه المفترسة لزميلات العمل رغم مسبحته التي لا تفارق يديه.

الحياة بلا معنى تساوي الموت... عندما لا نفرّق بين أمس واليوم... وغدًا سيكون أمس أو اليوم، سيصاب القلب بالبرود وتخفت الإضاءةُ في جنبات العقل ويصير ظلامًا، كيف يجابه الإنسان الفراغ والملل؟ قالوا إنّ بناء

الأهرامات كان خوفاً من الفراغ وأن يصاب البشر بالملل، فكانت الفكرة استغلال وقت الفراغ لدى العمّال، ثلاثة أشهر كاملة وأثناء الفيضان غالباً لا عمل، فهل كانت استعباداً واستبداداً؟! هل تحطّت أفكارهم حيّز الخوف من الملل والفراغ؟ يعتقد كثيرون بأنهم كانوا أكثر رقيّاً، فالعمل يطيل العمر ويهب للحياة معنى... لحظات تأتيه وكان يتمنى أن يأتيه الموت مسرعاً، وفي الدين هذا مرفوض، فالإمام البخاري رغم أن عشيرته وأهله اتهموه بالكفر في أخريات حياته وكان غالباً ما يدعو ربه قائلاً "اللهم إني ضاقت بي الدنيا بما رحبت فاقبضني إليك"، ورغم عظم المحنة التي كان واقعاً فيها إلا أن البعض عاب عليه هذه الدعوة، فما علينا سوى الحياة بكل ما فيها.

عندما يدخل للاستحمام يتراجع ويتذكّر ذلك الحلم الغريب الذي لا يدرك له معنى، فكم يتمنى أن يكون له رفيق أو زملاء يشاركونه مجلسه، فيقصّ عليهم ويأخذ برأيهم، لكن هو بلا صحبة وبلا أصدقاء، يتذكّر أنه عندما همّ بالاستحمام وخلع ملابسه وتعرّى تماماً وقبل أن تسقط المياه على جسده، تسقط الجدران الأربعة للحمام ويجد نفسه وسط الميدان عارياً تماماً، فيتكوّر على نفسه ويواري سوءته رغم أن كل البشر يمضون من حوله ولا يعيرونه انتباهاً، وكأنهم لم يروه أصلاً وكم يتمنى أن يسمعه أحدهم وهو يصرخ مطالباً بما يستره من ملابس! ماذا يحمل له هذا الحلم؟

أحسّ أنّ في كتابة مذكّراته بالصورة التي يفكّر فيها وكأنه سيصبح عارياً أمام الناس، يستحمّ وتحت وابل المياه الدافئة يعيب على نفسه تلك الأفكار التي ذهب فيها، يلغي من عقله نهائياً فكرة كتابة المذكرات.

هل أستسلم لتلك الرؤى الغريبة التي تفتك بي؟ هل أصبحت سجيناً ولا أرى من الألوان سوى الأسود منها؟ وكأنني أشاهد كلّ الطيور سقطت في

محيط أفكارى السوداء فخرجت جميعها بلونٍ واحدٍ، بلون أسود فقط، لن أستسلم وأدعو الموت أن يأتي، سأفكر في الحياة حتى آخر يوم بل لآخر دقيقة في عمري.

يتذكر كلمات مازالت تحتفظ بها ذاكرته، يا بني أقم الصلاة لوقتها سيهجر الشيطان قلبك، ولكنه سيعود بمجرد أن تنتهي من ذكرك، فالشيطان يسري في الجسد مسرى الدماء، واجعل من قراءة القرآن أنيس وحدتك وداوم على الصلاة حتى يحتل الإيمان قلبك، إذا تركت الصلاة فسيعود الشيطان ويركب رأسك، وساعتها لن يعود بمفرده سيعود وثلة من أصحابه يلتهمون قلبك، وكان يسأل: ولماذا يأتي الشيطان في هذا السن؟ لم تعد لي مآرب أو مطامع فكلها ذهبت فلو رافقني في حياتي سيصاب بالضيق والألم، أعتقد أنه لو فكر في صاحب فلن يجد معي أو في صحبتي أملاً، والملائكة تحوم حول رجلٍ قدم في حياته من الخير الكثير، أما أنا فكنت حريصاً على المكسب في كل شيءٍ ومن وراء كل شيءٍ وها أنا اليوم وحيدٌ، وأحتفظ بالكثير من المال بعيداً عن عيون أبنائي، لقد أعطيتهم الكثير وساعدتهم في حياتهم، إنهم...

وكان الكلمة لا تأتيه ولا تخرج من حلقه، إنه يسلي نفسه بالحديث إلى نفسه، وحيداً لا توجد أمنية أتمناها حججت بيت الله واعتمرت أكثر من مرة وأخطأت وذهبت الأيام، كانت رائحة الطعام تجذبني وكنت أتلدذ بالطعام وأنواعه المختلفة، لا أستسيغ الطعام ولا أقبل عليه وكان معدتي مملوءة على الدوام، ولا شراب سوى فناجين القهوة وأكواب الشاي، ونصحني الطبيب أن أستبدلها بمشروبات أخف منها وكثيراً ما أخالف آراءه، كنت أجلس لساعات أمام التلفاز وكم كانت متعتي في مشاهدة الأفلام الأجنبية وخاصة

الأمريكية! بمرور الأيام وتفجيرات في كُلِّ مدن العراق والمصيبة بين فصيلين مسلمين فأحسَّ أن أمريكا نصبت شباكها، أعداد القتلى والسيارات المفخخة ومناظر الدماء، فألعن أمريكا في سِرِّي، وكرهتُ مشاهدة الأفلام الأمريكية ومصاصي الدماء، جهاز الراديو رفيق دربي وحياتي كنتُ أنامُ على صوته، أحسَّ أن صوت المذيعين مبسوح ومخارج ألفاظهم بلا وقع في أذني، أغاني حلليم وفيروز ونجاة تنعش ذاكرتي وتحفِّز ذكرياتي وتنبش التُّراب ولكن للحظاتٍ لا تطول، أم كلثوم تشدو وأحسَّ بالحركة تدبُّ في الأشياء الجامدة وأنا فقدتُ أحاسيسي، فماذا يتبقَّى؟ وعندما أجلسُ على القهوة كم أتمنَّى أن أرصدَ بعيني فتيات أو سيِّدات! رغم أنَّهنَّ يمضين من أمامي ولكن لا ترصدهنَّ عينا، وأستعين بالنظارة الجديدة ويبدو أن كلَّ الأشكال امتزجت وصارت مجرَّد مجموعة من الألوان تتحرَّك أمامي، نعم، تحمل جسداً وروحاً ودماً، وليس العيب فيها، أرشف رشفاتٍ متتابعات من عصير الليمون الثلج وكما يقولون يهدئ الأعصاب وهل بقيت لي أعصاب؟! أين أيَّام الصِّبا ونفور العروق في الجسد لمجرَّد الفكر، ماذا أفعل؟ لن أستطيع أن أقضي وقتي كلَّه في المسجد أو في قراءة القرآن أو الدُّعاء، أين أذهب؟ أمشي بلا هدفٍ في الطُّرقات وأتأمَّل الدُّنيا من حولي وما الفائدة، هل أذهب لبلد سياحيَّة وأتمتَّع برؤية... أستغفرُ الله العظيم... حتَّى وإن لم أنظر للفتيات أو السيِّدات ماذا سيقولون عني... يقيناً سيقولون مجنون.

عاد أدراجه لمسكنه، لم يكد يصل للباب الخارجي... استوقفه شابان بادياً على وجههما الحزن، وفي نبرة هادئة أخبراه بأنَّ "البرعي" خادم المسجد توفي إلى رحمة الله، وإن كان يستطيع مشاركتهم بأيِّ مبلغ مساعدة لأنهم سينقلونه إلى بلده وهكذا أوصى رغم أن الجميع يعلمون بأنَّه لا أهل له سوى أهل

الشارع، كانت استجابته سريعة لهما، فأودع في يد أحدهما مبلغاً يكفي ويزيد، فاستغربا الشَّابَّان فعله ثمَّ شكراه ومضيا، أسرع خلفهما وشارك في تجهيز الجنازة وأبدى استعداده لأيَّة طلبات، الجميع كبير وصغير يعرفون أنَّه يعيش في حاله وبعيداً عن كُلِّ النَّاسِ، حتَّى أولاده كان يفرض عليهم حظراً في علاقاتهم بالشارع وبالجيران، ولكنَّهم يعرفون أنَّه مثالٌّ للأدب ولم يشاهدوه إلَّا في المسجد وحسب.

الفصل الثاني

زهرة والعنيد

لا تنكر زهرة حبّها هذه السيّدة الغريبة التي تتواجد قليلاً، كيف كانت زيارتها مبعث فرح في نفسها ونفس جميع الأطفال؟! الدّار تكون على أعلى درجة من النظافة والجمال، فالأغاني تصدح والملابس الجديدة تخرج وتوزّع عليهم والطعام على أشهى ما يكون حتّى المشرفون والمشرفات وجوههم نديّة وضاحكة ومستبشرة وكأنّه يوم العيد وربّما بالنسبة لهم أفضل، لا يتغيّب عن الحضور سوى القليل جدّاً، فمن هربوا من الدّار كانوا يأتون بمجرد علمهم، ومنهم مازال اسمه مسجّلاً على قوّة الدّار، ولكنّهم وجدوا ملاذّاً آخر فتركوه، القائمون على العمل لا يرفعون أسماءهم من القوائم، ولكنّهم استفادوا من مقرّراتهم الماليّة وغيرها موزّعة على كلّ العاملين بعدالة ووفق درجاتهم، عندما تأتي السيّدة الكلّ يتواجد ويمرح ويلعب وتكاليف ليلة وجودها والحفل الذي يُقام لا يُدوّن في حسابات أو أوراق، ينهب من ينهب ويأكل من يأكل وهناك متعّدة متعدّدة تخرج عن العرف والتقاليد، السيّدة الجميلة أو كما يسمّونها "هبة الساء" يأتي في رفقتها كثيرون ويدفعون

ويتبرعون، ويُقال إنَّ عدد الدُّور التي أنشأتها في القاهرة فقط يزيد عن المائة، يسارع لركبها القادم أغلبُ المسؤولين يرأسهم غالبًا المحافظ ورؤساء الأحياء وبعض من ممثلي حقوق الإنسان وبالطبع ممثلين لبعض السفارات وخاصة الأمريكية والأوروبية ومانحي الهبات وما أكثرهم، تعزف فرقة موسيقى الدَّار وتغنِّي مجموعات الأطفال والكبار، وأكثر المستفيدين هم موظفو الدار غالبًا، فهو يوم المنح والهبات عربيَّة وأجنبيَّة، قد يلمح أو يشير أحد الحضور لفتى صغير أو فتاة كاعب أو ناهد بأن يضمَّها لعائلته في جوِّ منزله العائلي، فيجد الترحيب فيدفع ويشترى، الجميع يحبُّون سيِّدة المجتمع الراقى وصاحبة المشروعات الإنسانيَّة... السيِّدة "هبة الساء"، هي تأتي بمفردها أيَّامًا معيَّنة وتحبُّ أن تجلس إلى الأولاد والبنات، تحدِّثهم في الحب وعن الحب والإنسان والتسامح والحياة الكريمة، تتحدَّث عن الحرِّيَّة في كُلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ، تعطف عليهم جميعًا وتحبُّ أن ينادوها باسم ماما، تتساءل زهرة... لماذا تفعل كُلَّ ذلك؟ ولماذا هي التي تعطف علينا دون غيرها ممن حولنا؟ رغم شكلها الأجنبي ولهجتها العربية المكسَّرة فإنَّها تواصل خدماتها للجميع، ويصل لأذانهم أنَّها لا تقتصر خدماتها في مكانٍ واحدٍ، تحمل حبًّا غريبًا يقولون عنها إنَّ قلبها يسع كُلَّ البشر، فهي تقول إنَّنا جميعًا إخوة، هل هي مسلمة أم مسيحيَّة؟ وعندما سألتها يومًا أحد الفتيان، ضحكت وقالت... هل تفرق؟ فأنا لا مسلمة ولا مسيحيَّة أنا إنسانٌ ألا يكفي؟

لم تُقبل زهرة كثيرًا على الدراسة وكانت لا تقبل أن يسألها أحدٌ عن دروسها، رغم قدراتها الذهنيَّة العالية وطموحاتها الصَّغيرة التي تتعدَّى حدود الدَّار، تعودت الهروب خارج أسوار الدَّار أو القرية كما يسمونها أحيانًا، فعشقت المشي في الطرقات في حرِّيَّة وبلا هدف، في البداية لم تكن

تمتلك أيّ نقودٍ بموجبها تشتري شربة ماء إن أردت، بمرور الأيام وفي تسكّعها بحريّة تعرّفت على أطفال يقاربونها سنّاً ولكن بلا دار يلجئون إليها في نهاية اليوم، لم تفصح أمامهم عن المكان الذي تنتمي إليه فشاركتهم أحياناً حياتهم فنسّوت مرّة كما علّموها واقتسموا معها ما جادت به أيدي النّاس عليها، ومرّة باعت مثلهم مناديل ورقية أو مستلزمات السيارات البسيطة في إشارات المرور، ووهبوا نصيباً من المكسب، ولكنّها حسدتهم على حرّيتهم المطلقة، تمنّى كثيراً أن تعيش مثلهم مرّة واحدة باتت معهم... لم يتحمّل جسدها برودة الليل فعدلت عن هذا الأمر.

جلست بالقرب من مبنى الإذاعة والتلفزيون على ضفاف النّيل تتأمّل المراكب الشراعية والعشّاق والمحبّين، تتأمّل السيارات والقادمين والذاهبين، بصوت أجشّ ألقى الرّعب في صدرها للحظة سألها عن اسمها، أجابت وسألها عن مسكنها تردّدت في الإجابة، نظر لصدرها المتكورّ الجديد وامتصّ لُعباه وضحك قائلاً... عرفتك أنت بنت "ثومة" الدّلالة، لا إرادياً هرّت رأسها وكأنّها أعلنت أو لم تعلن، تفرّس فيها من جديد وصنع ابتسامته حانية وامتدّت يده إليها بقليلٍ من حبّات التّرّمس فرفضتها في بادئ الأمر، عرض عليها أن يشتري لها ذرة مشوية فرفضت، فبادلها الحديث وأشاد بأمرها وأنّه يعرفها من زمن طويل، لم تشأ أن تقول له إنّه مخطئ، بعد طول تردّد فكّت عقده لسانها وكلمته... بادلها حديثاً بحديث فاستراحت له، شجّعته ابتسامته لتشاركه حبّات التّرّمس وكانت أمّنيّتها أن يدعوها لتركب مركباً شراعياً، وكم كانت سعادتها عندما عرفت أنّه يمتلك المركب فدعاها لتذهب معه لمركبه، شاركته في طعامه وشربا الشاي معاً وكان كريماً معها، لم تشعر برهبة أو خوف فقد صحبها مع الزبائن وأخذ يناديها "وردة"، ويقول

لها... أصل وردة حلوة وبتغني وأنت حلوة زيها، في الدورة الثانية بعد أن أنهى جولة زبائنه وبعد غروب الشمس، أبحر بمركبه وهي بصحبته ولم تشعر بأية غربة معه... وكان المركب توقّف في وسط النيل، داعبها فابتسمت في البداية وامتدّت يده أكثر مداعبة فتراجعت وأحسّت وكأنّ لسعة بردٍ اخترقت جسدها، بعد أن تسلّل الليلُ بهدوءٍ واهتزّت المصابيح فوق صفحة الماء واهتزت كلماته بالرغبة، تعذّرت الرّؤية وصدحت الموسيقى في كلّ المراكب وليست مركبهم فحسب وانسابت الأغاني تشارك العاشقين والمحبين ومن يلتمس العبور فوق سطح ماء النيل الخالد، هامت به اللحظة ولم ير شيئاً سواها وانطلق وهج الغريزة يعصف فوق القارب، اختلطت صرخاتها ودمائها بنسمات الليل لكنّها لم تصل أبعد من مكانها، وكأنّه صياد بارع فكتم صوتها واقتنصها كعصفور بين يديه، أفلتت من بين يديه وتوسّلت، فواصل وحبسها بين ذراعيه وكانّ صرخاتها زادت نشوته فلم تُفلت ثانية حتّى أنهكتها المحاولة فاستسلمت للحظة لم تدركها جيداً، وفاقت من غفوتها فصرخت مستغيثة، ولكن من يسمع في هذه اللحظات النشوى للصرخات، لم يهتم بها كثيراً ودفعها وألقى بها من مركبه بلا تردّد وأسرع في طريقه المعتاد، وسط الصخب والفرح والهرج والمرج والأضواء المتلاذنة على الشاطئ والسفن الراسية والمراكب السائرة والأغاني عبر مكبّرات الصوت، تصرخ الصغيرة مستغيثة فيضيع صوتها في زخم التفاعلات والانفعالات المتباينة، وكانّ حبالها الصوتية تقطّعت فابتلعت الكثير من المياه، هبطت وصعدت وفي النهاية تعلّقت بجذع صغيرٍ وخرس صوتها ولم تدرك كم من الوقت... بعد أربعة أيّام صحت من غفوتها وعندما سألوها من أنت؟ بلا تردّد أجابت بأنّها بنت "ثومة" الدّلالة وتعيش في الحكر خلف الإذاعة

والتلفزيون، قَصُّوا عليها كيف وجدوها معلَّقةً بين الحياة والموت، عادت بمساعدة الرَّجُلِ الطَّيِّبِ بعد أن صَمَّمَ الرَّجُلُ أَنْ يوصلها حتَّى باب بيتها، وكأنَّها فص ملح وذاب كما يقولون فانسَلختُ من يده وهربت واختفت في زحام البشر، عندما شاهدت قاتلها ارتعدتُ وأسرعت بالفرار ولم تدر أين ذهبت، وكانت مجبرةً على العودة ولكن هذه المرَّة تعدَّت الأيَّام الثلاثة الكفيلة بالتحقيقِ معها وهناك احتمالان لا ثالث لهما إمَّا الحبس المطلق في الدَّار وعدم الخروج، إمَّا الثاني فهو مطالبتها بالخروج وعدم العودة ثانية وهذا ليس قانونيًّا، ولكنَّ القائمين على شئون الدَّار يدفعون أصحابها بفعل ذلك تحت مسمياتٍ عديدةٍ يخترعونها ويصدِّقها المعوزون للدَّار قسرًا.

هو القائم بأغلب أعمال الدَّار وكثيرًا ما يبيت في الدَّار، تعدَّى الأربعين وهو متزوِّج وله أولادٌ، وظيفته الأساسيَّة حلُّ مشاكل الأولاد والبنات في القرية، هم لا يجيئون أن يطلقوا عليها اسم الملجأ فالاسم الشائع دائميًّا هو القرية أو الدَّار، بمجرد أن وطأت قدمها الدَّار سلَّموها إليه في مكتبه، أجلسها وتسلسل بحديثه وسألها عمَّا أصابها وأين قضت الأيَّام السَّابقة وأين كانت تبيت؟ خافت أن تبوح بأيِّ شيءٍ مما حدث لها ورفضت الكلام، تركها بحريتها وأمرهم أن تعودَ لحجرتها وبعدَ العشاء تأتيه مباشرةً، كان له ما أراد وأتت طوعًا أو كرهاً لا يهَمُّ، مجرد أن دخلت مكتبه أمرها بأن تغلق الباب خلفها، عندما جلست وبدأ سؤاله لها اكتفت بالصمِّت ولم تخرج من بين شفيتها كلمة واحدةً، من بين دخان سيجارته الكثيف المعروف لها ولهم جميعًا بأنَّه دخانٌ مخلوطٌ بمخدرٍ أيًّا كان نوعه، وملفوفٌ بعناية سابقة بيديه ربَّما أو بيد أحد الفتيان الأكبر سنًّا، ومن عودهم ذلك في سرِّيَّة تامَّة مقابل السَّباح لهم بأشياء ممنوعة داخل الدَّار أو خارجها، قام من مكانه وأعاد عليها الأسئلة

ثانية، وقف خلفها... حاولت أن تقف، أجلسها بدفعة فوق كتفها فاستسلمت وجلست، أعاد السؤال ثانية فصمت، امتدت يده فرفعت عن رأسها غطاءها وألقى به بعيداً فلم تتحرك، مسح على شعرها وسحب منه مشابكه التي تجمعها في حزمة واحدة فافترش كتفيها وحجب وجهها، دفع بيده شعرها عن وجهها وألقاه للخلف وداعت أنامله وجنتها وتحسست شحمة أذنها برقة فاهتز جسدها كله وارتعشت أطرافها، تقدمت أنامله ولكن للأسفل من الرقبة فهبت واقفة من مقعدها وتنمرت وهمت ولكن تراجع، ابتسامته وثقته الزائدة أوقفتهما وبلهجة أمرية وهو يعود لموضعه على كرسيه وبكلمات يضغط مخارج حروفها طالبها بعدم الخوف، أخبرها بتعلية ودهاء بأنه يخاف عليها وأمثالها؛ فكلهم أمانة في عنقه... ويجب عليّ تحري الدقة، كما يجب عليّ أن أعرف من كانت فتاة عذراء أو... ألمح إليها بأنه سيجري عليها كشف العذرية وأولاً وأخيراً هو خوف عليها، تسلل الخوف إليها فإلى أين تذهب؟ عندما حاولت يوماً المبيت خارج الدار لم تستطع تحمّل البرودة التي عصفت بجسدها النحيل، إلى أين تذهب فهذا هو الملاذ الوحيد لها، تغيرت نبرة حديثها وفي كلمات متوسلة سألته عمّا يعني رغم أنّها تعرف المعني والمقصود من وراء الحديث، بكل هدوء أجابها... "يعني نتأكد إنك لسه بنوته ولا..."، لا مفرّ سيحدث ما يقوله... هل تصرخ؟ وبماذا يفيدها الصراخ فهل يترك الأسد فريسته من الغزال المشتهى أكله بعد قنصه، وكأنّه مدرّب جيّد ومعلّم في فنون الاستعباد والقنص، تكاثف دخان سيجارته الجميل الرائحة وتفاعل مع الكلمات والمطلوب، طالبها بالخروج فلم تستجب وكأنّ قدميها خذلتها فطلت جالسة في مكانها، كرّر كلمته فوقفت وإلى جوار قدميه ركعت واستجارت، لثمت شفثاها حذاءه

وخرجت كلمات من فمها تتمنى الرحمة من رب حياتها والعياذ بالله، في كلمات قليلة وبعد أن سحبها من ركوعها في محراب عرشه وطلب منها بل أمرها أن تأتيه في آخر الليل إلى حجرته، خرجت ولا مفر أمامها، حاولن أن يسألن أو يعرفن منها أين كانت؟ ماذا طلب منها سعودي باشا الجزار كما يطلقون عليه، اكتفت بالدموع فتركوها وشأنها.

عندما أطلقت الساعة نفيها محددة الموعد الذي ضربه لها ذهبت إليه طوعاً، سألتها ماذا حدث؟ لم تجبه وواصلت صمتها، رفع غطاء رأسها فلم تبد اعتراضاً وأنامله تحركت فوق وجنتيها وغاصت بين ثنايا شعرها فاهتاج وانطلق من شحمة أذنيها لفرق نهديها البكرين الصغيرين لعصر شفيتها بين أصبعيه بلين وود، تعمض عينيها لا تتلذذ كما يبدو ولكن محاولة لتحمل النيران التي ينفثها من بين أنامله، زفير وشهيق متتابع يظنه مرحلة نشوى وبداية لجني ثمار لحظة عشق ولا يدرك الصياد حال الفريسة في الشرك، استسلمت وتركت نفسها وأغمضت عينيها محاولة أن تتحمل، فعصرت أنامله رمان نهدها وبحث عن حلمتها البكر التي لم تظهر بعد، ف تبرعت بحجمها الدقيق بين أصابعه وتاه في لذة صمتها واستسلامها ولم تشفع دموعها وهو ماضٍ فوق جنتها.

ساعتها تصور نفسها مستلقية على منضدة خاصة في حجرة العمليات، الجراح لا يستخدم العقاقير المخدرة وهو يجري جراحة بدون تخدير، تستسلم قسراً وتحاول أن تلقي بأفكارها بعيداً، ليس أمامها سوى الصمت والتحمل فالآلة يمكن أن يتخيلها نشوى قادمة، كم هي عملية مؤلمة وأي ألم تستشعره رغم أن قريناتها يصفونها بالمتعة، تنتظر بفارغ صبر الانتهاء من هذه العملية، عليها أن تتحمل الخوف والقهر والفقركأساور لا تحيط بمعصمها فحسب،

أغلال تكبّلها كليّة، صارت من ساعتها رهينة مطلبه وبدوره كان حريصًا أن يكون متسلّحًا بالواقعي الذّكري في معركته مع الجنّة الهامدة، تسمع من قريناتها عن ساعة العشق وآهاته وتدرّك أنّها لم تعشها ولم تعرفها، فقد كانت أسيرةً تفكّ أسرها بإرضاء سيّدّها الذي يعلم أنّها ليست بكرًا وقادر أن يلقي بها خارج الأسوار، كعصافير محبوسة تشدو في أفقاصها... قهراً أم عشقاً ربّياً إرضاءً لصاحب القفص وبدوره لا يدرك ولا يفرّق ما بين الحزن والفرح ويجب عليها أن تواصل شدوها، عرفت أنّها ليست الوحيدة السجينة في قفص الذّلّ المصنوع تحت مسمّى الرّحمة والتّسامح والمحبّة، فالجميع مقهورون ولا سبيل أمامهم، لا يدور في عقلها سوى كلمة غريبة سمعتها من صاحبة العصمة هبة السّماء "عليك أن تستمديّ القوّة من ضِعْفِكَ"، تفكّر في هذه الجملة كثيرًا لكنّها لا تستوعبها.

شعورٌ غريبٌ يسيطر عليها، الحرّيّة أم الهروب وهل يعني لها الهروب الحرّيّة ولكن لم تستطع يوماً الحياة بعيداً عن الدّار، حياتها ارتبطت بجدرانها بحكاياتها بإهدار آدميتها، لم تتجاوز الثّامنة وطلب أحدهم أن يتبنّاها وحاولوا معها وسمع الجميع صراخها، أخذتها يومها المربية أمّ محمود في أحضانها وصرخاتها تفتك بكلّ من يسمعها "ما تسبينيش يا ماما"، وكانّ المتبنّي أصابه التّدنُّمُ والضّيق فغضّ الطّرفَ عنها وطلبَ غيرها، حتّى وقتٍ قريبٍ ظنّت أنّ أمّ محمود هي أمّها حقيقةً، عرفت الحقيقة... أدركت أنّ أمّها تركتها وهي طفلة لم تتجاوز خمسة شهور، كلّهم وليست هي الوحيدة يحلمون بحضنٍ دافئٍ لأمّ أو يد حانية لأبّ، يسمعون عنها ولا يدركونها يحلمون بها ولكن في خيالاتهم فحسب، كثيرون منهم ينامون وفي عيونهم الدُّموع، يحلمون ويحلمون... لقطاء أو أيتام تعساء لم يجنوا على أحدٍ وجنت

الدُّنيا عليهم، لو تبوح جدران الأماكن التي تؤويهم تحت أيِّ مسمَى... ملجأً أو دار أو قرية نموذجية أو مبنى تمَّ بنيانه وفق أرقى البنيات، لو تبوح ستقصّ حكاياتٍ لا تنتهي معجونة بالأسى والألم وانتهاك لكرامة الإنسان، ظلام رغم الشَّمس التي تنير مختلفَ بقاع المكان، كلُّ شيءٍ مرهون بتوقيت وأمر ونهي، مشاهدة التِّلْفزيون أو السَّهر محدّد بموعد، ليس هناك مجالٌ لاختيار أو تلبية لطلب طفل في طور نموّه الصَّغير، أوامر لا تنتهي وعقابٍ يختلف باختلاف مَنْ يوقع العقاب.

خرجتُ وعزمتُ أن تترك الدَّار وستجابه الدُّنيا بكلِّ ما فيها، تمنى الحرية وفق رؤيتها الخاصَّة مجرد أن تمشي في الشَّارع بإرادتها، إلى أحد الأماكن التي اعتادت الدَّهاب إليها، جلستُ بينهم وما همَّت بالكلام طلبتُ منها إحداهنَّ السُّكوت وأيدها باقي الموجودين، عليها بالصَّمتِ فالسَّاعة ساعة إفطار، حاولتُ أن تعذر لهم وأنها تناولت الإفطار وليست جائعة، أقسموا عليها وخاصَّة الطِّفل المعروف باسم العريان والذي دائماً يكون نصف بطنه عارياً، تحت أحد الكباري العلوية المنتشرة في أغلب أحياء المدينة الكبيرة، على الأرض فرشوا بعض أوراق الصحف اليومية وفكُّوا أسر الفول والفلفل والمخللات ولم يتعبوا أنفسهم في غسل الطَّعام، حول مائدتهم التَّفوا يأكلون في نهم فشاركتهم سعادة اللحظة الفقيرة، أشار أحدُهم بيده صائحاً... أبو عنيد... أبو عنيد... أشاروا عليه بالقدوم فتقدَّم ناحيتهم بلا تردُّد فأفسحوا له مكاناً بينهم وجلس مباشرة للطَّعام، كانت تعرفه فهو أحدُ أبناء قريتها ومشهودٌ له بالعنف بين زملائه وكما يقولون إنهم يعملون له ألف حساب حتَّى الموظَّفون في القرية، تبادلوا الحكايات وزينة الطويلة كما يطلقون عليها تصنع لهم الشاي، يسألون عن موعد انتخابات قادمة أو مولد في منطقة

معينة، و"أبو عنيد" يبشّرهم بأنه في القريب سيأتي خيرٌ كثيرٌ ويسمع لهم، يقصّون عليه ما حدث من ضابط الشرطة الجديد وكيف أنه في يوم واحد ألقى في الحجز حوالي عشرة، يضحك العريان وهو يصف الضابط وكيف قبض عليه وهو نائم على السور الحجري على الشاطئ، وكيف عامله وأي رقة ومهانة... ويضحك ويده تمر على قفاه ووجهه، يصف يده وحجمها وفي النهاية يضحك بشدة وهو يصف يده بأنها رغم ضخامتها ليّنة، أما المصيبة كما يقول... الرَّجُل استغرب ومدّ يده في جيبه وأعطاه عشرين جنيهاً، يقسم بأنه ضابط ابن ناس، يقاطعه "أبو عنيد" وهو يصفهم جميعاً بأنهم أناس أولاد كلب، اقتسموا السجائر فيما بينهم وبعضهم لم يتجاوز العاشرة من العمر، ما عدا "أبو عنيد" فلا يشاركه في سيجارته أحد، نظر إليها وابتسم وهو يردد أغنيته... أحب عيشة الحرية... ضحكت وهي تتنهّد بقوة وقائلة "مين اللي رماك على الغلب"، ضحك وهو يصفها بأنها خسارة كبيرة ويقول لها: "عارفه يا بت إنتي لو لبستي وانقيفتي هتبقي حقيقي ست لأ مش ست بس تبقي ست السّتات" بلا تردد تجيبه: "لبس البوصة تبقى عروسة".

يضحكان... يمدُّ لها يده بنصف سيجارته، تسحب بقوة ويبدو من دخانها الكثيف أنها ليست عادية، تهتزُّ رأسها وتضحك وتناولها السيجارة، كان معروفاً في مناطق محدّدة ورغم صغر سنّه كان يُستعان به في قضاء حوائج كثيرين سواء عاملين في الدّار أو ممن تربّوا فيها، دخل معارك كثيرة حتّى ضدّ من يفوقونه جسداً وقوّة، كما يقولون عنه صاحب قلب ميّت، لا يطول مقامه بمكان متحرّكاً ما بين القاهرة والجيزة فهي مكان واحدة بالنسبة إليه، يمكن أن تراه في محطّات قطارات قبلي أو بحري، كأنه عاشق للتجوال وغالباً يمضي بمفرده، بعضهم يشكو له ما يتعرّض له من آخرين في الشوارع

ويمكن بسهولة أن يدخل معركة في سبيل من لجأ إليه، ينفردان وينطلقان في مسعًيهما غير المحددين وطريقها بلا هدف، يتحدث إليها فسمع وتنصت وكأنه يتحدث بلسانها، يصف حالهم بأنهم مثل النعاج وما يحدث لهم بمجرد سماع صوت الذئب، كيف يدورون حول بعضهم فيتدافعون ويتزاحمون وكل منهم يخفي رأسه ويحاول أن يدس نفسه في وسط المجموعة، كل يتمنى أن يبقى في الوسط في بؤرة دائرة الموت، ويدرك تمامًا أن الموت قادم والذئب ستصل إليه حتًا، يضحك وهو يصف مجرد عملية هروب لحظية لن تتعدى وقتًا طويلًا فيمكن أن تكون ساعات ويمكن أن تكون أيامًا، وللذئب عذره فالله خلقه ذئبًا وطعامه من النعاج المستسلمة المعتادة على ذلك، أمًا ما يجب عليهم فإنه يقول ساخرًا بأن عليهم أن يرفعوا أيديهم بالدعاء ونغمض أعيننا، نتمم بآيات الرضا لمن خلق الخلق وجعلنا نعاجًا وجعلهم ذئبًا والعيب هو الهروب من واقعنا، فالغد قادم وعلى الذئب أن تأكل من ولائم أجسادنا ولا تموت جوعًا فجرم أن تموت الذئب ونعيش نحن.

يسمونها نصبة الشاي وغالبًا من تقوم على إدارتها سيّدة، وفي بعض الأحيان رجل وتنتشر في مواقف الأتوبيسات العامة والمواقف العشوائية للميكروباص وأسفل الكباري، يتجمّع حولها باعة جائلون وكثيرًا ما تجد بجوارها أسواق مستلزمات منزلية وملابس، يمكن أن تجد عششًا مقامة بصورة عشوائية ولا يتوقّف الأمر على وسط المدينة، ولكن أصبحت أغلب الأماكن ما عدا القليل، لا تستطيع هيئة النقل العام أو محطات مترو الأنفاق أن تزيل تلك المنشآت العشوائية، الغريب أن بعض المناطق اتخذوها مكانًا للإقامة والنوم، تعلقت بيده وهو يمضي ويدور في وسط المدينة وكأنّ أغلب القائمين على نصبات الشاي يعرفونه، فيقصّ عليها حكايات عن علاقته بهذا

وذاك، وبعد جولة طويلة بدأت برميسس للعتبة للأزهر حتى السيِّدة عائشة، يومها دعاها إلى الغداء في مسمط في حيِّ شعبيِّ وكأنَّه لا يتمنى ألا يتركها، نفس الشعور لديها فاحتضنتُ أصابع يده أصابعها وانطلقا وكأنَّ هذه المدينة ملك خاص بهما، مرفوعة مؤقتًا كلمات التَّدْمُر والضَّيق من الحياة وكأنَّهما تذوقا لأول مرَّة جمال الدُّنيا، آخر مطاف اليوم على شاطئ النِّيل يتأملان كُلَّ الثَّنَائِيَّات، يتأملان كُلَّ الأيدي المتشابكة والعيون التي تسبح في العيون، لم يدركا من قبل جمال النِّيل وشاطئه وعشاقه، الأغاني المنبعثة من المراكب الشراعيَّة وغير الشراعيَّة وكأنَّ كُلَّ الأفئدة ترقص، لأول مرَّة في حياتها تتمنى أن يطولَ اليوم، عندما يجلسان فوق المقعد الرِّخامي وتلتصق به وتدَّعي أنَّها تبتعد عنه ونداء قلبها الداخلي يتمنى أن تلتفِّ ذراعه وتتسلَّل ذراعه حول خصرها ودبيب وخدر محب يهزُّها وتشعر به، لا يلاحظ أنَّها تغلق عينها لتذهب لنهاية مطاف هذا العشق أو تلك اللحظة، مذاق التَّرْمِس أو الأيس كريم أو رشفات المياه المعدنيَّة أو حتَّى الشَّاي من أيدي الباعة الجائلين والدَّائرين حولهما لم تذوقوها من قبل، سرقا قبلاتٍ لم تكتمل، ضحكا من هوسها المجرَّد من الفكر فيمن حولهما، يبحثان عن مكانٍ أكثر هدوءًا ويعثران في النَّهاية على المبتغى، جلسا على أرضيَّة الحديد الهادئة بعض الشيء، وضع رأسه على فخذهما وتمدَّد...

وألقت هي برأسها لجذع الشَّجَرَة، جاست أناملها في شعر رأسه وامتدَّت يده تَسحبها إلى فمه يُقبِّلها وبدورها تسحب يده في يدها وتقبِّلها، شعر بدموعها على ظهر كَفِّه فانصب جالسًا، مسح دموعها وراح يُداعبها ويربَّت على خدِّها ولكنها لم تشعر ففاضت ببكاء غريب، سعادة غريبة تحسُّها ونقمة تعشُّش داخل جدران قلبها، سخونة فائقة وثلج يسقط عليها مرَّة واحدة لا

تتحمل فتشقق وتنكسر، مشاعر لم تألفها ورؤى غريبة تراها لأول مرة فلا تتحمل، بمندبلٍ ورقِيٍّ مسحَ عينيها وفمها وأنفها ولكنها فاضت بقوة، احتضنها بقوة وكأنه يحاول أن يداريها عن عيون المارة من حولها، هي لم تشعر... احتضنته بشدة وارتعشت أطرافها ولم تدرك أين هي؟ لحظة عشقٍ لم يفيض حبٌّ، فلم يريا سوى نفسيهما، فالتصقت الشفاه وامتص اللسان وآهة لم تكتمل، وصفعة قوية أخرجتها من جنة، كانت معركة غير متعادلة فهم ثلاثة وهو بمفرده فدفعها خلف ظهره، وبسرعة غريبة أخرج سكينه من بين ملابسه وبسرعة البرق صرخ أحدهما من جرح في وجهه فسالت الدماء غزيرة، رغم سطحية الجرح جلس على الأرض يولول، أما هو فقد هدّد وأقسم من يمس شعرة من رأسها فسيقطع عنقه، أحسوا بأنه صادق فبرق عينيهِ وجراته وسرعته في إطلاق سكينه بلا تردد يوحى بأنه مجرم، دفعها أمامه ومضيا وما لبثا أن أطلقا ساقيهما للريح، في أول باص استطاعا القفز إليه لم يعرفا في أي اتجاه يمضيان، في ميدان عبد المنعم رياض دفع بها في باص يمر من أمام الدار، حاولت معه أن يذهب معها، همس في أذنها بكذبة فصدقتها، عاد أدراجه لنفس المكان حتى عثر على ثلاثتهم، لم يستغرق حديثهم وقتاً طويلاً ومن خلفه كان عشرة استدعاهم بهاتفه المحمول من أقرب مكان، ضحك ثلاثة من القادمين للمعركة خلف "أبو عنيد"، فقد تعرّفوا على مهاجميه وأتهم يتبعونهم، صمّم "أبو عنيد" على ضربهم ولكنها قدّموا اعتذارهم تباعاً وكانت جلسة يسمونها في عرفهم جلسة حق، الغريب وكان بينهم ميثاقاً يلزم أيّاً منهم بغرامة مالية في حالة الاعتداء على فردٍ ينتمي إليهم، جلسات عرف عند العرب معروفة وأحكامها منفذة ولكن أين هم من هؤلاء، حقوق لا يستطيع أيُّ فردٍ الإفلات من أحكامها، فكان الحكم أن

يذهب ثلاثتهم لمقرّ "أبو عنيد" في "التُّرْب" للاعتذار، وكأَنَّهُم يتقلّدون
يعرف أهل الصعيد عندما يذهب القاتل بكفنه وتنازل "أبو عنيد" عن
حقّه، شبكة غريبة من العلاقات الغريبة ومراكز التّقاء غالبًا فنصبة الشاي أو
الغرز وربّما منافذ توزيع وترويج المخدّرات بكلّ أشكالها وأنواعها، فالرّواد
معروفون وحَتَّى الغرباء من السّهّل التّأكّد منهم بطُرُق متعدّدة ليست غريبة
عليه ولا جديدة، حَتَّى الطُّرق المفتوحة كالدّائري وقفات خاصّة وأماكن
معروفة، الوقفات تحت مظلة طلب الشاي أو القهوة وخلافه ويعتبرون هذا
الغطاء الحقيقيّ للنّشاط، أحيانًا يسمع الطالب ألفاظًا غريبة لمقويّات
ومخدّرات لا يعرفون مصدرها منتشرة، يهمس أحدهما "نيمو" وحقيقة
الأمر هو اسم الدّلع لأقراص الترامادول المخدّر واللفظ الدّارج... "عايز
حاجة أسيح بيها".

كثيرون ينامون على الرّصيف حَتَّى في عزّ الشّتاء والبرودة القارِصة، غطاء
عبارة عن بطانيّة بلا ملامح أو لون يلتفون بها ويتكوّرون، وتختلف أماكن
المبيت من منطقة لأخرى، "أبو عنيد" يعرف كلّ المناطق أو أغلبها وتجمعه
علاقات قويّة بأصحابها كما يطلقون على أنفسهم أو يحبّون ذلك، تقسيّات
ومناطق نفوذ وعقود العمل على الرّصيف أو في الشّوارع يجب أن تمر من
تحت يد كبير كلّ منطقة، "أبو عنيد" مكانه محجوز حَتَّى اليوم في الدّار
وغالبًا لا يبيت فيه، مقابل خدمات يؤدّيها للقائمين ليس هو الوحيد ولكنّ
أغلبهم، القائمون على الدّار يستفيدون من عدم إقامتهم الدّائمة، يعتبرها
أحيانًا استراحة فليس لديه استعداد للحياة داخل جدران الدّار، أحيانًا تعتبر
حماية وهروبًا بعد مصيبة ارتكبتها في الخارج، أغلب حياته ومعاشه ومتعته
يجدها في "التُّرْب"، فقريبه أو مَنْ يدّعي قرابته يعمل حارسًا وراعيًا

للمدافن، كان غريب الأطوار فساعات يعامل "أبو عنيد" وكأنه ابنه وكثيراً ما كان يخرج عن طوره المعتاد ويجسسه بعد أن يشبعه ضرباً، هو اعتاد الضرب وكأنه أصبح لا يؤثّر فيه، عندما اشتدّ عوده فأصبح شرساً وكثيراً ما كان الرّجل يتحاشاه، وكأنه أراد أن يضمّه تحت جناحيه ويستغلّه في نفس الوقت وهو شارد بطبيعته، ترك له نصبة الشاي التي تقع في مفترق الطرق بين المدافن مقابل إيجارٍ شهريٍّ وأحياناً أسبوعيٍّ، طبيعته لا تهوى الجلوس أو الارتباط بمكانٍ معيّن وبدوره تركها لأحد الفتيان القريبين منه لإدارتها على أن يوفيه بالإيجار، واليوم أكثر من فتى يعمل فيها، فالأمر لا يتوقّف على الشاي أو الشيشة بل تعدّها لأنواع مخدّرة من الأدوية، أحياء وأموات يشتركون في السّكن، كثيرون ليس أمامهم سوى أن يعيشوا في هذا المكان، أغلبهم مصدر رزقهم صدقات وما يوجد به أهل الخير، عندما تسمع أصوات وتكبيرات فالخير قادم، أهل الميّت يصرخون وسكّان المقابر يفرحون، مجرد الزيارة أو كما يُسمّونها الطلعة على روح الميّت مناسبة سعيدة، فإنّهم سيوزعون عليهم التّقود والخبز وأحياناً الفاكهة ولكلّ حوش أهل وأصحاب، كلُّ أهل وأصحاب مختلفون عن الآخرين، في الأعياد يترعون ويشبعون وفي مناطق كثيرة لا توجد سوى حنفيّة مياه واحدة، بعض المدافن أدخل أهلها المياه، في المناسبات تكثر أرغفة الخبز فيتركونه في الشّمس لتجفّ فتصبح طعاماً لأيّام لا يجدونها، أمّا إذا فاضت الدّنيا عليهم فتعتبر في هذه الحالة غذاء للطيور أو للماعز والخراف الموجودة أحياناً، كثيرون منهم يعملون في ترميم التّربّ وبنائيتها، أصحاب المدافن يتكونها تحت رعاية الحارس فعاش بدوره بل تزوّج وأنجب، وبمرور الأيام أصبح بدل الفرد الواحد عشرة وعشرون، عندما يزداد عدد الأبناء فلا مانع من بناء عشّة بجوار السّكن المدفن، وكم

من قضايا مرفوعة من أصحاب المدافن للطرد ولكن إلى أين يذهبون؟ بعضهم يقسم أنه تأجر المدفن من زمان بعيد من التربي الذي يقوم عليها، ينظرون إليهم غالباً كمتسولين أو مجرمين خارجين عن القانون.

يجمعان كلما أتت فرصة وابتعدان كثيراً، تحس بأمان غريب وهي معه لم تحسه يوماً ما، تحدّثه بكل ما في نفسها، يفتقد أشياء كثيرة وعندما يجلس إليها يحس بأنه إنسان آخر، في الحديقة العامّة الهادئة كثيراً ما يجب أن تمدّ ساقها وينام واضعاً رأسه فوق فخذيها، عندما تتحرك أناملها بين خصلات شعره وكأنه يتمنى النوم، وكأتما تحكي له حكاية من حكايات الشاطر حسن يسمع إليها وهي تصف حالها... حال أخت... أمها التي تعيش في الحكر مع زوجها، وقليلاً ما تذهب إليهم فهي معلومة الأم بلا أب، كأنهم فتران تعيش في الجحور، أغلب الأماكن تدخلها وأنت تحني رأسك ألماً وحرزناً على مظاهر الحياة، الحكر معناه الشيء القليل، فتيات في سنّ الزواج ينمن تحت السرير، المنزل أو الشقّة الواحدة تقطنها أكثر من أسرة، أغلب هؤلاء البشر جاءوا من مناطق متفرقة من أنحاء مصر وخاصة من الصعيد من سنين طويلة، بل إن بعضهم هارب من أحكام، فعلى سبيل المثال تقول خالتها إن جدّها لأمّها هرب من بلده خوفاً من الجهاديّة "التجنيد" فهو لا يستطيع أن يدفع البدلية كما يسمونها يومئذ، وهي تعني المقابل الماديّ لعدم التجنيد، حضر لأمّ الدّنيا مصر المحروسة، وعمل لدى أحد البشوات وعاش في الحكر، والباشا غير له اسمه وعنوانه واستخرج له بطاقة شخصيّة جديدة وعمل بموجبها في وزارة الدّاخليّة، أغلب السكّان كانوا يشتغلون في ورش السكك الحديديّة القرية منهم وكثير بدورهم كانوا يشتغلون بالسّقاية ونقل الماء من النّيل، قريباً يختلف الوضع والحياة فأحياء تطلّ على النّيل، ومن النّاحية الثانية

تتواجد مناطق مصر الجديدة ومدينة نصر، كأنهم يتباهون فيما بينهم بتعداد بنينهم فأقل أسرة لا يقلّ تعداد أفرادها عن سبعة، كأنهم يسكنون أنفاقاً تحت الأرض فالرطوبة صفة غالبية في كلّ الحجرات، أمّا قضاء الحاجة فأحياناً يصطفون بالدور، دورة مياهٍ واحدة تخدم أكثر من أسرة، في الشارع تفرش العديد من السيّدات الجوانب يتنافسن في بيع الخبز والخضراوات، وأخرى بجوارها أنبوبة بوتاجاز وواور بعين واحدة ومقلاة مملوءة بالزيت واحدة للفلافل ومن الناحية الثانية أخرى للزلاية، بيوت قديمة متآكلة الجدران وشوارع ضيقة تزخر بكلّ المتناقضات، في الشوارع قد تجد مختلف أنواع الحيوانات، حتّى الشرفات المائلة القريبة من بعضها بصورة فيها حميمية تفوق الوصف، صور عجيبة تقصّها وهو يعرف كلّ ما تقوله ولكنه يحبّها وهي تقصّ عليه فيتركها.

ينتصب ويجلس أمامها مباشرة وكأنه يودّ أن يرفع عن كاهلها ما تقصّه من حكايات، بين ابتسامته الباهتة يصف نفسه ومَن على شاكلتهم بأنهم مجرد سلع يمكن أن تُباع وتُشترى، سلع إنسانيةً مستباحة، هل هذا وضع طبيعي؟ مؤكّد وضع طبيعي لأنهم نتاج لنزوة عابرة، مَن يسمع لهم فهم لا حول ولا قوّة لهم ولا صوت إلا في الانتخابات، وكيف يقومون بتسجيل الأسماء قبيل الانتخابات وكم يهبون لكلّ فردٍ ولكلّ أسرة، يومها تنطلق الوعود من أصحاب المناصب الرفيعة والأأيادي البيضاء، لا صوت لهم إلا في الصراخ والعيويل والمعارك فيما بينهم، عدد الأطفال ممن على شاكلتهم يزيد في العام الواحد عن أربعين ألف طفل وأغلبهم بلّ أكثر من نصفهم يموتون لنقص الرعاية، في حديثها المتبادل حسرة وألم، فمن تكون الأمّ البديلة، وكأنّها يتساءلان عن معنى كلمة الأمّ فهما لا يُدرِكانها معنىً أو فعلاً، فما أهميّة الأمّ

الحقيقيّة؟ سؤال يطرحه ولا يُدرِكُ له إجابة، تتنهّد وتزفر آهة بحجم مأساتها، تدعو لأُمَّ محمود وتصف علاقتها بها وماذا فعلت معها عندما فكّرت في الانتحار، تصف زميلاتها أو القائمات على الرّعاية بالدّار وهنّ يخوّفنها من نار جهنّم، بين ابتسامتها الغريبة تصف القلوب التي احترقت في بكرها بنيران الدُّنيا هل تخاف نيران الآخرة، وكأنّها تطرح سؤالاً وتجيّب بدورها، هل علقت من قدميك؟ بيتسم وكأنّه يقول كثيراً جدّاً دون أن تتحرّك شفاهه، يصف ما كانوا يجبرونه على فعله غضباً عنه، ويصمت وتعلّم ما يتمنّى أن يتحدّث عنه، تعرف الكثير عن عمليّات الاغتصاب بين الأولاد ممن هم أكبر سنّاً، وماذا يفعل المغلوب على أمره، كبتّ لألم مفروض وعُزلة قسراً عنه، استغلالٌ قد يصل في بعض الأحيان إلى بيع الأطفال الصّغار، وهل حقيقة يأخذونهم ليربّوهم أم كقطع غيار بشريّة لآخرين من سلالة بشريّة أرقى؟ هل يأخذونهم خدماً لأغراضٍ معيّنة، بعيداً عن البيع والشراء هناك من يدفعهم للتسوّل من مشرفين ومشرفاتٍ، القائمون على شئون الدّار مجرد موظّفين أغلبهم لا يحبّون هذا العمل وناقمون عليه ولم يجدوا عملاً أفضل، أصحاب الشّأن هل يدركون أنهم بشر من نفس السّلالة البشريّة، أمّا عن الحبس الانفرادي وطفل صغير يتكوّر وهو أسير الظّلام، تتوالد في مخيلته أشباح تهاجمه ويغمض عينيه رغم الظّلام الحالك، يظلُّ يصرخ حتّى يتعب من الصّراخ ويضيع صوته، تأتي الرحمة في نوم يذهب فيه، مصيبة كبرى عندما يفتح عينيه فلا يرى ولكن يحسّ بجنيّ يُقلّب في جسده بعد أن جرّده من ملابسه، يكاد يحبس أنفاسه وهو يتلذّد بما يفعله وتزيد صرخات الطّفل الصّغير من لذّته ولا يتوقّف الأمر على فتى أو فتاة، يحسّان أنّهما تجرّعا مرارة البؤس والحرمان من كأسٍ واحدةٍ، فمنهم شخص بلا أب ولا أمّ، وآخر

مجهول الأب وبمعنى أصح ولد زنى وفي حسرة، بماذا يصفون الأمّ التي ترمي وليدها أمام مسجدٍ أو ملجأً أو حتّى في صندوقٍ للقمامة، وآخر معروف الأب والأمّ لكنّهما في غنيّ عنه، أب وأمّ مجرمان يتركانه على أن تتكفّل البلد برعايته، لقيط أو يتيم شرعي أو غير شرعي لا فرق بينهما في كثيرٍ أو قليلٍ، تتغيّر الأسماء وفق الرؤية وحتّى الديانة لا تعرف من منهم مسلم أو مسيحي، يرحمون أنفسهم ولا يفكّرون، الشيخ قال لهم منع الله التّبنيّ ومَن لا نعرف أباه فهو أخٌ في الدّين فالتّبنيّ نسبٌ مزوّرٌ، ومَن يوافق على التّبنيّ ويعلم بذلك عندما يكبر فالجنّة محرّمة عليه، يضحكان... ويتساءلان في صوتٍ واحدٍ... هل ندخل الجنّة؟

اشتركا معاً في مفردات البيّنة، عوز وفقر وجهل محيطٌ بهما كأساور في اليد أو قيد لا مفرّ منه، يوم أن خرجا للدنيا استأثرت بعينيها مفرداتٌ مغايرة لما اعتاده، سلوكيّات جديدة وأفكار جديدة وكأنّها حفّزت فيها الفكر، خرجا من حيزٍ معتادٍ في الشكّل والمضمون، الدّار... القرية... الملجأ... أو هروبا إلى أحياء بنائها كثيراً ما يكون علب الصّفيح، أو مبانٍ قديمة من الطوب اللبن أو الأحجار المرصوفة بلا فِكر أو هندسة في بناء أو مقام شبه مؤقتٍ فوق الأرصفة وعلى شاطئ النّيل، خروج من حدود مألوفة تربّوا عليها، يتأمّلان جانبي النّيل وعمارات وقصور وسيّارات تمّرق، نوادٍ وفنادق وبواخر نيلية ثابتة أو متحرّكة زاخرة بالحياة والمرح، يدركان أنّهما بشر لها نفس الأعضاء البشريّة وربّما من طينةٍ أخرى، يضحكان عندما يتحدّثان ويصفان هؤلاء بأنّهم من معادن نقيّة كما الذهب، هل يمدون الله على النّعمة؟! يقسم لها أنّه في يوم شاهد أحدهم وهو خارجٌ من صالة قمار وقد خسر مالاً كثيراً وهو يرّدّد الحمد لله، هم أكثر ترديداً للحمد ويذكرون الله كثيراً،

الرَّاكضون في الشَّوَارِعِ يسارعون ويتسارعون وأغلبهم وجوههم مكسوة بالألم، هل يدركون أنَّهم منطلقون نحو الآخرة أو لمزيد من متع الحياة وتوفيرها، لا يدركان معنىً حقيقياً لأسرة أو مجتمع فتقلَّصت المشاعر الإنسانية وانزوت في صمتٍ، بينما تفور ثورة الغرائز الحيوانية المتدفقة بالشهوة، تصبح كلُّ أعضاء الجسد البشريِّ مرهونةً باحتياجات ومطالب تدفعها عوامل حقدٍ وتذمُّرٍ على كُُلِّ مَنْ حوَّاهم، تسقط كل دعاوي الخير فتنتقل ولا تبالي بما يكون فتضرب وتهاجم وتمزِّق وقد تصل لاغتصاب أو قتل.

عندما يتعانقان يسمع كُُلُّ منهما أنينه في صدر الآخر، عندما تأخذها اللحظة العاشقة ويتحوَّل الأئين لدقائق فرح لحظي، فرحها لا يتعدَّى دقائق في حساب الأحزان، تطولها لساعات البرد في الشِّتاء وتذهب في دفء عناقها، التُّرب هي المكان الوحيد الذي يبتعدان فيه عن العيون وقريباً من جثث الأموات، كم تحوَّفت وهي تذهب معه في المرَّة الأولى، لم تقل ذلك علانيةً أو تصرَّح به فكونها معه أهمَّ شيءٍ في الدُّنيا، يمثل لها لحظة حقيقة ومعه تتبخَّر كُُلُّ الأحزان فتمنَّى أن تهبه حياتها، تحسَّ بأنه يعاملها كإنسانة لها كيان، تتذكَّر صرخاتها وتوسلاتها وهي تطالب مغتصبها بالرحمة، في الدَّار في قسم الشرطة وكأنَّها اعتادت ذلك فتغمض عينيها وتحمِّل الألم وأيِّ ألم، كجسد أدمته أثار السَّياط وكُُلُّ الحشرات تجمَّعت فوقه تنهش الجروح وتمتصِّ الدِّماء، خافت المقابر ولعنة الأموات في البداية ولكن تحجَّرت المشاعر، تذهب معه طوعاً وراغبة في اللحظة السكرى وما أعجبها فوق رفات الأموات، عندما خلع قميصه في خلوتها غير الشرعيَّة، تأملت آثار الجروح مرسومة طويلاً وعرضاً فوق جسده كُله، كانت تتحسَّسها بأناملها

ومن ساعتها أدركت أنه أيضًا مغتصبٌ في دنياه، وممتهن في حياته رغم كل ما يثار حوله من حكايات، يستقبلان لحظات عشقهما بزفرات وآهات منعمة تعلقو فتعلو، وحتى تصل المنتهى تعود تدريجيًا لهمس حالم ينتهي باللعنة.

في لهوهما وسعادتهما المسروقة يشعران أحيانًا أنَّهما من فصيلة البشر، كم تتمنى أن تطرح سؤالًا... تقلبه في عقلها ولكن لا تخرجه فيتردد صدها... هل يمكن أن يفكر في الزواج منها؟ هل من حقها في هذه الدنيا أن يكون لها منزل وأبناء؟ أبناء!!! مستحيل... هل تفكر يومًا أن تؤذي إنسانًا؟ ومن يكون؟ ابن لها تهبه الحياة... هل يكون حيًا أم ميتًا بالحياة؟ يتبعون الخطأ نفسه، يبيتون في الشوارع ورأس ما لهم ما تجود به أيدي المحسنين، كلُّ أنثى أمينة عمرها طفل يمتصّ رحيق صدرها، تتبع خطاه وهو يمضي أمام عينيها فينمو، هل من حق أمثالهم؟! أحيانًا يردد أمامها بأنَّ الحقد يعمي عينيه وهو يرى طفلًا أو طفلة صغيرة وأحد والديه يسحبه من يده، أو يتوقفان ليشترى له شيئًا ما، رغم كلِّ أفعاله التي تتسم بالعنف والمعارك والدماء تلمح الدموع التي تملأ عينيه وهو يحاول أن يداريها، ويدور بالحديث لجهة ثانية، شعور غريب يتملكه أن زهرة يجب أن تكون له فقط، هل يجرح مشاعرها إن قال لها ذلك؟ وكيف يطلب منها ذلك؟ بأيِّ صفةٍ وبأيِّ حق، منذ لقائهما الأول وهو يشعر أنَّها مسلوبة الإرادة، كثيرًا ما تستسلم ولكنه يشعر أنَّ جسدها ملك له فقط ولا يجوز أن يلمسه أحدٌ سواه، نعم هي تشعر بأنَّ قلبها منذ عرفته ملك له فقط ولا وجود لإنسان آخر، كيف يقول لها ذلك؟ يقصص عليها كيف أهدروا كرامته منذ طفولته، كأنه يبغي من وراء حديثه أن يحثها أن تحدّثه كيف كانت البداية، ومن أين؟ كانت تدور أحيانًا داخله أفكار الثأر وكأَنَّها تدرك ما يصبو إليه فتخاف عليه، وتحاول ألا تشير إلى شخص بعينه، نعم

اغْتَصَبَتْ بعيدًا عن الأرض... ذهب واختفى ولم يكن هو البداية ولن يكون النهاية، ليست الوحيدة وليست الأولى فكلهنَّ حكين وقصصنَّ عن البداية، في داخل الدَّار أو خارج الدَّار، صاحب النَّصيب الأكبر كما يسمُّونه "الحاج سعودي" أو كما يطلقون عليه في الدَّار سعودي باشا الجزَّار، فأمثالهم مجرد دمي متحرِّكة تتحرَّك وفق ما يمليه عليهم السَّادة الأوصياء، كثيرًا منهمنَّ يتمنين الموت ويبحثن عنه، جميعهم من ذكورٍ وإناثٍ سقطت من داخلهم أهميَّة وبواعث الحياة ولكنَّ الجبن والخوف يسيطر عليهم، بعضهم وكأنَّهم يضعون رقابهم فوق أياديهم كما يحلو لهم أن يقولوا، ليست ثورة بلِّ نقمة وألم وتذمُّر، فهم سيموتون حتَّى، والموت قادمٌ، خوف من الحياة، ومن الغد من تعذيب الأوصياء لهم وعليهم، موت بموت فيلعب بعضهم في وجدانهم بأنَّ الجهاد هو الأفضل وفي النهاية مؤكَّد ستكون الجنَّة المثوى والمأوى، يتذكَّر "أبو عنيد" كلمات عن الجهاد يتفوه بها الجزَّار كثيرًا ولتوه خارج من وكر الرذيلة، تتأمل زهرة أحاديث الجزَّار الذي نصب نفسه شيخًا ومعلمًا لهم، كيف يعبثون بأفكارهم بعقولهم... لمن؟ وإلى أين؟ وإلى متى؟... هل عمليات تجهيزيَّة لزيادة النقمة في النفوس المحرومة من الحقِّ في الحياة؟ أيَّ جهاد!!! ومن هم هؤلاء المجاهدون؟

كثيرًا ما يطلب منها ألا تكون لأحدٍ سواه، أن تتمنَّع ولا تهب جسدها وكلَّ هذه الأحاديث مجرد حوارات داخل عقله فحسب، يحوِّرها بصورة أخرى فيقول لها بأنَّها زوجته على سُنَّة الله ورسوله، يتراجع في كلامه من جديد مردِّدًا أنَّ كلمة الزَّواج ترعبه بلِّ إنَّها تزيد آلامه، هل تقول له إنَّ الجزَّار يطلبها أحيانًا وهي تذهب إليه مرغمة ولا تستطيع أن ترفض؟ هل تقول له أنَّه قام بتصويرها أكثر من مرَّة وهي عارية تمامًا، لحظة أن ترفض ماذا يمكن

أن يفعل معها؟ كانت تشاهد صورها وهي عارية وتضحكه وتظهر سرورها، أدركتُ أنّها ليست الوحيدة، أفعالٌ غريبةٌ وصورٌ متعدّدة لأغلب الفتيات منهنّ مَنْ لم تتعدَّ العاشرة من عمرها، حتّى الأولاد صور غريبة لأوضاع وأفكار أكثر غرابة، قسراً تتقبّلها فكيف لمثلها أن ترفض، تتذكّر آخر مرّة دعاها بعد محاضرة دينيّة وفيها شيخٌ ضيف وكان ليلتها الجزّار أكثر مَنْ تحدّث عن الإيذان وفعل الخير والآخرة وحسابها، هل كرهت كلّ مَنْ يتحدث عن الدّين أو في الدّين؟! هل كرهت المسيحة فالجزّار لا تترك يده المسيحة طوال اليوم؟! هي لا تكذب فالعنيد امتلك قلبها وقلبها له وحده ولكنّها لا تستطيع أن تقول هذا بالنسبة لجسدها، أتقصّ عليه ما يحدث أثناء الحجز في أقسام الشرطة؟ في المساء وحين طلبها الضّابط المناوب، كان صغيراً في المقام والسّن، تبدو على ملامحه أنّه ما زال غضّاً ولدناً في الحياة، كلمات جميلة ورائعة تمسّ شغاف قلبها وهو يتحدث عن حقّها في الحياة، إنّها لا تختلف عن أيّ إنسانة أيّا كانت، كلماته فيها تلقائيّة محبّبة فلا يصطنع في كلماته ولا يطلب منها تنفيذ أمر أصدره، جلست أمامه ووصّى لها بكأس من الليمون المثلج، دخل لثنايا أحاسيسها من زوايا متعدّدة بالنسبة لها كلها حالكة الظلام ولا تعلم عنها شيئاً إلا في الأحلام، تحدّثت إليه لكنّها لم تفصح كثيراً، الغريب وكأنّه يستدرجها أن تقصّ عليه عمّن اغتصبوها في قسم الشرطة، تتردّد في الإجابة وتحسّ أنّ وراء حديثه سبباً، تكذب وتقول إنّهم يعاملونها معاملة طيّبة، يذكر لها أحدهم فتداور وتحاول أن تبعد بالحديث أو تغيّره، أدبه ومعاملته الطيّبة أخرجها من الصّمت، قصّت عليه كيف كان يستعذب عذابها، كلمته التي لا تنساها وهو يقول لها وهو يطفئ سيجارته في كتفها قريباً من عنقها، وعندما تصرخ وتبكي يقول "أنتِ عارفه أنّك

بتحلوي أكثر لما تبكي"، لا إرادياً تسحب الجزء العلوي من ثوبها فيرى آثار الحرق، في البداية لم يستطع النظر فأغمض عينيه واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، تنظر إليه ولكن دهشته تزداد وخاصة عندما يرى جسدها الأبيض الخالص، فيقول لها بأن وجهها الذي ضربته الشمس لا يعكس لون جسدها الحقيقي، وكأنه لم يتكلم في هذا الأمر من قبل فلهجته تقطعت وتلعثم وهو يتحدث، بدت في عينيه دعوة وكأن شفثيه لا تجيد النطق بها أو لم يسبق لها ذلك، ساعتها كانت تنتظر أن يطلبها لتلبي فيده الأمر والنهي وخاصة أن أباه من أكبر الرتب في الوزارة، في اليوم التالي أطلق سراحها، غير المحضر الذي حضرت به تماماً، انتظرها في سيارته ذات الزجاج غير الشفاف، في المكان المحدد والزمان وجدها فعلاً بمفردها كما طلب منها، ذهبت معه لا يتملكها خوف ولا تهاب فعل أي شيء يطلبه، كم تمنى أن تكون متمرة شرسة! ولكنها تدرك أن أسنانها ذهبت وتكسرت وأن شراستها كاذبة، كانت حريصة على مخارج ألفاظها فلا تنفوه بكلمة خارجة، يكاد الخوف يقتلها وتحاول أن تظهر غير ما تبطن وتخفف من حدة انفعالاتها ومحدثه نفسها "إيش ياخذ الريح من البلاط"، تهادن كثيراً فكل حياتها استسلام، كان بلا تجربة سابقة... هكذا يبدو رغم أنها تستبعد هذا، بعدما يقارب ساعة في السيارة وفي طريق مصر - إسكندرية الصحراوي، يفتح الأبواب المغلقة وتدخل السيارة ويعود فيغلق الباب ويبدو أمامها المكان، فيلاً بحمام سباحة ليس بها أحد مطلقاً، أثاث ورياش لم تر مثلها حتى في السينا التي أدمنت الذهاب إليها بصحبة العنيد، لم تستطع أن تصنّفه من أي صنوف الرجال يكون، ليست خبيرة بالرجال ولكنها اعتادت الاستسلام والرُكوع، في أضواء شبه خافتة جلس وأجلسها بجواره على كرسي بحر، تمدداً كما أمرها

بعد أن أحضر مشروبين من الدّاخل، بين رشقات المشروب الثلج ينظر إليها ويداعب يدها مرّة وتارة أخرى أصابع قدميها، يتطوّر الأمر وتذهب أنامله لكهوف أنوثتها المنتهكة وتحاول أن تبدي تعفّفًا فيتمادي، وكأنّها فهمت لعبة الأنثى وهي أمام وصيّ من الأوصياء وعليها أن ترضيه، آهات وتلوّ وتثنّ هكذا قالت الفتيات أمامها فلتجرب، وكأنّه يريد أن يستشعر رجولته في نأوّهاتها.

يبدو أنّه استشعر قدراته، كان سعيدًا بها وأمرها أن تنزل للماء كما ولدتها أمّها، امتثلت لطلبه بعد امتناع لم يطل ودلال جعل النيران تتقد في جسده، أقسم لها وهما في الماء أنّها الوحيدة ولكن... وكأنّه تذكّر، فأسرع ساحبًا كلماته، خرجت من منزله في الصّباح وهي ترتدي ملابس لم تحلم بها ونوم في مخدع ثريّ بكلّ أشكاله وألوانه، وتجربة ممارسة داخل مياه نظيفة لأول مرّة، لم يستمرّ الحال شهرًا وكانت كالعادة تبدأ بحمام السّباحة وتنتهي بحجرة النوم، أمّا كيف انتهت هذه العلاقة فكثيرًا ما تضحك وهي تتذكّر، وهما تائهان في قبلاتهما الملتهبة المبدئيّة المبلّلة بمياه الحّمّام، الرّجل بلباس البحر ومن خلفه سيدة تبدو أيضًا بلباس بحر ولكنها تأخذ من جسد الرّجل سائرًا، وكانت طلقة الرّصاص الأولى وبعدها مباشرة غمرت الأضواء كلّ جوانب الحّمّام وما حوله، رصاصة ثانية وأخرج رأسه صارخًا "أنا يا بابا... أنا يا بابا... كيف لم تشعر بنفسها وكأنّ كلّ أجزاء جسدها تبيست وتجمّدت، الرّجل يأمره بالخروج ويستجيب له وكأنّه تذكّر حالهما وما هم عليه فيعود للماء، الرّجل رغم أنّ سنّه يقترب من السبعين يعطي أمرًا مباشرًا بصوت قويّ، بأنّه سيطلق النّار إن لم يخرج فورًا، وأطلق رصاصة فخرجا وكلّ منهما يحتمي بالآخر ويده فوق سواته يداريها، والمفاجأة التي لم تتوقّعها أنّ صاحبها

دفعها وانطلق مسرعًا نحو الفيلا، تكوّرت وحاولت أن تداري نفسها وفوهة البندقية مصوّبة إليها، ضحك بقوة وجارته في الضحك رفيقته التي كانت يومًا من نجوم السّينما وانحسرت الأضواء عنها، أغلق الأضواء واكتفى بالقليل منها وتركها تحفّف جسدها وترتدي ملابسها، أقسم عليها إن رآها قريبة من سور الفيلا أو مارّة بجوارها سيقتلها مباشرةً وبلا تردّد، اهتزّت رأسها بالموافقة، المنطقة شبه خالية من البشر مجرد أشباح لقصور وفيلات فحسب، تفكّر كيف تمضي وقبل أن تصل للباب الخارجي كان صاحبها في سيارته ومازالت آثار المياه فوق جبهته، مضيا ولا حديث بينهما، بعد نصف ساعة تقريبًا راح في ضحك متواصل غريب، واصفًا أباه بالرّجل الخلبوص وبأنه سيقول لأمه، وكأنّه تذكّر شيئًا فيصف أمه بأنّها مثل أمنا الغولة وأنّها "قارفة" أبوه في عيشته، ويواصل الضّحك ولا يتوقّف، تأمره بأن يتوقّف، المكان قريبٌ من ميدان الرّماية يحاول أن يثنيها عن عزمها ولكن تأتيه كلماتها بصفةٍ أمرّة فيتوقّف، تخرج من السيّارة ولا تعيره اهتمامًا يذكر، من يومها لم تره، رسمت أحيانًا أن يكون لها يومًا حماية من بطش الآخرين، تضحك وهي تتذكّر، هل أقصّ لـ "أبو عنيّد" هذه الأشياء؟ مستحيل بطبيعة الحال.

يتردّد اسم "أبو عنيّد" بقوة في مختلف المناطق، غالبًا يمشي بمفرده وينطلق بدرّاجته البخاريّة في مختلف الأرجاء والأحياء، كثيرون من أبناء الملاجم والشّوارع يسألونه المساعدة وهو لا يتأخّر عنهم في حدود طاقته وقدراته، فهذا الفتى يطلب منه أن يكون وسيطًا للعمل، فيسارع وغالبًا يكمل مسعاه بالنّجاح، بعيدًا عن هؤلاء يمكن أن يطلب منه شخصًا حماية ليلة الفرح الخاصّة به، لا يمانع وله أجر خاصّ ولمن شاركوه وفقًا لما يراه، ولا

مانع في المساعدة في افتتاح محل والمشاركة بأعداد مؤجرة لزيادة المتواجدين،
 يشعر أحياناً بأنه زعيم ومسئول عن كل البشر حوله، يحتفظ بخوذتي رأس
 لزوم قيادة الدراجة البخارية والثانية فمن نصيب زهرة وخاصة بها، ينطلقان
 ويسابق بدرأجته الريح وتلتف ذراعاً زهرة حول خصره بقوة وتحتضنه، يحس
 بلهيب ثديها العامر في ظهره فيتسرب الخدر الجميل لباقي أعضاء جسده،
 يشعر ساعتها بأنه يطير في السماء وكل من حوله لا وجود لهم، كأنه يملك
 الدنيا وما فيها، لحظتها يتحرر من قيود العبودية المفروضة عليه، هو في هذه
 اللحظة يقفز فوق سياج الدنيا، هي تغمض عينيها وتشعر بأنها سباحة في
 الفضاء، تشعر بأنها خفيفة كريشة حرّة في الهواء، لا يهّمها ما تفعله الرياح
 التي تعصف بها وباللحظة ولتسير وفق الاتجاه الذي تريده، لحظة سباحة في
 الفضاء في ملك لا حدود له، لحظة حرية وغالباً تعقبها في المساء متعة وإطفاء
 غريزة تحيا داخل كل مخلوقات الكون، بأنامله برقتها أو بخشونتها لا يهّمها،
 لا تستشعرها إلا ناعمة الملمس أو ساحرة ومجرد أن تتحسّس أنامله، أي
 تضاريس في جسدها بدءاً من أصابع القدم وحتى شعر الرأس، مجرد أن تحوم
 وترسم رسوماً سريالية، فتتعرّج الخطوط فوق جغرافية جسدها وهي حاملة
 ناعسة العينين، تستيقظ كل حواسها النائمة فتتفاعل وتشعر بالحياة، فتفيض
 الشفاه بابتسامات الرضا، بشاشة مصحوبة برعشات الصحو السّاحر في
 لحظات العشق، هو يختصر كل النساء في امرأة واحدة ولا يشعر بنفسه إلا
 معها ولا يبحث عن سواها، أمّا هي فقسراً عنها تهب جسدها أحياناً ولكن
 قلبها يظل أسير هوى "أبو عنيد"، ساعدته الدراجة البخارية كثيراً فتحرّك
 من مكانٍ لآخر، كان رضا مسؤولي الدار عنه كبيراً، فهم يكسبون من ورائه
 الكثير، يدفعون لهم مقابل أن يشجعوا النادي المطلوب، وبالطبع في الصورة

دائمًا أبو عنيد، يخرجهم تبعًا بعد أن يرتدوا زِيَّ النَّادِي التَّقْلِيدِيَّ المتعارف عليه، لكلِّ منهم وجبته هذا اليوم ومصروف أيضًا حسب حالة النَّادِي، الجميع يكسبون وخلفه يشجِّعون أيَّ نادٍ وأيِّ لون، قد تأتيه هبات عن طريق شخص ما، يطالبه بإقامة دورة رياضية لأبناء الملاجئ أو لأبناء الشُّوارع تحت رعايته، على أن يتكلَّف هو بمصروفاتها حتَّى لو كانت هناك في التَّرب، هو حريصٌ أن ينفذ طلبات الأوصياء، بمرور الوقت اعتبر هذا عملاً يؤدِّيه بمقابل، في يوم مباراة النَّادِي الكبير الغنيِّ بأمواله وشركاته ولكنَّه ليس ناديًّا شعبيًّا، حضر خصيصًا إليه ووزَّع مكافأة عبارة عن ثلاثين جهازًا محمول، لم يأخذ سوى جهازٍ واحدٍ وبالمثل لزهرة، ووزَّع باقي الأجهزة على الآخرين طبقًا لسنَّهم، هذه الأشياء لا تدرج في المساعدات العينية المسجَّلة، عندما أحتُ عليه إحدى العملات في إعطائها جهازًا، لم يخبرها بما يعرف إنَّها اكتفى بالإشارة إلى أنَّ المدير كان نصيبه أكثر من عشرين جهازًا، الجزَّار يستفيد من كلِّ شيءٍ فلا يترك شيئًا للصدفة، أصبح هؤلاء الملاعين كما يحلو له أن يصفهم لهم قيمة في سوق البشر، فليكن التَّاجر وعليه عرض أسعار بضاعته وفقًا للسُّوق القائم، لكنَّه لم ينسَ سطوة العنيد وقدراته وخروجه عن النَّص المرسوم له، كلب ابن كلاب ومجنون ويفعل أيَّ شيءٍ تصوِّره له نفسه، وسَّع الجزَّار دائرة علاقاته بالجهاز التَّنفيذي الممثل بالسُّلطة وخاصَّة الشرطيَّة، كثيرًا ما يكون نصيبًا في الحفلات أو الهدايا وخاصَّة الهبات من الجهات الأجنبية نصيب، يعتبرها عربون صداقة قائم ومستمر، في الدَّاخلية أيضًا له وضع ليس خصوصيًّا للنَّهاية ولكن قيمة محدَّدة لفترة محدَّدة وفقًا للمطلوب منه، فمثلاً يوم مؤتمر المصالحة الوطنيَّة وعزف البشر عن الحضور في تلك المنطقة الشَّعبية على أطراف مدينة القاهرة الكبيرة الضَّخمة التي لا حدودَ لها، رغم

تواجد عددٍ كبيرٍ من المسؤولين في الوزارة وأكثر من وزير، وتمَّ الإعلان عنه في مختلف المحطات الإذاعيَّة والتلفزيونية فقد استعانت الدَّاخليةُ بجنود الأمن المركزيِّ، كحشدٍ جماهيريٍّ يهتف ويصفق ويرفع اللافتات، فارتدوا جلاليتهم وهي ملابسهم المدنيَّة المعتادة غالبًا وبقي الاستعانة بحشد آخر من الجماهير لنوعيَّة مختلفة، وتنفيذًا للأوامر الصَّادرة من الجهات العليا بأن تمتلئ السِّرادقات، فكان "أبو عنيد" هو الحاشد لجموع مختلفة من مناطق مختلفة، وتحت مسمَّى خدمة الدَّاخليةُ ومساعدتها، ويومها نجح المؤتمر الجماهيريُّ الكاذب ونقلت وسائل الإعلام المختلفة وقائع المصالحة الشَّعبية بين مسلمي ومسيحيي الوطن الواحد ويومها تحدَّث أكثر من وزير، وصفق الحضور حتَّى أدموا أيديهم وداخلهم اللعنات على مَنْ ساقوهم كقطعان الماشية وخاصة جنود الأمن المركزيِّ، أمَّا مَنْ حشدهم "أبو عنيد"، فلكلِّ فعل أجر وقيمة، ويكفي وجبة غذاء طيبة وزجاجة مثلجة وقليل من السِّجائر، وتتوالى المهام غضبًا وقسرًا فلا يمتلك إلَّا الإذعان وإبداء الموافقة والمساعدة وينفرج فمه عن ابتسامته الواسعة، وتتوالى المهام ويهمس الضَّابط الصَّغير بما لقَّنه الكبير بخروج كلِّ النُّزلاء وخاصة الشَّباب لمؤازرة ممثل الحكومة في الانتخابات، يرسمان الخطَّة معًا ويتفقان ولكنَّها في غاية السِّرِّيَّة، يلمح له الضَّابط الصَّغير بأنَّهم يعرفون كلَّ مصائبه وأنَّهم بسهولة يستطيعون، يغلق باب هذا الحديث ويضحك مجاريًا وموافقًا على تهديداته، بعد أن يودِّعه وعلى الباب الخارجيّ يصفق خلفه ويلعن "أبا مَنْ خلفوه"، خطوط عريضة يرسمونها وكل يبحث عن مراده وفائدته والمرجو من وراء أفعاله، كلُّ يلقي شباكه ولا يدفع الثمن سوى البلهاء الأبطال أحيانًا كما يجلو لهم وصفهم، سهلت خطوط الهاتف المحمولة المهداة أو غير المهداة تجمعهم في أيِّ مكان

وبسرعة مناسبة، تقلد أبو عنيد منصب القائد برغبتهم جميعاً، على كل الأوامر أن يذيلها بتوقيع الجاهل الجهول، رجل السلطة القوي مكروه من كل أهالي الحي.

نعم، يمكن أن يتم تزوير الانتخابات وسيكون، لكن المطلوب استعراض للقوة، وتكون البداية في سرادقات الدعوة، كل الناس ستلبي الدعوة أو غالبيتهم تظاهراً بحبهم الكاذب للسلطة، كل له من السلطة مطلب ومأرب مختلف من فرد لآخر والوسيط دائماً رجل السلطة، يظهرون له مساندهم وهم يلعنونه ويلعنون مولده وكل من اقترب من السلطة، أما الزفة المقترحة والسيارات ربح النقل المكشوفة والداعين من الغوغاء والبلهاء، سواء في السرادقات أو الزيارات المختلفة لكافة أرجاء المنطقة، فيقوم عليها أفراد مدفوع لهم الأجر مسبقاً، عندما تصدر الأوامر لمركز الشرطة أن يقوم بالمطلوب في مساعدة رجل السلطة، يبدأ الجميع في شحذ همهم، فالكبير يتمنى الاستمرار في السلطة ولا مجال للتقاعد مبكراً، والصغير يتمنى أن يلتحق بقسم آخر قريباً من أصحاب السلطة فالمزايا متعددة وتختلف باختلاف المواقع الشرطة، تم حجز "أبو عنيد" ليلة كاملة في قسم الشرطة وبدون سبب معلوم، لا يهتم كثيراً فقد اعتاد هذه الأمور، استدعاه الضابط الكبير الرتبة، أجلسه وقام باستدعاء جندي الخدمة ليأتيه بمشروب وفق طلبه، ولا مانع أن يشعل سيجارة أمامه، في النهاية أسر إليه بأهمية رجل السلطة في الانتخابات القادمة، وعليه أن يقوم بالواجب ولن ينساه الرجل هو ومن معه، المهم هو تجنيد أكبر قدر ممكن من المؤيدين شكلاً وليس بالضرورة أن تكون لهم أصوات انتخابية، فهم المطلوب واهتزت رأسه بالموافقة وحدد له موعداً للذهاب لمقابلة من ينوب عن الرجل، ليستلم

الدُّفْعَةُ الأُولَى حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَبْدَأَ العَمَلَ وَفَقَ مَا يَجِدُهُ الرَّجُلَ، يَضْحَكُ وَيُودِّعُهُ وَيَشُدُّ عَلَى يَدَيْهِ وَهُوَ ضَاحِكٌ قَائِلًا "هنا بيتك ومطرحك وفي أيّ وقت ممكن تشرف بمزاجك أو" يضحك ويحني رأسه شاكرًا ويلعنه... ويكمل: "أو من غير مزاجك"، كانت الدُّفْعَةُ الأُولَى التي استلمها لا بأس بها ولكنها لا تكفي الجميع، اصطحب زهرة في جولاته وخاصة ممن لم يتعامل معهم من قبل، فكانت زهرة تعرف البعض منهم، "عمّ شعبان" صاحب نصبة الشاي المشهورة وسط البلد أسفل الكوبري، جلسا عنده ورحبّ بهما الرجل كثيرًا، قصًا عليه ما كان، أفادهما الرجل بأنّ هناك أكثر من واحد كبير وعليهم الاستفادة، فهذه الأيام هي الأعياد الحقيقية التي يرزقون فيها بالأموال، يكبس نظارته الطبيّة السميكة الملتصقة في وسطها بلاصق ويتسمم، يبدأ في الشرح لهما بكيفية الاستفادة بكلّ ما هو ممكن، ويصف لهما أنّه ليس عيبًا أن يشاركا الشخص وغريمه وعليهما عدم الانحياز المطلق، فكلاهما أوساخ وأيّ واحد من غاليّة هؤلاء يبيع أباه في سبيل كرسي السُلطة، وما هم بالنسبة له سوى كلاب تعوي لتخيف أعداءه! يتناوبون سرد الحكايات والحوادث التي من شأنها ترسيخ أقدامهم في أماكنهم، يفيض شعبان بضحكة غريبة تشبه في مخارجها الماء المدلوق من شفا قلة فخاريّة، ويستطرد حاكيا أنّ ما يحدث ليس جديدًا فهو يحدث في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وكلّ رجل كبير كان يحيط نفسه بمجموعة من الحرافيش أو الفتوات، يصفهم بأنهم حرافيش هذا الزمان، كم كان يتمنى أن يصفه الرجل بالفتوة! لكن لم ينل تلك الصّفة من الرجل فأدرك أنّه مازال في نظره صغيرًا، هذه الأشياء تدفعه بصورة غريبة بفعل قد يكون شاذًا ليحوز رضا من حوله، يضحك شعبان وهو يحكي لهم عن تجميع الندّابات في المآتم ليقمن بالصّراخ والعيويل،

فالنَّاسُ الأَغْنِيَاءُ وَخَاصَّةً النِّسَاءُ لَا يَعْرِفَنَ تِلْكَ العَادَاتِ الشَّعْبِيَّةَ، يَعَاوِدُ الضَّحْكَ وَيَطَالِبُهُمْ بِأَنْ يِقَاسُمُوهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا وَلَكِنْ عَلَيْهِ بِالْحَذَرِ؛ فَكثِيرٌ مِنْهُمْ فِرْصَتَهُ بِالقَبْرِ، يَصَبُّ كَوْبَيْنِ مِنَ الشَّايِ وَيَمُدُّ يَدَهُ لَهَا وَمَدْسُوسٌ فِيهَا قِطْعَةٌ مِنَ "الحَشِيشِ المَفْتَخِرِ" كَمَا يَسْمِيهِ فَيَتَنَاوَلُهُ العَنِيدَ فِي حِرْصٍ وَشُكْرِ، وَيَوَاصِلُ ضَحْكَاتِهِ الغَرِيبَةَ حَاكِيًّا... قَالُوا زَمَانَ كَانَ فِيهِ وَاحِدٌ طِفْسٌ، غَاوِيٌ يِقَاسِمُ النَّاسَ أَكْلَهُمْ، وَجَدَ أَنَا سَا لَا يَعْرِفُهُمْ جَالِسِينَ عَلَى طَعَامٍ فَقَالَ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا اللُّثَامُ... فَرَدُّوا جَمِيعًا: لَسْنَا لثَامًا بَلْ كِرَامًا، فَجَلَسَ بَيْنَهُمْ وَأَخَذَ يَأْكُلُ بِنَهُمْ مَعْتَادٌ مِنْهُ وَبِصُورَةٍ مَسْتَفْرَظَةً لَهُمْ، وَسَأَلَهُمْ وَسَطَ الطَّعَامِ: مَاذَا يَكُونُ هَذَا الطَّعَامُ؟ فَرَدُّوا: إِنَّهُ سَمٌّ، ضَحْكَ قَائِلًا: مَا أَحْلَى أَنْ نَمُوتَ سَوِيًّا فَالحَيَاةَ بَعْدَكُمْ عَذَابٌ، ضَحِكُوا وَرَدَّدَ الرَّجُلُ مَسْتَطْرِدًا... كَلُوا وَاشْرَبُوا وَعَاشُوا هَبِيقَى عَذَابِ دُنْيَا وَآخِرَةِ؟! وَإِنْ انْحَنَيْتُمْ مَا تَنْحَنُوشُ قَوِي هُمَا طَبِيعِي رَاكِبِينَ ضَهْرَكُمْ وَهَيْفُضُلُوا.

أَهْ مِنَ الكَثْرَةِ الجَاهِلَةِ المَتَوَاكِلَةِ غَيْرِ المَفْكَرَةِ فِي غَدِّ أَوْ مَا بَعْدَ الغَدِّ، غَيْرِ المَقْيَدَةِ بِقَانُونِ مَرْجِعِيَّتِهِ حِكْمَةٍ وَدَسْتُورِ لِلْيَوْمِ وَالغَدِّ، يَفْسُحُونَ الطَّرِيقَ أَمَامَ أَمَانِيهِمْ لِيَسِيطَرُوا وَيَسْطَرُّوا آفَاقَهُمْ، وَأَهَّةٌ أَكْبَرُ وَأَعْمَقُ عِنْدَمَا يَكُونُ الحَاكِمُ مَفْوَهًا فَيَمْتَدِحُ تِلْكَ الجِمْهَائِرِ الجَاهِلَةِ، وَيَحْفَظُ فِيهِمْ رُوحَ المِغَامِرَةِ بِالثَّنَاءِ عَلَى مَجْدِهِمُ الغَابِرِ، وَيَصُوغُ كِتَابَتَهُ وَالمَأْتَمُرُونَ بِأَمْرِهِ وَجُوقَةَ الشَّيْطَانِ وَالسُّلْطَانِ، فَيَكْتُبُونَ التَّارِيخَ الكَاذِبَ المَدَّعِي بِالشُّمُوخِ وَالعِظْمَةِ، فَيَسِيرُونَ فِي رُكْبِهِ بِلَا عَقُولٍ... وَغَالِبًا إِلَى المَهْلَاكِ وَالنَّهَائَةِ غَيْرِ المَأْسُوفِ عَلَيْهَا، هِيَ عَقُولٌ كَالشَّمْعِ مِنَ السَّهْلِ إِذَابَتَهَا وَإِعَادَةِ تَشْكِيلِهَا، وَإِذَابَتَهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَتَشْكِيلِهَا حَسَبَ مَقْتَضَى الحَاجَةِ وَاللَّحْظَةِ المَوَاتِيَةِ، وَلِكُلِّ مَرِحَلَةٍ قَوَاعِدُ وَقَوَانِينُ.

بعد ليلة عشق فوق رفات الأموات في المدافن، أمام باب القرية يجدان لفافة صغيرة أمام الباب الخارجي، تهبط من خلفه وتتأمل اللفافة، وتقرب منه وتفتح اللفافة بصورة أكبر، طفل صغير لا يتعدى عمره شهورًا، ينظران لبعضهما وتنزل دموع من عيونهما، هل يبكيان الطفل أم يبكيان نفسيهما؟ لا فرق يبدو في أيّ من الحالتين، يتساءلان ولكن بلا حديث دائر، ما ذنبه وماذا اقترف من ذنب؟ وما حكمة الله في ذلك؟ هو يدفع ثمن معصية ترتكب، سيتلقى عذابًا في حياته كلها يتوقف الأمر على نسبه فحسب، سيتولى الجزار وأمثاله وشمه بالنار وخاصة التي تعيش داخل جسده وليست الظاهرة، تناوبا البكاء بلا صوت، جلسا على الأرض وفتحا لللفافة عن آخرها، كم من الألم يخترق أحشاءهما! كم من التذمّر واللعنات تنصبّ فوق كلّ البشر بلا استثناء! يدوران في فلك أفكارهما ولكن لا يستطيعان صياغة ما يدور، فخالق الخلق واحد، والنسل للبشريّة من نفس واحدة، فكلّ الإنسانيّة إخوة، فعازّ على الإنسان أن يحقرّ أو يقلّل أو يقتل أخاه، ربّ الخلق واحد وموجود ومطلع على الأفئدة والأفعال، بدت دموعها تجفّ بعد صمت ونظرت إليه، وكأّتها تتنظر منه إجابةً لأسئلة لم تطرحها، بسذاجته يردّد ما سمعه بتلقائيّة غريبة... "أصل النّاس زمان زمان قوي، كان لسانهم واحد، يعني بيتكلّموا بلغة واحدة وعيشتهم واحدة، وخدهم الغرور إنهم يروحوا لرّبنا وراحوا يبنوا برج وكلّ يوم يعلّو في بنيانه، نزل عليهم من السّما حاجة زيّ الميّه بلبلت ألستهم، كل جماعة بقت على لسان ولها لغة خاصّة بيها، من ساعتها ما عرفوش يتفاهموا مع بعض واختلفوا، حاربوا بعض وقتلوا بعض، من يومها يقولوا إن ربّنا لازم يشتّ النّاس ودي حكمته، وفي الآخر هيّموتوا بعض".

obeikandi.com

الفصل الثالث

حمدي عبد الوارث

استيقظ مبكرًا كعادته، لم تشرق الشمس بعد، اخترق الحقول، أبخرة الصُّباح النَّدِيَّة مَلَأَتْ رُثْيَه؛ فاستنشَق بعمقٍ، أَحَسَّ بالانتعاش، زهرات البرسيم البيضاء التي يشوبها اللون الأصفر، أو يتعانق اللونان معًا، تراقص فوق غصونها الرِّفِيعَة الدَّقِيقَة، تتمايل مع رِيح الصُّباح، وكأَنَّها أمواج بحر متتابعة، تهبط إلى أسفل، تعود إلى أعلى ثانية، إشعاعات الشمس الوليدة سقطت فوق سنابل القمح، وجمال لا يعادله جمال، خلع حذاءه القديم، رفع جلبابه وربط حوافه حول وسطه، وأخذ جولته في أطراف الحقل، قطف قليلًا من أعواد الجرجير والفجل وعددًا من ثمرات الطَّماطم، السَّاعة لم تتجاوز السادسة صباحًا، بدعاباته المعتادة وكز إخوته تباعًا بعطف بالغ، فقد حان موعد الاستيقاظ، ساعد أمه في إعداد الطَّعام، قَبَّلَ يد أمه، وحمل دفاتر دروسه، وأنجَه إلى المدرسة التي يعمل فيها، تحية الصُّباح لكلِّ مقابل أو جالس أو عامل في الطريق، كثيرون يطلقون ألسنتهم بالدُّعاء له، أضحت القرية ممتدَّة الأطراف، ففي أطرافها بيوت حديثة مشيِّدة كلُّها بالطُّوب الأحمر والأعمدة الخراسانيَّة، مدرسته إعداديَّة ثانويَّة مشتركة خارج حدود القرية، في الطَّرِيق النَّفَّ حوله بعضٌ من تلامذته، انفرجت خطواتهم حتَّى تواكب مسيرته، وتبادلوا معه حديثًا باسمًا، بمجرد رؤيته أسرع أبو اليسر فَرَّاش المدرسة بدقِّ الجرس.

جلستُ أمامه مباشرةً، حاد بعينه أوّل الأمر، عادتُ عيناه متلصّصة؛ فاصطدمتُ بعينها الشّاختين إليه، فابتسم، حاول أن يطرق حديثاً فخذله لسانه، ولم يفلح في اختلاق حديثٍ ما، خلت الحجره إلّا منها؛ فتشجّع وسألها:

— هل تشربين شيئاً؟

لم تمنع، وهزّت رأسها إيجاباً، فأسرع إلى الخارج مستدعيّاً العامل، أخرجتُ لفافة صغيرة، مدّت يدها إليه بسندوتش، حاول أن يعتذر، قالت: — إنّه من الفول المدّمس المحوّج بالطّاطم والفلفل. — الله... كانتُ أيّام يا آنسة وفاء.

— لم تناديني يوماً بلقب... كنت... لم تستطع أن تكمل عبارتها، فصمتت. كانتُ أيّام، غرقا في الكلمات الجميلة، في أحاديث من القلب إلى القلب، في نسمات الليل الشّاردة هامتُ روحيهما، وكأنّها صفحات عشق ردّداها بعد حفظ، خفقات قلوب تستنشق عبير الأمل وتنسى مطالب الحياة، هدوء القرية القيم وخريف الماء في الجداول وأغاريد طيور الصّباح وتسيبح اليمام وهديل الحمام ووضاءة الوجوه بعد الوضوء والرّكوع في خشوع، في أناشيد العشق الصّوفيّة، وفي حلقات الدّكر الدّائر في الليل حبّاً في آل البيت والتّوسّل وطلب المدد، كلُّ هذا يغلّف القلوب بالعشق السّابحة والرّغبة في الغد كانت... توقفتُ قطعة الطّعام في حلقة، امتدّت يده إلى كوب الماء ووأد الدّمع قبل أن يملأ العين، أمّا هي فقد انثالت دمعة من عينيهما، فأسرعت ورفعتها، وتصنّع عدم رؤيته لها... ترتعش الشّفاه الحاملة بالأحاديث والأمانيّ، تتمنّى وتسرف، شفاه عذراء لم تيبس بعد، تحت إرث العادات والتّقاليد الطّيبة الصّارمة، تتكوّر الغرائز وتنزوي في ركنٍ قصيّ فلا تنفصح،

ففي إفصاحها نضوب معين عشق، وفي استظهارها دليل تفرّد وتعالٍ على فكرٍ موروث...
دار الحديث في جوٍّ من اليأس والقنوط، تبتعد المسافات، فتبادره...

— لتعطِ دروسًا خصوصيةً؟

— أعطى مجموعات تقوية في المدرسة والمسجد...

يذهب في حديثه، ويصف حالات الكثيرين من أهل البلد؛ فكثير منهم أُجْرَاء لا يملكون سهمًا واحدًا من الأرض، وكُلُّ منهم يتمنى أن يعلم أولاده، يضرب أمثلة كثيرة، وكيف كان من العيب أن يشتري الفلاح خبزًا من المخبز دائمًا، يتباهون بالخبز في بيوتهم، كيف أصبح الحال اليوم وقديمًا كان يخبئ الخبز بين طيّات ملابس، يضرب الأمثلة بعدد الأطفال السابحين في الترع مع الجاموس، وكثير منهم يكون حلو طعمهم ما يجود به النخيل... تبسم مع آهة مكتومة، تدرك مشاعره جيدًا، إنسان يحمل قلب عاشق، تتقابل العيون في لحظة عشق صامت أبلغ من كُـلِّ الكلمات العاشقة، يفكّ عقدة لسانه، ويتيه بوصفها ووضعها، وأنَّ كثيرين يتمنون مثلها... تغتصب ابتسامة، وتنهى الحديث الدائر...

— لتفكر في السّفر إلى الخارج... وهي تتحرّك إلى حصّتها... سأنتظرك...

استند برأسه فوق كفيّه اللذين استندا بمرفقيها فوق المنضدة، أخذ يرسم خطوطًا فوق صفحة بيضاء، في عقله تدور خواطر كثيرة، قلبه يكاد يبكي، أخرجته من صمته زميل له قريب منه منذ نعومة أظفارهما... أدرك ما هو ذاهب فيه فقام بدور الممثل، وكأنّه يسأل ويجيب عن نفسه... من أنت؟... فأجاب: من قوم إذا أحبّوا ماتوا... فقال: عذري أنت وربّ الكعبة... ضحكا معًا وراح يذكّره بكلماته والحبّ العذري... أليس بنو عذرة هم من

اشتهروا بالحبِّ العذريِّ ونسبَ إليهم الغزل العفيف؟ ... حاول أن يخرجهم،
فقفز من حديثٍ إلى آخر، ومن فكرةٍ حزينةٍ إلى سخريةٍ لاذعة، انفرجت
أساريه بعض الشيء، زمَّ زميله شفثيه، وبعد صمت لم يطل...
— ما رأيك في السَّفَر إلى الخارج؟ لم يتوقَّع هذه الكلمة منه أبداً؛ فهو أكثر
النَّاس درايةً بظروفه...

— تعاقد؟!!

— نعم... لتعاقد، والطَّرِيق الوحيد والصَّحيح أن تلجأ إلى السيِّدة
الفاضلة صاحبة الحظوة والمقام الرَّفيع دريةً هانم سعد الدِّين ومكتبها الكائن
في حيِّ من أحياء القاهرة يُسمَّى الزَّمالك... خرجتُ كلماته ساخرة رافضة، لم
يتمالك نفسه من الابتسام، وطالبه ألا ينسى أنَّها داخل المدرسة...
— يا أخي، لا مجال للتَّهريج...

— إنني أقول الحقيقة، اسأل الأستاذ عبده، لقد أرسل أوراقه إلى كلِّ
مكان، وتصفَّح كلَّ جريدة، وترقَّب كلَّ بادرة تظهر، فيسرع بالمراسلة وما من
مجيب، وتعلم أنَّه حاصل على الماجستير، ولم يجد فائدةً من لهائه وراء الأخبار،
رزقه الله بواحدٍ من أبناء الحلال فدله على الطَّرِيق...
— وما دور دريةً هانم؟

— صاحبة صالون... وأنا لا أدري من كلمة صالون سوى إعلان
مكتوب... صالون حلاقة... يقولون إنَّها خادمة من نوع نادر... يأتون إليها
من مختلف البقاع تفرِّج كروبهم وتسعدهم كيفما شاءوا، وتذهب عنهم
الصُّجْر والضُّيق، وتبعث إليهم من يفكُّ أسر ألسنتهم، ويرفع عنهم جامح
رغباتهم اللاهثة، ففتياتها يأسرنَ قلوب الإخوة القادمين الواهبين لعقود
العمل في بلاد النِّفط.

— لقد طار صوابك... ثم عاد ساخطاً ولا عنأ... لقد جنت، أنا أهدتك
في موضوع، وأنت تذهب بعيداً... لعنة الله عليك... الله يرحم والديك...
— لا تغضب، أنا آسف... أتركك... همّ بالمضي، فأمسك به، ودعاه
للجلوس من جديد...

— لن يغفر لك خروجك عن المألوف سوى كوب من الشاي... لا...
لا... أفضل فجاناً من القهوة المضبوطة.

— موافق بشرط...

— أمل شروطك...

— الطريق... كيف؟... صفق بيديه...

— أولاً تتجه إلى القاهرة... فاكر الواد سعيد الصايح...

— نعم أتذكره... "بتجههم" لكن ماذا؟

— هو الطريق...

— مستحيل... هل ترضى لي بذلك؟

— الضرورات تبيح المحظورات.

— أذكر لك أن كل أفعاله غير مستباحة وغير مشروعة وأنه أسوأ خلق

الله... لقد أذاق أهله وذويه الأمرين...

— كان زمان... والله يرحم زمان... اليوم له معارف لا تستطيع أن تصل

إليهم... هذا زمان قال فيه حافظ إبراهيم:

وَيُصَلِّي الْبَرِيءُ مَعَ الْمَذْنِبِ

وَيُكْرَمُ فِينَا الْجَهْلُ الْعَبِي

تَضِيْعُ الْحَقِيْقَةُ فِيمَا بَيْنَنَا

وَيُهْضَمُ فِينَا الْإِمَامُ الْحَكِيمُ

— إذن فأنت متأكد.

— لقد رأيت من أفعاله ما لا أستطيع وصفه بأنه إنسان، والغاية تبرّر الوسيلة... واليوم هو في عيشة راضية... انظر اليوم إلى أهله، إنه يرسل إليهم ما يفوق الوصف.

— أنا لا أنكر ذلك...

— إذا أخذت الطريق الصحيح، وتقدّمت بأوراقك عليك أن تنتظر النتيجة، تذهب للمقابلة، ويصنعون لك مقابلة وهمية تعكس جهل من يسألك، وقد لا يعجبه شكلك، وفي النهاية سيقول لك: آسف، لم تتخط الاختبار وحظّ موفق في المرّة القادمة، وهناك احتمال مؤكّد أن يوبّخك... ربّما يقول كلامًا يجعل الدماء تغلي في عروقك... ربّما... صمت للحظات وما لبث أن رفع رأسه قائلاً:

— موافق... قالها على مضض... سأذهب إلى الأستاذ الباشا سعيد بك...
وبعدها ماذا أفعل... أو ماذا سيفعل؟

— لن تفعل شيئاً، كلّ ما تأخذه معك كلّ أوراقك... شهادتك وشهادة خبرة وصورة بطاقة وجواز سفر، وعلبك بالكثير من الحديث، وخاصة الكاذب منها... ارفع من شأن الباشا، ولتصفه بالأوصاف المناسبة ومكانته الاجتماعية... فلا تذكره بأنّ شهادته لم تتعدّ الابتدائية، وعلبك...

— لكن...

— توقع خيراً... إنّها الطريقة المثلى... هيّا إلى فنجان القهوة.

شيء غريب يدفعه، يتحرّك داخله بعنف، ذهب خياله وعقله إلى وادٍ بعيد، كسب سريع، وفي عام واحد تحلّ كلّ مشاكله، فيرفع من قدر أسرته، يكفل لهم الحياة السعيدة، تذهب أمّه لحجّ بيت الله الحرام أمنيتها، في العام

التالي تصبح وفاء زوجته، وتساfer معه، منزل جديد... يعود... إنه العائل الوحيد لهم، إخوته في سن حرجة، وكثير من المشاكل كانت نتاج سفر ولي الأمر، أخذ بيت في نفسه الطمأنينة، كان الجميع في القرية يعرفون بعضهم البعض، عادات وتقاليد طيبة، بعضها مازال ساري المفعول، إنه بجوارهم وإخوته أيضا لم يكن أحد منهم فظا، فهم دائمو الصلاة، والجميع يحبونهم، انشطر بين مؤيد ومعارض، ارتفعت نسبة الموافقة والتأييد، وتحركت الأماني بقوة، ازدحمت الرأس بالغد الرائع للنجاح والولوج للسعادة من باب خير ليس فيه شبهة، أمه تدعو له، فأقرانه تزوجوا أغلبهم بل كلهم، أمامه استعرض إخوته ماذا سيكون أمرهم غدا، استشعر سعادة في عيونهم وأملا يراد أحلامهم وسعة العيش التي ستغمره ستعم عليهم، صاغوا أحلامهم فوق كتفيه النحيلين... صاغوا آمالهم... كيف الطريق إلى القاهرة؟ دخيل هو لا يعلم الدروب جيذا ولا علم له بأنفاسها اللاهنة وهوائها المحمل بالغبار والدخان، هو المنتسم لعبق أزهار الربيع والمراقب لنسمات الفجر الندية، والمباغت بزيارات المساء وأحاديث القمر والحقول المثمرة، الملابس اختلفت، والألفاظ تباينت من محطة الوصول وحتى منزل ابن خالته، حتى الروائح غريبة عليه... بين استقبال حافل وكلمات الترحيب والاطمئنان على البلد بكل من فيه، كانت ليلة طيبة، فأنس بوجوده بينهم، وأنسوا بوجوده، استعرضوا القديم من الذكريات الطيبة بمشاركة الزوجة، فكانت لبقة في الحديث ومتحدثة في مختلف الموضوعات، واستعرض الضيف ما يعمل، فالعمل منذ الصباح وحتى الثالثة بعد الظهر، ثم العودة من جديد لأعمال أخرى هو عنها بعيد، فمرة يعمل مدرسا ويعطي دروسا خصوصية، ومرة يعمل سمسارا، فيعقد صفقات بيع وشراء، وربما جاد الله عليه فيها، وسأقت

الزّوجة أيضًا مقتطفات من حياتها والجمعيات التي تقوم بها بمشاركة الجيران والتّاكسي الذي شاركت فيه، ترفع يديها بين الحين والآخر، تعزف سيمفونيّتها التي عزفتها رنّات الأساور الذهبيّة التي لا يقلّ تعدادها في اليد الواحدة عن عشرة، صوت المسجّل يصدح بأغانٍ ليس لها معنى، أحسّ داخله باستفزاز الحكاوي واستظهار النّجاح، رغم أنّ الوصول لشقتهم يمرّ بطريق تتناثر فيه الحوانيت والورش وعربات الكارو وأسراب الذّباب، وروائح تسبّب الكثير من الأذى، فطرقات شبه معبّدة، ومجارٍ باطنها انشقّ، وسلّم لا يكفي لارتفاع أو هبوط اثنين معًا، آثار الشّقوق بادية للعيون في الجدران، وشقّة لا تتراوح أبعاد حجراتها عن ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار، حاولوا فتنته بأحاديثها النّفّاذة ووضعها الماديّ المستريح وإنجازاتها في الحياة، لم يفته الحديث، ولم تجذبه طريقة العيش، أحسّ بشيءٍ من النّفور، كانت الأصباغ تملأ وجه الزّوجة، وأجزاء كثيرة من جسدها شبه عارية، وذيل ثوبها المرفوع فيظهر حتّى قرب ركبتها، دخان السّيجارة الأجنبيّة الصّنع في الحجرة الضّيقة يكاد يخنقه... ذهبت لتعدّد طعام العشاء، وسأله عن وفاء، فابتسم في مرارة، وأخذ يعرض عليه فكرته عن السّفرة، وأنّه في طريقه لسعيد الشّيخ، أخذ بدوره يشي على سعيد، ويمدحه بصفات جديدة عليه، استرسل المضيف يصف سعيد الشّيخ، وكيف استطاع الوصول، ويستعرض قدراته وذكاءه، كيف يعيش عيشة الملوك والأمراء؟! والسّيارة التي يركبها أحدث موديل، هو يعرفه جيّدًا، لا يحمل أيّ ملمح من ملامح الذّكاء أو الفطنة، يقصّ عن سعيد الشّيخ حكايات، وهو يفكّر فيه بصورة عكسيّة، ويذهب إلى آفاق بعيدة، وكلمات المضيف تعكس أنّ هناك تحوّلًا جوهريًّا في شخصيّته، ربّما استطاعت القاهرة بمجموع متغيّراتها وتناقضاتها أن تهذب

شخصيته المتردّية وترفع من شأنه، ربّما صهرته في بوتقتها، وعصرته بأفكارها فاستنبتت فيه شخصًا آخر، تبادلًا للحكايات... صاحبه يمدحه، وهو لم يسمع يومًا إنسانًا من قريتهم يمدحه، لم يشهد له أيّ فرد بسموّ عاطفة أو نبل موقف، لكنّه استبعد كلّ القديم ورحّب بالموصفات الجديدة، ابتسم... ألسْتُ أنا عازمًا على أن أكيل له المديح والثناء؟ ألسْتُ قادمًا ألتمس منه العون؟... آه... كلنّا إلى سعيد الشّيح نسعى ونلتمس البركات، كلّ شيءٍ في الدُّنيا قابل للتغيير... قال لي: يا بني، ارتدّ ثوب الفضيلة بقلبك، وامض في طريقك أيّا كانت وعورة الطّريق ستصل... هل كلّ الأشجار تقف شامخة... كما أشجار النّخيل؟... انظر إلى العنب من أشهى أنواع الفاكهة... تمتدّ فروعه، ولكنها دائمًا تلتمس المعونة؛ فيصنع لها الزّارعون حمّالات خشبيّة تقيها وتقي الثّمار من الوقوع في الطّين... لا تخف إن كنت تحمل عقلًا حقيقيًا وقلبًا صائبًا... فإنك ستجدف كما الحوت في محيط عميق حالك السّواد حتّى تجد بقعة الضّوء والنّور وتتّجه إليها... هكذا يفعل رسل الإنسانيّة وعلمائها الحقيقيّون الذين يتبعون سعادة للبشر في الدُّنيا والآخرة... فالنّور هو الأمل المصبوغ بمعرفة الحقّ والخير... وبمعرفة المبدع الجبّار سبحانه.

بالغوا في ضيافته؛ فتعدّدت صنوف الطّعام وكثرت، وكؤوس شراب ما بين ساخن ومثلّج، عندما شعروا بتمايل رأسه واحمرار عينيه تركوا له الحجرة لينام مستريحًا... ألقى بنفسه على المخدع الواسع بمفرده وكتب كلّ العناوين التي يجد فيها سعيد الشّيح، وكذلك أرقام تليفوناته، واعتذر المضيف عن عدم استطاعته الدّهاب معه... أيقظته في الصّباح، سأل عنه، اعتذرت بأنّه تحرّك من السّادسة صباحًا لعمل مهمّ، لم يستطرد في الحديث، وبمجرّد أن غسل وجهه صمّم على المضيّ، ولكنها أقسمت أن يتناول إفطاره، لقيات

معدودات وصنع ابتسامته، وأغلق حقيقته، وأسرع بالمضيّ بعد أن كال لها الثناء والشكر... طالبتّه أن يعود، ألقى معاذيره، واختلق أسبابًا وأسبابًا...

حجز غرفة في فندق، غير ملاسبه، وتناول إفطاره، واتصل بسعيد الشيخ؛ فضرب له موعدًا في آخر اليوم، مضى إلى وسط المدينة، يرقب ويتفرّس الوجه والحوانيت وكلّ صغيرة وكبيرة.

في الموعد المحدّد استقبله بأشّ الوجه مرحّبًا، يقطن حيًّا جديدًا ليس من الأحياء الرّاقية القديمة، ولكن تبدو على بيوتاته معالم الثراء، الشوارع اكتظت بالسيّارات، الحجرات متّسعة والأثاث الحديث حتّى معلّقات الجدران من رسومات وألوان متناغمة وإضاءة متنوّعة بين خافتة ومبهرة، استقبله بجلبابه المزركش الجميل، أثناء تناول الشاي، وبين الرّشقات قصّ عليه بما حمّله للحضور، ابتسم وأعلن له أنّه رهن إشارته، كعادته المستحبّة دائميًا، قاده لحجرة مكتبه، وأثناء تناولهما للقهوة الخاصّة التي أشار عليها للخادمة، أخذ يقلّب أوراقًا وأوراقًا، عشرات من جوازات السّفرة وتذاكر الطّيران، يكتفي بالتّقليب ورشف القهوة، وصاحبنا تلتصّص عيناه، ويتأكّد بأنّه ليس بالسّهل الهين، يمتصّ ريقه في صمت، والضّيف يهاتف أكثر من فرد، وجميعهم يحملون لقب الباشاويّة... أنصت بشغف... وبلا حسد... يقول ها أنا حاصل على شهادة عليا قادم أستجدي من لم يحظّ بالابتدائيّة...

جلس بجواره في السيّارة، نفير السيّارة لا ينقطع، أخذ يلعن ويسبّ، ولا يحفل بما يطلقه لسانه من لعنات وأقذع الشّتائم، ومنها ما يرفضه الدّين ويعاقب عليها القانون، ينكمش، ولكن ليس أمامه سوى الابتسام

والاستحسان، وعليه أن يكيل المديح والثناء، في بدلته ذات الألوان المتباينة تقدّمه، ومضى خلفه كتابع... في صالة الاستقبال المترامية الأطراف الرائعة الديكورات، وقفت الفتيات لتحيّته، لم ينظر إليهنّ، ولم يرد حتّى التحيّة، طالبه بالجلوس، ودخل حجرة المكتب، فتيات زيتهنّ مبهرة، ملابسهنّ قصرت بما يكفي، شعورهنّ امتزجت، وتلوّنت بأكثر من لون، تتلصص عيناه، وتختلس نظرة، ولكن أين يذهب بنظره؟... كلّ الأنحاء والجهات... الفتيات، ينظر إلى الأرض، هؤلاء ماذا يبغين؟ أليس هذا مكتب توظيف، ويحمل رقمًا من وزارة القوى العاملة؟ خرجت السكرتيرة المشوقة القوام... جلست... أشارت إليه بالقدوم، فتحرّك نحوها...

— ماذا تريد؟

— أنا يا سيّدتي قادم مع سعيد بيه... تحوّلت، ورسمت ابتسامة عريضة...
— أهلاً... أهلاً... تفضّل بالجلوس... دقائق وخرج سعيد وعلى وجهه تبدو علامات ضيق وتذمّر... صاح بصوت عالٍ... موجّهًا حديثه للفتيات:
— قلت لكنّ أكثر من مرّة... لا تحضرنّ إلى هنا... هنا مكتب عمالة، وليس... غمز بعينه، فلاحظها جيّدًا، لكنّه نظر إلى الأرض، وكأنّه لم ير شيئًا... لم تبدُ على أيّ منهنّ بادرة تذمّر، ولم تتكلّف إحداهنّ عناء إطفاء سيجارتهما... بادرته إحداهنّ...

— وأنا ماذا أفعل؟

— ليس الآن... اذهبي...

— لن أذهب حتّى أعرف رأسي من رجلي... تقدّم صوبها... ووضع يده فوق رأسها...

— هذه رأسك يا روح أهلك... ثم امتدّت يده إلى فخذها، ومكماً...
وهذه يا دكتورة... أبعدت يده، وقد تغيّرت ملامح وجهها، ورجعت إلى
الخلف خطوتين باكية قائلة...

— هذه آخر خدماتي... طول عمري معكم خادمة... واليوم...

— ماذا أفعل لك؟... لم تفلحي...

— لم يكن عقد زواج... كان...

أسرع... أغلق فمها... أبعدت يده، وهي تقول... هنا أفضل ألف مرّة
على الأقلّ ممكن أقول لا...

— يعني كنتِ فاكرة نفسك مسافرة تطوفي حول الكعبة... يا روحي
عليك... أنتِ عارفة من الأوّل، وكلّ زميلاتك مشّوا أمورهم هناك،
وكسبوا، وكلّ واحدة بقي لها رصيد في البنك أفضل من... أسرع
مقاطعة...

— أنا أعمل إيه؟...

— اشتغلي هنا بمزاجك... وألفين جنيه في الشّهر نعمة ورضا... احدي
ربّنا.

— ما يكفّوش...

— شوفي لك حتّه تانيه...

حاولنّ معها أن تهدأ، علا صوتها... حاولنّ منعها، فازدادت حدّة صوتها
وهي تبكي...

— أنا هبلّغ البوليس... يصرخ فيهنّ جميعاً... يتحدّث، ويظهر لهنّ وجهه
الحقيقيّ، ويؤكّد أنّهنّ يعلمنّ ما هي علاقته بأصحاب المكانة والرّأي وأكابر
البلد، وأنّ بوليس الآداب بإشارة واحدة منه أو باتّصال تليفوني سيقبض على

أَيُّ مِنْهِنَّ فِي السَّاعَةِ نَفْسَهَا، ثُمَّ يَسْرِفُ فِي الضَّحْكَ وَهُوَ يَصِفُ لَوْ أَنَّ إِحْدَاهُنَّ
ابْتَعَدَتْ فَيَكْفِي طِفْلَ صَغِيرٍ يَشْوَاهُ وَجْهَهَا، وَالطَّرُقَ مُتَعَدِّدَةً... يَصْمَتْنَ،
وَيَحْسُّ وَكَأَنَّهِنَّ انْكَمَشْنَ فِي أَمَاكِنِهِنَّ... أَخَذْتُ تَبْكِ بِحَرَقَةٍ، مَالَتْ عَلَى
قَدَمِيهِ تَقْبَلُهَا، رَفَعَهَا مِنْ شَعْرِ رَأْسِهَا فَوَقَفْتُ... بِطَرَقَاتٍ مُتَعَابِقَةٍ فَوْقَ
وَجْهِهَا الَّذِي تَلَوَّنَ بِمَزِيحٍ مَخِيفٍ مِنَ الْأَلْوَانِ وَالذُّمُوعِ...

— دَلُوقَتِي بِالسَّلَامَةِ... بِكَرَةِ يَا حَلُوةَ تَكُونِي عِنْدَ سَوْسُو، وَسَوْسُو عَارِفَةٌ
الْمِيعَاد... خِلَاصٌ يَا سَوْسُو...

أَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا... انْطَلَقْتُ بِصُحْبَةِ سَوْسُو وَمَضَى أَغْلِبُهِنَّ، رَأْسُهُ تَدُورُ
بِأَفْكَارٍ شَتَّى، لَكِنَّهُ يَسْتَبْعِدُ الْفَهْمَ...

فِي السَّيَّارَةِ، وَعَلَى أَنْغَامٍ غَرِيبَةٍ يَضْحَكُ سَعِيدُ الشَّيْخِ وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ أَفْعَالَ
الْخَيْرِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا، فَيَصِفُ الْفَتَيَاتِ بِأَنَّهِنَّ كَنَّ عَلَى شِفَا حَفْرَةٍ، وَلَوْ زَلَّتْ قَدَمُ
أَيِّ مِنْهِنَّ لِضَاعَتِ، وَبَدُورُهُ قَدَّرَهُ اللَّهُ، فَزَوَّجَهُنَّ فِي الْحَلَالِ، أَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجِدَ
لَهُنَّ عَمَلًا يَحْفَظُ لَهُنَّ كِرَامَتَهُنَّ، وَبَدُورُهُ يَمْدَحُ أَفْعَالَهُ، وَبَدَأَ أَنَّهُ لَا يَكْتَرِثُ بِهَا
يَحْدُثُ، وَيَضْرِبُ لَهُ مَثَلًا غَرِيبًا...

— يَا أَخِي، ذَا أَنْتَ لَوْ رَمَيْتُ كَسْرَةَ عَيْشٍ فِي تَرَعَةٍ هَيْتَجَمَّعَ عَلَيْهَا سَمَكٌ،
وَمُمْكِنُ تَصِيدِ وَرَبَّنَا يَرْزُقُكَ... الْمَصِيبَةُ فِيهِ نَاسٌ مَا تَحْمَدُشُ رَبَّنَا عَلَى النِّعْمَةِ...
أَعُوذُ بِاللَّهِ...

هَلْ نَحْنُ مُجَانِينُ؟... إِنَّنَا نَقْدَسُ أَقْلَ النَّاسِ شَأْنًا... هَلْ الْقَهْرُ أَوْ الْفَقْرُ
أَدَّى بِنَا إِلَى أَنْ نَرْفَعَ قَدْرَ أَقْلِنَا إِمْعَانًا فِي إِذْلَالِنَا أَوْ كَمَا يَقُولُونَ إِنَّنَا مُجَانِينُ؟...
سَرْنَا فِي رَكْبِ أَوْلِي الْأَمْرِ، أَصْبَحْنَا كَمَا الْأَبْلَهُ عَقْلُهُ فِي السَّمَاءِ وَجَسَدُهُ بَيْنَ
النَّاسِ يَمْشِي...

لم يحلم يوماً بأن تلج قدماه هذا المكان، الأنوار خافتة وأغلبها يميل إلى اللون الأحمر، كثيرون يمطرون الرّاقصة بعقود مصنوعة من ورق البنكنوت المختلف المذاهب والألوان، كلّ ينهض ويفرّج عن كربه، فتتحرك أقدام الرّجال ومؤخّراتهم أفضل من الرّاقصة المتهرّئة الثّوب إلّا من وريقات الثّوت!!... سعيد الشّيخ معروف، فكم من واحدة تبادره بالتّحيّة، وتطبع على خدّه قبلتها، وكم من رجال يبدو من جميلٍ ملبسهم علوّ شأنهم يستقبلونه بالأحضان! الجميع يعرفونه، يقصّ عليه في همس... هذا ابن باشا سابق، استطاع أن يساعده في محتته... هذا ابن أخ وزير، وهو شابّ معروف بنزواته، وأنّه مثل الخاتم في إصبعه، حاول معه أن يتذوّق كأساً من الخمر، لكنّه رفض... حاول معه أن يقضي الليل عنده، لكنّه أبى وألقى معاذير كثيرة، قضى ليلته مصاحباً هذا الشّيخ كما هو مسمّى به قسراً عنه، وأقسم على ألاّ يعود ثانية مهما كان الأمر.

عزم على ألاّ يعود خالي الوفاض... توطّدت العلاقة بينه وبين عامل الفندق، وحكى له ما كان، فأشار عليه برجل طيّب يدير مكتباً للعمالة... ذهب إليه مباشرة، وأخذ أوراقه، واتّفق معه على أن يدفع خمسة آلاف جنيه يوم يستلم العقد... اعتذر، وفي النّهاية انتهى الأمر بدفع ألف جنيه، وبعد العمل يأخذ منه أجر شهرين، وطالبه أن يأتي في الغد ليقابل القادم للتّعاقد...

لم يجد سوى مقعدٍ واحدٍ خاليًا... بلا تردّد اتّجّه إليه، بجواره كانت فتاة صغيرة السنّ وكأنتها صورة من أخته الصّغيرة التي تدرس في الصّفّ الأوّل الإعدادي... نظر إليها، وتألّم من الكحل الثّقيل الذي يكحلّ عينيها،

وحدودها الغضة الطفولية الملوّنة وشفيتها الدقيقتين الورديتين... ألوان
غريبة فوق محياها... ابتسمت له... حاد يبصره عنها، وحاول أن يقطع
الوقت في استخراج أوراقه وإعادة قراءتها وهو الحافظ لكل حرف فيها...
من فوق حجرها سقط منديل صغير، تناوله... امتدّت يده إليها... في براءة
وظفولة شكرته... امتدّت يدها إليه بقطعة من اللبان... شكرها، ولكنّها
صمّمت... وافق... همست قائلة...

— أنت من مصر...؟

— لا...

— أنت منين؟

— من بلد تانيه...

— مصر حلوة قوي... كان نفسي أقعد هنا... أبويا مصمّم أسافر...

— وتسافري ليه؟... بصوت طفولي يهتّز طرباً...

— أتجوّز وأسافر...

— أنت سنك... أسرع...

— هس... هس... أنا سنّي واحد وعشرين...

— الكذب حرام... تروحي النّار...

— يبقى الحقيقي ثلاثر سنة إلا...

— لكن...

— اسكت، أبويا جنب منك...

نظر إليه وتجاعيد السنين فوق جبهته توّكّد حالته، صوته وهو يتحدث

بحزن بائس ضعيف... وتهمس كلماته متدلّلة لمن معه...

— هذا أبوك...

— نعم... والي جاره محامي... وفي كسوفٍ بادٍ... والي جنبه عريسي.
نظر إليهم... المحامي يتحدث بحذلقته المتكلفة... مصمّم على أن يعقد
الصّفقة... والعجوز المتصابي الذي بلغ أُرذل العمر يتملّقه، ويقسم أنّه بهذا
المبلغ يستطيع أن يتزوَّج أكثر من واحدة... والأبّ يعارض، ويبغي مزيداً من
المال... بين أخذٍ وردٍّ ولباقة المحامي، استطاع إقناع كلّ منهما... أشعل
المحامي سيجارته، وأخذ يجّهز أوراقه... عاد ينظر إليها... هامساً...
— وأنتِ موافقة...

— اشترى لي فساتين وملابس داخلية حلوة قوي... وخمس صنادل
وتلات شباشب وعلبة زينة... و...

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ولم يسمع بقيّة حديثها، وهي تصف...
لكنّه وجد نفسه مدفوعاً للإنصات إلى الحديث الدائر بين الزوج والمحامي
والأبّ... لم يدر بنفسه، وتوجّه بالحديث إلى المحامي...
— إنَّ جهنّم أقرب إليك من جبل الوريد... اتّق الله... انتصب واقفاً...
— من أنتِ أيّها الغبيّ حتّى تتحدّث إليّ بهذه الطريفة؟...

أخذت الكلمات واللغات تخرج كالحمم من فمه... صرخ في كلّ
الجالسين... أليس جرماً هذا؟... عمّ الهرج القاعة، وخرج واحد من
أصحاب الشّأن برتبة مستشار في القنصلية... أوسعه الحراس ضرباً... ورغم
كلّ هذا ينظر إلى الفتاة الصّغيرة، ويتذكّر أخته... لم يشعر بضاوة الضربات
ولا قسوتها... في قسم الشرطة حضر سعيد الشّيخ ومعه محام معروف...
وأخرجه... ودّعه شاكرًا له... حاول أن يأخذه معه... ابتسم قائلاً... أخذت
نصيبي...

حمد الله أنه لم يسافر... فقد فاضت روح أمه فوق ذراعه... بعد عودته بأسبوع واحد، لم يستسلم لحن واستظهر أمام إخوته شجاعة كثيرًا ما تخلّده في وحدته، بمرور الأيام حلّ وفاء من عهدهما... وتزوَّجت وأنجبت، وهو لم يتوقّف عن عمل مطلوب... وصار لإخوته أبا وأماً... واليوم وقد مضى ما يقرب من خمسة عشر عامًا أو تزيد قليلاً، وحدي عبد الوارث مدرّساً بالمدرسة الثانوية بقريته... لا ينسى قسمه مطلقاً بعدم الذهاب للقاهرة أبداً.

يفرك يديه وهو يتذكّر أبويه، ويترحم عليهما... فجمال عبد الوارث اليوم يعمل طبيباً بمستشفى المبرة بالمدينة... وها هو حسين عبد الوارث بدوره يتبقّى له عامٌ واحد، ويحصل على شهادة في الهندسة والتكنولوجيا... وكلّ الأمور تمضي، وهو قد تعدّى الأربعين من عمره... لكنّه يشعر بسعادة غامرة... لكن ما زالت أحاديث حسين تثيره وتقلق مضجعه... فالفتى ثورته غريبة، وأفكاره أغلبها يلتقطها من أفواه الآخرين... سار في درب الإخوة، وأطلق لحيته، وحفظ كثيراً من آيات القرآن الكريم، لكنّ معاملاته يشوبها العنف، يضحك وهو يحاوره...

— حاول يا حسين، ما تلغيش دماغك.

— قصدك إيه؟

— شيخكم بيحاول يستفيد حتى من إطلاق لحيته...

— حرام عليك يا أخي...

— هو أقرب إليّ في السنّ... أعرفه جيّداً، ومنذ أن سُجنَ أوّل مرّة ويعلم الله أنه كان عميلاً لأمن الدولة، ولذا فقد تركوا له العمل في المحاجر لا يعلم اليوم مقدار ثروته...

— ينفقها في سبيل الله... —

— أقربهم إليه يوماً قال كلمة لا أنساها... إنه يضرب في الطَّعام... كضرب وليّ السَّوء في مال اليتيم... ضحك، فلم يجاره في الضَّحك... يحاول أن يُنهي الحديث، ولكنَّه يصمَّم على رؤيته، ويتحدَّث عن عدد زوجات الشَّيخ والأموال التي بحوزته اليوم، ومن أين تأتيه؟ فالأخ الأكبر معلَّم وقارئ جيّد وحافظ لكثير من آيات الله، وأفعاله وكلّ حياته تعكس مدى إيمانه وصدق أقواله... يتهرَّب بمجرد أن تأتيه الفرصة من وجه أخيه...

من أكثر الأشياء المهموم بها أخوه المهندس، وماذا يفعل معه؟... وهو يتمنّى ألا يكون قاسياً معه، فربّما يفسّر قسوته وفق رؤيته... يريد أن تكون له شخصيَّته وإرادته الحرَّة في حياته واختياراته...

مَن يفعل الشرَّ مختاراً، ويعلم أنه شرٌّ؟! لا أعتقد، فالكلُّ وأكبر الأشرار في الدُّنيا له مبرّرات، ولكننا لم نطلق للسانه العنان أن يتحدَّث بما يمليه عليه قلبه، وأصدرنا أحكامنا قبل سماعه.

لماذا الكلّ مصمَّم على رؤيته وفكرته، وما دونها خطأ؟... فهو مجاهد ومخالفه كافر!! والمصيبة أن الجميع يؤمنون بالله... الأمثلة كثيرة وعديدة... فأحدهم يوماً سأل... لا يحقُّ لأحدنا أن يفسّر ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أنه كلام مثل البشر... فهذا خطأ... كفَّروه، وهو مجرد مجتهد... أظنَّه كان اسمه الجعد بن درهم... ويوم عيد الأضحى قال الأمير: اذهبوا، فضحوا بأضحايكم، أمّا أنا فسأضحِّي بالجعد بن درهم، وهبط من فوق المنبر وذبحه في المسجد... لماذا لا يستتاب؟... لماذا يقتله؟... أليس هناك آخرة وحساب؟ — علينا أن نؤمن بوليّ الأمر... أو مرشدنا، ونسلم بكلِّ ما يقوله.

— بلا عقل... هل أنت ميّت وهو يغسلك، يقلِّب فيك كيف يشاء...

— هناك أشياء مؤكّدة لا تحتمل الجدال ولا الشكّ... فانظر حولك،
والتمس في المؤكّد قوّة لإثبات صحّة أقوالك.

— هل توجد قاعدة واحدة تصلح لكلّ شيء ولكلّ وقت؟
إذا كانت الحياة ستصبح على هذه الصّورة، فالهروب...

— إذا اعتزلت البشر، وانطويت على نفسك، تقول لنفسك احتراماً
لذاتك، فيومها ستكون وحيداً ولن تشعر بماهية العدالة... والحقّ والخير...
وكلّ شيء في الدُّنيا نتحقّق منه متى نلمسه ويلامس مضمونه أفعالنا،
ويعكس تصرّفاتنا، فشارك وقاتل وحبّ وكره وانقم وافرح؛ لتدرك الماهية
الحقيقيّة لكونك بشراً... صرخ في وجهه...

— يا بُنَيّ... أنت صغير... لا تفقد الإحساس بمنّ حولك... ستصبح
مسئولاً عن أحزان أهلك وبلدك...

وبكلّ هدوء، وبصوتٍ تخرج كلماته بثقة غريبة...

— ربّما كنت صغيراً وضعيفاً لكن تستطيع أن تحركّ جواد شعبك
الكسول... مثل ذبابة تلسعه؛ فيسهل ويتحرّك، ويجري ويثير التراب، ويقتل
الصّمت المطبق حوله... حوارات لا تنتهي، وإيمان الفتى لا يتزعزع...

تحفّز الأقدار البشر للثورات بدوافع تختلف، فتنامى ويستعر هيب
فكرها، وتسلب اللحظات الثوريّة عقول البشر فيدفعون حياتهم ثمناً...
كرامة وعشقاً، وكثير منهم إيماناً، وأغلبهم يلقون حتفهم... وهكذا تاريخ
كلّ الثورات، وخاصّة إذا كانت قلوب الثوّار بكرّاً لم تعرف المداورة
وحسابات المكسب والخسارة بعد، حتّى لحظة اقتسام الموارث والمناصب
وفوق جثث ورفات الشهداء توقّع عقود المبايعة والأنصبة المتاحة لكلّ
فصيل، لم تحقّق أيّ ثورة عدالة حقيقيّة إلاّ في كلمات الوارثين للثورة الذين

يكتبون تاريخ الكسب المشروع لهم ولمداد أقلامهم ، تأتية حكاية عبدالرحمن بن ملجم... كيف كان؟ وماذا أصبح؟ يقولون كان إنساناً تقياً زاهداً صالحاً، أرسله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى مصر تلبيةً لطلب عمرو بن العاص والي مصر حينها عندما أرسل إليه... يا أمير المؤمنين، أرسل إليّ رجلاً قارئاً للقرآن يقرئ أهل مصر القرآن، فقال الفاروق رضي الله عنه : أرسلت إليك رجلاً هو عبد الرحمن بن ملجم، من أهل القرآن آثرتك به على نفسي، فإذا أتاك، فاجعل له داراً يقرئ النَّاس فيها القرآن، وأكرمه... هذا رجل من الأوائل، يشهد له الفاروق، وحافظاً لكتاب الله، ماذا أصابه في عقله؟ وكيف استطاع مجرد التفكير في قتل من؟... الإمام عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ... من دفعه؟ ألوثه أصابت عقله؟!!! يقتل الإمام بسيفٍ مسموم أثناء سجوده، وهو يقتله يردّد قول الله تعالى: ﴿وَمِن النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ صدق الله العظيم... كم كانت قناعته بفعله، رجلٌ صالحٌ تقياً زاهداً... لا يدرك أبعاد فعلته، ويلقي بتبعته إلى قول المعزّ المذلّ سبحانه وتعالى، قد تكون أشياء لا يدركها العقل، ولا نتفهم الحكمة من ورائها، ولكننا نحسبها وفق ما تحسبه آفاقنا وأفكارنا، أليس رسول الله من قال "الجنةُ مئةَ درجَة تسعة وتسعون منها لأهلِ العقلِ، وواحدةٌ لسائرِ النَّاسِ"، صدقت يا سيّدي يا رسولَ الله، أين ذهب عقل القاتل ساعتها؟

الغريب والمثير أن ابن ملجم طلب من الحسن متوسلاً ألا يقطع لسانه على الرّغم من عدم جزعه من قطع اليد والرّجل... فلماذا؟ يقولون لأنّه لا يريد أن تضيع منه لحظة دون قراءة القرآن!!! كم علامات تعجّب يجب أن توضع... سبحانك بيدك الأمر.

مع أذان الفجر، أغلق كتابه، وهمّ ليتوضّأ، وهو يدعو أن يلهم الله أخاه
الابتعاد عن أفكاره...

يتذكّر جيّدًا فترة الثمانينيات والتسعينيات في القرن الماضي، نعم، تسلّطت
السُّلطة وتصاعدت نغمات الاحتجاج في وجه الظلم والقهر، تباينت ردود
الأفعال بين ساخطٍ وصامت، واستثمر أولو الأمر، ومعارفهم، وبطانتهم،
كلّ ما هو متاح فانتفخت كروشهم وثوراتهم بصورة غريبة، لا مكانًا لمجتهدٍ
في منصبٍ تؤهّله إليه إمكانياته وقدراته فابن الخفير أفضل مكانة له هو خفير،
ويمكن أن تتمّ ترقّيته إلى عسكري أو أمين، أمّا أن يصل لرتبة الضابط
فممنوع، وإذا أجزى فوق قواعد خاصّة جدًّا، فمن يدفع يدفعه من قبض
الأموال بيديه للأمام فيقلّد المنصب المتاح، بعد أن يستكفي أصحاب
المقامات العالية وبطانتهم، شعور يتغلغل بالحدق والكراهية وانقسام بين
شركاء الأرض والحياة، وانعدام الرؤية ممن يتقلّدون المناصب والمواقع
الحصينة، في البداية اتّهمت أيّ ثورات للناقمين ممن لا حول لهم ولا قوّة بأنهم
دعاة للكفر والشيوعيّة، وشاعت حولهم الأفكار والاتّهامات فهم حاسدون
وناقمون وكارهون لبلدهم، وكأنّ البلد صارت لفئة واحدة لا تتجاوز
الخمسة في المائة من المجموع الكلّي، كم يمتلكني الخوف كلّما سبحت في
الدنيا حولي، كم من مشاهد تتوقّف العين عليها فالصائد النّائر للحبّوب
ليس لجود وكرم ينثر حبّوبه، وإنّما همّه الأكبر أن يحظى بصيدٍ ثمين في شبّاكه،
فهلّ أصبحت الدنيا حولنا يمتلكها الصّائدون، الجميع يريدون جمع الثّمار
رغم أنّهم لم يزرعوا الأرض، بثعلبة... بدهاء... بوضع اليد غضبًا عن
أصحابها، وهذا ما جعلني أحترم الأسد الحيوان؛ فإنّه يقوم بصيد فريسته
بنفسه... بيده، لا يحتاج لمدّورة وثعلبة أو يدفع آخر نيابة عنه، بشرّ بلا

مقومات حقيقية للقيادة يتقلّدون مناصب وكراسي يجلسون عليها، تحسّ بأنّهم أقزام يتناولون، يضحك وهو يتذكّر حكاية الحمار الذي غار من الفرس وهي ترقص في الفرح وراح يقلّدها، كيف ضحك النّاس منه وعليه، في وقت فراغه وبعيداً عن مسيرة الدّروس والكتاب المدرسيّ الملتزم به حرفياً، وفق الخطّة الزّمنيّة الموضوعية من مستشاري المادّة في الوزارة، عندما يجلس إلى تلاميذه فيحدّثهم... تأمّلوا الدّنيا من حولكم وتعلّموا منها ولو استطعتم أن تحبّوا ما خلق الله سيحبّكم كلُّ خلق الله، تأمّلوا تلك الأرض الجرداء السّوداء القاحلة، التي لا يرتادها إنسٌ ولا طير، هي وكر أفاع وضوارٍ، لو فركت تراهبا بين يديك يمكن أن تجدها عفنة أو نجسة، تستطيع أن تجعل الرّوح تدبّ فيها، لو نفخت فيها وبارادة الله سبحانه العليّ القدير ورويتها بالماء، تستطيع أن تحيلها إلى جنّة خضراء تبهج النّفس بزهور وترحم المعدة من جوع وترتادها كلُّ الطّيور... تستطيع بيدك أن تغير وتنظّف وتجمّل وتجمّل وتزيّن وتزيّن، كلُّ هذه صفات الإنسان الحقيقيّ الذي يفكّر في ملكوت الله من حوله، لا تحسب النّهائيات والتّناجح مسبقاً، عليكم أن تمتلكوا جراءة المواجهة... وبالحبّ والخير والأمل تكون المواجهة صادقة... فلا حبّ لأعداء الحبّ ولا تبصر العالم بعيون من حولك.

الفصل الرابع

لولا

بين دخان سيجارتها والضباب الذي يحجب جمال الرؤية في القاعة الكبيرة الصاخبة، فتموج بالغناء تارة والرقص تارة أخرى... تبسم وتضحك وتصاح زميلها بقوة، وتزداد ضحكاتهما، وداخلها بكاء خفي... يهمس في أذنها بنكتة تخرج عن نطاق الأدب... يضحك وهي تجاربه، وتتمنى أن تقول له أنت قليل الأدب... وتذكر ما سمعت سابقاً... ما أسوأ أن تتعلم الأدب من قليل الأدب!... فتضحك بقوة، وهو يظنها تتفاعل أكثر، فيزيد ويواصل بثه لمنظومة النكات إياها، هل تعنّفه؟... ماذا سيقولون؟... إنّه متخلّف... ستنتشر الحكايات عمّا بها، وربّما وصفوها بصفات كثيرة، وفي همس مشوب باللذّة، ومن عين تخرج منها دعوات هائمة، فيصل الهمس لأذنيها واضحاً جلياً... تنطلق الشفاه واصفة اللحظة، يستمرّ في همسه واصفاً كيف البداية... من أخمص قدمها وتحديداً من إصبع قدمها الأكبر فباطن ساقها حتّى يصل لضغط السّاقين... رغبة جارفة تدفعه ليبتّ حديث شبق ورغبة نائرة في جوّ مشحونٍ بكلّ عوامل الإثارة والمتعة، وحين لحظي يداعب مخيلتها وتسترّد وعيها، ونفور غريب وتنمّر واضح من عينيها، وهممة تعني

السَّخَط على تلك الرَّغبة... يقترب أكثر... تدفعه للخلف، فيثور أكثر... تمتدّ يده ليأخذها في صدره... يتأملها، وينفجر ضاحكًا... تناقض كبير بين ما بداخلها من مشاعر وبين ما تراه حولها من أفعال... تشعر برائحة نتنة تندفع لخياشيمها رغم الدُّخان الكثيف... هل هي مجبرة أن تساير أصحاب هذا الفكر وفقًا للطَّبقة التي تنتمي إليها؟... فهنا كلُّ شيءٍ مباح تحت مسمّى الحرِّيَّة والثَّورة... ألم غريب متحكّم في كلِّ أجزاء الجسد، رغم ابتسامتها التي ترسمها جيّدًا، والضحكة التي ترنّ وتدقّ آذان من حولها... وكأنّ تقاليد الحرِّيَّة الحديثة أن تنطلق الطُّقوس الوثنيّة... أفكار شيطانيّة تعربد في الأجواء، فتتحرك الأنامل، وتهاجم مناطق ممنوعة ومحرمّة، فتثير النزعات والشّهوات والدّعوات... لا تتفاعل للدّعوات... هل هي بطبيعتها متخلّفة أم أنّها لا تستطيع مجاراتهم في أفعالهم؟... هل هي حاقدة على أفعالهم وهوهم، أم ما زالت جذور جاهليّتها تلقي على عقلها بظلال الشكّ والرّيبة فيما يدور حولها؟... تنبش في ذاكرتها، لعلّها تجد مبرّرًا... هل هي على صواب وجميعهم على خطأ؟... لا تستطيع أن تسبر غور أفكارها وتمنعها المعتاد، وأيضًا لا تستسلم.

عاد شيطانه يهمس في أذنيها، فيقول إنّ الجنس حالة فريدة من المتعة الحسيّة، فيه تتبخّر الأحزان، وتمتزج الموسيقى والحركة كما الشّفاء والأنامل، وتعزف سيمفونيّة يودّي كلّ عازف من أعضاء الجسد معزوفته في نشوة بالغة وفق الدّور المحدّد له، لكن بلا قواعد سابقة... طقوس وقتيّة فريدة لا فائدة لها، ولكنّها في النّهاية تخرج كأجمل معزوفات الدّنيا.

يتوقّف عن الحديث، ويقترب هامسًا...

— أنتِ جتّي... —

— لا توجد جنّة على الأرض... —

— تعال نصنعها... —

بيتسم، وفي إصرار... —

— يوم اخترق الشيطان حدود الجنّة، خرج آدم وحواء... —

— فلنخرج منها، ولنحيا... —

— الحياة ليست سهلة... الطّرق وعرة. —

— أنا أشعر بالمتعة فوق الطّرق الوعرة... —

— وهبنا الله كلّ هذا الثّراء... لماذا نعود لفكر الغابات والأحراش؟ —

— في تسلّق الأشجار متعة... والحياة في البراري والأدغال وسط كلّ

الوحوش... جمال وعودة للطبيعة... —

— مجرد نزوة... —

— لو عشت في قصر بمفردك... ستهاجمك الأمراض، وتسقط كلّ

أزهارك، ويصيب ثارك العطب. —

— في ظلّ التّقاليد نستطيع... قاطعها بحدّة... —

— الحرّيّة أثمر الأشياء... أريد الحرّيّة... أمضي متى أشاء، وتمضين متى

تريدين... —

— أليس مباحًا في ظلّ...؟... يقاطعها... —

— أفكارك متخلّفة... تبتسم، وتقف... —

— أنا عاشقة للحرّيّة في ظلّ التّقاليد والأعراف الموروثة... انظر

حولك... —

ماذا ترى؟... تائهون لا يدركون. —

— بل يفجرون ثورتهم... يخرجون من أطر الصورة الجامدة القديمة...

يبعثون في نفوسهم الحياة...

— أتمنى الثورة... لكن الحرية المطلقة فوضى...

تحركت، واستأذنت في المضي... نفضت عن رأسها ما قيل... حاول أن
يحيد بها عن المضي، ولكنها عزمت على أمرها... الطريق موحش كثيب،
والمنطقة نائية منعزلة... تزداد حرارة أفكارها، وفوق زجاج سيارتها الأمامي
صور مشوهة لأجساد عارية... تضغط زرّ مياه زجاج السيارة الأمامي،
وتدور المساحات فتغسل الزجاج، وتزيل الآثار... ترنّ في أذنيها الكلمات،
وهو يقول... سأمنحك الفرصة... حاولي أن تتحرّري من قيود العبودية...
افتحي أبوابك... ستنهار كلّ الحصون المشيدة بأفكار عفا عليها الزمان،
ويومها تعالي... وتحسسي موضع قدميك واغرسها بين اللاهثين للحياة
ومتعتها، ويوم تصلين لتلك المرحلة ستشعرين بإنسانيتك، ستنفجر كلّ
الأنظمة البالية وسترفعين بيديك راية النّصر وترسمين بأصابعك علامة
الانتصار، وكأنّها في محاورة قائمة... أي انتصار أحقّقه؟!!

التّعري نصر!! العهر والفجور وحرية الجسد...!! من خالف شرع الله
تلفظه رعاية الله... سقطت الملائكية عن آدم وحواء يوم خالفا شرع الله
وبانت صورتها الإنسانية، وشعرا بآدميتها وظهرت لهما سوءاتها وهما
بمفردهما... وكلّ منهما خجل من الآخر... قبح خلق أم خلق قبح؟!... ماذا
نفعل؟ هل جميع أجهزة السّلطة في بلادنا تتآمر علينا جميعاً؟ هل تخلق داخلنا
القبح؟ تضحك لنفسها... لو قبض علينا جميعاً في هذا المكان النائي من
سبيبت منّا داخل القسم... داخل الحجز الحديدي... كلّ أجهزة الأمن
والمحاسب والمعارف والكبراء ومنافقي السّلطة وحرّاس العرش وكلّ

الطُّعَاةِ وَالْأَفَاقِينَ وَدَعَاةَ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ أَوْ عَقُوقِ الْإِنْسَانِ سِيرْفَعُونَ صَوْتَهُمْ بِالِدَّعْوَةِ لِلْحَرِيَّةِ... هَلْ تُدْرِكُونَ مَنْ أَكُونُ؟ جَمِيعِنَا نَنْتَمِي لِأَكْبَرِ الْأَسْرِ الثَّرِيَّةِ فِي الْبَلَدِ، كِبَارِ الْمُحَامِلِينَ سِيحْتَجُّونَ وَيَطَالِبُونَ بِالْعَفْوِ الْمَشْرُوطِ بِإِتَاحَةِ الْفِرْسَةِ لِكُلِّ الشُّبَابِ بِمَهَارَسَةِ حَقُوقِهِمِ الْمَشْرُوعَةِ... وَفَقِ مَا حَدَّدَهُ الشَّرْعُ وَالْقَانُونُ.

هَلْ تَفَكَّرُ الْأُنْثَى فِي الثَّوْرَةِ؟ حَيَاةَ الْأُنْثَى ثَوْرَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ، فَحَيَاتُهَا كَلَّهَا تِنَاقُضٌ وَوَاضِحٌ، فَعِنْدَمَا تَتَفَتَّحُ أَنْوُثُهَا وَتَتَأَلَّمُ فِي شِبَقِ الْأَحْلَامِ الْوَرْدِيَّةِ وَتَبْدَأُ بِرَاعِمِ الْأَزْهَارِ فِي النَّمْوِ وَالنُّضْجِ، فَتَتَكَوَّرُ مَنَاطِقُ مِنَ الْجَسَدِ، وَتَحْرُصُ عَلَى الْأَنَاقَةِ وَالتَّأَمُّلِ لِمَنْظَرِهَا أَمَامَ الْمِرَاةِ بِالسَّاعَاتِ، تَتَذَكَّرُ أُسَاسِيَّاتِ تِلْكَ الْحَفَلَاتِ الصَّاخِبَةِ فِي الْأَمَاكِنِ الْقَدِيمَةِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْعِمْرَانِ وَشَرَطِهَا الْأَسَاسِيِّ الْمَلَابِسِ السَّوْدَاءِ... تَتَعَجَّبُ وَلَا تَدْرِكُ... أَتَشْحُحُ الْقَدَمَاءَ بِاللَّوْنِ الْأَسْوَدِ فَلْبَسُوهُ فِي حَفَلَاتِ الصَّرَاحِ وَالْعَوِيلِ، وَصَنَعُوا مَذْبَحًا لِلشَّهْوَةِ الْمَحْرَمَةِ فِي الْأَمَاكِنِ الْمَهْجُورَةِ الْقَدِيمَةِ، فَفِي سَبْعِينَاتِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ خَرَجَتْ أَفْكَارُ الْهِيْزِ وَالخَارِجِينَ عَنِ قَانُونِ الْمَدِينَةِ وَالِدَّعْوَةَ لِلْحَيَاةِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَتَزَعَمَهَا "تَشَارْلَزْ مَانَسُون" فِي بِلَدِ الْحَرِّيَّاتِ الْمَطْلُوقَةِ أَمْرِيكََا، وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ وَمُرِيدُوهُ مِنْ فَتْيَانِ وَفَتْيَاتِ... هَلْ كَانَ وَرَاءَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ أَحَدٌ؟ كَانَ فَكْرُهُمْ تَكْفِيرُ الْمُجْتَمَعِ، وَأَمْنِيَّتُهُمْ جَرَّ الْبِلَادِ (الْأَمْرِيكِيَّةِ) لَطَائِفِيَّةً وَقَتْلَى. وَتَبَلُورَتْ الْفِكْرَةُ بِقَتْلِ مُمَثِّلَةِ أَمْرِيكِيَّةِ ذَائِعَةِ الصَّيْتِ فِي هَذَا الْوَقْتِ تُدْعَى "شَارُونِ تَيْت" وَصَوَّرُوا عَمَلِيَّةَ الْقَتْلِ أَنَّ الزَّوْجَ هُمْ مَنْ قَتَلُوهَا... وَلَمْ تَفْصَحِ الْأَقَاصِيصُ عَنِ الْحَقِيقَةِ مِنْ رَوَاةِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ... فَهَلْ هِيَ مَنَقُولَةٌ بِقِيَاسَاتٍ جَدِيدَةٍ؟

لَمْ تَكُنْ دَعَاوَى الْحَرِّيَّةِ ذَاتَ جَانِبٍ وَاحِدٍ مَحْدَدٍ، الْحَرِّيَّةُ كَمَا الثَّوْرَةُ أَنْثَى وَأُنْ لَمْ تَجْمَعُهَا تَحْتِ فِكْرِ التَّقَالِيدِ وَالْأَعْرَافِ الْمُرُوثَةِ فِي قَبْضَةِ حَاكِمٍ عَرَبِيٍّ شَرْقِيٍّ مُمَكَّنٍ... فَإِنَّ تَخَلَّصَتِ الثَّوْرَةُ أَوْ الْحَرِّيَّةُ مِنَ الْحَاكِمِ الَّذِي يَصُوغُ الْقَانُونَ وَيَفَكِّرُ

بدكتاتورية الزعماء تتخلص المرأة من أكبر منافسيها، بعد الحرب العالمية الثانية نادى الكثير من الفلاسفة باسم الحرية وحقّ البشر في الحياة، وفكر الحياة للحياة وانطلقت الألسنة تلهج بمنظومات فكرية وفلسفية، فعاشت "سيمون دي بوفوار" فكرة الحرية والجنس الآخر للمرأة مع "سارتر" عشرات السنين بلا زواج مرددين أفكارهما ولهت خلفهم كثيرون، كانوا معجبين بأفق كاذبة شاطحة في خيال الحرية والانطلاق... هل هي فوضى حياة؟ أم عشق حياة؟! هل دعوة للصخب فوق سطح بحيرة الإيمان الهادئة؟... من يجاري تلك الحياة وتلك الأفكار... هل هم المطحونون من أبناء المعدمين المتطلعين لغدٍ تتغير فيه الدنيا وترفع من شأنهم ليشعروا بأنهم أحياء... وفق رؤى كاذبة...

استمعت إليه بشغف... المرأة قمر، والرّجل بحر، المدّ والجزر في حياة الرّجل مرهون بظهور القمر، القبطان الماهر، والملاح المتمرس، أو المراكبي صاحب المركب الشراعي، يدرك المواعيد جيّداً رغم الليل البهيم، فالقمر مرشد وإن غاب، فالنجوم وإن حجبها سحب الليل فقد يستدلّ باتجاه الرياح، ضحك بشدة ومال للخلف... لكن لا توجد قواعد ثابتة، وقليلٌ منهم يغرقون رغم حنكتهم... وعموماً المرأة والقمر لكلّ منهما دورة شهرية... وهذا في حالة العذرية فحسب... يضحك من جديد، هل هي حالة عصيان لوضعها وحياتها؟ عموماً العصيان واجب وطني، وحقٌّ من الحقوق المشروعة، عندما يجد المواطن الشريف كلّ من حوله في الوطن ومن يدعون عشقه يخربون فيه... هل ما يداخلها عقيدة أم فكرة تذمّر على وضع قائم؟... إنّ العقيدة أو الفكرة يسهّل القضاء عليها، وهي بذرة في رحم فكر

أصحابها، لم تسطع من البداية، ها هي تركتها تنمو وتثمر وتتكاثر... ويوم تحاول القوى الطبيعيّة أن تحول دون انتشارها فهذا اضطهاد، وإن تركتها اتسعت دائرتها، ومطلوب من صاحبها أن تتحدّث وتتكلّم وتحاور وتدور حولها، لكنّها لا تجيد المحاورّة، فتكتفي بإبداء الرّأي دون الخوض في تفاصيل الأسباب... يضحك ثانية، وبثقة غريبة يقول...

ارفعني صور المضطهدين، وقصّي على ألسنتهم أقاصيص، حتّى لو كانت كاذبة ومضلّلة... ينظر النّاس إليها في البداية بالشفقة والتّعاطف معها، ومنهم من يودّ السّير في ركابها... الغريب أن يتضاعف أنصارها كلّما اتسعت وزادت حركة الاضطهاد... هل هناك فرق بين الثّورة والحبّ؟... فكلّاهما نيرانٌ متأجّجة، وكلّما كان الحبّ خافيًا، كلّما تأجّجت نيرانه في قلوب العاشقين، وكما الثّورة إن لم تنفث عبق جماها ومطالب ثوّارها تأجّجت حتّى انفجرت... ما زالت تتمنّى الهروب من واقع حولها، ساعات كثيرة تودّ أن تغيّر اسمها، وعندما تحدّثه بذلك، يعود لابتسامته الهادئة وتفرك أنامله شعر رأسه الأبيض الكثيف، ويقول ليس جديدًا ما تقولين، فبعض الطّقوس لبعض الطّوائف المسيحيّة عند ترسيم الرّهبان يختارون اسمًا جديدًا... فهل لينسى ما طاف به من أحداث في حياته السّابقة؟ أم ليتخلص من مرحلة دنيا ليسمو بمرحلة جديدة؟... لم تسر الحياة على نمطٍ واحدٍ ولن تسير، فالاختلاف قائمٌ وسيظلّ... في الطّائفة أو العائلة الواحدة أو داخل الجسد الواحد سيحدث دائمًا... تدعوه أن يواصل حديثه... تتقابل عيناها في لحظة عابرة ينتهز رغم خريف عمره فيسرع ويحيد بعينيه... يضحك ويضرب الأرض بعصاه... يسند ذقنه فوق يديه على عصاه... زواج عتريس من فؤادة باطل... باطل... باطل... لم تطلق هذه الصرخة حديثًا... لقد أطلقها نبيّ الله

يحيى - عليه السَّلام - في وجه "هيرودوس" الحاكم الفاجر بسبب تعلُّقه بزوجة أخيه "هيروديا"، صرخ يومها يبطلان هذه العلاقة، لم يأبه ولم يتنازل عن موقفه، حبسه وتمنَّى أن يقتله، ولكنه خاف ثورة النَّاس، ويوم رقصت "سالومي" الجميلة السَّاحرة، فطغى شيطانه عليه ثانية، واستسلم حبَّ الفتاة الرَّاقصة "سالومي"، ليلة مولده رفضت الرِّقص بدلالٍ عجريٍّ رغم وعده لضيوفه بأن ترقص ليلتها وأمام الجميع، قطع وعدًا لها بأن يهبها ما تريد، فرقصت كما لم ترقص من قبل، وانتشى الجميع... وفي النَّهاية سألها عمًا تريد، بلا تردُّد طلبت رأس النَّبيِّ يحيى - عليه السَّلام - في طستٍ من الفضة، فعل ما أرادت وحققت أمنيَّة أمِّها... رأس مَنْ قال عنه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام -... لم تلد النَّساء مثله.

عمومًا عليك أن تتذكَّري أن مياه الأنهار تتعرج وغالبًا لا تسير في خطوط مستقيمة دائمًا، فهي خاضعة لتضاريس الأرض التي تمر فوقها.

مجانين... مازالوا يحتفظون بكلِّ الأثاثات القديمة... بكلِّ النفايات، وكان التخلُّص منها يعتبر خيانة للذِّكرى، رغم انتقالهم لتلك الفيلا الأنيقة بحمَّام السَّباحة وأشجارها التي غرست وقد تعدَّى عمرها العام، فكانت حديقة واسعة حول البناية الرَّاقية في المنطقة الجديدة التي كانت من زمنٍ قريب صحراء جرداء، استنبتت فيها الزُّروع، وانتشرت فيها النوادي وخاصَّة ملاعب الجولف الرَّائعة الخضراء الممتدَّة وكأَنَّها بلا حدود، وكأَنَّها تتأمَّل ملامح اسمها تنقسم نصفين الأوَّل (لو) وترجمها لوشيء جديد أهلاً به، والثاني (لا) لأيِّ شيءٍ قديم... وقد ترجمه مرَّة أخرى فتحمل معنى الاستثناء مرَّة والمنع مرَّة أخرى، وقفت ونظرت للسيَّارة المحمَّلة بالبقايا رغم

كُلُّ الأَثَاثِ الحَدِيثِ الرَّائِعِ الَّذِي تَكْتَضُّ بِهِ جَنَابَاتِ الفَيْلَا، أَمَرَتِ العَمَالَ أَنْ يَجْمَعُوا كُلَّ هَذِهِ النِّفَايَاتِ كَمَا تَقُولُ، وَطَلِبْتَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُهُمْ بِالبَنْزِينِ أَوْ الجَازِ وَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا البَنْزِينِ فَوْقَ الأَثَاثِ، وَأَشْعَلَتْ فِيهِ النَّيْرَانَ.

كثيْرًا مَا تَصِيْبُهُمَا الدَّهْشَةُ مِنْ تَصْرُفَاتِهَا، وَلَكِنَّهَا يَسْتَسْلِمَانِ لِأَرَاثِهَا وَكَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي وَلَدَتْهَا، كَانَتْ "لَوْلَا" فِي البَدَايَةِ كإِسْفَنْجٍ تَتَشَرَّبُ كُلَّ الأَحَادِيثِ وَتَهزُّ رَأْسَهَا بِالمَوَافِقَةِ، اسْتَوْعَبَتْ بَعْضَ الحَقَائِقِ وَأَوْرَثَتْ العِلَلَ الَّتِي تَصِيْبُ أَسْرَى الثَّرَاءِ، رَبَّهَا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهَا المَحْدُودَةِ، فَضْغَطَتْ ذَلِكَ الإِسْفَنْجَ بِكُلِّ قُوَّتِهَا وَعَصْرَتِهِ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَغْسِلَهَا بِمَاءِ الحَيَاةِ الجَدِيدَةِ، فَأَفْكَارَهَا لَا بِأَسْ بَهَا وَكُلُّهَا مَشْرُوعَةٌ فِي إِطَارِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَ الدَّهْشَةَ عِنْدَمَا تَحَدَّثُ بِأَفْكَارِهَا.

قَالَتْ وَهِيَ عَلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ، دُونَ أَنْ تَنْظُرَ لِأَبِيهَا أَوْ أُمَّهَا...

— صَدِيقَتِي... لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَرَدُّ عَلَيْهَا... فَإِنَّهَا تَقُولُ... لَقَدْ أَصْبَحَ جَسَدِي مَبَاحًا لِلْجَمِيعِ، تَوَاصَلَ الطَّعَامُ وَلَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا، يَنْظُرَانِ إِلَى بَعْضِهَا، وَيَبْدُو فَوْقَ وَجْهِهَا تَذَمُّرٌ وَاضِحٌ وَفِي صَوْتٍ وَاحِدٍ...

— تَقُولِينَ صَدِيقَتِكَ!!!

تَوْمَى بِرَأْسِهَا مَعْلَنَةً الإِجَابَةَ بِنَعْمٍ... تَتَوَقَّفُ الأُمُّ عَنِ الطَّعَامِ، وَتَضَعُ الشُّوْكَةَ وَالسَّكِّينَ بِجَوَارِ بَعْضِهَا، وَتَعْقِدُ أَصَابِعَ يَدَيْهَا فَوْقَ المَائِدَةِ.

— بَنِي آدَمَةَ مَا اتْرَبْتِش... قَلِيلَةَ الأَدَبِ... تَوَاصَلَ "لَوْلَا" طَعَامَهَا دُونَ النَّظَرِ لِأَيِّ مِنْهُمَا، وَتَرَدَّدُ الأُمُّ الكَلِمَاتِ نَفْسَهَا، وَبِهِدْوٍ قَاتِلٍ...

— حَرَامٌ عَلَيْكَ يَا أُمِّي، إِنَّنِي أَقُولُ إِنَّهَا صَدِيقَتِي، بَلْ أَعزُّ صَدِيقَاتِي... وَبِدُونَ تَرَدُّدٍ يَخْرُجُ الأَبُ مِنَ صَمْتِهِ...

— أملك على حقّ في كلّ كلمة... ترفع رأسها، وتتوقّف عن الطّعام، وتنظر إليهما، وهي تقصّ بأنّ صديقتهما داؤّها لا شفاء منه، وأنّها ترقد في المستشفى، ولها اليوم ما يزيد عن ثلاثة أشهر لا تستطيع الحركة، وهذا سبب غيابها، تدفع بأدوات الطّعام أمامها ثمّ تلقي بمنشفتها بعد أن مسحتّ فمها، وتدفع كرسي المائدة للخلف وتمضي...

بينما يقوم السّفرجي برفع بقايا الطّعام، وكلاهما جالسٌ على المائدة، تشعل الأمّ سيجارةً وتتبادل وزوجها النّظرات، هل هو عتاب صامت، فهما قليلا الحديث معاً، كلّ منهما يعتبر الآخر سبباً في تعاسة ابنتهما كما يدعون ويتمنون زواجها ولكنها ترفض مجرد الحديث في هذا الشّأن رغم أنّه لم يتبقّ سوى عامٍ واحدٍ وتنهي رحلتها الجامعيّة في جامعتها الخاصّة جدّاً.

تتمنّى أن تسبح في تيار الفكر بمجاديف القراءة في شتّى العلوم والمعارف... يهتزّ رأسها طرباً وهي تقرأ عن السّلام وعن المحبّة... قلب أخيك يا قلبي امنحني السّلام، تعيد قراءة القصيدة المترجمة أكثر من مرّة وتتوالى آهات العشق المهاجر لقلبها... آه... عندما دفن القاتل البدائيّ حربته الخشبيّة، ونام وهطلت الأمطار واخضرت الأرض وأزهرت، وللحربة نمت جذور، وتحلّلت الأرض، والفضل للحربة الخشبيّة والمطر، والأصل هي الأرض، وكانت بداية عهد الزّراعة للإنسان، ورغم كلّ هذا صنع من أغصان الشّجرة الجديدة حراباً جديدة وارتوت البشريّة بعقب أزهار الحروب والرّماح الخشبيّة المدفونة.

طموح "الشّيمي" لا يقف عند حدّ الوظيفة وراتب نهاية الشّهر، فيسافر في بداية حياته إلى بلدٍ عربيّ، ويكسب من وراء سفره، ولكن ليس هذا منتهى طموحه، يستثمر كلّ ما معه في بيع وشراء عقارات قديمة، وعرضها من

جديد أو محاولة تجديدها وبيعها، يدخل بدون رأس مال في بيع وشراء، يقوم فيها بدور السمسار، كذلك ليس هذا نهاية طموحه، رغم أن الزوجة ورثت عن أبيها الكثير، ووهبته له رغم اعتراض إخوتها... يحاول أن يثبت لها أنه دائماً عند حسن ظنّها فيكتب المنزل الذي يعيشون فيه باسمها... تفتح البورصة أبوابها وسياسة التخصّص لشركات القطاع العام وفق منظومة خاصّة جداً... يقترب وتثيره الحكايات عن الشركات المباعّة بأبخس الأثمان... تدير رأسه ويدخل اللعبة ويخسر أغلب أمواله وأموال زوجته... تشعر الزوجة بمأساته، وكيف خسر أمواله وأموالها؟... تحاول أن ترفع عنه الحسرة التي تأبى مفارقتها، ويصير رهين المنزل، وتعلم الزوجة أن كثيراً من أوراق لعبة البورصة والتخصّص يدركها إخوتها وأبناء عمومته جيّداً، فهم صاروا أقرباء لأولي الأمر في البلد كلّهم... لا تتوانى، فتذهب ومنهم تعرف كيف تتمّ اللعبة؟ ووفق معايير معيّنة، فالأسهم المشتراة ليست هي الأساس، ولكن من الذي يشتري الأسهم، المطلوب أن يضع المشتري عينه على من يشتري الأسهم، فلو كان أحد الجالسين على كراسي السلّطة أو التّابعين، فيشتري، وفي خلال شهر بلّ أيام يتم بيع هذه الأسهم بأضعاف قيمتها الحقيقيّة، وكذلك بالنسبة للشركات التي يتمّ تخصيصها وتخصّصتها، فأموال تدفع من تحت المائدة، ليس لها سوى مسمّى واحد "الرّشوة" حتّى يرسو عطاؤها على صاحب الرّشوة الأعلى والمسائر لركب السّادة وولاية الأمر... باعت بعضاً مما تملك، واقترضت من البنك عن طريق معارفها وإخوتها، ففتحت الأبواب أمامها، وسألّت وعرفت واشترت من الأسهم وفق القواعد التي تعلّمتها، وسار الزوج في ركبها، وكانت البداية، ولكنّها لم تكن النّهاية... وتتابع عمليّات البيع والشراء والسّمسة وغيرها...

تعلّمت وأجادت، وهو بدوره غامر ولم يقامر وفق ما هو محدّد ومعروف، وتأسّس الفرع الأوّل للشركة تحت مسمّى "الشركة الوطنية للتشييد والبناء"، وتابع أعمالها وشراء الأراضي والتنوّع في عمليّات البناء أو البيع وخلافه... المركز الرئسيّ في وسط مدينة القاهرة على أرقى مستوى من الأثاث، حتّى العاملون يتمّ اختيارهم وفق قواعد خاصّة، ولاسيّما السيّدات منهم، فيتّم اختيارهنّ وفق معايير خاصّة من حيث الشّكل واللّغة ونوعيّة التّعليم، مقابل رواتب تفوق رواتب وكلاء الوزارة في دواوين الحكومة... تعلّم في مدرسة الحدّثة فنّ البيع والشّراء وكيفيّة الوصول وبأقصر الطّرق، وبأبّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وضع عينه على أحد رؤساء مجلس إدارة أكبر الشركات المتعدّدة الفروع في مختلف أرجاء الجمهوريّة، وترك عيون أتباعه تترصد مسار الرّجل، وكيفيّة اختراق الحصون التي يقيمها حول نفسه... الرّجل يعلم حدود الله جيّدًا، رصدت عيونه أنّ الرّجل في طريقه للحجّ بطريقة الحجّ السّريع المتّبع خاصّة لرجال الأعمال والكبراء، وعمل فكره بسرعة وبطرقه المتعدّدة عرف في أيّ شركة تمّ الحجز، وحتّى الفندق الذي سيقم فيه في الأراضي المقدّسة، واستطاع بكلّ سهولة ويسر أن يحجز في المقعد المجاور له في الطّائرة، بل شاركه في الحجرة نفسها سواء في المدينة أو مكّة المكرّمة، قدّم له كلّ ما يريد من خدمات، وواصل تقربه حبًّا وكرمًا، وتحت مسمّى زيارة بيت الله الحرام والحجّ للبيت المعمور كان الهدف الرئسيّ الذي يسعى له، ووصل لمبتغاه بسهولة ويسر، حتّى أنّ الرّجل في طريق عودته دائمًا ما يصفه بالأخّ الذي لم تلده أمّه، وكان الرّجل صادقًا في حبه له، وكان هو صادقًا في الحصول على مزيدٍ من الأعمال من خلال العطاءات والمناقصات التي تجريها الشركة، فأظهر له بأنّه جديد في هذا المجال، وبعد

الرجوع استطاع استقطاب الرجل، ليس بمفرده، ولكن كل أسرته، ففي زفاف ابنته أقسم أن تكون ليلة الزفاف بكامل تكاليفها على حسابه الشخصي، ولن يعرف بهذا الموضوع سواهما فقط... حاول الرجل، ولكنه أقسم، فتيات شركاته وموظفوه تألقوا في استضافة الليلة، وتفننوا في تنوع فقرات الحفل الذي لم يشهد رئيس مجلس الإدارة ولا أهله وذووه مثيلاً له من قبل... توطدت العلاقة، فلم ينس أي من أولاد الرئيس بمناداته بالعم "الشيمي"... أمام طوفان المشاعر الفياضة استسلم الرئيس وأسرته، واصل العنكبوت بث لعابه، وصنع شبكته بعناية فائقة، وحصل على أول العقود بأمر مباشر مخالف لطبيعة العمل، وكانت هذه أول مرة يخالف الرئيس قواعد العمل، وكانت المكاسب العائدة للشيمي تفوق الوصف، مجرد بداية فحسب... كان لا يجد حرجاً في قصّ حكاية علاقته بالرجل، ويدلّل على قدراته ومهارته في صيد مكاسبه، وبكلّ عظمة مبالغ فيها يقول ضاحكاً... "تبقى زي الصقر يصيد الحمامة فيأكل قلبها فقط... ويرمي باقي جثتها... أصل قلب الحمام يقوي النظر... وليس هناك أفضل من عيون الصقر".

كان يعتبر نفسه مجاهدًا في سبيل الكسب الحلال، وكلّ يجاهد وفق رؤيته سواء كان قائداً... شيخاً... إماماً... قساً... وإن وصل الأمر أن تكون الذبيحة بشرية، يضحك على أفكاره القديمة البالية وهو يقرأ خطاباً لزميل يواسيه يوم فقد أغلب أمواله في عمليّات الخصخصة في البداية...

"يا بني ما تستغربش... دول ناس من طينة تانيه... يهشوا الناموسة من فوق كباية الشاي، رغم أنهم بيلعوا الجمل"... يضحك ويصف نفسه بأنه استطاع اختراقهم، بل ووضع رأسه بين رؤوسهم.

ليس هناك ما يقف في طريقه هو وزوجته سوى شيء واحد... "لولا"
ابنتها التي يلمسان في تصرّفاتهما عدم قناعة بأفعالهما وطرق حياتهما...
هل نعلّم أولادنا أم هم يعلموننا؟!... ففي الكتاب المقدّس قيل إنّ الله
خلق الإنسان على صورته، وفي الحديث الشّريف ما يحمل نفس المعنى ألا
نقبّح شكل إنسان؛ لأنّ الله خلق الإنسان على صورته، تأمّل خلق الله
الإنسان... مَنْ خلق مَنْ؟ الله... الإنسان... وقبل ظهور الأديان عبد البشر
الآلهة، وكانت صورة الآلهة انعكاسًا لصورهم هم فمن خلق مَنْ؟... هنا
خلق البشر الآلهة، ومثال ذلك الأفريقيون كانت آهتهم لها أنف أفضس،
وشعر أجعد... صورة منهم... وثنية عفا عليها الزمن، وجاءت الأديان،
وآمن البشر، هل عادت وجوه الآلهة الوثنيّة القديمة؟... هل عادت على
صورة إنسان؟ أم على صورة احتياجات الإنسان وغرائزه؟...

تستمع لحديث أبيها بين صحبته فتدرك كيف تدور الأفكار في رؤوسهم،
الجميع يدور في فلك الأكبر والأقوى والأغنى، كتب التّاريخ كلّها زيف
وادّعاء وقليلون صدقوا وذهبت كتاباتهم، أعظم الأمم اليوم أساس بنيانها
وناطحات سحابها جماجم لبشر عزّل، زرعوا مسلات الفراعنة أمام أعينهم
ليصنعوا لأنفسهم تاريخًا تحت مسمّى تاريخ الإنسانيّة واحد، صاغوا
علومهم لتخلد لهم لآلاف السّنين مستقبلاً، أصبح الأمس واليوم مرهونًا
بهم، والغد طوع أنامل علمائهم وأفكارهم، ليذهب المجاهرون بالتّقوى
لجحيم جهنّم، تواكلوا وكلوا بعضكم ولا ترفعوا جباهكم عن الأرض،
كفى كذبًا... ليست صلاة تؤدّونها أنتم لا تصلّون أنتم خائفون، تسايرون
الرّكب والأصفاد في عقولكم!!

الفصل الخامس

كاتيا

"كاتيا" خرجت من بلادها لأول مرة في حياتها في حقبة الستينيات من القرن العشرين، كان الاتحاد السوفيتي القوة الثانية في العالم رافعاً راية الثورة، فكان ملاذ الثوار والمجاهدين والمجاهرين بعدائهم لأمريكا والرأسمالية الغربية... لم تعرف لنفسها أباً أو أمّاً، وتقول الأوراق التي بحوزة بيت العزة التي تربت فيه وترعرعت، وهو عبارة عن ملجأ للأيتام، قالوا بأنها تنتسب لأسرة مسيحية ومرة قالوا لأسرة يهودية روسية، لم تحفل بأيّ مسمى ديني أو عائلي، فالجميع لا يفكر في ذلك مطلقاً، فقد جاهر آباء الثورة البلشفية منذ بدايتها بمقولات كان أهمها في ذلك التاريخ "الدين أفيون الشعوب"، فقد احتفى القياصرة ومن سبقهم من رؤساء الكنائس بستار الدين، ولم يكن هذا جديداً، ففي زمن الجهل يحتمي العصاة تحت هذه المظلة... رددت تلك المقولة كثيراً، وقد سبق ابن رشد فقال: "إذا أردت أن تتحكّم في جاهل فعليك أن تغلف كلّ باطل بغلاف ديني"... وفي كلّ العصور تقنع الطغاة، أمّا في بلادها فأرادت أن تمحو من ذاكرة مواطنيها الدين عموماً، فصرّح قادتهم وقادة فكرهم بأنّ الأفكار الدينية هي دعوة للتخلف، وأنّ البشر

يلقون بتبعات ما يحدث لهم للقدر؛ فينتظرون ما تسفر عنه القيامة بعد الموت، فوصفوا الإيمان بالجهل، واعتبروا الجنة والنار أدوات في يد أصحاب السُّلطة من أجل الضحك على الفقراء والمساكين لإبعادهم عن الأفكار الثورية والتصدّي في وجه الظالمين، أمّا الشهادة الغربية التي شهدها كثيرٌ من ذهبوا أو عاشوا في تلك البلاد... غربيّون أو شرقيّون فقد قالوا إنّ أسعد طفل في العالم من عاش في هذا العالم الشيوعيّ، فكلّ مطالبه مجابة، وكلّ أبواب العلم والفنّ والرياضة مفتوحة أمامه على مصراعيها... نعم افتقدت "كاتيا" في طفولتها أحاسيس الأمومة والأسرة، فالطفل ابن للكيان عمومًا، استطاعت الفتاة أن تثبت جدارتها في ألعاب الجمباز والباليه، وحازت مكانة مرموقة بين أقرانها، وكتبت عنها الجرائد والمجلات، وكانت سعادتها لا تدانيها سعادة في الدنيا بأسرها... فتاة في مقتبل العمر، لم تصل حتّى للثالثة عشرة سنة من عمره، تدرّجت حتّى وصلت لفرقة الرقص القوميّة، وطافت أغلب أحياء ومدن وجمهوريات الاتحاد السوفيتي... لا تتوقّف طموحات الفتاة، ووضعت يومها نصب عينها الالتحاق بفرقة "البولشوي الروسي"، وكانت يومها قمة من قمم العالم في الرقص والباليه؛ فتصميماتها الحركيّة، وامتزاج الموسيقى وحركات الجسد نابعة من دراما كلاسيكيّة معروفة مسبقًا، فتفيض بأحلامها العذريّة في موسيقات الجمال النائم أو بحيرة البجع أو ألف ليلة وليلة مع "بيتر تشايكوفسكي" و"سيرجي رحمانوف" وغيرهما، وتستمع بأوبرا "روميو وجوليت" لشكسبير.

رغم صغر سنّها كانت لها إرادة حديديّة، لا تستسلم لحدث، وساعة أن أصيبت في حادث السيّارة، وتمهّشت إحدى عظام الساق الرئيسيّة تمامًا، وفي أرقى المستشفيات العالميّة المتخصّصة في العظام والتركيبات لم تفلح أن تعود

بها إلى سالف عهدها... لكنّها لم تكن ممن يستسلمون، شاركت في الندوات الحزبيّة فأصبحت أحد الكوادر الشّابة التي يشار إليها من شباب الحزب، رغم صغر سنّها جاءت إلى مصر أثناء حضور "خروشوف" ساعة إطلاق البداية لمشروع مصر العملاق وقتها "السّدّ العالي" فكتبت عن رحلتها، وأرسلت للصحف الرّوسيّة، واحتلت مكانة كمراسلة صحفيّة.

التّعساء يصوغون مطالبهم وفق أهوائهم فتتعدّد ما بين لذّة الأكل ولذّة الرّعشة والنّشوة، تصارعها مطالبها الجسديّة، ولكنّها ترفض أن تعيشها في الأحلام، وعارفة بأنّ الأحلام لا روح فيها، فتتريث وتذكّر كلمات حفظتها... أمل بلا دافع ملموس كما الزّائد عن الظّفير يستحقّ البتر، لا تلقي بالألما مضى، تعشق "السوناتا" وخاصّة إذا كان البيانو بمفرده، تتراقص أصابعها بخفّة، وتقفز فوق المفاتيح البيضاء والسّوداء، وتمتدّ رأسها، وتتناغم مخارج الموسيقى وتواكب رقصات هواها وهزّات فؤادها الرّائقة فتتفجّر أحاسيس غبطة في النّفس، تسرح مع سوناتا "ضوء القمر أو العاصفة" لبيتوفن وحفظتها عن ظهر قلب، يزيد صلابتها وأمنيّاتها كلّما طافت عليها مسرحيّة "العاصفة" لشكسبير، فيوم تسلّح بطل شكسبير "بروسيرو" بالسّحر رفض هذا التّسليح... فالسّحر لا يجدي، وأحسّ بأنّ القوّة الحقيقيّة في الإرادة والثّقة، وساعتها ألقي بكلّ كتب السّحر التي معه في جوف الأرض في الجزيرة النّائية، وعاش الحقيقة، كلّ ما تسمعه أو تقرأه يزيدا أملاً وثقة، فوجهها الصّبوح كالقمر يعكس الخير الذي يكمن داخلها، ليس في وجهها قنامة تعكس ما يداخلها من مشاعر تدثّر من الدّنيا، أو قلّ هكذا يبدو هذا الوجه الرّائق القمريّ الاستدارة الرّائع الابتسامة.

عشقت جوّ أسوان، وزارت مواقع الآثار في الأقصر وأبي سمبل ومعابد إدفو وكوم أمبو، أجادت التصوير وأصبحت أكثر موهبة ووصلت لدرجة الاحتراف، فأرسلت وراسلت الصحف وكتبت التقارير، عشقت الجلوس في حديقة "فريال" تتأمل سريان النيل وجريان مياهه بين الصُخور متأملة المراكب الشراعية، فكما عشقت أفراح النوبيين وأغانيمهم ورقصاتهم ذات الإيقاع الخاص، ورقصات التَّلَاحم وتشابك الأيدي التي تعني تماسك هذا المجتمع الجميل، عشقتُ رقصات الخيل في الأفراح وخاصةً أفراح الفلاحين، فكانت المراكب كخيلٍ تتراقص يوم عرس فوق الأرض، ولكنها تتراقص فوق صفحة الماء، تنقل السائحين والزوّار للبرِّ الثاني في زيارات لضريح "الأغا خان"، تتوقّف وتساءل عن الضريح وعن صاحبه... ولماذا؟ وما زالت زوجته تضع الوردة الحمراء فوق مقبرته يوميًا، فهو إمام الطائفة الإسماعيلية النزارية، وهو من أسس دولة باكستان في شبه القارة الهندية، وكان له الكثير من المشروعات الخدمية الإسلامية، انسحب من الحياة السياسية خلال الحرب العالمية الثانية، وعاش في سويسرا، وتوفي عام ١٩٥٧ م... عندما يصمت محدّثها تطالبه بالمزيد، وأمام تموجات كلماتها ولغتها العربية المعوجة ومخارج حروفها المبعثرة المهترئة الراقصة طربًا الممزجة بانتسامة وضّاءة، تعرف منه السرّ بأنّه اتخذ المقبرة في هذا المكان، فهذه البقعة كانت سببًا في شفائه من مرضه، فبعد أن طاف ربوع الدنيا باحثًا عن شفاء لعلته، كانت مصادفة غريبة، قابل يومها شيخًا نوبيًا فقصّ عليه ما عنده ومصابه وعلته، فنصحته الرّجل بدفن جسده في رمال هذه المنطقة، فكانت سببًا في شفائه، كان صعبًا عليه السيّر على قدميه، وكانت المفاجأة بعد فترة ليست بالطويلة أن يعود لأهله سيرًا على الأقدام وسط ذهول الجميع، فكانت هذه البقعة أحبّ

بقاع الدنيا إلى قلبه، فقرّر شراءها وبني عليها مدفناً خاصاً به على طريقة الفاطميين في بناء مقابرهم، ومحدثها يتمنّع لتطلب مزيداً من النّصّ أو كأنه يتمنى رغم أنّه تعدّى السّتين من العمر، فيتوقّف بعض الشيء ليأخذ شيئاً من المضغة الملفوفة في كيس شفاف فيدفعه لفمه مستحلباً إيّاه، قد يخرج عن النّصّ في قصّة فتشابك القصص، هي تأخذ ما تريد وتتركه يقصّ ما شاء، تتأمّل حديقة "فريال" وجمالها العبقريّ الذي يخطف الأبصار ويأسر الوجد العاشق للجمال، فتشيع في نفسها رضا، عرفت سابقاً أنّ التي أنشأتها الأميرة "فريال" أخت الملك فاروق ملك مصر السّابق، وقتها أخذت الحديقة الاسم، ولم يشأ أحدٌ أن يغيّر هذا الاسم، يستطرد في أقاصيصه الغريبة، وهي تتأمّل الممشى والممرّات الرّائعة المصنوعة من الجرانيت، بقعة رائعة وجمالها كأنه أرض عذريّة لم تطأها قدم بشر من قبل، صخور وردية وأشجار تنبض بالنّسبات الرّائعة وأزهار يندر وجودها، هي لم تترك مكاناً تسمع عنه إلاّ واختلست من ساعات فراغها زيارة له، والمكان الثاني الأثير بالزيارة لديها هو حديقة النباتات... وتكاد تقول إنّ قدميها لم تترك شبراً واحداً إلاّ وداستها ومشت عليها... تقترب مساحتها من عشرين فدّاناً، مجموعة رائعة من الأشجار والنّخيل مازالت تحتفظ بعبق تاريخها وندرة نباتاتها منذ أنشأها اللورد "كتشنر" المعتمد الانجليزيّ في مصر، وجعلها مقرّاً لإقامته أثناء حربه في السّودان.

سافرت، وازدادت شوقاً لأسوان، وصارت رهينة عشقها، رغم حرارة الجوّ في الصّيف إلاّ أنّها تزداد بريقاً وجمالاً، ولا تظهر أيّ بادرة تدلّ على ما أصابها، فعدت إليها خطواتها المتألّقة، وكأثها ترقص الباليه، أو كأثها تستعرض أحد فساتين السّهرات في عرضٍ خاصّ لأرقى بيوت الأزياء

العالمية، لا تستطيع ولا حتى عين خبيرة أن تدرك أنه كانت في ساقها علة، قالوا إن الأنف اليهودي يميز صاحبه أو صاحبتة، ولكنها مخلوقة عالمية وبمقاييس يسعى إليها كل عشاق الجمال، الوجنات رقيقة كأزهار الربيع، وندية كساعات الفجر الرائق، السيقان رغم ما ألم بها تفيض بحيوية بالغة ومصقولة من الكعبين وحتى الفخذين، لا أساور حول معصم ولا خواتم تجمل إصبعًا، ولا لون يضاف لتجميل صورة هي الجمال بعينه.

توطدت العلاقة بينها وبين "أبو الفضل" عامل البوفيه في حديقة فريال... أصبحت زبونة دائمة وزائرة مرغوب فيها... كثيرًا ما حاول أن يقدم لها شيئًا بلا مقابل ولكنها تبسم وتشكره وتحجز له في العطاء والبقشيش... هناك حاجز قائم، ولكنه يكسر حاجز الخوف الحقيقي، فأصبحت ملاذًا له في أحلامه... انقضَّ عليها، فأبعدته وقاومته، ولكنها ابتسمت وضحكت... أكملت خلع ملابسها وهي تهرب منه ضاحكة فجرت وجرى خلفها ولم يتبقَّ من ملابسه سوى سرواله... في وسط الحديقة وبين أشجارها ونباتاتها المختلفة استطاع أخيرًا الإمساك بها في عنف وشهوة وحبٍّ وأمنيّات، تاه في جسدها المرميِّ النَّاعم وعينها الخضراوين، وتفاعلت ثلوج واديها مع حرارة الجنوب المصري... يصحو من نومه، وبعد أن اهتزت أطرافه في عنف وهوى لذيد، حطَّ خوفه التقليدي في رجفة اللحظة التي اقتنصها في الخيال... استسلم في رضا لحظي، وتذكر فقام وأسرع يرفع عن رأسه وجسده الجنابة... سيل من الماء ووضوء كامل للصلاة، ثم غسل كلَّ جسده بعد أن أغرق رأسه ثلاثًا وكلَّ جانب غسله ثلاثًا... يعاود النظر إليها حالمًا، فهل تتحقق الأحلام؟!... أصبحت تميد اللغة، وإليه تحدتت وبلكنة متقطعة في تعثر في بعض حروفها، ويتيه باللحظة

أملاً في نشوى قادمة، ويسترقّ النَّظر لِنَهْدِيهَا الْفَاتِنِينَ الْمَشْرِيبِينَ بِحَمْرَةِ ظَاهِرَةِ
 وَالمْتَبَرِّمِينَ وَالخَارَجِينَ عَن حَيِّزِ لِبَاسِهَا الْعَلْوِيِّ... أَصْبَحَ مَلْهُوفاً دَائِماً لِرؤُوتِهَا،
 وَكَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ سَاعَةَ قَدُومِهَا إِذَا غَابَتْ أَوْ تَعَدَّرَ حُضُورَهَا لِيَوْمٍ وَاحِدٍ تَغَيَّرَ حَالُهُ
 وَسَاعَتِ طَبَاعِهِ، وَأَحْسَسَ بَضِيقَ فِي صَدْرِهِ، وَهُوَ لَا يَدْرِكُ طَرِيقَ الْوَصُولِ
 إِلَيْهَا. مَجْرَدَ ظَهُورِهَا يَتَأَلَّقُ وَجْهَهُ بِالْبَشْرِ... أَصْبَحَتْ هِيَ مَقْيَاسَهُ لِلْجَمَالِ،
 فَكُلَّ جَمِيلَةٍ تَرَاهَا عَيْنَاهُ فِيهَا جِزْءٌ مِنْهَا... لَا يَفْكَرُ فِي لَيْلِهِ أَوْ نَهَارِهِ سِوَى بَسْتِ
 الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، لَيْسَتْ بِنْتُ السُّلْطَانِ، وَلَكِنَّهَا أَصْبَحَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَأَنَّهَا
 مَلَكَتْ فُؤَادَهُ... كَيْفَ يَظْهَرُ لَهَا حَبَّةٌ؟... نَعَمْ هِيَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ وَتُحَدِّثُهُ وَتَبْتَسِمُ،
 وَإِلَيْهَا يَبْتَسِمُ عَشَقاً، فَهَلْ ابْتِسَامَتِهَا مَجْرَدُ صِنْعَةٍ يَصْنَعُهَا السَّيِّدُ لِخَادِمِهِ، لَا
 يَدْرِكُ النِّهَاطَةَ مِنْ أَفْكَارِهِ، وَلَكِنَّهَا تِجَارِيهِ، فَهَلْ يَدَاخِلُهَا شَعُورٌ مَا... هَلْ
 يَعْجَبُهَا شَكْلُهُ السَّمْرَاوِيِّ المِتَأَلَّقِ وَابْتِسَامَتِهِ الَّتِي تَنْفَرِجُ عَشَقاً لَهَا؟ أَمْ تَنْفَسِرُ
 ابْتِسَامَتَهُ مَجْرَدَ اسْتِقْبَالِ لَزْبُونٍ أَوْ زَائِرٍ؟... هُوَ يَسْرِفُ فِي خِيَالَاتِهِ، كَيْفَ
 يَأْسِرُهَا وَيَشْعُرُهَا بِكَيَانِهِ؟... يَبْدُو فِي ضَحْكَتِهَا قَبُولَ، وَفِي وَدَاعِهَا وَسَلَامِهَا
 عَشَقَ، هَكَذَا صَوَّرَتْ لَهُ نَفْسَهُ... يَبْحَثُ فِي ذَاكِرَتِهِ أَوْ فِي خَبَايَا عَقْلِهِ عَنِ شَيْءٍ
 غَرِيبٍ يَخْطِفُ بَصَرَهَا وَيَشْحَذُ هَمَّتَهُ فِي التَّقَرُّبِ مِنْهَا لِمَزِيدٍ مِنَ الْحِكَايَا... خَلْسَةٌ
 امْتَدَّتْ يَدُهُ لِحَزِينَةِ الْجِدَّةِ الْعَجُوزِ المِصْنُوعَةِ مِنْ سَعْفِ النِّخِيلِ المَلْوُونَةِ
 الْأَطْرَافِ، بَعْدَ أَنْ رَفَعَ غِطَاءَهَا قَلْبَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَوْمَةً مِنَ الذَّهَبِ المِنتَوِّعِ
 وَالْفِضَّةِ فَأَسَاوَرَ وَخَلَاخِيلَ وَأَقْرَاطَ وَخَوَاتِمَ... يَتَأَمَّلُ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ
 وَيَقْلِبُّهَا رَغْمَ الخَوْفِ الَّتِي يَتَمَلَّكُهُ وَالرُّعْبِ الَّتِي يَتْرِكُ آثَارَهُ فَوْقَ وَجْهِهِ...
 تَرْتَعَشُ أَنْامِلُهُ وَكَأَنَّهَا أَصِيبَتْ بِالسَّلَلِ... تَتَوَقَّفُ... يَنْدَفِعُ الدَّمُ فِي شَرَايِنِ
 جَسَدِهِ فَتَتَحَرَّكُ الْأَنْامِلُ وَتَمْتَدُّ وَتَسْحَبُ جِعْرَاناً ذَهَبِيّاً صَغِيراً نِصْفَهُ الْعَلْوِيِّ
 حَجَرٍ غَرِيبٍ أَحْمَرَ اللَّوْنِ ذُو وَهْجٍ نَارِيٍّ غَرِيبٍ، أَخَذَهُ دُونَ سِوَاهُ لِصَغْرِ

حجمه ودقة صنعه، وكذلك فإنه يوجد أكثر من واحد مثله، وبطبيعة الحال لن تلحظ العجوز غيابه أو فقدانه... يعرف أنهم عشروا على العشرات منه في مقبرة وادي كوم أمبو، وكثير منها باعوه لأجانب أو تجار آثار أو أهدها كبارؤهم لرجال السلطة لإنجاز مطالب خاصة بهم.

قلبت الجعران بين يديها، وتأملته، شكله رائع وجميل ويدخل على القلب البهجة... صامت يتأملها وعلامات الدهشة التي ارتسمت فوق وجهها... يتمنى أن... ولكن يفيق... من تأمل فيها يشعر بالغباء... هل يخطف الذهب والأحجار الكريمة الأبصار؟... في صمتها أنثى تتأمل بريق الذهب ووهج الحجر الكريم... ترى لماذا تزينت النساء بكليهما؟ فإذا كانت المرأة جميلة فما حاجتها لهما؟!... قالوا: منعًا للحسد، فالعين المتربصة تحتار فيما ترى أتذهب للذهب والحجر الكريم؟ أم لصاحبة الوجه الملائكي الصبوح؟ وآخرون قالوا إنهم يزيدان المرأة بهاءً وجمالاً فوق جمالها، وربما لعلو شأن من تزينت بهما، في بريق عينيها نشوى جامحة، في صمتها خشوع رغم زلزلة وزغلة الأصفر والأحمر الناري... اضطراب يعصف بها داخلياً، لكن بوادره تبدو جلية للعين، ممتلئة بأحاسيس غامضة وفرحة ودهشة، فيلتصق اللسان بالحلقة ولا تخرج الكلمات رغم اهتزازة الشفاه الواضحة... تقلب الأثر بين يديها، وتتأمله وتشعر بحرارة عشق يدغدغ فؤادها... مترددة، هل يعرضها عليها لمجرد الرؤية فحسب؟ وكم تتمنى أن يهديها إياها!... هل عشق المرأة للذهب مولود معها؟... هل تزينت حواء بالذهب لتغري آدم؟... يقولون كل ما ندر الشيء، زادت قيمته... ربما لندرته وسهولة تشكيله ونعومة ملمسه فاستخدمه المصريون القدماء كثيراً، وخاصة في صناعة الخواتم الذهبية، وعثر على الكثير منها في مقبرة "توت عنخ آمون"... وكثيراً كان الخاتم الذهبي

الخاص بالإنسان محلّ التّوَقُّع فيكسب الوثيقة أو الرّسالة الشّرعيّة... يحدّثنا سِفْر التّكوِين أنّ الفرعون أعطى سيدنا يوسف - عليه السّلام - خاتمه الذّهبيّ دليلاً على السّلطة المخوّلة له، كما أنّ أقدم أختام قادة المسلمين الأوائل خاتم عمرو بن العاص والي مصر، وكانت الحليّ الذّهبيّة والأحجار الكريمة بمختلف ألوانها أهمّ ما يصنع منها تيجان الملوك... هل تقترن الشّياطين بالذّهب والأحجار الكريمة؟... هل لهما عنصر جذب للشّياطين الحامية والحارسة للملك أو الفرعون؟... فلجأ الفراعنة لاستخدامها تحصّناً ضدّ الأسحار المضادّة... أغلب الحضارات القديمة أدركت أهميّة المعادن وخاصّة الذّهب، وتطالعنا الأبحاث الحديثة على علاج السّرطان بشذرات الذّهب داخل جسم الإنسان... والجنّ يتحصّن ويتدرّع بالذّهب... هكذا قال الرّجل العجوز، وتناقلها مريدوه وأحبابه... عادتُ إليه، ونظرتُ وذهبتُ عيناها تدغدغ أمانيه، ولا تترفّف به... ينظر حوله متخوّفاً عيناً ترقبها أو ترى ما بين يديها... استراح، فالיום لا زبائن سواها، واتّخذت ركنًا بعيداً عن مرمى عيون زملائه العاملين معه.

قلبت الجعران بين يديها ثانية... جميل ورائع في تكوينه وألوانه... لمستُ أنامله فارتعش جسده، وتدور عيناها من جديد تلمس المكان، ويقترّب منها هامساً عن حكاية هذا التّمثال، لا تجمع معاني كلّ كلماته، ولكنّها مصغية ومتمنيّة في الوقت نفسه أنّ يلقي إليها بكلمة واحدة أنّ هذا التّمثال هديّة إليها... تملكها شعور غريب، تتمنّى أنّ تمتلك هذا الجعران بأيّ ثمن، ولو كان الثّمّن كلمات عشق كاذبة أو لحظات تبتّها مجنونها لم يحدث هذا لها من قبل... تسمع وتسرح، وهو يقول إنّ له قدرات سحرية غريبة كفيلة بإبعاد كلّ الحشرات والزّواحف السّامة من موقعه، فمثلاً بأنّه لو وضع في مركز

دائرة قطرها عشرة أمتار فأبيّ ثعبان يدخل محيط الدائرة لا يستطيع الحركة أو يلدغ أو ينفث سمومه، أما العقارب فإنها في محيط هذه الدائرة تنكس ذنبها المسموم المرتفع دائماً لأعلى، تصبح مثل الكلب الخائف الذي يضع ذيله بين قائمته الخلفيتين، ومؤكداً ومشبهاً ثانية كنعامة تدفن رأسها في الرمال، غير متيقن من فهمها لحديثه، ولكن يستشعر... ولها في عينيها حديث ربّما يحزّ بأحاديث وأفعال تخرجه من حيز الأحلام التي تراوده طوال الليل عنها ومعها... أعجبها الشكل ووهج الفصّ المتوهج الورديّ الغريب، تأكّدت أنّه حجر كريم، ولكنها لا تعرف أنواعها أو أهميّتها... لم تهتمّ كثيراً بما يقوله عن تلك القوى السحرية، ولكنها تظهر له إعجابها بكلّ حرف نطقه أو خرج من بين شفتيه... تنتظر أن تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه هدية تهيم بعينيتها، ولأوّل مرّة تتصنّع الإعجاب، وبدا هذا جلياً له، أخيراً وبلا تردّد نطقها بأنّ هذا الشيء الصّغير هدية لها، بلا تردّد أخذته بين أحضانها... قبلته، فابتعد بسرعة، وابتعدت... هوس ووله وجنون وحدث أثار دهشته ودهشة كلّ أعضائه وأعصابه... توترت واهتزّت وانتصب، ونزت عرقاً ظاهراً فوق الوجه والذراعين، وتدفّق دم مهرولاً بين الشرايين، فأسرع إلى المبنى ليرشف ماءً مثلجاً حتى يخفّف به حدّة المصاب... بين ضحكات عيون زملائه المتلصّبين والفرحين لما استطاع الوصول إليه.

في حجرتها بفندق العاملين بالسّد لم تنم ليلتها... هاجمتها أفكار غريبة، وتراءت لها أشباحٌ وصور مشوهة لبشر غريبى الهيئة والشكل... أغلقت النوافذ رغم حرارة الجوّ، ظلّت الأحلام، وعادتها نفس الرّؤى الغريبة... تذكّرت هدية "أبو الفضل"... قامت من مخدعها، وأخرجتها من حقيبتها، وعادت تتأمّلها من جديد، وانعكاس ضوء المصباح عليها فترتد منها أضواء

متنوعة غريبة... تذكّرت بعضاً من حكاياته وعن اللعنة، ولأوّل مرّة تحسّ بخوف... تسلّل الشكّ في صدق الأقايصص، وحاولت أن تبعد بها عن رأسها، لكنّ الخوف سيطر ولعمرها ما جرّبت هذا الإحساس الغريب... لفّت الهدية في قطعة من القماش، ووضعتها في علبة صغيرة من الكرتون، في حجرة صديقها المسافر لإجازة... في نهاية الرّدهة الطويلة في الدّور السفلي، فتحت الباب في هدوء، وتسلّلت وعلى أطراف أصابعها فتحت أحد أدراج مكتبه السفلي ووضعت كنزها، وأغلقت الباب، وعادت أدراجها... نامت، ولم تأتأ أيّ من الأفكار أو الرّؤى الغريبة... يرفض عقلها تلك الأساطير، وجدت نفسها مدفوعةً بدافع خفيّ للقراءة والاستماع عنها، سمعت ووجدت قريحة كلّ من يحدثها عن حقيقة اللعنة والخوف منها، وماذا حدث لمن عبثوا بمقابر الفراعنة؟ وماذا حدث للورد "كارنافون" و"كارتر" بعدما عثرا على كنوز الفرعون "توت عنخ آمون"؟ وسألته واستمعت، وأخذتها رجفة، واستعادت ثقتها بنفسها من جديد، ولكنها لم تفصح لأحد عن هديتها... وجدت بغيتها ومرادها في "الشاطر" الثّوبي الطّاهي في فندق العاملين، وتقرّبت إليه... استطاعت أن تسحبه من صمته شبه الدّائم، فقصّ عليها من خزائن الأسرار في وادي "السلسلة" و"كوم أمبو" وبعض المناطق القريبة... بذكاء جعلته يقصّ أكثر عن معبد "كوم أمبو" والحجرات الملكيّة التي عثر عليها الأهالي، والقطط الذهبيّة أو "البس" الذهبيّ كما يسمّونه... يحاول الرّجل التّخلّص، ولكنها تحاصره بوداعة طفوليّة محبّبة للرّجل العجوز، ومن بين أقاصيصه كثير ألقت به في سلّة المهملات، ولكن عندما بدأ يسرد عن تيممة "الجعران الذهبيّ" المرصع بحجر النّيران، وقدراته في إذلال الرّزاحف والحشرات السّامة، أصغت

باهتمام بالغ، فيصف لها كيف يمكن أن يؤدي صاحبه إن لم يوضع في سلّة مصنوعة من سعف النّخيل مغلقة... كطبيعة كلّ البشر تأخذهم، وتسيطر عليهم الغرائب، وهي بدورها شغوفة وعاشقة للمجهول، فاستمعت لكلّ أقاصيص الرّجل... في اليوم التالي اشترت سلّة السّعف من سوق أسوان من شارع المحطّة وأودعت كنزها بداخله، بعد يومين وفي جنون بالغ أقنعت أحد العمّال، فأتاها بعقرب متوسط الحجم في صندوق زجاجيّ مقابل مبلغ لا بأس به... في غبش الصّبح، وقبل شروق الشّمس، وفوق سطح البناية، وبعد أن تأكّدت أنّه لا وجود لعين تتلصّص وأتمّها بمفردها، أخرجت الكنز الذهبّي من سلّته، وعلى بعد يقترّب من الثلاثة أمتار فتحت الصندوق الزجاجيّ وقلّبه فخرج العقرب، ولكنه لم يرفع ذنبه، بل تراخى لأسفل، وهو يمشي مترنّحًا، ولكنها تستبعد ما تراه، فربّما تأثر العقرب بحبسه في الصندوق الزجاجيّ، ولهذا لا يستطيع الحركة، فقد كان محبوسًا لأكثر من سبع ساعات، تتأمّل حركة العقرب الذي يجاهد في الابتعاد عن سلّة السّعف، تحاول أن تغيّر اتجاهه نحو السلّة، فيعاود الاتجاه مبتعدًا عن موقع السلّة... تكرّرت، وتكرّر المشهد نفسه... على بعد خمسة أمتار تقريبًا من السلّة عادت للعقرب حركته السريعة، وارتفع ذنبه لأعلى، وأسرع يعدو مبتعدًا فقد خرج خارج نطاق الدّائرة المحدّدة، وبكلّ جرأة دهست العقرب بقوة بقالب من الطّوب الحجريّ... علت وجهها الدّهشة، واستقطبت كلّ حواسها ما حدث وحقيقة هذا الجعران والسّحر المرصود عليه، هل تكتب عن هذا السرّ؟!... بكلّ تأكيد سيكون للموضوع جاذبيّة خاصّة، وستحوز مكانة مرموقة في الجريدة التي تراسلها، وربّما تطالبها أكثر من جريدة بكتابة المزيد عن سحر مصر... استبعدت الفكرة، هل تعرض هذا الكنز الصّغير على

محلّات الجواهر في موسكو؟... استبعدت الفكرة أيضاً، فهي تعلم أنّ كلّ الأفعال مرصودة وليس ببعيد أن يتم القبض عليها... صارت الآثار وخاصة الفرعونية والحكايات والأقاصيص حتّى الأساطير المروية على لسان الناس حولها شاغلها الأكبر... عندما زارت "أبو سمبل" استمعت إلى حكايات عن "وادي العقارب والثعابين"، وكيف لا يستطيع أحد الدخول إلّا بالجرعان الذهبيّ، وخاصة في المساء، فهذه الزواحف من ثعابين وعقارب وطريشة وظيفتها الأساسية حماية مدافن الملوك، تخرج لمهمتها في المساء، فتحميها من لصوص الآثار...

قال لها الشاطر الطاهي الذي أجاد لغتها يوماً ضاحكاً:

"عارفة ثمن الججران الذهبيّ وصل كام النهاردة يا هانم... وصل خمس تلاف جنيه"...

لم تهتزّ، وسألته بدورها وبلهجة حاولت أن تبدو فيها هادئة ورزينة عن عدد ما يملكه منها... ابتسم، ورفع يديه للسّماء داعياً بأنّه لا يطلب سوى واحد فحسب، فهو كفيل بحلّ كلّ مشاكله... لم تنم، وجلست تحسب كم تساوي بالرُّوبيّات، وعادت تفكّر في "أبو الفضل" وهديته، وهل هناك من مزيد؟

تتفتح براعم الفتاة بكلمات الهوى والعشق، لكن بريق الذهب أرسى قواعد جديدة... وهج الحجر النّاري ذهب بهوس وهمس الشّفاه، فتصنعت وسألته عن الجانب الآخر للمدينة، وكانت في طلبها تغزو بعينيها معاقل قلبه، وتطرق أمانيه التي لم تتعدّ مخدعه الليليّ، لم يصدّق أذنيه، فعادت تسأله من جديد... ذهبت الكلمات، وتلعثم لسانه، ولم يدرك بأيّ الكلمات يجيب، وطفحت السّعادة فوق وجهه، وكانت الموافقة بكلّ جوارحه ظاهرها

وباطنها... خرج من حيز الأحلام لآفاق الواقع الملموس، أهداها كل ما حوته سلّة الجدّة من جعارين ذهبية مرصعة بوهج ناريّ، وهبها عن طيب خاطر كل ما ملكته الجدّة، لم يجد جديد وهي تحته على مزيد من الهدايا بهوس محموم وسهام نارية من عينيها... عزم أن يبحث بنفسه في مقابر الأجداد، وأن يذهب إلى معبد "كوم أمبو"، ويتعلّم كيف يحصل على الأثر الفريد، كأنّ أهمّ شيء في الدّنيا هو رضا "كاتيا" الرّائعة الجمال... بعد فترة ليست بالطويلة وجدوا الجدّة جثة هامدة إثر عصّة ثعبان، كانت مفاجأة للجميع، فهم لا يصدّقون، فالجدّة تحتفظ بسرّ إذلال الرّواحف والحشرات السّامة، بحثوا ونقبوا داخل حجرتها، ولكن لم يجدوا أثرًا لتلك التّائم القديمة، وجدوا كمًا من الذهب الخالص... لم يجدوا التّائم، فصاغوا حكايات عن سرّ اختفائها، استبعدوا عن خواطهم السرقة، أو كأنّهم تعمّدوا الصّمت حتّى يدركوا خيطًا يصلون منه إلى الفاعل... وجدوا أشياء كثيرة ثمينة لم تسمّها يد، توجّس أبو الفضل خوفًا، وأدرك أنّهم سيعرفون، فرجل السّحر الذي أتوا به أكّد أنّ الثّعبان القاتل مازال طليقًا، ويمكنهم أن يقتلوه، وربّما وجدوا التّائم داخل جسده، كيف هذا؟ وكيف يستطيع الاقتراب؟... هل هناك جنّي استطاع فتنة العجوز فأخرجت كنزها ونسيّت التّائم خارج إطارها فابتلعها الثّعبان ثمّ عضّها وقتلها؟... يتمنّى أن تكون هذه الأفكار هي حقيقة ما يفكّرون فيه، لكن في عيونهم تبدو حكايات... انتظارًا لمعرفة الفاعل، وربّما يقتلونه وبأيدي أقرب أهله وذويه، فقرّ هاربًا...

إنّ العشق الأوّل المرتعش، أزهار نبتت في خلايا جسده المقفر، أثمرتها شجرة العشق المغروسة في صدره، تفتّحت واخرقت حواجز الواقع، وزادت من بهائها ساعة أن روتها "كاتيا" بقاء دلالها، فذابت أرض فؤاده،

وتفتت، وذهبت الشقوق... حاصرت جذور شجرتها بباء العشق، فتأصلت وزادت ودارت والتفت كلبلاب عاشق لم تر عيناه سواها، ولم يسرح فؤاده إلا بها ولها، يخاف، فلمن ييوح بفعلته والجرم الذي ارتكبه، فهام على وجهه خائفاً بائساً، وأملاً أن يجد للتائم أثراً في أي بلد، لا ينسى كيف اصطحبتة للفندق كعامل مؤقت، كيف أطفأت نيران توهجه وحبها في جسدها الثلجي المتصنع التوهج في آهات عجزية تمثيلية؟!... تاه في همسها، واستسلم لشوقها الكاذب، لم يدم الحال كثيراً، فقد جف معين سلّة الجلدة الذهبية.

حسابات غريبة تدور في ذهنها، فكم تستطيع أن تكسب من وراء هداياه! مبلغ ضخم... فلماذا لا تبعها؟... المصيبة الكبرى لو تمّ العثور عليها في بلدها، أو ظهرت عليها ملامح الثراء، فصممت ألا يخرج سرها عنها، ولكنها عاشت به وله...

مرت الأيام، وازداد تعلقها بمصر، وخاصة بالصعيد، اختفى أبو الفضل، سألت عنه، ولكنها لم تحظ بجواب، تدور عينها وكأنتها تبحث حولها عن "أبو الفضل" آخر!!... أجادت اللغة العربية، بل اللهجة المصرية، حتى أنها عرفت مرادفاتا بلهجاتها المختلفة، لم تجد صعوبة في التأقلم، فاقتربت، وسمعت، وذهبت وعرفت الجديد عن الآثار وتجارها... كعادتهم يفتحون صدورهم لكل قادم، وتمتد أيديهم بالسّلام، وتلهج ألسنتهم بالثناء عليه، إنهم البسطاء المصريون بطبيعتهم.

في أوائل السبعينيات من القرن العشرين، وفي صفقة سياسية لا يدرك أبعادها سوى العاملين في فلك السياسة، قام رئيس مصر في تلك الآونة بطرد كل الخبراء الروس، وتوترت العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبين مصر، لم يتبق سوى أقل القليل في مصر، حاولت "كاتيا" بكل ما أوتيت من قوة أن

تظل مقيمة، ولكن محاولاتها باءت بالفشل... عادت، وما زال فؤادها متعلقًا بمصر وبحوزتها كم من هدايا حبيبها، والعديد من الآثار الصغيرة التي استطاعت أن تشتريها بالمال.

تعود لربوع بلادها، وتراودها الذكريات الجميلة والأمني في غد... تتأمل ملاجئ الأطفال وطفولتها، فلم تكن طفولة بائسة كما يتخيّل البعض، ففي تلك الملاجئ التي كانت سابقًا قصورًا لأمرء وملوك، فيها يتمتع الطفل بكل وسائل اللهو واللعب وتعلّم الموسيقى وممارسة الألعاب التي تتناسب وسنّه، كما يتعلّم الرقص والرسم وكافة الفنون، حتّى أنه أطلق على الأطفال في هذا الوقت ملوك روسيا، فكانت المناهج والأفكار تكتشف المؤهلات والقدرات التي يتمتع بها كلّ طفل، ويتم توجيهه نحو ما يتماشى ورغباته وطموحاته وأفكاره وكلمة كانت مشهورة ومرددة أنّ القيصر الوحيد هو الطفل، أمّا الانتفاء لمنظمة الطلائع فكانت تعتمد في تقاليدّها على التقسيم لخلايا وتعيين مربّ أو مربيّة لكلّ خلية... كان النداء "كن مستعدًا للنضال في سبيل انتصار قضية الحزب الشيوعي، ويأتي الردّ "أنا على استعداد دائم"، ولكلّ فريق أو خلية علمه الأحمر، يجب أن يكون الأعضاء في سنّ واحد أو في فصل واحد، والعضوية شرف، ومن كانت تصرّفاته سيّئة، أو نتائجه الدّراسية سيّئة لا يقبل في الطلائع، وتشرف على الطلائع منظمة الشبيبة الشيوعية، وبالطبع التّكريم قائم دائمًا للمتفوقين والمبتكرين، ولكن ممنوع منعًا باتًا زيارة المؤسّسات الدّينية... لماذا كلّ هذا التّشدّد في الحظر على المؤسّسات الدّينية أو أداء الطقوس الدّينية؟... تأملت البشر في مصر، وكيف حالهم يوم الجمعة والمساجد؟ أو يوم الأحد والكنائس؟ فكّل ممنوع يدفع الإنسان لمزيد من المعرفة، فشیطان الإنسان يتغلّب على نفسه ويبحث وينقّب عن المجهول،

فهل المرأة أساس الغواية؟ فحواء أغوت آدم بالمجهول وتمتت الخلود، وتقاتل ابنا آدم بسبب المرأة... الصّينيون أصحاب حضارة من أقدم الحضارات قيّدوا أقدام النّساء بأحذية حديدية حتّى لا تنمو وتكبر، ولكن كانت هناك ذريعة أهمّ ألا وهي أن تلتزم النّساء بالبيت وتتعبّد في محراب زوجها، ولا تقضي وقتها في الخروج والمشي في الطرقات فتفسد أخلاقهنّ... ولم تكن المرأة أساس البلاء دائماً، فكثيراً كان المفكرون والفلاسفة، ف "نيتشه" وفلسفته أقامت صرحاً في عقل هتلر، وفكر كثيراً في قتل الملايين تحت مسمّى العرق الأفضل... تحدّث كثيراً عن الأفراد المميزين والأبطال العباقر، وأنهم من لهم الحقّ في الحياة، عبودية الجنس البشريّ لصالح الإنسان الأعلى، فالمغامرون والقوّاد وكثير من المارقين يركبون رُؤوس البشر ليعبروا النّهر لغرس أفكارهم وآثارهم وذكرياتهم في النّاحية الثّانية للنّهر... والمرأة كثيراً ما كانت مركباً للعبور فحسب، فألصقنا بها التّهم بدءاً بطاعة أبينا آدم لأمتنا حواء... يقول لها الأب:

— الشّيء بالشّيء يذكر، لك أن تعلمي أنّه في عيد الخروف أي في اليوم الأوّل من فصل الرّبيع كان متّبعاً أن تتمّ حفلة خاصّة جدّاً بين أنصار طائفتنا... لا يقلّ تعدادهم عن رجلين وامرأتين، ويمكن أن يزيد العدد عن ذلك بشرط أن يتساوى عدد الرّجال بالنّساء، على الجميع وخاصّة النّساء أن تتحلّى بأجمل الملابس والزّيّنات والعطور، وبعد تناول الطّعام يبدأ اللّهُو، فتطفأ الأنوار ويبقى الجميع في ظلام دامس...!! تنظر في عينيه الذّابلتين، ولكنّ فيها مبيض غريب وابتسامة واهنة تعلقو شفّتيه، وتداعب يده شعر رأسها... تتأمّله، وتتنظر ما يفيض به من حديثٍ عليها... يقوم من مجلسه، ويتحدّث وهو مولي ظهره لها...

— كل مولود يولد نتيحة هذه الحفلة هو مولود مبارك، وأظنك يا كاتيا أحد هؤلاء الأطفال المباركين...

— أنا يهودية...! ينظر حوله وكأن الخوف يقتله، ويهمس...

— أنت يهودية مباركة... خادمة لطائفتك، ولكن لا تعلمي ذلك... يجب أن تهجري هذه البلاد...

طال الحديث، وهي منصتة وداعية لكل كلمة، تتفجّر ينابيع جديدة، وتستشعر في كلماته أنهم مختلفون عن كل شعوب الأرض، وفي حديثه يرجع للتوراة، ويحدّد سفر التكوين ولمن هم ينتمون، وكيف هم الأولى بالرعاية من الله!! ويؤكد أن كتب المسلمين فيها ما يؤكد صدق دعواهم بأنهم الأفضل والأرقى والأقرب إلى الله... وتعود تسأله...

— لماذا الكراهية لجنسنا؟

— إنها ظاهرة طبيعية... ويحببها سؤال... هل يكره الإنسان من هو أدنى منه؟... الكراهية دائماً للأفضل.

— هل ألمانيا فقط؟...

— لا... الجميع... إنهم في بولندا يقولون إنهم يرضعون كراهية اليهود مع لبن أمهاتهم... وأعتقد أن الجميع حولنا كذلك... ويشير إلى ذلك ما حدث في روسيا، وكيف كانت نهاية القرن التاسع عشر يوم أن ثار اليهود ضدّ الحكم الملكيّ، ونشروا الفوضى الأمنية، وقام الجيش الإمبراطوريّ بحملة تصفية جسدية لليهود في أكثر من مقاطعة روسية... انطلقت المظاهرات اليهودية بعدها، واتهم "الكسندر الثالث" اليهود بأنهم هم السبب في الشغب والتخريب الذي لحق بالبلاد، وزعزع استقرار الإمبراطورية، فأصدر قانون "قوانين مايو" التي تمنع أيّ يهودي عن ممارسة السياسة، ومن يفعل

ذلك يُعَدَم أو يُقْصَى من البلاد... استمرَّت حكومة القياصرة تسعى لإبادة الوجود اليهوديِّ، وتتابع الهجرات إلى أمريكا، وقامت عصابات في أوائل القرن العشرين تقتل اليهود كما تقتل الخراف، حتَّى إنَّهم مزَّقوا أشلاء الأطفال... يتوقَّف ريشا يستردُّ أنفاسه وبلغة كلِّها التَّحدِّي والجبروت، وهي لا تنسى كلمته التي قالها ساعتها "إننا لا ننسى حقَّنا حتَّى من الله... إننا نحاسبه"... تُداخلها أفكار وردود أفعال متباينة، في البداية كانت تشعر بمدى الكذبة التي يدَّعونها حول أفكارهم... بمرور الوقت تسلَّلت الأفكار واستقرَّت في عقلها، ولم ترَ عينها سوى الظلم الذي وقع على أبناء جنسها... يعود...

"بأموالنا وأفكارنا صنعنا الثَّورة البلشفيَّة، كلُّ مؤسَّسي الماركسيَّة أغلبهم من اليهود، لا ننكر أنَّ ثوَّار الماركسيَّة قرَّروا تحريم العداء لليهود، فـ"ماركس" رغم تظاهره بالإلحاد وغواية البشر كان يهوديًّا في الصَّميم، يجب أنْ تعلمي أنَّ كذبة البروتوكولات في حقيقتها معادية للسَّامية في التَّاريخ، هي وثيقة زوَّرها أعداء اليهود، وساعد في نشرها آخر أجيال القياصرة، واتَّخذها "هتلر" ذريعة لمذابحه ضدَّنا، فقالوا إننا نفكر في السَّيطرة على العالم، لا تنسى أبدًا أنَّ الأوربيين قتلوا نصف تعدادنا في أوروبا بصورة مباشرة وغير مباشرة، قتلوا ستَّة ملايين يهوديِّ، وتعدادنا لا يكفل لنا أن نحارب اليوم إلَّا في جهة واحدة، ضدَّ العرب عموماً؛ لنستردَّ تابوتنا وهيكلنا، ويجب أنْ يناصرنا كلُّ العالم، فكما دفع المسيح من دمه ليرفع الوزر عن البشر ويخلِّصهم، فعلى كلِّ العالم أنْ يدفع من دمه في سبيل استرداد حقوقنا المنهوبة... على كلِّ البشر أنْ يعتذروا عمَّا بدر منهم وجدودهم منذ السَّبي البابليِّ الأوَّل والثَّاني، منذ طرد أجدادنا من أرض الفراعين حتَّى محارق

بولندا وألمانيا، أعداد أعدائنا كثيرة فلنحاربهم بأيديهم ليتقاتلوا ولنحكم نحن العالم بعلمنا وأموالنا... لا تعلمي عن أصولك، اجعليها في طيِّ الكتان، واخلمي القضية".

عليها أن تقلب في صفحات الكتب... أغلب الروايات أو المسرحيات التي قرأتها تعكس صورة اليهودي في المجتمع الأوروبي خاصة بالكاذب والأفاق والمرابي... كلُّها صور تنكاثر ولكن تعود وتؤكد أن مرجعيتها في الحقيقة كراهية الأعلى... استقرَّ داخلها أنها تنتمي لأصحاب الفكر الأعلى والأسمى، إحساس غريب بدأ يركب رأسها، استمعت بحبِّ جارف لأفكار فوضي الحرّية أو حرّية الفوضى، وأنها الأساس والبداية حتى تنهار البلاد التي لا تساعد اليهود، فيهود الدونمة كانت حياتهم في أسبانيا وهربوا بعد محاكم التفتيش إلى تركيا، وتداخلوا مع المسلمين، وما لبثوا أن أنشؤا عقيدة سرّية خاصة بهم، وأخفوا يهوديتهم، فكانوا يصلُّون مع المسلمين ويدفنون موتاهم في مدافن المسلمين، فالجد الأكبر لهم ادعى أنه المسيح المنتظر، ونشر هذا بين أتباعه ومريديه، وتحمّسوا للفكرة... تراجع عن فكرته عندما وصل الأمر للسلطان، فأمر فاقتاوده لحضرتة وطلب منه السلطان تأكيد معجزته كونه المسيح المنتظر، فطلب منه أن يتجرّد من ثيابه، ويجعله هدفًا لسهام الجنود فإن لم تحترق السهام جسده، فإنه سيشهد بأحقيته في دعواه... تراجع بسرعة، وأقرّ بأنه مخطئ، وأعلن إسلامه، وأرسل رسالة لمريديه جاء فيها: "لقد جعلني الله مسلمًا، أنا أخوكم محمّد البوّاب، هكذا أمرني الله فامتثلت" وعمومًا لا يعرف أيّ شخص عن حياة هذه الطائفة وأفكارها إلا بعد الزواج، ساهموا في علمنة تركيا، ساهموا في سقوط السلطان عبد الحميد، سحّبوا تركيا ودفعوها للتّحالف مع ألمانيا في الحرب العالميّة.

ربط كثيرون ما بين الصُّهيوْنِيَّة وأفكارها والماسونيَّة، وكيف بدأت واستلهمت أفكارها، رغم أنَّ البعض يزعم أنَّ الماسونيَّة منذ عهد الفراعنة وارتباطها بالعارفين بالبناء وأسراره... اجتمعت الآراء على أنَّها منظِّمة يهوديَّة سرِّيَّة بدأت نشاطها منذ القرن الأوَّل الميلادي خوفاً من الدِّيانة المسيحيَّة، وعملت على اضطهاد المسيحيين، أمَّا رموزها فلها أسماء ومرجعيَّة وردت في بناء هيكل سليمان... اليوم المحافل الماسونيَّة منتشرة في كلِّ أنحاء العالم.

تسلَّل للمعبد اليهودي... تنهل من الأفكار التَّوراتيَّة والأسفار الأوَّلِيَّة، تعلَّقت بالأفكار اليهوديَّة والجنس السَّامي، تزداد قناعتها كلِّما قرأت ولاحظت مدى الكراهية المقيتة والبغض لليهود، أمام أحد الحاخامات الكبار، وفي حديث متقطَّع وكلمات تدرك معانيها ومرادها بصعوبة وهو يمسك أناملها بين يديه الواهنتين، يقسم لها بأنَّها ستعود للنيل، وترسو مراكبها فوق مياهه المباركة، وستكون بدايتها وخدمة القضية اليهوديَّة... طلب منها عدم التَّردُّد كثيرًا على المعبد حتَّى لا تثير فضول الآخرين... كانت مفاجأة لها لحظة أن قال: "لا تخافي على كنزك، سينمو وسيكبر، وسيعود عليك بالأموال الطائلة...".

حاولت أن تسأله عمَّا يعني بكنزها... ابتسامة واهنة من ثغر لم يتبقَّ فيه سنٌّ واحدة، فهمت من حديثه أن "الجعل" عبده الفراعين؛ لأنه يخلق من عدم، وعلَّقوا فوق رأسه السَّحر والأحجار الكريمة... استأذنها، وقام بصعوبة بالغة، ودخل المذبح الدَّاخلي، لم تتحرَّك من مكانها، وأحسَّت بأنَّ جسدها ينضح عرقًا، وأدركها خوفٌ لأوَّل مرَّة في حياتها.

تحت مسميات عديدة، وأفكار التَّسامح والإنسانيَّة أدركت أنَّ الغد مرهون بوجودها على أرض مصر، رغم صغر سنِّها قرَّرت أن تبحث وتنبِّح وتسترشد بكلِّ ما هو متاح... أصبحت معارفها غير تقليديَّة، ووقعت بمن شرح لها أبعادًا وأفكارًا وهي لم تدرك أهي أفكار الماسونيَّة أو غير ذلك... كانت طموحة في معرفة ما يدَّخره في رأسه من أفكار ومعارف، لم تبال أن تهبه جسدها لحظة أن شعرت بعينه تغوصان في مفرق ثديها، فزادت في ولائها وتعقبها، وخلع عن رأسه الخوف من الخوض في هذا الحديث، وشرح لها أبعادًا وأفكارًا ماسونيَّة يدين بها عظماء العالم، وكيف أمَّها دعوة صنع الصُّهيونيُّون أفكارها وفق معتقداتهم، ونابعة أساسًا من فكرة الخوف الذي يعيشونه، فأعداد اليهود في العالم لم ولن تتعدَّى حاجز الخمسة والعشرين مليونًا أبدًا، وفي ظلِّ التَّنامي المذهل في أعداد أبناء العمِّ الكارهين لهم، وخاصَّة أنَّهم يملكون من الأموال الكثير، أحاديث كثيرة وأمنيات غريبة، فالثروة والسُّطوة والنفوذ قد تسلَّلوا لمعاقل فكرها الذي سبَّح كثيرًا، في جمال الإنسانيَّة وروعة الموسيقى التي تنساب كجداول رقراقه تبعث الحبَّ والأمل والجمال، وكأنَّها نست خطواتها الرَّاقيصة على أطراف أصابعها، راحت معالم الجمال التي كانت تسبَّح فيها كما الصُّوفيَّة عندما يصعدون برقصاتهم للسَّماء، تتلاشى الرُّؤى من أمام عينيها وتذهب كلُّ الألوان بعيدًا، تتشَّح روحها بالسَّواد وبنشوة الانتقام، بلا تردّد يصف لها الطَّريق وهي تلميذة، وكأنَّ لسان حاله يقول لها... تزيني لمن يرهبك ولا تخافي مغتصبك وهو يطوِّك قسرًا عنك، استجمعي شتات نفسك، هم يتهمونا بالوضاعة وقلة الشَّان، ليتهمونا كما شاءوا ولنجرِّدهم كلِّما استطعنا؛ ليصيروا عرايا أو يقتلوا بعضهم، يستفزُّها بقصص وحكايات غريبة متنوِّعة، يداعبها شوق النِّقمة

والانتقام، ويحذرها أن الإفصاح خطأ ليكن تحت مسمى الحبّ والتسامح وكلّ المعاني الجميلة الرّنانة التي تلهث القلوب لسماعها، فعلى سبيل المثال هم يعشقون الماضي والعيش فيه، وبعد حياتهم الطويلة ارتضوا بقناعات ومسلّمات قديمة فالجديد قد يصفونه بالكفر، وكذا التّجديد يصفونه بالجنون والبُعد عن الجنّة التي وعدوا بها، لنجدّد حياتهم بالجديد غير المقبول كليّةً ولينقسّموا وليتقاتلوا ولنحيا فوق رفاتهم، نظراتها المبعثرة تعكس تداخل الأفكار في عقلها ويبدو القلق فوق الوجه، يطالبها بأن ترقص من جديد حتّى تظل على قيد الحياة وعليها أن تتجرّد من ملابسها كاملة، ويدفعها لمزيد من العري والجنس، غريبةٌ تعاليمه... ينتقل بلا تردّد من الجنس والعري للدين...

— هل تعرفين ما المقصود بالنّفي؟... بلا تردّد وهي تواصل ارتداء ملابسها.

— أن يجبر الإنسان على ترك موطنه.

— اقتربت من المعنى... لكنّ النّفي في المفهوم الدّينيّ اليهوديّ نقض العهد مع الله.

قالت بحروفٍ منقطّعة وهي تغلق مشدّات صدرها:

— نقض العهد مع الله!!! كيف؟

— نعم... إنّ أيّ تنازل عن الأرض التي وهبها الله "يهوه" لأحبابه وأبنائه يعتبر تشكيكاً وعدم إيمان بهبة الله، وكما يقول سفر التّكوين "يهوه قال لإبراهيم: كلّ الأرض التي ترى سأعطيها لك ولنسلك إلى الأبد"، ومن النّيل إلى الفرات هي أرض اليهود ويستكمل مسترشداً بسفر التّثنية "عندما يقودك ربّك إلى الأرض التي تذهب لتمتلكها ويطرد منها سبع أمم أكثر

وأعظم منك، إذن ستدمرهم جميعاً، فلا تقطع لهم عهداً ولا تأخذك بهم شفقة".

— نحن شعب الله المختار... لماذا يعذبنا؟

— خذي مثلاً المحرقة الهولوكوست... لماذا؟ إنَّها كانت عقاباً من الله لشعبه المختار؛ لأنَّ الشَّعبَ اليهوديَّ أصبحَ أغلبه علمانياً...

يستطرد... وهي تستمع إليه بذهولٍ واستسلامٍ غريبيين، يرفع أصابع يديه، ويغيّر من مواضعها مدّعياً أنَّ حركة الأصابع هي دعوات مختلفة حسب الحركة والموضع، عليك أن تحفظي من تعاليم دستورنا الجديد ألا نردّ على الشائعات، إنَّ فكرة توليد النِّظام من الفوضى هي أعظم حقائق الفكر الماسوني، نحن نلعبها وفق احتياجاتنا الخاصّة وبطرق متنوّعة، فنحن كما الأهرامات يحاولون إزالتنا ومحونا من منظومة الإنسانيّة، فالهرم رمز للتّنوير والتّوجّه نحو السّماء، كلّ أسرار العالم ونهاية العالم بأيدينا ونحتفظ بها في الكليّة الخفيّة في جمعيّة لندن الملكيّة، فالأسرار لا يطّلع عليها إلاّ القلّة المؤمنة، نحن من نقلنا الحكمة من الأرض القديمة إلى الأرض الجديدة بأمریکا آمليين أن تكون تلك الأرض خالية من الاستبداد والاضطهاد، نجمتنا السّداسيّة هي خاتم سليمان، وليس كلّ ما نؤمن به نتحدّث عنه، مطلوب اللعب في عقول البشر تحت مسمّيات رائعة وجميلة، فليستابق المثقّفون والفنّانون والمبدعون ومن هم على شاكلتهم، وأحياناً كثيرة بعض رجال الدّين المفكرين ومن نصفهم بالتّقديمين، لا تنسى فعندما هرب الأوربيّون إلى أمريكا كانت الحقيقة المرّة هروباً من عنف طائفيٍّ ودينيٍّ، أسّس هناك بناءً جديداً على العلم والمعرفة والحريّة، كان هروباً من ظلام المعتقدات الدّينيّة، الحلم مدينة فاضلة أساسها التّسامح، لو استعرضت كلّ

الديانات فإنها تنبأ أن عصرًا جديدًا قادمًا يحمل العدالة والتنوير لكل الأرض، فلنكن نحن أصحاب العصر الجديد، ندعو للتسامح والحب والأخوة بين الأديان وألا نفرق بين دين ودين، علينا أن ندس السم في عسل جهلهم، نرفع من شأنهم ونعلي من شأن جزء منهم على الكل، فالمسيحية هي استكمال للمسيرة اليهودية وارتبطنا بكتاب واحد، نعلي منهم فنقول إن المكعب المقدس إذا فككت أحرفه العلوية والجانبية دون القاعدة وفتحتها كلها ستعطي لنا شكل الصليب، فكل البشر بلا استثناء عاشقون للمجهول والغريب، فالماسونية تسعى من خلال الصهيونية للسيطرة على فكر العالم ولكن لا تظهر معالم الصهيونية، نلعب بالعلم والفلك والرياضيات داخل العقول، فعلى سبيل المثال المربع الممثل بـ $4*4$ ومجموع أي صف أو عمود أو وتر منه أو وتر عكسي أو كل مربع يمثل العدد $2*2$ من الداخل مجموعها يساوي 34 ، والأرقام يمكن كتابتها بالصورة الأفقية كالآتي، صف أول أرقامه بالترتيب $13-2-3-16$ ، الصف الثاني أرقامه هي $8-11-10-5$ ، الصف الثالث $12-7-6-9$ ، الصف الرابع $1-14-15-4$ ، وإذا أرجعت هذه الأعداد ومعادلتها بأصولها الحرفية فإنها تكون كلمة لاتينية وترجمتها تصبح "رب حقيقي واحد" أو كما نطلق عليه مهندس الكون الأعظم، من هنا يمكن أن نعتبر العدد 34 نهاية لأهم التكوينات العددية الدنيوية وله من المدلولات الكثير، فمثلاً العدد 33 هو درجة غليان الماء، 33 فنهايت هو درجة التجمد، فدرجات الماسونية 33 درجة وعدد فقرات العمود الفقري الإنساني 33 فقرة، وأما الفقرة الأخيرة رقم 34 فهي فقرة العجز وهذه الفقرة تسمى العظمة المبعجلة، كان عندما يتحدث إليها يشير إلى اللعب حتى بالدين في سبيل تحقيق المآرب الخاصة بهم.

لكنه لا يشير لأحاديث الرسول ﷺ بالنسبة لهذه العظمة المبجلة أو كما يطلق عليها عجب الذنب، التي تشير إلى أنها بداية الخلق للإنسان، وكذلك يوم القيامة، منها يبدأ تخليق الإنسان من جديد بإرادة الله سبحانه، ولكن الكيفية المادية غير مدركة، فالتفسير الفعلي للقرآن الكريم غير معلوم، فكما قال الشيخ الكبير كل اجتهاداتنا مجرد خواطر حول القرآن وليس تفسيره، مرجعية ذلك أنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ولا يخضع التفسير للنظريات العلمية لأنها تختلف من عصر لآخر، ولأن كل النظريات لها مستجدات حديثة، فالرسول ﷺ يقول: "ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة"، وهناك أكثر من حديث صحيح على هذا التخليق يوم القيامة، الغريب أن الآية رقم ٣٤ من سورة الحج ﴿فَالْهَٰكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشَّرَ الْمُخْبِتِينَ﴾ صدق الله العظيم، تتوازي مع الترجمة "رب حقيقي واحد"، وقد أجمعت كثير من الدراسات على أنها تُسمى الخيط الأولي ومنه تتكوّن جميع أعضاء الجنين وتُسمى مركز النمو والتكاثر، وهي توازي حبة الحمص.

لم يُشر في حديثه لما لا يعلمه من القرآن والحديث، لكنه تواصل معها وهو يصف عالمية أفكارهم وتجاوزهم حدود الدين الواحد أو الوطن الواحد، فالعالم كله وطن للإنسان، كيف يسعون لبرمجة كل ما في الديانات حتى الوضعية القديمة وفق أفكار التسامح، فعند الفراعنة مثلاً كلمة "آمون" ما هي إلا كلمة أمين التي يرددها أبناء الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية، يشير عليها بأنها إنسانة مقدّسة وليست مجرد إنسانة عادية، ما يشغله وهو يقص عليها سوى أن قضية الانصهار اليهودي وتراجع أعداد اليهود في العالم، وأن الزواج المختلط هو الآفة الكبرى التي أصابت المجتمع

اليهودي، مليارات الدولارات المرصودة للحفاظ على الكينونة اليهودية، لا يترك مناسبة أو لحظة إلا ويتحدث لها من خلال الكتاب المقدس، ففي سفر التكوين: "قال الرب لإبراهيم: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير"، إن كراهية العالم ليست وليدة اليوم أو الأمس، منذ القدم ونحن نحارب ونحمل تابوتًا ممثلًا لتابوت العهد ومنقوشًا فيه "قم يا رب، فلتبدد أعداءك ويهرب مبغضوك من أمامك"، فيوشع بن نون أقام على العهد فأمر بالقتل وسفك الدماء مسترشداً "قومي ودوسي يا بنت صهيون؛ لأنني أجعل قرنك حديدًا وأظلافك نحاسًا، فتسحقين شعوبًا كثيرة وغنيمتهم للرب، وثروتهم لسيد كل الأرض".

سألته بقليل من الفكر وبحياءٍ كبير عمّا يصفهم به العالم عندما يقرأ هذه الكلمات والوعود فيشبهونهم بالوحوش والقتلة وسافكي الدماء منذ الأزل، يضحك ويقدم لها التبريرات التي ترسخ في رأسها أن هذه الأفعال مردودها استعادة الحق لأصحابه، نحن أبناء الله وأحبّاءه، ومن حقّ الأبناء التصرف في مملكة أبيهم، وهذا حق مشروع، إنهم لا يتكوننا... إنهم يلصقون بنا كلّ التُّهم، فيقولون عنا إنه في بعض طقوسنا اليهودية نحتاج دائماً لدماء بشرية كقربانين، من الديانات الأخرى والأفضل أن يكون طفلًا أو طفلة، وإذا تعذر علينا الحصول على هذا القربان في بلد ما، لا مانع أن يخطف طفل في بلد آخر ويُقتل، وحتى يتم نقل الدم للمكان الذي تُقام فيه الطقوس، يمكن بوسائل متعدّدة فلو استحالت الطرق فيمكن أن نغمس قطع القماش أو الكتان لتتشرّب الدماء، وتترك لتجف ثم تحرق ثم تحرق ويُحفظ برمادها، وترسل لأيّ بلد حتى تُقام الطقوس، ومرة أخرى وفي القرن الحادي عشر عندما اجتاحت الطاعون ألمانيا ووسط أوروبا، أرجعوا السبب لانتشار المرض أن

اليهود سَمُّوا المياه والأنهار بمياه المجاري، يصمت ولا يلبث كثيرًا فيرفع رأسه، هذا لأننا أقلية لا تحيد الدفاع عن نفسها؛ لأننا على الحق وهم على الباطل، السبب الحقيقي أن هناك شك في عقائدهم الدينية فيخافون أن تظهر حقائق كذبهم وكذلك رسلهم، يتفننون، فيلصقون كل الأكاذيب بنا، كلما نجحنا في بلد ما ثارت ثائرة أهلها، وأرادوا أن يجرمونا خيرات عقولنا، فيومها ألقى قس خطابًا ناريًا قائلاً إن اليهود قتلوا طفلًا مسيحيًا، واستخدموا دمه في إقامة طقوس دينية، فتم اجتياح منازل اليهود، ونُهبت واحترقت، وقتلوا الكثير من اليهود، إنَّها أوروبا بكل ما تحمل اليوم من ديمقراطية تتباهى بها، غالبًا ما اتهم اليهود بارتكاب جرائم الدَّم لصناعة خبز القربان المقدس، وإذا اتهم اليهودي بتلك التهمة يحكم عليه بالموت على الخازوق، فبالنسبة لجريمة القتل الطقوسي هي أشهر الجرائم التي التصقت باليهود، في يوم من الأيام وفي بداية القرن التاسع عشر قتلت فتاة مسيحية، واتهم أحد اليهود بقتلها كي يحصل على دمها ليقيم فرضًا طقوسيًا أثناء عيد الفصح اليهودي، حكم عليه بالإعدام واستأنف الحكم وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، بعدها بعشرين عامًا صدر عفو عنه، وبعد ستين عامًا اعترف أخوها وهو على فراش الموت بأنه هو الذي قتلها حتى لا يدفع مهرها، علينا أن نقرب من الطبقات الدنيا من البشر ونلعب في عقولهم، ما حدث لليهود في أوروبا في القرون الوسطى أنهم تقربوا للنبلاء وولاة الأمر بالقروض والهدايا، فكانت الكراهية من عامة الشعب، فعلينا في الفكر الجديد إقراض الفقراء ليصيروا ملك أدينا، نحركهم متى شئنا، فشعائرنا الدينية اليهودية سرية لا يعلمها غير اليهود، ففي العصور السابقة قامت الحروب بين الأرثوذكس والكاثوليك، يتقاتلون فيما بينهم ويلقون بتبعية ما يحدث فوق

رأس اليهود، وفي هذه الفترة قُتِلَ ما يزيد عن مئة ألف يهودي، لنحيي
 الفكرة، ولنكون بعيدين عن هذه المعارك، يكسر حدة الحكايات المشبعة
 بالدماء، وتعاوده النشوة، وبلا تردّد يتحدّث عن نظرية الخلاص: إِنَّ الصَّلَاةَ
 بِالرَّبِّ ممكنة عبر متعة الحياة والنشوة الجديدة، إِنَّ الانتشاء الجنسي على وجه
 الخصوص يمهد للانتشاء الدّيني، فيمكن للمرء دخول قاعات القداسة عبر
 بوابة الفسوق، لا تتردّد في خلع ملابسها من جديد، يعودان بعد السّباحة في
 تيار الفسق كما يسمّونه العشق الإلهي، يستندان بظهرهما للحاجز الأمامي
 للمخدع ويشعلان سيجارتيهما، ويواصل الشّرح لها، فيطالب بانتهاج طريقة
 التأمّل، يجب على الإنسان أن يركّز في الكتاب المقدّس - التّوراة - حتّى
 يستطيع أن يدرس المضامين السّريّة لعالم الرّبّ ذاته، وبهذه الطّريقة يمكن
 للمرء الدّخول في علاقة مباشرة مع الرّبّ، فيفيض في الحكايات عن الذّكر
 وحلقات النّشوى والهبام ويطلب بالرّقص والمرح لدرجة الانتشاء، فيمكن
 أن يتواصل متتبّع هذه الأفكار بالرّفعة وعلوّ الشّأن ممن يُسمّونهم
 "المستقيمون المخفيون"، ويعيشون حياة الورع والنّاس حولهم لا يعرفونهم،
 أمّا عن العراقيل التي كانت توضع أمام بناء المعابد اليهوديّة، كانوا يقولون لا
 ينبغي أن يحجب المعبد النّور عن المنازل المسيحيّة، ويزعمون أن اليهود يحثّون
 الفلّاحين على شرب الخمر ثمّ يدمرونهم ماليّاً وجسديّاً، وكان القساوسة
 الكاثوليك يصفون الحانات اليهوديّة بأنّها مثوى الشّيطان، في هذا العصر
 وصف أحد رجال الدّين المسيحيّ اليهود "طاعون الجراد الذي أصاب البلاد
 في الصّيف والشّتاء"، ويتّجه لبكائيّة غريبة فيقصّ لها كيف بقي بنو إسرائيل
 بعد سيّدنا موسى - عليه السّلام - أربعائة سنة، كان همّهم إقامة دينهم فقط
 ولا يهتمّون بالملك، حتّى جاء طالوت وقتل جالوت ثمّ داوود وبعده سلّيّان

- عليها السّلام - افترق اليهود فرقتين... واحدة في الموصل والجزيرة للأسياب العشرة، والثانية في القدس والشّام لبني يهوذا وبنيامين، اتّصل ملكهم لألف سنة، ثمّ جاء بختنصر ملك بابل فهدم مسجدهم وأحرق توراتهم وكان السّبي البابليّ الأوّل الذي استمرّ سبعين سنة، وعادوا وكانت الجلوة الكبرى على أيدي الرّومان وخرّبوا بيت المقدس، تتوالى أحداثه ويرشف من معين جماها ما شاء تحت العديد من المسمّيات الدّينيّة والعقائديّة، تستسلم؛ لأنّها تدرك أنّها ليست مثل كلّ البشر كما حدّثوها، وأمّامها أفعال تخدم بها طريق الرّب، يسترشد بآيات من الكتاب المقدّس فيصف لها ما جاء في سفر التّكوين "وابتدا نوح يكون فلاّحا وخرس كرّما، وشرب من الخمر وتعرّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا، فأخذ سام وياث الرّداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا للوراء وسترا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصّغير"، ويعود الفلستينيّون إلى نسل كنعان، وأنّ نوحا لعنه وقبل الله لعنة نوح في ابنه ونسله، وبالتّالي فلا يحقّ لنسله الوجود في الأرض المقدّسة وهي بيت المقدس وما حولها، ويواصل أسانيده: "ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك الرّب إله سام، وليكن كنعان عبدا لهم، ليفتح الله لياث فيساكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم".

نصبها منقذة لأهلها، يستفزّ ذاكرتها بالأحداث المتلاحقة والدّماء التي دفعها اليهود ظلّما وعدوانا في مختلف العصور، يتملّكها شوق النّقمة والانتقام، تتجرّع شربة خمر مثلجة علّها تنهك أفكارها التي تسبح في الأحلام الشّرسة، صخب أم صمت مكبوت بين شقيّ الرّحى تدهس إنسانيتها التي

كانت وتفتت بقايا روح، تزداد انفعالاتها وتمتزج بدوافعها فيتوحدان في الشكّل والمضمون، ردود أفعالها استسلام لكلّ الكلمات والحكايات وبالطبع هي تستمدّ قوتها من الكتاب المقدّس، تبدأ إجراءات تغيير الهوية والجنسيّة إلى مواطنة أمريكيّة، لا تلزمها بالقوانين المتبّعة، فأمثالها ومريدو الجنسيّة عليهم بالفترة البينيّة حتّى يُقسم المواطن الأمريكيّ يمين الولاء، فالمؤسّسة ذات باع طويل في أمريكا وغيرها من بلدان العالم، وتبدأ المرحلة التّالية وهو برفقتها دليلاً ومرشدًا وعليه فكّ أسرار أيّ فعل لا تعرفه، أصبح رهن إشارتها، وأصبحت هي السيّدة وهو التّابع، لكنّها لا تستطيع الاستغناء عنه مطلقاً، أحاديثهم واضحة جليّة تستطيع فهمها بسهولة ولكنّ في حذر بالغ تأتمر بأوامرهم، لكلّ المشاكل حلول وفق قواعد، فعلى سبيل المثال هل من حقّها أن تمارس طقوسها الدّينيّة في أيّ بلد تذهب إليه، لا تمنع المؤسّسة بلّ تبارك أن تتخلّى عن دينها وعقائدها في سبيل أمانيتها؛ لتساير ركب المكان الذي تذهب إليه ويكون الدّرس الأوّل "إذا كنّا نريد تطهير قطرٍ ما من الوحوش البريّة، لا ينبغي أن يحمل أحدنا حربة أو رمحاً ويخرج بمفرده، علينا أن نكون فريقاً فنستدرج الحيوانات ونجمعها، ثمّ إلقاء قبلة من الوزن الثّقيل ذات تفجيرات قويّة".

فتسأل، وهذا حقها كما قالوا... ولكنّ الأحداث وتتابعها تؤكّد أنّهم برمجوها وفق قواعدهم الخاصّة جدّاً، ويكون الدّرس التّالي "إنّ الذين نحتاج إليهم هم الفقراء المدقعين، فالمستمتتون اليائسون وحدهم هم خير الفاتحين"، ويكون الحافز الأكبر في الدّرس التّالي مباشرة"، ويا له من مجد ينتظر أولئك الذين يقاتلون من أجل القضيّة من دون أنانيّة في سبيل كلّ البشريّة وأهداف ال..."، إذا اعتنق أيّ يهوديّ الإسلام أو المسيحيّة أو أيّ

ديانة أخرى فهذا موضوعٌ حلولُهُ المطروحة كثيرة، فليهود طقوس دينيةٌ تساعدهم على الارتداد من أيّ دين يعتنقونه، ومن أجل العودة لديهم الأساسي، وأهمّ هذه الطقوس "صلاة النذور"، فإذا تلا تلك الصلاة أعفته من أيّ ديانة أخرى، يتحدّثون كثيرًا عن العلم والتاريخ وأنهم أصحاب تلك المؤسسة التي تعتبر هذا منهجها الأساسي، تستمع إليهم في شغف عندما يقولون سنعيد صياغة التاريخ، تحسّ بسعادة غامرة عندما يشيرون إلى أنهم خدم الإنسانية في سبيل التقدّم والرقي، وأنهم أحد أعمدة هذا العمل الإنساني الضخم، فمتى يستقرّ الضيف أو المهاجر أو اللاجئ، في الاستقرار ينمو الإبداع والتألق، وكما تقول الصهيونية إنّ اليهود ضيوف فإذا ما استقرّوا أبدعوا وأنتجوا، أمّا إنتاجهم الحالي رغم تفوّقه على سائر البشر إلاّ أنّه خوف ونتاج خوف، لتكن فلسطين قبلتكم، رغم كلّ ما أحيطت به من رعاية وحبّ وإجلال وإكبار إلاّ أنّها تتخوّف أن تكون وجهتها مكانًا آخر غير مصر، نصمتُ وتنتظر ربّما تأتي الفرصة، عندما يتحدّثون عن التاريخ فقبلتهم الأولى هي مصر، يأتون تباعًا فيتحدّثون، اليهود والمصريّون إخوة من قديم الزمان، يمكن أن تشاهد هذا جليًّا في لوحة موجودة في المتحف المصريّ، بعضهم يطلقون عليها لوحة "مرنتاح"، والبعض يقولون عنها "لوحة النصر أو لوحة إسرائيل"، حينئذٍ جارفٌ يأخذها وتنصتُ باهتمام بالغ وتناقش وتستبين كلّ ما هو مطروح وكلّ ما يُقال، ويتواصل المدّ الذي يسعدها ويأخذ بتلابيب قلبها...

إنّ الملكة بلقيس وملكة مصر حتشبسوت شخصيّة واحدة، وعندما زارت الملكة حتشبسوت سيّدنا سُلَيْمَان فأعجبت بطراز المعبد الذي أقامه في أورشليم، فأنشأت معبد الدّير البحريّ على النّمط نفسه، ترسم أمام عينيها

الجعارين الذَّهَبِيَّة والأحاديث الغريبة عنها، هل من بقايا ذهب سيِّدنا سُليمان، هل تبيعه؟ إنَّهم يقولون إنَّنا نسعى لشراء كلِّ الآثار المصريَّة بمختلف معادنها استرجاعًا لتاريخنا، إنَّهم يربطون عودتهم لأرض الميعاد بعودة التُّراث المنهوب من مملكتهم الرِّثاءة، لقد وضعوا أمامها كلِّ ما تطلبه من أموال ورهنوه بنجاحها، مالَ عليها هامسًا، لو رجعت إلى كتاب الملوك الأوَّل، ستعرفين مَن سرقَ كنوز الملك سُليمان، كان ملك مصر المدعو "شيشنق"، استولى على خزائن الرِّبِّ التي في أورشليم، يجب أن تعود لأورشليم ثانية ويُقام المعبد ليرضى الرِّبِّ، تردَّد في منحهم كنزها ولا تتحدَّث عنه من قريب أو بعيد، نعم... نحنُ أبناء الله وعلينا إقامة دولته، لكنَّها تتساءل عن أعداد المسلمين الغفيرة بالملايين، وأنَّهم لن يتركونا نأخذ آثارهم وكنوزهم، سيحاربوننا... وأعدادنا ليست...

يستوقفها وهو يعيد على مسامعها ما سبق وبعضهم أشار عليه، فالشَّهادة ارتبطت في أذهانهم بالدِّفاع عن تراثهم وأرضهم وعرضهم، فمَن قال إنَّنا سنحاربهم، هم قومٌ مؤمنون كما يدَّعون وحرامٌ عليهم أن تتواجد في بيوتهم أو بلادهم أصنام، أو كما يطلق البعض عليها مساخيط، سيبيعونها لنا عن طيب خاطر ونحن جاهزون، والثَّانية لماذا نحارب وهم كفيلون بحربٍ بعضهم؟ فعليكِ العودة لتعرفي ماذا قال موسى بن ميمون... له مقولة مشهورة: "إنَّ المسلمين سوف يُزالون من هذه الأرض ليقى عليها اليهود"، هل هناك إشارة إلى أنَّنا سنزيلهم أو أنَّنا سنحاربهم... أعتقد لا يوجد، وعليكِ أن تزرعي زهور حديقتنا للغد بيديك، فأنتِ سفيرتنا في ربوع مصر، كم الفرحة التي غمرتها ويا لها من سعادة، هل تعتقدين أن الأوروبين ساعدونا محبَّةً لنا، هم أوَّل مَن أبادنا واختلقوا القصص والحكايات التي

ولدت الكراهية في قلوب كل العالم تجاهنا، هل وضعنا أيدينا على فلسطين بإرادتهم أم غضباً عنهم؟ كانوا مهمومين بإسقاط الخلافة العثمانية، قمتنا بمناوراتٍ عديدةٍ، ادّعينا أننا سنقوم بأهم دور يريدونه منا، إن استيطاننا في فلسطين وسيناء، هو قطع الاتصال بين اسطنبول ومصر، قطع أواصر الخلافة العثمانية، هذه بالطبع أهم ما يتمنونه، خدمنا انجلترا وأوروبا عمومًا، وتم عزل مصر عن الولايات العربية في آسيا، فعندما يصف كبيرنا الدولة اليهودية فيقول، إننا سنكون جزءًا من السور الأوروبي ضد آسيا، وخفراً أماماً للحضارة في وجه البربرية، وعلينا أن نحقق أحلامنا، فالمصريون يمشون فوق جبال من الذهب فراعنتهم سرقتها منا، علينا أن نعرف منها ونساعدهم ونؤلبهم، علينا أن نمدّ رحي القتل بمزيد من المدد والتّموين، لنجعلهم يستون سكاكينهم وسيوفهم، أفكار ثعبانية تزحف على الأرض وتشعل نيران حرب صامتة، ليست كالحروب القديمة والتقليدية، حرب لأساتذة الهيمنة الفكرية، ومن يتبقى منهم!!! فيكون الردّ جاهزاً... سيخرجون من الحرب وأغلبهم من العجزة عن استكمال مسيرة الحياة، سيمدون أيديهم إلينا ليواصلوا الحياة ولنساعدهم ليقوا ولكن بعجزهم، علينا أن نؤدّي صلاة الحبّ في محراب الله، نحن أبناء الله، ولتختلط الأمور عليهم فلا يعرفوا من النبيّ ومن الدجال، المؤسسة تجمع كل معاني الحبّ والخير والجمال، الأعضاء من مختلف الجنسيات قد تختلف لغتهم ولكنهم يتحدون في الفكر، فالحرية هي شمس المعرفة التي يسعون إليها، وكل الكواكب السيّارة في فلکها من المساواة والإخاء... وكثير من المعاني الإنسانية الرائعة.

كل شيء مرتب وفق القواعد الخاصة به فزيارات متتابعات لأرقى محافل الفن في هوليوود، تزورها ورفيق رحلتها يشرح عن كل الفنانين الأمريكيين في مختلف المجالات، أغلبهم من اليهود في الأصل ومن غير اليهود يعيشون إسرائيل، فهذه القطعة الرائعة الجمال كما يُسمونها في السينما العالمية، كانت تمنح القبلة مقابل عشرة آلاف دولار تبرعاً لدولة إسرائيل ومساعدة لها في حروبها القائمة، وهذا من كتب قصة فيلم "أهرامات مصر" الذي يشهد بدور اليهود في هذا البناء الإعجازي بكل المقاييس العلمية، لا تتوقف رحلتها في مجال الأدب والفن، ولكنها تحترق حتى في الأفكار السياسية.

أفكاراً جديدة وحكايات لم تسمع بها من قبل، فاللعب بالسياسة أول درجات الوصول، يضربون لها مثلاً، بنابليون بونابرت صاحب المذهب الكاثوليكي، الأسطورة العسكرية التي أشاد بها كل المؤرخين، تقلب في أفكاره، ففي مصر أعلن أنه أسلم، أطلق عليه اسم "علي نابليون" وصلّى صلاة المسلمين، وأقام طقوسهم، ولعنهم في النهاية، أمّا ما يؤخذ في الاعتبار فهو موقفه من اليهود، حيث عزز موقف اليهود في فرنسا، وحرّهم من القيود المفروضة عليهم، حتى إن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية كانت تلقبه بمسيح دجال متأمر مع اليهود ضدّ الديانة المسيحية، ويوم استعصت عليه أسوار عكا نشر بياناً يدعو لدولة يهودية بفلسطين سنة 1799م، فالجميع يدركون أهميتنا، ولكن يخافوننا، وخاصة القائمين على رؤوس الدين، علينا أن نرفع من قدر محفلنا، ندعو الجميع تحت كلّ المسّميات، ففي محفلنا يمكن أن تجد بجوارك الملك... الرئيس... الأمير... الغني... لا للجهل، علينا بكتم الأسرار، وعدم الإفصاح عنها، علينا أن نتخوف من اضطهاد الجاهلين، فالجهلاء لا يستطيعون استيعاب هذه الأفكار السامية العالية، الأفكار

الطموحة للإنسانية جمعاء؛ لأنهم منزونون بفكرة مقيّدة في عقيدة وحيدة فحسب، ترفض عقائد الآخرين، وغالبًا زاوية رؤيتهم محدّدة لا ترى إلا من خلال نافذة واحدة، تحيطها حوائط وجدران فلا تكفل للمشاهد رؤية مختلف الاتجاهات والزوايا، ففي محفلنا نعترف بوجود الله، علينا ألا نعقد مناظرة بين الأديان، يجب أن يحبّ النَّاس بعضهم بعضًا مهما اختلفت آراؤهم، حرّية الضمير والتكافل الاجتماعيّ، نطالب دائمًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأتباع الفضائل، والبعد عن الرذائل، نبحث عن علم وعمل وقول وفعل، وتحت شعارات الحرّية - الإخاء - المساواة... الغريب ما تسمعه من معلّم آخر عندما يتحدّث عن الأموال والاستثمارات المتنوّعة، فيقول إنّ الاستثمارات يجب أن تتنوّع وفقًا للمتغيّرات وثقافات الشعوب، وأقوى أنواع الاستثمار هو استثمار الحروب، فدنيا بلا حرب مصانع تتوقّف وعمّال يشرّدون ورؤساء تحاصرهم الاضطرابات والمظاهرات، ولكن هناك شرط أساسي... أن تكون الحرب خارج حدود مدينتهم وبعيدًا عن أبناء محفلهم، زيارات متعدّدة ولعلّ زيارة البيت الأبيض الأمريكيّ وما شاهدته من روعة بناء ومعمار أخذ بلبها، أفاضت في الحديث مع مرافقها، وهم يجوبون المكان، وفي زيارتها للمكتبة قرأت أنّ أوّل الداعيات لإنشاء المكتبة بهذه الصّورة هي "جاكلين كنيدي" زوجة الرّئيس "جون كنيدي"، وطلبت أن تحتوي المكتبة على كلّ كتب التّاريخ الخاصّة بالولايات المتّحدة، وأخذ الحديث مجراه عن المكتبات وبالذّات مكتبة الكونجرس الأمريكيّ التي تعتبر أكبر مكتبة في العالم، ودور "توماس جيفرسون" الذي كان أديبًا ومفكرًا ومناظرًا كبيرًا، وكان مرافقها دوّن تلك الملاحظات في ذاكرته.

في المساء وقبل أن تذهب إلى التّوم وجدتُ ظرفاً صغيراً فضّته لتجد... هذه بعض إيجاعات من خطاب خاصّ بجون كنيدي رئيس أمريكا... "سيداتي وسادتي... كلمة سرّي للغاية بغیضة في مجتمع حرّ ومفتوح، ونحن شعبٌ بطبيعته تاريخياً نعارض المجتمعات السّريّة والأنظمة السّريّة والإجراءات السّريّة، نحن نتعرّض حول العالم لمؤامرة محكمة وقاسية، تعتمد بالدرجة الأولى على سبل سرّيّة، ولتوسيع دائرة نفوذها بالتّسلّل بدلاً من الغزو، الإدراج بدل الانتخابات، على التّخويف بدلاً من الاختيار الحرّ، إنّه نظام قام بتجنيد موارد بشريّة وماديّة واسعة، وذلك لبناء آليّة عالية الكفاءة ومحكمة، تجمع بين عمليّات عسكريّة ودبلوماسية... استخباراتيّة... اقتصاديّة... علميّة، وعمليات سياسيّة تتمّ تحضيراتها بسرّيّة ولا تشر، أخطاؤها تُدفن، ولا يصرّح بها، ويتمّ إسكات الفارين منه، ولا سؤال عن الإنفاق، ولا كشف للأسرار، إنني أطلب مساعدتكم في المهمّة الكبرى لإعلام وإنذار الشّعب الأمريكيّ، بمساعدتكم نحن واثقون أنّ الإنسان وُلد ليكون حرّاً مستقلاً"، قرأت الورقة أكثر من مرّة، لكنّها لم تستطع أن تفهم ما تعنيه، كانت قد علمت أنّ جيفرسون له موقفٌ مناهضٌ لليهود بعض الشّيء، أمّا "أبراهام لنكولن" فقد أعلن صراحةً تخوّفه وعدم ثقته في اليهود عموماً، أمّا كنيدي فقتل، ولم يستدل على قاتليه، في همسٍ متبادل في أحد الحدائق العامّة، ثم يتحدّث إليها رفيق آخر مستحدث عليها عن الأدوار المفروضة... علينا أن نتخلّص من أفكارنا القديمة، لا تنس أنّ الملك هردوس اليهوديّ أحرق كتب الأنساب اليهوديّة، حتّى لا يتمايز اليهود فيما بينهم، بأيدينا نسيء لأنفسنا، فمثلاً بعد عام ١٥٠٠م تقريباً عندما طبعنا التلمود البابليّ بإيطاليا، يوم اطّلع عليه النّصارى، فزعوا مما هو فيه، من لعن

وسباب للنصارى، ووصف للسيد المسيح وأمه بصورة مشينة، يومها دفعنا الثمن، وكانت ثورة ضدنا، علينا أن نجعل تعاليمنا وأفكارنا سرية بما يخدم قضيتنا، نخوفنا من الرئيس كنيدي، وكان خطابه تلميحات بأفكارنا وجمعياتنا السرية، كان لابد من اتخاذ إجراء سريع، وإلا كنا سندفع الثمن هنا في معقل الحرية الذي سيدناه بفكرنا وآفاقنا... صمت وتقابلت العيون، وتحدثت وفقاً للغة السرية السائدة بينهم، وكأنتها عرفت أنهم قتلوه، ولكن بأيدي من؟؟؟ يجب عدم الاستسلام، علينا المجابهة وفق القواعد الجديدة، لقد نالنا الكثير من العذاب والألم، ففي أوروبا جرت عمليات الفصل العنصري، كان على اليهود أن يضعوا الشارة اليهودية، وهي عبارة عن حلقة ذهبية معلقة بملابس الرجل، ولباس ذو خطوط زرقاء خاص بالنساء، وذلك حتى لا تختلط الأمور... ويدركون من هو المسيحي ومن هو اليهودي، حتى شوارع اليهود تغلق في المساء وعليهم الإقامة في مناطق منفصلة عن المسيحيين.

تسمع هذا الحديث لأكثر من مرة ولكنهم يرددونه ثانية وثالثة، وفي الوقت نفسه تتردد كلمات في العلن وتعلن أنه في سعي الإنسان إلى القوانين الأخلاقية وبعث قيم الحق - الخير - الجمال... فهي محاولة للوصول إلى فكرة الإنسانية المطلقة أو الخالصة التي تخدم كل الناس على سطح الكرة الأرضية، أحاديث مغلفة... ما هو معلنٌ يختلف عما يدور في الذهن وهذا تخوف وحرص، آمنت بكل الأفكار والأحاديث المرددة سواء المخفية أو المعلنة، وكأنتها في دورة تدريجية مكثفة تنتقل من حديث لآخر، تأخذ وتعلم، وعليها أن تصوغ بنفسها الأفكار الجديدة، ولا تخلو الدورات من زيارات ترفيهية وتبهرها مشاهد لاس فيجاس مدينة القمار العالمية، مدينة لا تنام تتباين ألوان أضوائها فتخطف الأبصار، تتألق بروادها وزائريها، وتفيض البهجة على كل

الوجه، يخطف بصرها روعة المنشآت وجمال التّصاميم والزّخارف، تتوقّف في ذهول تامّ أمام مدينة الأقصر الذهبية كما يسمّونها، نعم يتواجد بها أبو الهول والأهرامات والمعابد، وكأنّها كلّها تجمّعت في مكانٍ واحدٍ هنا، تجمّعت من ربوع مصر من شمالها وجنوبها، لتحتلّ هذا المكان وتلك البقعة السّاحرة في المدينة السّاحرة، فيقولون إنّ أغلب التّصميمات قام عليها مهندسون يهود ويمتلك أغلبها اليهود، كثيرون يؤمنون بدور اليهود في تلك الحضارة التي صاغوها في قديم الأزل، وكيف أجبروا على تركها وخرجوا من مصر، يسعون أن ينقلوا كلّ آثار مصر لهذه البقعة وينشروا أقاصيصهم الغربية، فلماذا تسافر إلى مصر وتكون عرضة لعمليات إرهابية؟ وربّما تعرّض لعدوى من الأمراض السّائدة والمنتشرة في تلك المجتمعات المتخلّفة، هنا تستطيع أن تشاهد كلّ كنوز الفراعنة بلا تعرّض للأمراض وبعيدًا عن التلوث، فما زالت وسائل النّقل كالجمال والحمير، حوارات لا تنتهي...

— إنّها بلاد فيها يقتل الملوّك رعاياهم.

— وكيف يقتل الملوّك رعاياهم؟

— عندما يرفضون الوصاية، عندما يترفعون في مجلس الملك، عندما يحاول بعضهم تحرير العقول، عندما يتحدّثون عن رفع نير العبودية من فوق رقابهم، عندما يتمنّون الحرّية...

— يلوّثون أيديهم بدماء رعاياهم!!

— في حديقة أفكارهم الشّيطانية، خارجون عن القانون ومن يصوّر لهم أن قتل الإنسان نزهة، يطلقونهم متى شاءوا فينهشون أجساد الرّعايا. لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا ويعرفونها، يتحدّثون عن حقهم التّاريخي دائمًا ومن هم وماذا يمثلون لعموم البشريّة، إنّ الأشياء التي تتسم بصفات

وخصائص قيِّمة تشع منها رائحة التَّاريخ الإنسانيّ، لا تخصّ وطنًا بعينه ولا جيلًا بمفرده، إنّها هي خاصّة بالإنسانيّة كلّها، ويستطيع أيّ إنسان محدود الفكر وبقليل من التأمُّل، أن يتأكّد أنّ بصمة أجدادنا فوقها، فقد ارتبط تاريخ الإنسانيّة باليهود اليهوديّة، كلّ الدلائل تؤكّد بوجود قتالهم، وما يحول بيننا وبين الحرب أعدادنا القليلة، فالجميع من كلّ الملل يحاربوننا، وكأنّهم يتمنُّون أن يزيحونا من فوق الأرض التي أورثها إيّاها الرّب، علينا ألاّ نستسلم، وعلينا قتالهم وأن نقتلهم بأيديهم، أن نشعل حروبهم بأيديهم، ونكتفي بصبّ المزيد من المواد التي تساعد على الاشتعال، ليسمونها كما يشاءون، حرب أهليّة، أخ وأخوه يتقاتلان، فريق وفريق، عائلة وعائلة، وكلّ يتمي لبلدٍ واحدٍ ودينٍ واحدٍ، لن ندعَ سلامًا يحدث بينهم، يتعاهدون ويقسمون، ويوم يزورون موتاهم تأتيهم الذكرى، فيشحذون سيوفَ حقدهم ليتقاتلوا من جديد، حربٌ ربّما بين دين ودين، وإن لم تكن فلتكن في الدّين الواحد بين مذهبٍ ومذهبٍ، وعلى كلّ منهم أن يكفّر الآخر، والكافر يقتل طبقًا للمعتقد الدّينيّ القائم، وعلينا أن نبني صروح الحبّ والإخاء والمساواة، أفكارنا تستمدّ قوتها من ثرواتها وآفاقنا وعلمننا، في البداية ظنّنا أنّها نخدم نفسها، وربّما تحقّق أمنيات طالما راودتها، وكما يقولون انقلب السّحر على السّاحر وأصبحت مسخّرةً وبكامل إرادتها لخدمة القضيّة، هؤلاء المستضعفون وضعوا فيها الأمل للغد، أقسمت يمين الولاء واستسلمت وأعلنت، وكلّ هذا وفقًا للمعتقدات التي تنتهجها المؤسّسة التّابعة في سرّيّة تامّة.

في آخر السّبعينيّات من القرن العشرين شدّت رحالها إلى مصر، وعادت إلى مصر ولكنّها محمّلة بأفكار وآراء، في تلك المدينة الجديدة على أطراف

القاهرة، ووسط احتفالية ضخمة بإرساء حجر الأثاث لفرع المؤسسة الإنسانية، وأهم أهدافها رعاية الأطفال غير الشرعيين والمشردين، ما زالت في ريعان شبابها متألفة نضرة الملامح، وفي هذا العمر تزداد مفاتنها، وترتفع درجات توهجها الأنثوي، لكنّها قيّدت كلّ تلك المفاتن في أطر خدمة القضية التي تستأثر بكلّ أفكارها، لم تفكّر في حياتها كثيرًا، لكنّها لم تنس أن تهتمّ بالشكل العام لها، تشبّعت بالأفكار وتعلّمت واستطاعت أن تصوغ فكرها في عبارات لاقت الاستحسان من أذن مستمعيها، أطلقوا عليها السهم الذهبي في خدمة قضيتها القومية، رصدت الطریق جيّدًا، واستعانت بموالين أغدقت عليهم، فهاوما بها وبرؤيتها وانحنت هاماتهم إجلالًا واحترامًا، وكلّ شيء مرهون بالمقابل... هكذا تعلّمت وعلى المنوال نفسه تسير، أسلحتها جديدة في نضالها القادم، الفتنة أشدّ من القتل، وكيف تكون الفتنة اليوم؟ الفتنة الجديدة احتلال العقل بأفكار المدنية الرائعة، بأفكار الإنسانية التي تناسب منها وتتألق أفكار الحبّ والخير والجمال، لكنّ فيروس المحبّة الجديد يُظهِر غير ما يُبطن، كلماتٍ مشرّة للجدل، ولكنّ يتقبّلها الجهلاء بصدورٍ رحب فرحين بما تخاطب به أمانيتهم التي لا تبعد عن موطن أقدامهم، كم هو سهل احتلال العقل الجاهل، أمّا احتلال العقل المفكّر فطرق وعرة كثيرة مقابلة للمعلّم، هي أصبحت جاهزة ووفق مخططات دُرّبت عليها جيّدًا، فعليها تعبيد الطرق بأفكار جميلة وأمنيات إنسانية مرتقبة، ودعاوى الخير، الغوص في آفاق المفكّرين وأشباههم، يكفيها أن تصوغ رؤاه وأفكاره في أطرٍ مزخرقة من خلال مجلّة تصدرها، عليها الابتكار ومنح الجوائز لهم، ولا مانع من أن

ترشّح لجوائز عالميّة أو محلّيّة مدعّمة من مؤسّستها الخيريّة، جميعهم سيلهثون، وربّما قليلٌ جدًّا منهم يبتعد، فتحت أكثر من قاعة من قاعات الفكر المكّيّفة للخاصّة وأصحاب الأقلام، كثيرون من أصحاب الشّأن ارتادوا القاعات وتنسّموا عبق الجمال والفكر القادم، أشادوا، وباركوا، وأقبلوا يرفعون من شأن صاحبة الرّؤية الرّائعة الجميلة، وكثيرٌ من أصحاب الفكر استمتعوا بهوس الفكر الجديد، وتردّدوا في متاهات آفاق الحياة الجديدة.

أنا الدكتور

كم يتمنى أن يكون إنساناً بلا ذاكرة!... يحاول النسيان، لكن ماذا يفعل في هذه الذاكرة الحديدية التي يوماً أهمته حفظ القرآن وهو ابن التاسعة من العمر؟ تربيته الذي لم يتراجع عن المركز الأول دراسياً، درجته العلمية التي نالها، كثيرون من أساتذته احتضنوه واستغلّوه في أعمال فكرية ونقدية كثيرة وفي آخر المطاف لفظوه، لا ينتظر أن تجود عليه الدنيا بأكثر مما هو فيه، لم يتزوج أو يفكر في الزواج فهو مدرك أنه لا يستطيع تحمّل مسؤولية، زير نساء وعاشق لصولات الشبق الجنسي بدءاً من الخادمة التي تأتيه مرة أسبوعياً لتنظيف شقته إلى جميلات يظهرن على شاشات السينما أو التلفزيون، ممتلكاته في الدنيا لا تتعدى تلك الشقة وأثاثها، استطاع أن يشتريها بحرّ فكره كما يقول، فالمليونير أصبح دكتوراً بفضل رسالتين في الماجستير والدكتوراه أعدهما له بثمان الشقة، يلعن كل القائمين على الثقافة والفكر في البلد، يلقي عليهم باللائمة والسبب المباشر في تردّي الأحوال الثقافية والفنية عموماً، الجميع يشيد بقدراته الرائعة في مجالات النقد المختلفة، أبحاث كثيرة عنه سُرقت ولكنّه لا يهتم، عندما يمضي في الطُرقات ويخرج من الحيز العمراني الرّاقى، عندما يدخل المدافن التي يعيش فيها البشر الأموات بالحياة، أو تجذبه رائحة الماضي فيطوف بمناطق قديمة، عندما يرى معالم البؤس والشقاء التي تطلّ من وجوه البشر في هذه الأحياء، يلعنهم ويلعن مولدهم ويسأل لماذا هم صامتون؟ ولماذا لا يصرخون؟ ينصتون إليه من خلال الأحاديث التلفزيونية

ولكنهم يهدفون ما شاءوا تحت مسمى الوقت المحدد للبرنامج... يصمت...
 فقد أخذ مستحقاته الماليّة وكفى، في البرامج التي تُذاع على الهواء مباشرة
 يتجنّبونه، فهو غير مضمون فلا حديث جاهز لديه أو محفوظ، يستطيع أن
 يتطرّق لأيّ حديث ويناقد ويحجّر مستمعه على تتبّعه والإصغاء إليه، يدفعون
 له ويتمنون أن يحشوا فمه بمختلف العملات الماليّة، علّه يصاب بالخرس أو
 تخنقه أموالهم فتهتزّ رأسه موافقةً بأرائهم السطحيّة غالباً، يقولها أمامهم
 أموالكم لم تصبح ذات قيمة عندي فأنا أتفلسفها، فالأمس كان واليوم أنا على
 قيد الحياة، والغد لا وجود له في حساباتي، يمتنون عليه بجوائز ولكنّها في
 مستوى أقلّ من قيمته... لا يهتمّ، ويرشّحونه لمناصب... ويدرك دوافعهم،
 يدرك أنّها ليست إعجاباً به أو بأقواله، إنّها كراهيةٌ وتجنّباً للسانه الذي لا يقبع
 في جوفه، يرفعونه ساعات لعنان السّماء ويتركونه ليسقط، وكم يتمنون أن
 تُدقّ عنقه في هذا السُّقوط! يضحك كثيراً وبكلّ بجاجة يقول تتساوى عندي
 الحياة والموت، وإنّ كان السّجن فعاشقٌ أنا بطبيعتي للوحدة، وكأنّ سقطاته
 تكون في طين لزج وما أن يخرج من معجنة الطين فيمسح عن عينيه ويرفع
 عن فمه الطين ويبدأ ساخرًا وهازئًا، يصفقون له متصنّعين أنّهم فرحين
 بنجاته وأنهم لا يعرفون من الذي دفعه، يتحدّث عن أفعالهم النّجسة
 ومشاريعهم القذرة، لماذا لا يريحون أنفسهم منه وينتهي حياته واحدٌ ممن
 يتبعونهم، ربّما ساعتها يحظى بالشّهادة ويلقبه التّعساء الفقراء والمثقفون
 البلهائء بالشّهيد، وفي هذه الحالة سيعيش رغمّ موته ويرسمون له صورًا،
 وربّما يصنعون له تماثيل تحت مسمّيات الحرّيّة، لا يهتمّ بما يحدث كثيرًا،
 ينصبون له فخًا، يسألونه عن الحلم... علينا ألا نترك أنفسنا للأحلام، لنحطّم
 أحلامنا ونتخلّص منها، ولن يتّم هذا إلّا بتحقيقها، وعمومًا الثورة الآن

كذبة كبيرة نصوغها وفق أهوائنا، فتورة اليوم هي ظلٌ يتمرّد على الأصل، وطالما الأصل يحركها، فليست حقيقةً، ويوم تأتي الفرصة للثورة الحقيقية، على المارد أن يخرج من القمقم، لا ينتظر أن يمسح علاء الدين المصباح السّحريّ ويخرج عبدًا ذليلاً؛ ليحطّم المصباح ويدفن علاء الدين، عليه أن يجعل هذه المدينة الكبيرة الصّاخبة تضيئها النيران، يومها يجلع طوب الأرزفة وأحجارها ويرشق به كلّ من يقف في طريقه؛ ليحرق كلّ ما يلاقه، وليقلب كلّ الأشياء رأسًا على عقب؛ ليدمر السيّارات، ليصنع متاريسٍ وحواجرَ، لينفخ في الصّامتين ليخرجوا من قبورهم، ساعتها سيهربون، كلّ الكذبة واللصوص والفاستدين كالفتران يدخلون الجحور، وساعتها علينا أن نُعلنَ عن انتهاء العبوديّة، كان فخًا منصوبًا بدقّة بالغة، تمّ استغلال كلّ كلمة قالها، عندما واجهوه لم ينكر حرفًا واحدًا، تمّ الحكم عليه بستين تحت مُسمّى دعوة للفتنة، وأصبح عاشق الحرّيّة مسجونًا ولكنّه لا يقرّ بهذا السّجن، انتهى سجنه بعد تسعة شهور وصدّر عفوً خاصّ عنه، لا يهتمّ ولا يصمت ويقول... كلّ يسعى للحرّيّة وفق منظوره الخاصّ، هذا يكبله العمر والعجز والعادات والتقاليد والأبناء والواجب والأصول، ملعون أبوهم كلّهم، كلّ إنسان عليه أن يحيا ما بقي له من عمر في حرّيّة، عليه أن يكسر قيودًا تجذبه وتحدّ من حركته وحرّيّته وفكره وأمانيه، عليه أن يصرخ في وجه سجانیه، فالحرّيّة يمكن أن تكون داخل السّجن، علينا أن نهرب من الحرّيّة التي يصوغها الأوصياء، الحرّيّة المبرجة طبقًا لتقنيّات مطلوبة، على الجميع أن يصرخوا، فالأوصياء كاذبون يسعون لمصالح خاصّة، طالب الإنسان بالحرّيّة فكانت هوىّ داخل النّفس منذ أن خلق الله الإنسان، خرج من الجنّة، وطلب الحرّيّة، وكانت عقابًا من الله، تأملوا عظمة الخالق سبحانه، وتأملوا هذا

الاختلاف والتباين في الشَّكْل والمضمون، علينا أن نعبرَ للجانب الآخر من الحياة، فيمكن أن يكون لك عشرون ألف امرأة تعشقها ولكن ليس لك سوى أم واحدة، أمك وحرَّتيتك شيء واحد، غير عشيقاتك كما أردت وشئت، ولكن أمك نبع وجودك للدُّنيا، لا داعي أن نقفَ كثيرًا على قبور الموتى، فمهما وقفنا فلن نعيدهم للحياة، لا تصدِّقوا خطباء الحرِّية والمساواة، أفكارٌ كثيرةٌ يقولونها لا تعكس حقيقتهم... كم هو رائع في حديثه، رغم خروجه وهو لم يكملُ عامًا واحدًا في السَّجن! خرج... وتبدو صحَّته على أفضل ما يكون، لم تفارقه ابتهامته السَّخرة، ولم يحبُّ بريقُ عينيه ولم تفارقه سيَّجارتته، هو هو... لم يتغيَّر دكتور برهان.

— يعني اليهود لهم أصولٌ في جزيرة العرب؟

— يا سيِّدتي لم أنكر ذلك يومًا، وكان الملك في المدينة في فترةٍ ما لليهود، وملك عليها الفيطون اليهودي وهو من بني إسرائيل، وكان رجلًا فاجرًا — كعادة اليهود حينما يتملِّكون — ووضع قانونًا خاصًا يلزم أيَّ امرأةٍ تتزوج... قبل أن تدخل بعريسها تدخل عليه أولًا، لم يتوقَّف الأمر على اليهود فقط بل تعدَّاه إلى الأوس والخزرج أيضًا، وكان زفاف إحدى الخزرجيات، وكالعادة يجب أن تنفَّذ تعاليم وليِّ الأمر الملك، يجب أن يدخل عليها قبلَ زواجها، خرجت العروس على أهلها في مجلسهم وقد انحسرَ ثوبها عن أسفلها وظهرت ساقها، تفجَّر الغيظُ في نفسِ أخيها وأهلها، واتَّهموها بفعلٍ خسيس لا تأتبه بناتهنَّ، فضحكتُ وواجهتهم قائلةً، ألنَّ يدخل بي الليلة الفيطون اليهودي قبل أن يدخل بي زوجي؟! كانت لهجتها السَّخرة من رجولتهم الكاذبة، ثارتُ ثائرتهم واهتاجتُ عصبيَّتهم وقبليَّتهم، فما كان من أخيها إلاَّ أنَّهُ لبس ملابس النساءِ ومعه سيفه، وأخذ مكان أخته العروس،

وعندما خرج الجميع ولم تتبق سوى نساء القصر، ودخل الفيظون على عروس ليلته... وما إن كشف وجهها حتى قتله وفرَّ هاربًا، ودامت الكراهية بين الأوس والخزرج من ناحية واليهود من ناحية أخرى، وهرب إلى أحد ملوك غسان يستجير به، وقصَّ عليه ما كان فأجاره، وكانت أصول هذا الملك كما يقولون تمتد إلى الخزرج، فعاهد أخا الفتاة، وأجاره، وصمَّ الأيمس طيبًا ولا يأتي النساء حتى يذل اليهود، فجهَّز جيشًا وزحف ناحية بلادهم مدعيًا أنه في طريقه لليمن، ولما حطَّ رحالهم بالقرب من المدينة أرسل إلى وجوه اليهود بالهدايا فسارعوا يتلهفون لرؤيته، ومدَّ يد العون له، واجتمع أكثرهم لمقابلته والجلوس إليه، فأمر بدخولهم رجلًا رجلًا وقتلهم جميعًا، ومن يومها صار الأوس والخزرج أعزَّ أهل المدينة، وشاركوا اليهود في كل شيء... تاريخ اليهود في أيِّ مكان أسود ولم ينكر قريب أو بعيد منهم مساوئهم... يصمت بعض الشيء، وكأنه يسترد أنفاسه، أو كأنه يبحث وينقب في خلايا عقله، بيتسم وهو يقول: عالم الإجرام "لامبروزو" رغم مساندته للصهيونية المعروفة جدًا، إلا أنه قال أكثر من مرَّة أن اليهود يميلون إلى التزوير والتزييف والسَّمسرة والدَّعارة، فهذا واحد من أبواقهم لا ينكر ويقولها مباشرة، أولى بنا ألا نستسلم لأقاصيص السَّلام ودعاوى الإنسانيَّة وحقوق البشر التي يدَّعونها، تحاول أن تقاطعه المذيعه، وهي تقول: ألم يكونوا في مصر، منذ أن أتى سيِّدنا يوسف وحتى رسالة سيِّدنا موسى - عليه السَّلام -؟... يا سيِّدتي، ومن أنكر هذا؟ نعم غرباء قدموا ومضوا، لكنهم يقولون إنَّ لهم حقًا في أرض مصر... يضحك بصورة هستيريَّة ويشعل سيجارة، وتحاول منعه؛ لأنَّه ممنوع أثناء اللقاءات التليفزيونيَّة، يسألها... هل تطلبون مني أن أتمدِّد بحريَّة أم مجرد حديث لقضاء الوقت؟ أنا أخذت جزءًا من

المبلغ المتفق عليه، هل أردّه؟ وأشعل سيجارتي بإرادتي أم...؟ بدا القلق على وجه المديعة الصّغيرة، وراحت تنظر للقائمين على التّسجيل، أو المخرج لعلّ أحدًا يساعدها ويخرجها من تلك الورطة وهذا الإنسان الغريب، لقد قالوا لها ابتعدي عن حواراته، فلن تأخذي من ورائه سوى المشاكل، بل يمكن لبعض القائمين على الإعلام أن يصنّفوك وفق تصانيفهم المعتادة، ويمكن أن يبعدوك عن الإعلام عمومًا بفضل مشاركتهم لمؤسّسات عالميّة ترعى أفكار السّلام بين البشر، كانت مصمّمة أن تطرق بابه، وخاصّة أنّه خارج لتوّه من السّجن، لم يجد المخرج مفرًا، وهو على الهواء، أشار عليها أن تخرج لفترة إعلانيّة، في أثناء الفترة الإعلانيّة تابعت ردود أفعال المشاهدين في مكالمات تليفونيّة أو رسائل إلكترونيّة، يطالبون بالمزيد من اللقاءات مع هذا الدّكتور، ترجوه أن يكمل حديثه، رغم أنّه قرّر أن يغادر، وأخرج ما أخذه من مقابل، ووضعها على المنضدة أمامها، إلّا أنّه لاحظ وكأنّ الدّموع تكاد تنساب من مقلتيها، شعر أنّها جديدة في الإعلام وحظّها أوقعتها بين يديه، تعاطف معها وشعر أنّها لا تدرك أبعاد الموقف حقيقةً، لكن كان له شرط أساسي، ألا تقاطعه وتركه يتكلّم بحريّته، ولن يدخّن أثناء الحوار، طلبت منه ألا يخرج خارج دائرة الأسئلة المسجّلة في ورقة الحوار، وأن يستعرضها، وله الحقّ أن يعترض على أيّ أسئلة وسيرفعونها فورًا، رفض ذلك وطالبها أن تسأل ما شاءت، ولن يرى الأسئلة، وقائلًا بلا تردّد...: "يا بنتي إيه ياخذ الرّيح من البلاط"، عادت وعاد معها هادئًا رزينًا متخوفًا عليها وخاصّة أنّ نبرات صوتها توحى بذلك، بادرت قائلة:

— كنا نتحدّث عن اليهود في مصر وخمسائة سنة تقريبًا من سيّدنا يوسف عليه السّلام - وحتى سيّدنا موسى - عليه السّلام -.

— ادّعاؤهم بأنّ لهم حقوقاً في مصر هو ادّعاءٌ كاذب، لن أردّ عليهم
بصراخ وعويل، ولكن سأقول لك تعالي نعود للكتاب المقدّس، ونسمع...
ولنقرأ معاً، فالله خاطب اليهودَ قائلاً: إنهم جيلٌ متقلّب... أولاد لا أمانةَ
فيهم...

— هذا في الإنجيل!

— نعم... دعيني أكمل لك عن صفاتهم، وعلاقتهم برّب الخلق، لتعلمي
كم هم مجرمون! فيقول الكتاب المقدّس: إنّ الله حزن لخلق البشر، وبالحرّف:
فحزن الرّبّ أنّه عمل الإنسان على الأرض، وتأسّف قلبه "تخيّل الله سبحانه
وتعالى من خلق الخلق يقول ذلك، وفي سفر أشعياء: بسطت يدي طول
النهار إلى شعبٍ متمردٍ سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره"، ولا إرادياً
تمتدّ يده ويشعل سيجارة، ويبدو على وجهها التبرّم، وتنظر للمخرج، فيشير
إليها أن تتركه، ويشير بأصابعه بعلامة تدلّ على الجنون الذي يعتره، ثمّ
يستكمل قائلاً: "يأكل لحم الخنزير، وفي آنية لحوم نجسة"... لقد أساءوا
لكلّ الأنبياء والرّسل، ألم يقولوا عن سيّدنا سليمان - عليه السّلام -: إنّ نساءه
أملن قلبه وراء آلهة أخرى!" فالكذب اكتسب اسمه برباطه باليهوديّ
عموماً، فعندما يدعون حقّهم في أرض مصر عليهم أن يعودوا لسفر
الخروج، وبالحرّف "كنتم غرباء في أرض مصر"، وكزّرت هذه العبارة أكثر
من مرّة، عليك أن تضعي تحتها مئة خطّ لتدركي مدى كذبهم، غرباء غرباء
أي ضيوف، كطبيعتهم دائماً يغيّرون التّاريخ أو يحاولون!

— لكنّهم مؤمنون بذلك وإعلامهم يقول ذلك... يضحك...

— ماذا تنتظرين منهم؟ مثل حكيم يداوي مريضاً، فإن شفي من دائه قال
شفي ببركة عملي، وإن لم يشف قالوا عنه قليل الإيمان، بالطبع تعلمين أنّ

اليهود عاشوا في مِصرَ معززينَ مُكرِّمينَ... يستردُّ أنفاسه وفي هدوءٍ يقصُّ عليها... كان في قريةٍ مصريَّةٍ حوالي ثلاثِ عائلاتٍ يهوديَّةٍ، وبطبيعتهم يحيطون أفعالهم وطقوسهم بالغموض وكانوا يدَّعونَ أنَّهم يعرفون في السِّحر، وهذه حقيقة لا أنكرها، فلهم في ذلك باعٌ كبير منذ عهد الرِّسالات الأولى، فقالوا في هذه القرية لصوص يهاجمونها، وأصبح أغلب أهل القرية شبه خائفين على حياتهم وممتلكاتهم، صرخت نساء أحد البيوت معلنةً أنَّ هناك لصًّا في المنزل، وكانوا أقرب لبيت أحد هؤلاء اليهود، وكان كما يُقال عنه خيرًا في السِّحر، أحضره وأخذ يرتل أشياء غامضةً والناس لا تسمع صوتًا أو همسًا، وبعد وقتٍ ليس بالطويل خرج كلبٌ من الحوش الخلفي للبيت مسرعًا، فصرَّحَ ساعتها... لتخرج كلبًا... لتخرج كلبًا... في البداية قال النَّاسُ إنَّ بركة اليهوديِّ أخرجت اللصَّ كلبًا حتَّى لا يؤذيه أصحاب المنزل، لم يستمر الحال طويلاً، ولكن انتشرت إشاعة أخرى، وساعتها لم يدركوا مصدرها، أنَّ مَنْ كان في البيت أحد أبناء الرَّجل الكبير بالقرية، وأنَّه على علاقة آثمة بالسَّيدة صاحبة المنزل، ووصل الحديث لمسامع الزَّوج، ولم يتحمَّل أن يلوِّث شرفه، وعلى الفور قتل الشاب الذي أشارت عليه الشَّاعة، الغريب أنَّ الفتى كان خارج البلد أثناء هذه الحكاية، ولم تشهد القرية النَّوم بعد الحادثة وكان نصيبها الخراب، هرب اليهود من القرية وأشارت أصابع الاتِّهام في البداية بأنَّ مَنْ صنع الإشاعة هم اليهود، وأكَّدتها أحاديث النَّاس بعد أن جلسوا وتأكدوا، جمعوا كلَّ مَنْ سمع كلمة، وربطوا بين الأحاديث وبين بعضها وتأكدوا أنَّ الهاربين هم أساس المشكلة، علَّنا نستطيع أن ندرك آفاقهم وما يفكِّرون فيه.

— هذه مجرد أقاصيص... وهم يقولون إنَّ كثيرين يهتَمُّون بأنَّ يلصقوا بهم التَّهم، واليوم يمدِّون أيديهم بالسَّلام، ووفقاً لكتاب الله وسنَّة نبيِّه نحن مطالبون بالسَّلام.

— عليك أن تعقدي مقارنة بين خروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة، وخروج سيِّدنا موسى - عليه السَّلام - من مصر، فعندما خرج الرَّسول ﷺ ترك عليّاً بن أبي طالب - رضي الله عنه - ليردَّ الأمانات إلى أهلها، منها أمانات كانت لليهود، وعندما خرج قوم موسى أخذوا معهم ذهب المصريّات، وبعدها خرجوا عن طوع موسى - عليه السَّلام - وأقاموا العجل الذي عبده... فهل هؤلاء نأمّنهم أو نصدِّقهم؟!

— لكنَّ ما علاقة اليهود بالسَّحر؟ وقد أشرتُ في سياق كلامك بذلك وكأنَّه يفكر في شيء ما، وما لبث أن نظر إليها.

— هل تعرفين المندل؟ بدا على وجهها الاستغراب، وفتت بهزّ رأسها، ولم تتكلَّم، فواصل استكمال أسئلته... تعرفين مَنْ تضرب الودع...
— نعم، نعم... وضاحكة ومستكملة... نوشوش الذكر.

— الله عليك... هيه حكاية وشوش الذكر... وارمي بياضك... الحكاية من أوَّلها كالاتي... ارتبطت نجمة داود قبل اليهود بأنَّها رمز للعلوم الخفيَّة، وتشمل السَّحر والشَّعوذة، وفي بلادنا وخاصَّة الرِّيفيَّة منها عندما يبحثون عن شيءٍ مفقود، يقولون تضرب الودع أو نفتح المندل، وتأتي غالباً إحدى السيِّدات ومعها أحجار وتضرب الودع أو تكشف المندل ومنها يستطيع أن يستدل على الشَّيء المفقود، لاحظي كلمة مندل، فالنَّجمة السُّداسيَّة كانت تعبر قديماً عن الميتافيزيقيا وكانت تسمَّى (ماندالا)، فعاشت الكلمة مع اختلاف المنهج، وقالوا إنَّ النَّجمة السُّداسيَّة عبارة عن هرمين مقلوبين،

الأساسي يمثل السُّلطة، والمقلوب يمثل الخروج عن السُّلطة، لاحظي المقصود بالسُّلطة والخروج عن السُّلطة وأيضا لتضعي أنت أو المشاهدون خطوطاً أسفلها، وعموماً اعتمدت إسرائيل نجمة داوُد شعاراً لعلمها عام ١٩٤٨م، رغم أن الكثيرين كانوا يفضلون وضع الشمعدان، الشمعدان اليهودي ذو السبعة أفرع (المينوراه)، وهو يرمز لشمعدان داخل هيكل سُلَيْمان مصنوع من الذهب الخالص، وتعني أيام الأسبوع والسابع هو يوم السبت المقدس إجازتهم من كل شيء وفقاً لمعتقداتهم، وهو اليوم الذي استراح فيه الله بعد أن خلق الدنيا وهذا أيضاً وفق معتقدتهم، كما أن اليهودية الأرثوذكسية ترمز لنجمة داوُد كشعار للعلم؛ لأنها على علاقة بالسحر والشعوذة القديمة، ولكن النجمة السُداسية أصبحت رمزاً لليهود في القرن التاسع عشر، ففي فرنسا عام ١٩٤٢م، صدر قرار بإلزام اليهود بعدم الظهور في الأماكن العامة بدون النجمة السُداسية، وفي هذا الباب أيضاً الخاص بالسحر والشعوذة، هناك أفعال ومآرب يسعون إليها، فتهدد الآثار المصرية وما يدفعونه فيها من الملايين من الدولارات ليس عشقاً فيها، إنما آملون بتجميع كنوز سيدنا سُلَيْمان، وخاصة مجموعة الجعارين الذهبية المقدسة، وما تبقى من الألواح المقدسة وعصا سيدنا موسى، رغم أن بعضهم يشير تاريخياً أن تلك الآثار في بلاد فارس من أيام السبي البابلي، والبعض يؤكد وجودها في روما بالفاتيكان، لكن أكثرهم يؤكدون أن كل آثارهم بمصر، وأنهم مهمومون بذلك، ومن يُطالع كتب التراث يلاحظ أنه في عام ٧١م وعندما انتصر الرومان على اليهود، واستولوا على خزائن بيت المقدس، أقاموا استعراضاً ضخماً ضم السبعين أسيراً من المتمردين والشمعدان الذهبي، وقد رسمه اليونان وجسّدوه على قوس النصر في روما، ويمكن أن نشاهد آثاره

اليوم، لم يكذب ينتهي من حوارها معها، أعلن لها عن اعتذاره لما حدث منه أثناء إذاعة البرنامج، ولن يفكر أن يجاورها مرةً أخرى، كان هناك خطّ اتصال مفهوم بينه وبين المخرج، أشار عليها ألا تتركه يمضي بسهولة، تابعت المكالمات تطلب المزيد من الحوارات مع هذا الدكتور، تردّد اسم الدكتور برهان في جنبات القناة كحدث فريد، فلم تفارقه المذيعة صاحبة الجاذبيّة التي يتحاكى بها كلّ مشاهديها، فوجهها الصّباح وابتسامتها الرّائعة، كانت بداية جذب المشاهدين لبرنامجها، المخرج وما له من صولات وجولات في مختلف دهاليز الدّنيا من حوله، يعلم أنّ الدكتور برهان صاحب مغامرات جنسيّة صاخبة، وردود أفعال المشاهدين عالية جدًّا، الجميع يطلب المزيد، وصاحب القناة عرف أنّ كمّ الإعلانات سيزداد تبعاً في حلقاته، الجميع يمارس السّمسرة طبقاً للمنظومة التي يعمل من خلالها، في الاستراحة وأثناء شربه فنجان قهوته، بدالها الذي تجيده طلبت منه أن يسجّل مجموعة من الأحاديث للبرنامج، بلا تردّد أجابها ولكن بشروطه هو، الحوارات على الهواء وإطلاق الفرصة للمشاهدين لإبداء آرائهم وأفكارهم، وموافقتهم على ما يُقال، أن يكون باب الحوار مفتوحاً مع أيّ شخصٍ تراه القناة أو يراه المخرج، في همس مشحون بذبذبات الهوى المحرّم أشار إلى فتنة عينها، أجفلت وما لبثت أن استردت ثباتها، وصنعت ابتساماً ودفعت بشعر رأسها إلى خلف أذنيها، وكأَنَّها تستعدّ وتفتح المجال أمام سمعها للمزيد من الكلمات، لم يتردّد كعادته غازياً لا يبغى دائماً الفوز، فإن فاز فخيراً وسلاماً وإن باءت محاولاته بالفشل فلا ندم وعليه بتجديد اسطوانة أحاديثه وما يتناسب ووضعه وموقفه، غالباً يضحك ولا يفكر إلا في اللحظة، تطوّر الهمس فاخرقت عيناه عينها وهبطت بتأنّ بالغ لِمفرق فتحة الصّدر الغضّ

الأبيض اللامنتهي، وهي ترقب مسيرة عينيه فتتهزّز وتلعنه، يسألها وبلباقة تردّ عليه بأنها مطلّقة، يبتسم ولسان حاله يقول هذا هو المطلوب، كانت الشُّروط الموضوعية أن يكون اللقاء في شقّته المتواضعة، تمنّعت وابتسمت، تراجعتم ثمّ غصّت بصرها، مهاجمٌ يدرك أنّ الفريسة اقتربت من طعم العشق، أستطيع أن أقرأ لك طالعك في كلّ خطوط جسدك، تهتزّز... تقترب من الرّعشة، كانت تخاف وهي تسجّل معه وازداد خوفها وهو يخترق حجب أنوثتها، ويرفع خمارًا حائلًا بين صمتها ولهات أنوثتها، تلملت في مجلسها، فتأكّد من سريان تيّار الهوى، فواصل في وصف مخارج حروف كلماتها ووقع نغماتها على خفقات القلوب، لا يستخدم جملاً مصاغة من قبل، عاشقٌ هو للتّجديد وهي مجرد تلميذة في مدرسته، وكما قالوا قديماً: وتمّ المراد من ربّ العباد..

تشاهد "مس لافويت" أو "السّيّدة هبة السّماء" كما هو في أماكن أخرى، حديث الدّكتور برهان أكثر من مرّة بمفردها، تمسك بالقلم، وفوق ورقة بيضاء تخطّ كلمات لا تدرك العين معانيها، فالحروف تائهة لا تحمل رسماً للحروف في أيّ لغةٍ من لغات العالم، تتذكّر كلمة وعبارة... السمع أصل النطق وما الأخرس إلّا أصمّ، لقد سمعت وأدركت وعرفت وحددت الشّخص الذي يحمل كمّ الكراهية لقومها، لا تفصح عن كينونتها، بعدما يقارب من عشرين عامًا في مختلف الأنشطة الاجتماعيّة، تحت المسمّيات الإنسانيّة الرّاقية، بعد أن صنعت جسرًا قويًّا من الثّقة المتبادلة بينها وبين أوّلي الأمر في مصر كلّها، يأتي من يحطّم هذه الجسور، من يطوي أحلى سنوات عمرها ويلقي بها في سلّة مهمّلات، لن يكون ولن يجرؤ إنسانٌ على هذا الفعل طالما أنا على قيد الحياة، وبعيدًا عن التّدمرّ تطالب نفسها بالتّريث والعودة

للعقل ودراسة أبعاد القضية التي هي بصددها، تظهر الحروف واضحة
 وتتكوّن الجمل... وبداية، من هو الدكتور برهان؟ كيف الطريق إليه؟ أين
 يعيش؟ كتبه التي ألفها ومنها نستطيع أن نغوص في آفاقه ورؤاه، أطماعه، هل
 يدخّن السجائر فقط؟ أم الحشيش؟ وربما يستحلب الأفيون، هل يعرف في
 الآثار الفرعونية؟ لقد تطرّق في حديثه لأشياء كثيرة، اليوم هي في قمة مجدها،
 وضعت بذورًا لأفعال وأعمال، وحتى الآن لم تبدأ في حصاد ثمارها، بعد
 تفكيرٍ لم يدم كثيرًا، ألقّت بتعاليمها للأستاذ أنيس الروبي صاحب أكبر دور
 للنشر في وسط البلد بفعل يديها، تحدّثت إليه بشأن أحدث الكتب الصادرة
 من خلال منظومة المنح المقدّمة من الهيئات الأجنبية للكتب التاريخية، جاء
 حديث الروبي يهدئ من روعها، ومدّعياً أنّه بصدد إصدار كتاب لكاتب غير
 معروف عن تاريخ الأسرة المالكة السعودية وقضية الاغتيالات بالملكة،
 وكتاب آخر عن الحياة السريّة للرئيس جمال عبد الناصر، أمّا كتاب السدّد
 العالي وتأثيره على أهالي النوبة وتهجيرهم من بلادهم الأصليّة وضياع الكثير
 من التراث النوبيّ نتاج لتلك الهجرة، وتاريخ النوبيين وأنهم أساس الحضارة
 الفرعونية، وكيف يطالبون بمسّمى الحضارة النوبيّة لا الفرعونية، حدّدت له
 متى يصدر هذه الكتب، والنّدوات المصاحبة لكلّ إصدار، وفي أيّ قاعاتٍ
 من الفنادق ذات النجوم الخمسة، والتنويه عن هذه الكتب في الجرائد
 والمجلاّت الفنيّة والأدبيّة، أصحاب الصّفحات الأدبيّة ممن لهم دور في خدمة
 القضايا الإنسانيّة، وكأنّها لم تسمع حديث الدكتور برهان، فسألته عنه، بلا
 تردّد أجابها، رجل بلا تاريخ ومحدود الفكر، من مدّعي الوطنيّة وسكّير،
 يحصر نفسه في دائرة محدّدة، وخاصّة التاريخ اليهودي، ويدّعي المعرفة بتاريخ
 الآثار وخاصّة المصريّة القديمة، يشكك كثيرًا، وكأنّه يطيب لها الاستماع عن

آفاقه وتطلعاته، وتسأله عن تصنيفه بين الأدباء والمفكرين، وبسرعة يجيبها قليل الإنتاج طويل اللسان، الجميع يحاول أن يتجنبه، لا يستحي من فعل منكر يأتيه ويجاهر بكل قبح، لا يملك أي شيء سوى شقّة، وكثيرون يقولون إنّها ليست ملكه، كتبه لا تعدّى كتيّبات صغيرة، ويستثنى من ذلك كتابان عن الدين والتدين، الغريب أنّ فيهما يستغرق في الدين مدّعياً أنّه عالم، هاجمه كثيرًا وفي النهاية ألّبوا عليه بعضًا من علماء الأزهر وفي نهاية المطاف، رشّحوا كتابه لأحد الجوائز التي تمنحها بعض المؤسسات الدنيّة، أشارت عليه أن يضعه تحت عينيه.

طالعهما وجه الدكتور برهان من جديد والمذيعه نفسها، اقتربت الكاميرا حتّى يرى المشاهد ما هو أمامه، ليس سوى ورقة بيضاء وقلم وكأس من الماء، وبادرته المذيعه بعد استهلالٍ وتعريفٍ بشخصه، والإشارة إلى أنّ هذا الحديث استكمالٌ لحديثٍ سابقٍ تمّ بثّه، أعلنت عن الموعد الذي بثّ فيه، وأعلنت عن موقع القناة الإلكترونيّ لمن أراد أن يرجع للحديث السابق.

— يقولون إنّ اليهود اعتنقوا الإسلام أو المسيحيّة تحت ضغوط عليهم في مصر... يضحك ويمسك القلم بيده، وكأنّه يخطّط في الفراغ.

— كما يقول أهل بلدنا... أوّل القصيدة كفر... عمومًا ليقولوا ما يقولون، فالحقيقة الغائبة عن كثيرين... خوفهم المعتاد، فبمجرد أن بدأت بوادر دخول روميل مصر تحوّفوا وكثيرٌ منهم أعلن إسلامه أو مسيحيّته... — وقبّل هذا التاريخ.

— عندما خرج اليهود من مصر بعد مئات الأعوام مع سيّدنا موسى عليه السّلام - قال لهم سيّدنا موسى إنّ الله وعدهم ملك الشّام، خافوا وقالوا إنّها قومًا جبّارين، وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها، كرّر المحاولة

ثانية، فقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا، فماذا نفسّر ذلك؟ هل مرجعيّة ذلك اعتيادهم الانقياد والسّخرة كما عاشوا في مصر بعد سيّدنا يوسف - عليه السّلام - أم عدم إيمانهم بالرسالة، وهذا تدل عليه ردّتهم عن سيّدنا موسى وصناعتهم للعجل من ذهب المصريّات الذي أخذوه معهم، وكان التيه نصيبهم لأربعين عامًا، وعندما جاءت المسيحيّة والإسلام كان لهما موقفٌ منها، ورغم أنّنا لا ننكر... كانت هناك عمليّات كرّ وفرّ معروفة تاريخيًّا بين الأديان، لكنّ ما أوّكده لك وطبقًا لما حدث حقيقةً، عاش اليهود في مصر معزّزين مُكرّمين وخاصّة في القرن العشرين، ونظرًا لهذه المكانة فقد طمعوا أن يحكموا مصر.

— يحكمون مصر!!! كيف فكّروا في ذلك؟

— نعم... أفكارهم غريبة وتتعدّى حدود الواقع في بعض الأحيان، فقد كانت ستؤول مملكة مصر لفرع يهوديٍّ، زرعت أجهزة المخابرات الإسرائيليّة الفنّانة كاميليا ذات الأصول اليهوديّة أمام عيني الملك فاروق، وكما تقول الروايات كان نهجًا بالنساء، وإنّ كان البعض قد نفى عنه هذه التّهمة، وعندني ما يؤكّد مقولتي وما أمّلكه من أدلّة وبراهين، وشاء ربُّك أن ينتهي هذا المخطّط بمصرع الفنّانة اليهوديّة، فرغم أنّ الفنّانة كاميليا أقامت الحفلات الخيريّة لجمع تبرّعات من أجل فلسطين في عام ١٩٤٨م، بل اشتركت مع كوكب الشّرق أمّ كلثوم والفنّانة نحيّة كاريوكا في أكثر من حفل، صار يضرب بها المثل في وطنيّتها ومصريّتها، قالوا إنّها تحلّت عن ديانتها اليهوديّة، صفّق الجميع وهلّلوا ورحّبوا بزواج الملك فاروق منها، حتّى ينبج وربّنا للعرش!!!

— ألم تجبر الفنّانة كاميليا على إعلان إسلامها؟ يضحك ويجيبها:

— فعلاً أجبرت، ولكن من المخابرات الإسرائيلية كما أسلفت وقلت لك،

وعلى سبيل المثال، هل سمعت عن السيِّدة ليلى مراد؟

— ومن لم يسمع عنها، كما قالوا عنها سيِّدة الأغنية السينمائية.

— أشهرت إسلامها سنة ١٩٤٦م وكانت متزوَّجة من الفنَّان أنور وجدي

من عام مضى، حاولت الصهيونيَّة أن تنال بكلِّ الطُّرق منها، ولكنها كانت رائعة ومصريَّة حتَّى النُّخاع، وكلُّ عائلتها حقَّقت نجاحًا منقطع النَّظير،

وكانوا على يهوديَّتهم وهذا يعكس كمَّ وقدر التَّسامح الذي يعمِّ مصر، وقبل

أن تلعب الصهيونيَّة ألعبيها، ولم تترك الصهيونية السيِّدة ليلى مراد وظلُّوا

على مطاردتهم لها بكلِّ الإغراءات، عرضوا عليها منحها درجة المواطنة

الشَّرْفِيَّة في إسرائيل وجواز سفر دبلوماسيِّ وسفيرة فوق العادة، لكنها

رفضت، كان موقفها حاسمًا ومشرِّفًا، وماتت في مصر ودُفنت مكرِّمة في

مصر، ومازال اسمها من نور في قلوب كلِّ المصريين، عرفوا الحقيقة، تأكَّدوا

من حبِّ أهل مصر لهم، في سنة ١٩٩٢ منحت "نجمة إبراهيم" وسام

العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وبالمثل "نجوى سالم" جائزة الدَّولة أيضًا،

ومنحت درع الجهاد المقدَّس لما قامت به أثناء حرب الاستنزاف ومشاركة

الجنود المصريين، أمَّا منير مراد فقد منح وسام الفنون عام ١٩٦٦م، رغم أن

اليهود تدخَّلوا في كلِّ كبيرة وصغيرة وحاولوا التَّأثير في مختلف المجالات

وخاصَّة الإعلامِيَّة والثَّقافيَّة، فكانوا يراجعون كلَّ ما يكتب في الجرائد

والمجَلَّات، وإذا وجدوا جريدة أو مجلَّة تنتقد اليهود وأوضاعهم، قطعوا عنها

جميع إعلانات المتاجر اليهوديَّة، فكان على الجرائد أن تكتب وفق رؤيتهم.

— الإعلام عمومًا - حتَّى خارج حدود مصر - صاعٌ الكثير وفق

معتقداتهم.

— مَنْ ينكر ذلك لا يعرف شيئاً عن مدى تغلغلهم في المجتمعات الأوروبية والأمريكية خاصة، الكارثة الحقيقية تكمن في استخدامهم الآثار الفرعونية خاصة، هل رأيت يوماً البرامج السياحية الإسرائيلية في أمريكا وأوروبا؟ إنَّها تحمل كثيرًا صور مصر وإسرائيل وخلفيتها الآثار الفرعونية، فماذا يعني هذا؟ مشاركة في التَّاريخ! وماذا يعني البرتقال المصدر من إسرائيل تحت علامات تجارية عليها صورة نفرتيتي؟

— هل يفسر ذلك بقصور الإعلام والثقافة أم...؟

— يمكن أن يصفنا البعض بالغباء، ولكنَّ الحقيقة المرَّة أننا شعب قَمَّة في التَّسامح والرُّقي، لقد علَّمنا الدُّنيا، نحن فجر ضمير الإنسانيَّة.

— أليست هذه كلمات تعكس صورة الأنا التي نعيش بها، وطالما تغزلنا في تاريخنا القديم واليوم البعض يصفنا بالتخلف!!

— سأجيب عن سؤالك بسؤال، لن أسالك أنت من أي بقعة من أرض مصر، هل تعرفين المناطق الشَّعبية أو الرِّيفية؟ عندما يذبحون الأضاحي، فإنَّهم يغمسون أصابع أيديهم أو أكفَّهم بالكامل في الدَّماء، ويطبعونها على الجدران أو الأبواب، هل رأيت ذلك؟ وبماذا تفسرينه؟

— ما أعرفه أنَّ صورة رسم الكفِّ بالدَّم تطرد الأرواح الشَّريرة.

— هذا ما سمعنا به حقًا، والحقيقة وطبقًا لما جاء في التَّوراة أنَّ الله أمرَ اليهود، أن يذبحوا ويضعوا علامة الدَّم على بيوتهم، حتَّى يستطيع الله أن يفرِّق بين بيوتهم وبيوت المصريين، ويهلك المصريين فقط، وهم ينجون من الهلاك في أحد أعياده "عيد الفصح - العبور".

obeikandi.com

نسمات العشق

بعد أن أدّى صلاة العشاء والسّنن المفروضة، اقترب منه أحد الشّايين اللذين طلبا منه المساعدة من قبل، سأله أن يشارك، قبل أن ينهي كلمته، امتدّت يده، وأخرج حافظة نقوده، امتدّت يد الفتى، ودفع يده شاكرًا ومبتسّمًا، وأخبره أن يشاركها في الجمعية الأهلية بخبرته وشخصيته، سمع من الفتى كثيرًا من كلمات الإشادة بشخصه واعتزاز أهالي المنطقة به، سحبت كلمات الفتى من سكّنته المعتادة، وصحبه جلسة الجمعية المنعقدة هذه الليلة. أه من ضجيج الذّاكرة! وخاصّة في المساء وفي الوحدة، تنبش في ذاكرته التّفاصيل الغريبة المنسيّة، تهاجم وتغزو، رغم أنّ كلّ الأشياء صامتة من حوله، كلّ ما يعنيه الهروب، كلّ الوسائل التي فكّر أن يستخدمها في هروبه فاشلة، حتّى كان اليوم الذي اقترب من مشاركة أعضاء الجمعية الأهلية مجلسهم وأمانهم المرتقبة من وراء فعل الخير، شارك بفعاليّة حقيقية، فطرح رؤاه التي اكتسبها من مشوار عمله الطّويل، وخاصّة في مجالات الحسابات والتّسويات مع الأجهزة الرّقابيّة، أحسّ في عيونهم رضا بأحاديثه، وأحسّ بأنهم ينزلونه منزلة خاصّة بينهم، كثيرًا ما يتطرّق أيّ منهم لكيفيّة حياته السّابقة والتزامه واحترامه للجيران، ولكنّ يأخذون عليه ابتعاده وتجنّبه، يبتسم وهو يشرح لهم الطّروف الحياتيّة والأولاد وتوطّدت العلاقات بينه وبين أغلبهم، لكنّه كان كثير الاعتذار عن تلبية جلساتهم، وكأنّه قرّر ألاّ يفتح كلّ أوراقه أمامهم ومعهم، يتخوّف، وهذا أصبح طابعًا طبع عليه منذ

أمد، رضي بذلك وهم رضوا، تتوالى الأيام وسكينة غريبة ينم بها ليله ونهاره، هناك تغيّرات طرأت رغماً عنه، فعاد لسماح الأغاني القديمة، وخاصة كوكب الشرق أمّ كلثوم، وكأنّه يسأل نفسه: هل أنا عجوز؟ ما أعرفه هو أنّ العجوز من العجز عن فعل أي شيء، لكنني أحسّ بأنني قادر على فعل كل شيء، وكأنّ مسحة الحزن التي سيطرت عليه لفترة طالت أزيلت من ذاكرته، شيء واحد يخافه، التّفكير في المرأة والجنس لساعات كثيرة يسيطر عليه، وتعاوده الأسئلة من جديد، هل ما أشعر به جنون حقيقي؟! لقد خرجت للمعاش وتعدّيت السّتين، أحفادي وصل تعدادهم لسبعة وفي الطّريق للزيادة، لو عرفوا بما أفكر فيه ماذا سيقول أولادي؟ الأفضل أن ألملم أفكارني ولحظات هوسي ومشاعر المتعة اللحظيّة التي تأسرني وأحبسها، ولكن ما ذنبي وهي تأتيني غصباً عني! أنا لا أغضب الله، ولا أعتني أن أفعل ما يغضبه، هل يجوز؟... يتردّد حتى في نطق الكلمة، وكأنّ الشّرع يجرّمها... الزّواج... لكن ماذا سيقول النّاس عني؟ وهل ترك النّاس بعضهم في حالهم، لست الحالة الوحيدة فدعك من أحاديث النّاس، ماذا سيقول أقرب المقرّبين منك وإليك... عجوز متصاب!!! أم قليل أدب فوق السّتين، مصيبة كبيرة يا ترى هل فعلت شيئاً يغضب الله؟ إنّه مجرد فكر فحسب، لا تهتم بهم كثيراً، حاول أن تخرج نفسك من هذا الصّمت المطبق، فقد اقتربت ساعة الموت التي لا يعلمها إلا الله، عندما تأتي تلك السّاعة ويضعونك في القبر، لن يتبقّى منك سوى رفات في أرض، وقبر معلّق فوق جدران منزلك القديم، هي صورة مؤطرة بإطار ذهبيّ ومزينة بشريط أسود في الشّطر الأعلى على أحد الجوانب، وفي البداية يتذكّرونك، وبعدها ستصبح صورتك وكأنّها عالمة على أعينهم، سيفكّرون جدّاً في التخلّص من نظراتك التي تشاركهم حياتهم وأنت ميت،

ألا يكفي ما كان وقت حياتك؟ ربّما وضعوها بين البقايا القديمة، وربّما تركوها لأيدي الأطفال تعبت بها، ويمكن أن يكون نصيبها مع النفايات الملقاة في سلّة المهملات، ما يلبث أن يضحك، وكأنّه يهدد نفسه متذكّراً قول أحدهم "إنّ الجنس لا يصاب بالتّجاعيد"، ولكن لماذا حفظ تلك الجملة فحسب ونسي ما دونها؟ هل هذا هو السّبب الذي جعل الدّماء تسري في العروق؟ هل الإعجاب بالكلمة أعطى العقل أوامره وبدوره نقلها لكل الأعضاء فانصبّت وهامت؟ آهات جميلة يحسّها في أغاني العاشقين غابت عنه، عندما يقبل الليل، تراوده أحلام هواه وصباه وذكريات الشّبّاب والآيام التي ولّت، أصاغ السّمع من جديد لآهات سيّدة الغناء كوكب الشرق، وكانّ لسان حاله يرّدّ معها... لا إرادياً يرّدّ معها...

تُقْبِلُ الدُّنْيَا عَلَى أَهْلِ الهَوَى أَنَسًا وَطَيْبًا
وَفُؤَادِي كَادَ مِنْ فَرْطِ حَيْنِي أَنْ يَدُوبًا
لَوْ عُدْتَ لِي رَدَّ الزَّمَانُ إِلَيَّ سَالِفَ بَهْجَتِي
وَنَسِيتَ مَا لاقِيتَ مِنْهُ فِي لَيْالِي وَحَدَّتِي

وكانّ نسفات الفجر تداعب وجهه، أو كأنّ ندى الصّباح المحمّل بأريج الياسمين أو الفلّ، راحة غريبة تحترق جسده، شعور بحيويّة وشباب... حتّى تصل إلى قولها:

التَّوْمَ وَدَعَّ مُقْلَتِي وَاللَّيْلُ رَدَدَ أَنتِي...

زفرات، ولكنها محبّبة بلا ألم، فيها قبول وعشق، يعيد ترتيب أوراقه القديمة، ويمسح الغبار الدّقيق عن كتاب أو صور وربّما عن اسطوانة قديمة، ويتأمّلها في حبّ، وتمرّ آيامه.

يتألق وجهه بالبشر، ويزداد جسده كله نشوة ونشاطاً، وكأنه في شرح الصبا، الشيء الجميل أن الجميع من حوله يسعون لعمل الخير بإرادتهم وبحريتهم، حتى الشباب الصغار منهم يبذلون أقصى طاقاتهم في خدمة المحتاجين، ثورتهم دائماً تسبقهم في الحديث والعمل، وكأنهم مشتاقون لتفريغ طاقاتهم الكامنة، مندفعون في الدفاع عن دينهم، وأحياناً مغالون وفق آراء معلمهم المختلفين غالباً، يرفضون كثيراً من الأفعال، فعلى سبيل المثال هم ضد أفكار الأولياء وكراماتهم أو الشيوخ ونزعاتهم، ورغم أن الدين الإسلامي لا يعتقد في أفكار الأولياء وكراماتهم، الغريب أن غالبية الأماكن وخاصة الشعبية منها يحيون الموالد للأولياء وخاصة آل البيت أو من ينتسب إليهم، فهل الموالد المقامة هي تمرّد على النصّ الديني؟ أم هي حبّ يعيش في قلوب المصريين من أميد طويل لآل البيت رضوان الله عليهم؟ في بعض الأحيان يخاف اختلافاتهم فربّما تفرّقهم، يبت ما يجول بخاطره للشيخ عيسى الجميل المحيّا القريب منه سنّاً بلحيته البيضاء الكثة فيهدّي من روعه قائلاً... ليس عيباً الاختلاف... ويسرد على مسامعه حكاية الشيخ عبد البرّ وكان يسهر في ليالٍ كثيرة مع الحشّاشين والخارجين عن القانون، عندما سأله لماذا؟ وهل حقيقة؟ بدون تردّد أجابهم فلم ينكر ما حدث عن جلوسه معهم، وأحياناً سهر معهم قائلاً لهم إنّ للجميع حقّاً في رقبتي، العاق قبل البارّ، هاجمهم... فلم يهتمّ وواصل... مهنتي ووظيفتي أن أساير ركب المنحرفين، وربّما أدركت العلة وأرجعتهم للطريق المستقيم فلا يتوقّف دوري على الطيّبين، فالطيّبون كثر ولا خوف منهم على مجتمعهم، لم يقتنعوا، وواصلوا هجومهم، فكانت ثقته في ذاته تفوق أيّ كلمات، فالشباب ثورة، والخوف أن تمشي في ركاب عشاق السّلطة والجاه تحت دعاوي الحقّ، حاول البعض أن

يشير الشيخ عبد البر، وكيف يترك لهم المجال لمهاجمته وهو الأزهرى العالم الذي يؤخذ منه العلم، فلا يهتمّ يومها الرجل، ويقصّ عليهم ما حدث بين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - في حوارهِ مع ابنه عبد الملك، كان الخليفة يترَوَّى في الحكم ويتنظر فيسمع ويدقّق، وكعادة الشُّباب الثَّورة فقال له ابنه: لماذا لا تنفذ في الأمور فأنا لا أبالي في الحقّ؟ يومها ضحك الخليفة قائلاً... لا تعجل يا بنيّ، فإنَّ الله تعالى ذمَّ الخمر في القرآن مرّتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل النَّاس على الحقِّ جملة فيدعوه وتكون فتنة، لا يتوقّف حديثه مع الشيخ عيسى، فيخاطبه...

— يجب أن نخاف العناد، فكما يقولون العند يولّد الكفر.

— لن يصل الأمر لمرحلة العناد.

— حقيقة لا أنكرها يا شيخ عيسى، إنّنا نمرّ بفترة غريبة والمفروض

نتخوّف منها.

— سنحاول، ولكن لن يصل الأمر للعناد، شيء غريب، هل رجعت إليه

ذكرياته القديمة وآفاق قراءاته التي كانت؟ وبصورة غريبة، وكأنّ ذاكرته

تذكّرت.

— أتذكّر يا شيخنا؟... ما حدث أنّ الأحنس بن شريق خلا بأبي جهل،

فقال له: أترى أنّ محمّداً يكذب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذب على الله، وقد

كنّا نسمّيه الأمين؛ لأنّه ما كذب قطّ، ولكن إذا اجتمعت في عبد مناف

السّقاية والرّفاة والمشورة ثمّ تكون فيهم النّبوة فأى شيء بقي لنا!!... أليس

هذا عناداً يا شيخ؟ يبتسم عيسى...

— أنت رجل طيّب وقلب طاهر... الخوف من الفتنة مطلوب ومرغوب،

ونحن يومياً ندعو الله أن يجنّبنا الفتن، ربّما كانت استجابة الله لنا بطيئة ولا

يعلمها سواه، لكن اعلم أنّ في بطاء الاستجابة رحمة لا ندرك حكمتها ومرادها.

لم يشعر يوماً بمثل هذه السعادة، حقاً السعادة تستشعرها في عيون الآخرين، أن يكون فعلك تبتغي به وجه الله لا تنتظر من ورائه شكراً، من بعد صلاة التراويح حتى صلاة الفجر وهو مجهّز ويشرف على إعداد وجبات الإفطار للصائمين، وجبات مختلفة منها المطهيّ ومنها الجافّ حسب الظروف والحاجة، طوال شهر رمضان مجهّز موائد الإفطار أو كما يُسمونها موائد الرحمن لأيّ عابر سبيل أو غريب أيّما كان، إفطاره غالباً لا يتعدّى بضع حبات من التمر وشربة ماء، نشاط يدبّ في كلّ خلايا جسده ويواصل العمل، وكثيراً ما يدفع من جيبه الخاصّ، في شراء بعض احتياجات لم تدرج في حسابات الشراء، هذا أوّل رمضان يمرّ عليه وهو بالمعاش، العام السّابق حاول أن يجمع أولاده أوّل يوم للصّيام، ولكنه فشل لظروف كلّ منهم وتباين مواعيد أعمالهم وأعمال زوجاتهم، جاءته دعواتهم مفردة كلّ بمنزله، غالباً كان يتناول إفطاره بمفرده في المنزل وكثيراً خارجه، في العيد كانت هي المرّة الوحيدة التي استطاع فيها جمعهم، من يومها وحتى تلك اللحظة لم يجتمعوا معاً، هذا العام أتمّ قراءة القرآن أكثر من مرّة ولم يفته موعداً لصلاة الجماعة، وكذلك التراويح، وفي نهاية الشهر التهجّد والاعتكاف.

وكانّ أيضاً من الخير والطّمانينة سقط فوقه فظلّله، رضا لم يستشعره من قبل... فهل كان أعمى ولم يبصر ما يدور حوله، يتذكّر كلمات الشيخ... يا سيّدني البصر نور عين أمّا البصيرة فنور قلب، يشعر أنّه يسير في نور قلبه، وكأنّه كان بعيداً عن الحقيقة التي تنسّرب في ثنايا وجدانه، فاقتربت المسافة بين العقل والقلب وكأنّهما توحدّا في ظلال الخير، غريبة هي الدّنيا مجرد شايبين

أصغر عمرًا من أولاده هما من قاداه من ظلمة ووحدة إلى فيض خير، يلعن الأحلام المستفزة التي تقهر الجمال والخير، فكذب من قال لا أحلم، فالجميع حاملون وفي ظلمة الليل المنحوت في صخور الجهل تكثر الأحلام، تكثر الخفافيش وأصوات البوم، فلو كنت غنيًا لابتغيت المزيد والمزيد، لا يسأل ساعتها الإنسان منًا ولماذا استأثر بكل الخير لنفسي، بداياته يتذكرها جيدًا، وكيف كان يصوغ أحلامه وأمانيه وفق مطالبه الشخصية؟ كيف تمنى أن تأتيه الفرصة ليستغلها ويحسن استغلالها؟ تصوراته أن كل الأغنياء وأثرياء اليوم اقتنصوا الفرصة التي لاحت لهم، كم تمنى أن يسير على نهجهم، فإن جادت فخيرًا وأهلاً وسهلاً، وإن لم تأت فعلية بالصمت وليقبل يده باطنًا وظاهرًا شاكراً مدعيًا التقوى، وعليه أن يردد أن القناعة كنز لا يفنى، فكثيرة هي ذنوبه، يتألم ويسأل يا ترى من المذنب؟ من يدرك حقيقة فعلته التي أتاها فتألم بسببها آخرون؟... ربّما أضرت بهم ضررًا كبيرًا، ووصمتهم بصفات سيئة، وقد تذهب بعفتهم، وربّما بحياتهم... وماذا يحدث من الإنسان؟ كثيرًا ما يحاول أن يبرئ نفسه، في المحكمة يدافع عن نفسه، ودائمًا يدعي الجهل بالجريمة، شياطين الإنس من حوله يدافعون عنه فيقدمون دلائل براءته، ويلتمسون له العفو، فما فعله عن جهل، وكثيرًا يدعون جنونه المؤقت، أو تحت تأثير شيء ما ذهب بعقله للحظة، ساعتها يطلقون سراحه وسراح أمثاله، هل يكرّر ما فعله سابقًا؟ عندما يبرّئون ساحته تأخذه العزة بالإثم، تأخذه خيالاته بأنّه الأفضل والأشدّ مكرًا، كثيرًا ما يتحوّل فعله الآثم لإكبار وتقدير عقله وعقل من حوله.

مقبل لا مدبر، كلمات الإعجاب التي يبيدها كل من حوله تحفزّه فتزيد من عطاءاته ومساعداته، فتصميم كل من حوله أن يتولّى رئاسة الجمعية الأهلية

يدلُّ على ما أصبحت عليه مكانته، ظاهريًّا أبدى عدم رغبته وداخليًّا يتمنى، أمام إصرار مجموع الكبراء والمسؤولين رضخ لرغبتهم، هو ليس في حاجةٍ إلاَّ لخمس ساعات من النَّوم فحسب.

عندما تتجولُّ الضَّواري في وادينا وتمتلك الشَّوارع، تصبح الغلبة لها والنَّزول للشَّارع حتَّى لمجرَّد التَّسوق غير مأمون العواقب، نستسلم ولكن لا نقر باستسلامنا، ننظر من خلف ستائر النَّوافذ والشُّرفات، وغالبًا بعد أن نطفئ أنوار مسكنتنا، وضع الخوف بصمته فوق القلوب، والعقول تجمَّدت، فلا نستطيع ابتكار ما يحميننا من الضَّواري المفترسة، نصبح كما الإنسان الجرد هارين في جحور مدينتنا المشيَّدة بأرقى طرق المعمار الحديثة، ماذا ننتظر؟ أو ماذا ينتظر الإنسان الفأر من أمثالنا؟ ينظر ويتأمل القطط الضَّالَّة وهي أقلَّ الحيوانات في الشَّارع شأنًا، ولا تختلف عنها كثيرًا الكلاب الضَّالَّة، تتكاثر القطط ولا يأخذها حياء القطط قديًّا، وتصرخ بكلِّ قوَّتها في لحظات عشقتها الشَّرسة، أمَّا الكلاب وعواؤها وعدم حيائها المشهودة به في عمليَّة تكاثرها، تقف وكأنَّها تشجَّع القطط، فلا تهرب من عوائها، وكأنَّهم وضعوا ميثاقًا بينهم أن يسيطروا، وأن تصبح لهم الغلبة، وقد كان، ونساءل، ونتمنى من يأخذ بأيدينا، فالشَّارع ليس ملكًا لنا، الحلُّ الوحيد أن ننتظر الفرج، وربَّما يأتي المنقذ، ظللنا طوال الليل ساهرين وكلَّ ليلة تمر ننتظر الثَّانية وأعتقد أنَّها لن تكون الليلة الأخيرة للانتظار، وكأنَّ الجميع يأتمرون بأمره، كان حريصًا ألاَّ يكون الفعل والعمل بصيغة الأمر فالعمل هنا تطوعيًّا، الجميع صغيرًا وكبيرًا يسعون ابتغاءَ مرضاة الله، سنوات عمره التي قضاها في مجال العمل الحكومي أكسبته الكثير، ووحدته بعد وفاة زوجته وتفرُّق أولاده، أرخى ستائر الحزن ولكنه مقاوم جيِّد ولا يريد الاستسلام ولا يريد أن ينتظر الموت، تراوده

الكثير من الكلمات التي فارقت من زمن طال، يتذكّر كلام الشيخ وهو يهتف في الناس... "موتوا قبل أن تموتوا"، وكأنه يحس اللحظة فقط بمعاني الكلمات، كان يظنّها مجرد كلمات يطلقونها كالبخور في الهواء ليغيّروا رائحة الجوّ من حولهم، عندما يخرج من قوقعة الوحدة فيسرح بنظره، ويتأمّل مآسي البشر حوله، يخرج من عباءة الصّمت المقترن بالذّات والأنا أو مما أصابه، لا يلقي باللائمة على أحدٍ إلاّ نفسه فقط، يعاتب نفسه عمّا مضى، ولم ينصت يوماً لكلام العجوز والغريب، إنّه مازال يعيش داخله، وهو يطلق البخور ويردّد كلماته فتعانق مع ضبابيّة البخور والرّائحة الذّكية... لا تعير أخاك فالمصائب تقع فوق رؤوس الخلق، أحياناً يكون المصاب مظلوماً فادعو له الله أن ينصره، وإن كان قد ارتكب المعصية، وجاءته المصيبة وكان عقاب الله له فإنّه تطهير له، أمّا المصيبة وكثيرٌ منها بلاء من الله، ولا يكون البلاء إلاّ بقدر المؤمنين فأكثر المبطلين من أولياء الله الصّالحين، فأجره واقع على الله سبحانه وتعالى، الوحدة والقلق تأتيه برعشة، هل هي رعشة الخوف؟ لحظات غريبة تكاد تفتك به، يستعيد توازنه، ويحدّث نفسه ساخرًا، علام الخوف وممّ؟ أظنّ الأرنب أكثر مخلوقات الله خوفًا، هل سمعت يوماً أنّ أرنبًا أذى مخلوقاً أيّاً كان؟ هو خلق كذلك لا يؤذي، ويخاف ويسرع بالهرب، وأخيرًا يستسلم للدّبح والطهي... كم هي جميلة الملوخيّة بالأرنب!!! يضحك فيتردّد صدى ضحكاته في فراغ شقّته، المهمّ أنّه في نهاية المطاف تذبح الأرنب، ولكن هل تنتظر الأرنب أن تحلّد أم أنها عرفت موقعها ودورها في الحياة، لكن بعض الناس يخلّدون أحشاء الأرنب، فمنها يصنعون أوتارًا لآلات الموسيقى وجلوده جيّدة في صناعة الطّبول، الطّبول تدقّ للحرب والسّلم، وأيضًا للأفراح، الأرنب يضرب الأرض بقدمه ويهرب، وأنا أيضًا عليّ الهروب

لحديقة البشر، علني أسمع آهات ناي، أو دقات دفوف مصنوعة من جلد أرنب، فلعله كان سعيدًا يوم ذبحوه!!!

كلُّ الأمور تمضي في طريقها الصحيح، الجمعية تبدو وتظهر كلَّ يوم بجديد، وتقدم أفعالًا كثيرة للخير، أعضاؤها وضعوا ثقتهم في الحاج كما يناديه الجميع بـ "يا حج جلال"، أكثرهم تواجدًا بمقرِّ الجمعية صباحًا ومساءً، يشنون عليه وعلى مواصلة العمل بكلِّ هذا النشاط، هو في أمس الحاجة أن يواصل العمل، أن يقتل ساعات الوحدة والفكر، خبرته في الحسابات والتعامل مع الأجهزة الرقائبة فيما مضى أكسبته معرفةً بتصويب أيِّ أخطاء قد ينزلق فيها أيُّ متعامل سواه، كان حريصًا على تنظيم العمل وخاصة الأعمال الماليَّة، رصد كلَّ ما كان سابقًا وحاضرًا ومعهم وضع صورة لخدمات مستقبلية للجمعية، أثارت حفيظته مبالغ كبيرة كهبات وتبرعات، ولكنها لا تدخل في حسابات الجمعية، لم يجد مفراً سوى البوح بما يعتلُّ في صدره، وفي وجود كلِّ أعضاء مجلس الإدارة، سأل عن مصادر التمويل لبعض الخدمات، كانوا واضحين فلا مداورة في الحديث، أوَّلم قال إنَّه مستعدُّ أن يفعل أيَّ شيءٍ في سبيل مساعدة الفقراء، ألم يقلَّ الإمام عليّ - رضي الله عنه - لو كان الفقرُ رجلاً لقتلته، وتساءل: أليس من حقِّ هؤلاء البشر أن يعيشوا مثلَ سائر الخلق ونحن غصبًا عنَّا؟ فأمامنا نهر وعلينا أن نعرفَ منه ونرويه، أليس هذا واجبٌ إنسانيٍّ ودينيٍّ، عندما يسأل عن المصدر الذي تأتي منه الهبات والمعونات غير المدرجة في السجَّلات والحسابات، الإجابة غالبًا تكون... فاعل خير لا يريد ذكر اسمه يبتغي بها وجه الله فحسب، ولماذا لا تدرج ويتمَّ السَّحب بموجب أوراق تؤكِّد صحَّة الفعل؟ وكأتمَّ يسألونه:

— هل تشكُّ في نزاهتنا؟

— يا جماعة... أستغفر الله العظيم... نخوفًا ليس أكثر... ابتمم أكبرهم سنًا، ومن بين كلماته التي تتعثر في مخارج حروفها، وتتنّ تحت وطأة السعال المكتوم.

— تعرف تكاليف بناية المسجد وصلت كام؟ اقتربت من مليوني جنيه، الأرض بدون بناية ثمنها اقترب من ثلاثة أرباع المليون، أغلبنا كان موظفًا، يعني كلنا ظروفنا قريبة!! ربنا رزق بواحد ابن حلال دفع المبلغ الأوّل، كان حوالي نصف مليون، وأولاد الحلال كثير.

— إن الله طيب لا يقبل إلا... قاطعه عضو ممن هم في زهوة الشباب.

— يعني المفروض نعمل إيه؟

— وزارة الأوقاف... وصدرت ضحكة منفردة من الفتى.

— أكبر النّصابين في البلد... دول ياكلوا مال النبيّ.

— أنا باتكلّم عن المفروض والصّحيح.

— الصّحيح نتصرّف ونمدّ إيدينا ونشحت ونبني، وفي النّهاية الأوقاف

تضمّ المسجد لجملة المساجد التّابعة لها وتعيّن مؤدّنًا ومقيم شعائر وخطيبًا، منهم من يحضر ومنهم من يغيب ويقوم بديل عنه بالعمل غالبًا.

— من طفولتنا والجميع حولنا يردّدون... مسجد أسس على التّقوى،

فوجئت اليوم بخطاب بنكيّ بمبلغ مئة ألف دولار، ومن بلد عربيّ، بارك الله في مرسله، وفي بلده، والقائمين عليها، والمبلغ باسمي شخصيًا، ومدون في نهايته... يُصرّف في منفعة المسلمين ولا يحدّد جهةً معيّنَةً يصرف فيها... كعادته متسرّعًا بعفويّة الشباب.

— ناس بتعرف ربنا... تسعى للخير في آخر الدّنيا... يتمنى أن يسأله من

هو المرسل؟ وما أدراه كيف اكتسب هذا المال؟ وهل هذا المال حلال أم

حرام؟ ولكن يعلم مقدّمًا أنّ الإجابة ستكون تصادميّة من محدّثه الشاب، حاول أن يناقش الموضوع بصورة مغايرة لما يعتلّ داخله.

— مجرد مثال... مَنْ منّا يضمن أن يصبح عليه الصّباح؟ أو يعلم السّاعة المقرونة بموته وانتهاء عمره، جاءت إجاباتهم بهزّ رؤوسهم وموافقتهم لما يقول، وضعتُ المبلغَ باسمي في البنك، ويمكن أن يكون المبلغ أضعاف ذلك أيضًا، ضاحكًا وبالطّبع أولادي ورثتي.

— أولادك... إنهم تربّوا على السُّلوك الطيّب.

— يا سيّدي الفاضل... لا نستبعد أيّ شيء... أضعف الإيمان أن نحاول إيجاد حلّ معقولٍ نحفظ به هذه الأموال؛ لأنّها أصبحت أمانة في رقبتي ورقبتكم، كانت محاورات أخذت طابع الخوف منه، لم يفصح بعدم القبول أو الموافقة، فقد أدمن الحضور والعمل في الجمعيّة، يتمنّى ألا يفقد حيويّة العمل والاستئناس بالبشر، ولا مفرّ أمامه ألا يظهر هذا التّخوّف، أمّا الشّيخ ربيع المنصوري فقد كان شديد المراس متحمّسًا في الجلسة وكأنّه يحارب، عندما أخذ بناصية الحديث فلعن القائمين على البلد وغير المراعين لحرمة البشر، وفاض وأفاض في لعناته على الأزهريين وأمثالهم ومَن يقولون ما لا يفعلون، ضاربًا الأمثلة بما هو حادث حولنا وفق رؤيته، فالمعونات الأمريكيّة تأتي لإفادة المسيحيّين في البلد وتقويتهم وحتّى الكنائس يموّلون بناءها والله أعلم بما يضعونه داخلها، يضرب أمثلة غريبة مصاغة بواقع ملموس يلقي استجابة من يستمع لحديثه، يصف أماكن وسط القاهرة وعدد المساجد بها وعدد الكنائس الضّخمة ومساحاتها، ويضع علامة استفهام، ويلقي باللوم على الأزهر والأوقاف وأصحاب الشّأن، فهم يعملون على أن تظلّ الدّولة علمانيّة وملحده وألا يذكر فيها اسم الله، والله متمّ نوره غضبًا عنهم... هؤلاء الكفرة

الفجرة، هل يتطرق بحديثه إلى الهبات التي أتت من الهيئة الأمريكية لرعاية
 أطفال الملجأ الذي تشرف عليه الجمعية؟ أليسوا كفارًا؟! وحرام أن نأخذ
 أموالهم، ونضعها في خدمات، تسلّل، وبمواربة حاول أن يناقش الميزانيات
 المختلفة، ووضع الهبات القادمة من هيئات أجنبية وليست عربية، هو مثلهم
 لكنّه يخاف عاقبة الأمور، هل من حقّ المتسوّل أن يسأل السيّد الذي يهبه من
 أين أتى بهذا المال؟! هل من حقّه أن يقلّب الجنيه بين يديه ويتمعنّ وينظر
 إليه، ليتأكد من كونه حقيقيًا لا مزيفًا؟! هل يجازف؟ أم يشكر وينحني بمزيد
 من الاحترام والتوقير والتبجيل؟ من حقّهم - وأنا مثلهم - أن نفرح، نفرح
 كروب المحتاجين، ونساعد الضعفاء والمحرومين، نكسو العريان، ونطعم
 الجائع، أليست تلك قمة الرقيّ الإنسانيّ؟ أم نحن مجرد أداة تستعين بنا قوى
 أخرى لتبرهن على قدراتها، على أن نسير وفق رؤيتهم وأفكارهم؟ هل
 الملابس التي يوزعونها على الفقراء صحيّة؟ أم أنّها مصنّعة وبها أنسجة رقيقة
 غير مرئية تصيبهم بأمراض عصرية لا يستطيعون التداوي منها؟ هل
 أطعمتهم حقيقيّة؟ أم معجونة بالذّل والهوان؟! هل دعوات الحبّ والخير
 التي تزيّن أغلفة المساعدات حقيقيّة؟! أم مجرد فخاخ لعقول لا تدرك أبعاد
 من موطن قدميها؟ هل يقدّمها الرّجل الأبيض طوعًا وتكفيرًا عن أفعاله
 المدنّسة في حق أخيه الإنسان سلفًا؟ هل يقدّمها مستشعرًا مدى الظلم الذي
 ارتكبه في القرون السّابقة، ووقع أثره على هؤلاء البشر؟ هل صحا ضميره،
 وأفاق من غفوته المتسلّطة؟ لكن أليس القتل صفة إنسانية؟! لما نلوم الرّجل
 الأبيض في ثوبه الجديد، قتل الأخ أخاه ليعيش هو منذ فجر ضمير الإنسانية
 الحافل بالقتلى والدّماء، في أوروبا تقاتلوا فيما بينهم وحرقوا ودّمروا، ثمّ
 أعلنوا فيما بينهم السّلام وغرّدوا بأغاريد الحبّ والسّلام، بعدها تطلّعت

عيونهم إلى العبيد، فذهبوا وقتلوا وأبادوا واغتنوا، وفي الأراضي الجديدة، وبالفكر الموروث النَّائم في أحضانهم، والمتمدِّ الجذور في ثنايا عقولهم، أبادوا أهل الأرض الأصليين، أقاموا أحدث البنيات وطوّروا أسلحة ومعدّات غريبة أكثر فتكًا بالبشر والأرض، ووضعوا قوانين التّسامح الإنسانيّ وحقوق البشر.

الوحيدة التي كانت تسبقه في الحضور لمقرّ الجمعية هي "أمّ سماح"، تقرب من الأربعين، ذات حسنٍ رائقٍ هادئٍ، ولكن يبدو فوق وجهها مسحة غريبة من الحزن، ورغم ذلك ابتسامة مصنوعة دائماً فوق شفيتها، تسارع بتلبية طلب أيّ فرد من أفراد الجمعية كبيراً كان أو صغيراً، حتّى صوتها يقترب من الهمس، فلا يسمع له هدير مثل من يماثلنها حياة، ثوبها الأسود الطويل، وكأنّه لا يتغيّر، ونظافته معتادة دائماً، ليس ثوباً وحيداً، ولكنّها أكثر من عباءة ترتديها بنفس النمط القائم لكلّ ملابسها، ينظر إليها، ويحاول أن يبدو طبيعياً ولكنّ الحقيقة غير ذلك، فكم يتمنّى أن يجارها في الحديث! إن تقابلت عيونها تأخذه ما يشبه الرّعشة الخفيفة، وكأنّه في ريعان الشّباب! فتذهب الكلمات من فوق شفّتيه وتردّد الشّفاة سرّاً الكلمات المعتادة البيغويّة المستهلكة، لا يفوته النّظر إليها، وخاصّة أجزاء معيّنة من جسدها، ولكن في توجّس، ينظر إلى كعبيها الأحمريّن، وكأنّهما مصبوغين بالخناء، قد يظهر رسغها الأبيض الممتلئ وهي تقدّم له قهوته أو ما يطلبه، ما بين الرّسغين والكعبين تتّضح معالم للجسد أو كما قال العرب قديماً، أطراف المرأة إذا كانت ممتلئة من قدميها أو يديها كانت مطلوبةً ومحبيّة، وخاصّة في ساعات العشق، أو منها تستطيع أن تعرف تضاريس جسد المرأة، قليلاً ما يختلس النّظر إليها من خلف نظّارته، فيسقط عدسات نظّارته فوق أرنبة أنفه متنصّعاً

القراءة، والحقيقة أنّ عينيه تتأملها بعيداً عن العدسات، يمتصّ ريقه، ويمسّ أنّه مازال فيه بقيّة وحين للمرأة بأيّ صورة، تحدّثه نفسه بالأ ينسى نفسه، وليحاول أن يبعد أفكاره وآماله، وأن يكون أكثر حرصاً، وأنّه تعدّى المراحل العمريّة التي يمكن أن يجد فيها العذر، فقد وصل لسنّ اليأس، حاول أن تقتل مآربك داخلك، فنفسك كالبالون يتمدّد ويتسع وتحمّل كلّ ما نفخته أو صببته فيه بلا ألم طالما نفسك تهفو، لكن كن حذراً فإنّ ضغط هواء أفكارك سيمزّقها إن زادت عن قدرتها المحدودة، قد تغتنم اللحظة ولكن اجعلها من وراء حجاب، لم يذل الله البشر، فالإنسان عبد ومع ذلك وهبه الله العقل، وكثيراً ما خرج عن أمر ربّه، وإن عاد فباب المغفرة مفتوح، هو مازال عاشقاً ومازال قلبه عامراً ومحبباً لخلق الله، عندما تسنح له الفرصة يهرب، يأخذ طريقه لأقرب مكان فيه الخضرة والمزارع فيتبه بالتأمل، فأزهار تتنوّع وأريج تستنشقه القلوب العاشقة وتحسّه، يتأمل أكثر، ويفكر في ملامح هذا الجمال عندما ينزوي ويدبّ الوهن في السيقان والأغصان، وتذهب الخضرة وتيسس الأوراق النضرة، ويشعر القلب بقرب النّهاية، يعيد الفكر، ويتأمل، ويضحك، وتغرّد بلابل الخير داخله، ويتذكّر النّهاية، أغاني الكادحين والعاملين لحظة جني الثّمار، نعم البداية جميلة، والنّهاية أكثر جمالاً، وكأنّه يصرخ من داخله إنني ما زلت على قيد الحياة، سأعيشها، هل سيقولون عني شيئاً؟ وتجاويد الوجه وآثار السنّين بادية، وما أقبح شكله!! من يقبّح شكل الإنسان فهو خارج عن الملة، ألم يأت في الحديث... لا تقبّحوا الوجه، فإنّ الله خلق آدم على صورته... يحاول أن يغلق على نفسه باب الفكر، لا يستطيع، ويأتيه النداء... يا بني... الماء لباس وفيصل، يا بني... عليك بالماء، اغسل جسدك، وتوضّأ، وصلّ، في مخدعه لا يأتيه النّوم... انظر إليها وتمعن جيّداً،

كم رشاقتهما وهي ماضية كالغزال، ستّ وأيّ ستّ، انظر، وتأمل مشيتها وهزّتها وشحمها ولحمها، هزّة صدرها ورجة ردفها... ااااااااااه!!! يغسل ويتوضأ ويصليّ.

بعد كلّ هذا العمر، مازال التردّد صفة من صفاته الأساسية، لا يمتلك ناصية الأمور في حياته سابقاً، تناثرت من بين يديه الأيام والشهور والسُنون، لو عادَ به الزّمن هل يتغيّر؟ لا أعتقد... الزّمن لن يعود، وهو يحاول نسيان الأيام السّالفة أو الهروب منها أو التّقلد بأفاق جديدة، مسيرة قطار حياته منقوشة فوق خلايا عقله، فتعود إليه ذكرياته، وكأنّه يصرخ قائلاً... سأكون صاحب القرار... هل يستطيع أن يخرج عقله من سلطان هواه وما يتمنّاه، لقمة أكلها آدم أخرجته من الجنّة، وسجدة لم يسجدها إبليس لعنه الله وهبط من منزلة العزّ التي كانت، وأوهن البيوت بيت العنكبوت، سترَ به الله نبيه والصّديق حبيبه، وكانّ الأفكار وتداعياتها سيطرت على فؤاده، فأصبح كالسّكّارى لا تجدي فيهم الخطابة، كما لا يرفع العطر النّجاسة، وكأنّه يتحسّس قيود عبوديّته، هل يفكّ أسر القلب ليطوف عاشقاً في ملكوت الله؟! ما زال التردّد سيّد الموقف، يتملّكه الغضب، والغضب كالحیوان الجائع مفترس، لا ينتظر ولا يتروّى أو يفكر، كلّ أفكاره تنصبّ على الحصول على الفريسة فحسب، فيهاجم بلا تردّد وأيّاً كانت التّناجج، وكأنّها صار رفيقه القلق في رحلة نهاية العمر كما يسمّيها، فلا نوم يأتي، وأحلام مزعجة تتنابه، وقديماً قالوا إنّ القلق مثل دودة تنخر ببطءٍ في ثنايا العقل، فهل سيطر أو كاد القلق يسيطر على حياته؟ هل تقلب أيّ أمر على كافّة وجوهه صواب أم خطأ؟ يأتيه الحزن رغماً عنه، ويطرق بابه كثعبان يزحف ويتلوّى، هل ينتظره لينفث سمّه لتكون النهاية؟ في كلّ الحالات الموت قادمٌ ولا مفرّ، فملعونٌ

الفكر والخوف من الغد أيًا كان، لا أظنّ أنّ الخوف أو القلق أو الحزن سيّاح يمنعي من الحياة، فهل أغضب وأنفجر وأفجّر، يضحك على ثوريته التي غالبًا ما كانت تجتاحه، ولكنها لا تخرج لحيز الحقيقة.

هل يقبل العشق الفكر؟ هل يبحث عن لحظة يداري فيها عشقه أم العكس؟ يتردّى في عذابات الفكر، حاجات جسديّة مؤرّقة تجتاح كيانه قسرًا عنه، أم سماح تزكّي نيران هواه، فهل هي نهاية مطاف أرقه المسائيّ؟ لا تتحدّث مع إنسان كثيرًا، مقلّة في كلامها وهادئة في أفعالها، حزن في عينيها غريبّ وابتسامة وكأتمها قناع تخفي خلفه مأساتها، عرف عنها أنّها وحيدة بلا عائل مع ابنتها، وفروا لها هذا العمل من خلال الشُّون الاجتماعيّة كعاملة، ابنتها الوحيدة في الجامعة، فيسأل كيف تعيش بهذا المبلغ الضئيل؟ يكسر حاجز الصّمّت ويتقرّب إليها، لكنّ ما الذي يدفعه؟... هل مساعدتها؟ وتلك بداية الكذب الكبرى وهو أمّنته أنّ يتخلّص فيما تبقى له من العمر من الكذب، إنّهُ يتنثني عندما تأتيه صورتها في الليل، دعوة ليست غريبة، ولكنه يأخذها بملامح مختلفة، ليفكّر فيها كزوجة لكن ماذا سيحدث يوم يعرف أولاده؟ ماذا سيقول عنه الجيران؟ وفي الجمعيّة وأحاديث تتداول بين الأعضاء عنه، رغم أنّ معارفه ليسوا كثيرين فيعقدون مقارنة بينه وبين وضعه الاجتماعيّ كرجل خرج للمعاش مديرًا عامًّا وهي مجرد عاملة!!! أليست إنسانة، والجميع يشهد بخلقها؟ خيرًا يفعل، فإنّ مات سيرك لها على الأقلّ معاشًا لا بأس به، يكفل لها ولابنتها حياة شبه كريمة، أولاده لهم حياتهم، وهي أضعف الإيوان ستؤنس وحدته، أو كما يقولون يمكن أنّ تهرش له ظهره إنّ أراد، لا بأس من ذلك، عندما تقترب بفنجان القهوة الخاصّ الذي أصبح مدمنًا له، يحسّ وكأنّ دبيب نمل يتحرّك داخله، ينجل

من تلك المشاعر والأحاسيس التي تعتريه، يحاول أن يبدو أكثر ثباتًا، لا مفرَّ ليتحدَّث معها، فالفرصة مواتية، ولا يوجد أحدٌ في الجمعية، استجمع شجاعته، وبدأ الحديث، وكأنَّها تنتظر منه البداية، لحظات وكانت هي التي تدير دفةَ الحديث فتحكي عنه وصفاته وحبَّ أهل الحيِّ له وتقديرهم وأولاده أيضًا، سيرته الطيِّبة وكأنَّه يستمع لأغنية تشدو بها مغنِّية يعشقها، لم يشأ أن يقطعها، قصَّت حكايات وذكريات عن أهالي الحيِّ، ولكنها لا تتحدَّث عن نفسها، ينتظر ربَّما تشدو وتقصَّ عليه عن نفسها وعن ابنتها، وكأنَّه ينتظر أن تحكي له عن ولها وحبِّها له، يفسِّره بأنَّه الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيوان، بدت وهي قريبة منه في صورةٍ كأروع ما تكون صور النساء، اخترقته ووضعت في برج شاهقٍ، وكأنَّها تقول أين أنا منك؟ كثير من الرجال ربَّما هو أحدهم يعشقون المرأة التي ترفع من شأنهم، يستمع لكلمتها وهي ترحوه أن يأمرها بفعل أيِّ شيء خدمة له، وهي رهن يديه... "أنا خدامتك وتحت أمرك يا حجج"، فرصة رائعة وعليه استغلالها، فهما بمفرديهما، وترصد في عينيه حكاية أو طلبًا، وكأنَّه يستحي أن يتحدَّث فيه أو عنه، تبادره وتسال عمَّن يغسل له ملابسه، يشاركها الحديث وهو يتبسّم، ويجيبها معلناً أن الآلات الحديثة والغسالة الحديثة خاصَّة ترفع عنه مجرد التّفكير في ذلك... تسأله عن طعامه وماذا يأكل؟ يخبرها بأنَّ هذا أيضًا لم يعد يمثل له مشكلة، فمنذ زمن طال وهو يجيد صناعة الطَّعام منذ أن كانت زوجته على قيد الحياة، هل يغيَّر مجرى الحديث فيحدِّثها عن لهفته وأمنيَّته أن يتناول أطعمةً بعينها؟ هل يذكرها بأنَّه يتمنَّى أن يشمَّ أنفه طشَّة الملوخية أو البامية الحريمي، أم فتَّة الكوارع أو صينيَّة العكاوي في الطَّاجن الفخاريِّ؟ ييلع ريقه ويتذكَّر كم هو محروم، تتفجَّر داخله أمانى الطَّعام فيشبع، وينظر إليها، ويسترقُّ النَّظر لجيدها

المستور وحركة يديها التي تظهر بعضاً من ذراعيها، حركة شفيتها وتدوير مخارج الحروف وصياغة الكلمات، لكنّه يطرق ناحية أخرى، فماذا تقول تلك الشّفاة وهي مغمضة العينين وسابحة في لحظة ال...؟ ينتبه ويهزّ رأسه، وكأنّه يطرد أشباح الأفكار التي ذهبت به بعيداً، فيفصح عن أمانيه في الطّعام الذي هجره منذ زمن، ويحاور ويتعد عن تأملها، وكأنّ به مساً من الجنّ يدغدغ حواسه، وكأنّ أعضائه همّ بالتّيقّظ والافتنان، يسألها عن ابنتها، وكيف هي وأخبار دراستها؟ طرق جرحها الذي تعاني منه، ولكنّها لم تشكو لإنسان من قبل، لم تقص لإنسان كيف تزوّجت، وحببها الذي من أجله خرجت من ملتها بسببه، كم مثل لها كلّ الدّنيا! كيف ترك أهله وما يعيشون فيه من ثراء ونعمة، وهرب بها إلى هنا؟ كيف عاشا يلتمسان الحياة ورحيق عشقهما؟ عن أحلى أيّام العمر التي مضت، وكأنتها حلم عابر، أهله وما يملكونه من عقارات وأطيان زراعيّة، وموت أبيه وسيطرة عمّه على كلّ ما يمتلكون، كيف هجر زوجته الأولى ابنة عمّه؟ كيف لم يعترفوا بزواجه من النّصرانيّة كما يقولون؟ بعد موته حاولت أن تطالب بحقّ ابنتها بخوفٍ ورعبٍ من عائلة زوجها، هدّدوها فلم تفصح عن مكانها، ولم تتحدّث مع أيّ إنسان عمّا عانته، هل تقصّ عليه؟ تمتنع عن مواصلة القصّ، تصمت بعض الوقت، تسقط قسراً عنها دمعة، وتلحظها عيناه، يتصنّع الانهك في عمل ما، ويبحث في مكتبه وأوراقه، يتأكّد أنّ هناك سرّاً ما، ولكن عليه أن يترك لها حرّيّة الحديث، فلا يجبرها أو يسحبها لتقصّ ما لا تودّ، بدت بوادر القادمين تهلّ تباعاً فاستأذنته لعملها بعد أن طلب منها فجائناً آخر من القهوة المضبوطة التي أصبح مدمناً لها... فكان يطلبها قائلاً... واحد قهوة يا أمّ سماح... تبسم وتهزّ رأسها وتسرع استجابةً لطلبه، يتابع الأعمال المكلف بها، ويضع خطوطاً

تحت مُسمّى الهبات المجهولة المصدر، لماذا تكون مجهولة؟ ولصالح من؟ هو لا يشكّ في أيّ فردٍ من العاملين بمجلس إدارة الجمعية، جميعهم حتّى الشباب منهم مهمومون بالخدمة، ويسعون إليها بكلّ طاقتهم، أمّا صاحبه الثائر الصّريح بلا مواربة الذي يعقد المقارنات بين المسلمين والمسيحيين في البلد، فأفاقه لا تتعدّى مرمى بصره فحسب، حدّته أكثر من مرّة عن وضع الأقليّات عمومًا، والخوف الذي يلقي بظله على أفكارهم، ساعتها هاج وماج، واتّهمه بالدّفاع عن المسيحيين وعن العلمانيين، ومَن يتمنّون حرق البلد، ويكيدون للإسلام الليل قبل النّهار، كانت أعصابه هادئةً، وهو يحاوره وبفارغ صبرٍ... استطاع أن ينهي حلقة النّقاش الدّائر، وطرق معه موضوع الهبات والمعونات القادمة من الكفرة من أوروبا وأمريكا، كيفيّة الاستفادة منها، فهم من وراء ذلك يطلبون تنمية الأفكار في المجتمع، إنهم يحدّدون معوناتهم بمحاضراتٍ عن الفقر والحكم الرّشيد، في أسلوب تنمية الأفكار الديمقراطيّة والثّورات والمطالبه بالحقوق والعدل بين البشر، يصمت وكأنّه يعيد التّفكير، الغريب أنّه يتّهم الشّعب كلّه بحبّه للذّل، ويعلّل ذلك بأنّهم شعبٌ فرعونيّ، ولا ينفع معهم سوى الاستعباد والقهر، عندما يسأله ويحاول أن يبدو هادئًا في حديثه، ويصف النّاس في البلد بأنّهم جميعًا مسلمون، لا يتوانى وهو يصفهم بأنّ الطّبع يغلب التّطبع، وهي صفة غالبية، إنهم بدون الكرباج لا يعملون ولا ينتجون، أفكار متناقضة غريبة تسيطر عليه وهو يتحدّث، أمّا الحاجّ جلال فهو طوال عمره بعيد عن المناقشات، ولا يحبّ الحديث في السّياسة لا يهتمّ بما يقولونه عنه، اليوم هل تنزلق قدماه في هذا المستنقع الذي غالبًا ما يخافه ويصيبه بالرّعب، هل يتعد، ويؤثر الوحدة، ولا يهتمّ بمنّ يخدم أوّلاً يخدم، من يساعد أوّلاً يساعد؟ هل يحاسبه الله عن صمته

وسكوته؟ أليس السّآكت عن الحقّ شيطاناً أخرس؟ كلّ الأفعال التي يساعد فيها مغلّفة بالخير، هذه المحاضرات والاجتماعات التي تحمل معانٍ معيّنة، ويستطيع فتى صغير أن يدرك أبعادها، دعوات لمعسكرات صيفيّة تثقيفيّة للشّباب من أبناء الحيّ بلا مقابل، الشّروط الوحيدة أن يتمّ تصنيف الشّباب مرّة سنّيّاً ومرّة تعليميّاً، ولا ينسَ طبعاً الوضع الاجتماعي للأسرة، حتّى أطفال الشّوارع المنتمين لتلك الجمعيّات، والمتلقّين الخدمات والهبات، لا مانع أن يكون لهم دور أيضاً، مئة ألف علامة استفهام يضعها أسفل كلّ شرط من الشّروط، المصيبة أن بعض هذه المعسكرات تشرف عليها وزارة الشّؤون الاجتماعيّة، وبعض منها خارج نطاق الوزارة، ومحاضرون من جهات مختلفة وبدرجات علميّة متفاوتة كلّ حسب المعسكر، ومن المستهدف فيه، يفرض خطاباً جديداً، يتأمّل المطلوب... إنّها مؤسّسة رائدة في مجال الخدمة الإنسانيّة على مستوى العالم، ومشهود لها، الطّلب والمستهدف بعض من الشّباب من ذوي الميول السّياسيّة لتنمية قدراتهم وتثقيفهم سياسيّاً، في اجتماع مجلس الإدارة الجميع يشيد بما حقّقه الجمعيّة واتّصالاتها، كيف استطاعت الجمعيّة في تلك الفترة الوجيزة أن يصبح لها اسم؟ بل ويطلب منها ترشيح بعض أبنائها للسّفر لأوروبا، مباراة في المديح لبعضهم البعض، وبدأت الأسئلة عن مقدار مصروف الجيب الذي سيصرف، وبأيّ عملة سيصرف... هل الدّولار الأمريكيّ أو الجنيه الاسترلينيّ أم اليورو؟ كان المطلوب حوالي عشرة، وتمّ اختيار أربعة من أعضاء مجلس الإدارة من الشّباب، وثلاثة من أبناء الأعضاء وأخيراً ثلاثة من الأعضاء الصّغار سنّاً، وبعد خضوعهم لاختبار تحدّده الجمعيّة، كانت ليلة تبادلوا فيها الإعجاب والآنخاب التي لم تتعدّ كؤوس الشّاي، وربّما بعض الثلّجات، رأسه تكاد تنفجر، فاستعان

بقرصين اعتادهما ليساعدها في رفع ألم الصُّداع الذي ألمَّ برأسه، الغد هو الجمعة، وعليه أن يستريح، ويزيح عن رأسه أفكارًا طفحت.

وكعادته بعد صلاة الجمعة يمرُّ في السُّوق القريب، ويشترى أغلب مستلزمات المنزل، يترك ما اشتراه في متجر الحاج هادي، وبعد العصر يرسله الرَّجل مع أحد الصَّبيان العاملين معه، في العودة مرَّ برأفت السَّمَّك، وكان طلبه المعتاد من السَّمك والجمبري جاهزًا، ما إن دخل الشَّقَّة، وراح يخلع ملابسه، ويرتدي عباءته المنزليَّة، كانت له طقوس خاصَّة منذ صار وحيدًا، فهو لا يحبُّ أن يرتدي أيِّ ملابس داخلية أسفل عباءته، يخلع سرواله السُّفلي، خلع ملابسه في صالة المنزل وما كاد يخرج سرواله بيده من تحت عباءته، وفي اللحظة نفسها دقَّ جرس الباب، لا إرادياً قذفت يده باللباس فالتقطته مروحة السَّقْف التي تدور بتأنُّ، عاد الجرس يدقُّ، وأيِّ وضع أضحى فيه! تدور المروحة بلباسه الدَّاخلي السُّفلي، والجرس يرنُّ، يهتف أنه قادم وعلى الطَّارق الانتظار دقيقة واحدة، ويسأله مَنْ؟ كانت مفاجأة لم يتوقَّعها أبداً... يأتيه صوت أمِّ سماح بأنَّها الطَّارقة، لا يصدِّق أذنيه، فيتَّجه مباشرة نحو الباب ليفتحه، يتذكَّر... فيعود، وينظر للمروحة وهي تدور، تردُّ ما بين الدُّهاب وفتح الباب وبين التَّريث وإسقاط اللباس المعلق وبعدها يفتح الباب، وضعه وحركته وسنَّه تثير الشَّفقة، وأخيراً وبمساعدة عصا المكنسة استطاع إسقاط اللباس، وبسرعة لبسه، ولكن يبدو عليه مجهود ظاهر، يحاول أن يبدو هادئاً وهو يفتح الباب، لم تكن بمفردها، فقد صحبتها في زيارتها ابنتها الوحيدة، بدت الفتاة كسيِّدة رائعة الحسن والجمال، ووجها القمرىِّ المضيء، وخاتم الحسن الذي يزيّن ذقتها، وقليل من الماكياج للوجنتين الورديتين لا داعي لهما، وعين مكحلة تشع جسارة، فلا يبدو فيها

من حياء سنّها شيء، وكأنّه نسي نفسه فأسرع مرحباً، وقادهما لـحجرة الاستقبال ذات الأثاث العتيق والمشغولة مقاعدها بفنون عفا عليها الزمن، تتأمل الفتاة الصّور المعلقة بالجدران والسّتائر القديمة، تبدي إعجابها بالأثاث، وتتحدّث عنه وكأنّها خبيرة بأثاثات القصور والشقق الوثيرة، لم يفته أنّها رغم التزامها بالملابس الوقورة ورباط رأسها، إلّا أنّ جيبتها رغم طولها تظهر جمال سياقاتها وكأنّها متممّدة ذلك، وضعت ساقاً فوق أخرى، وكانت نظرة الأمّ القاسية معنّفة لها، فعادت الجلوس المعتاد، نسي في غمرة استقبالها أنّ يسألها ماذا يشربان؟ وكأنّ كلمته ذكّرتها بسبب قدمها إليه، كانت بيدها سلّة متوسّطة الحجم مغطّاة بغطاء من القماش، وضعتها بجوار قدميها، ضحكتُ وسألته أين المطبخ؟ كان متردّداً وهو يسألها عمّا تريد، تضحك المرأة، وبلا تردّد تصف له الملوخيّة مع الأرناب، بدت علامة استفهام فوق وجهه، أزالها ابتسامتها وذكّرتّه بحدِيثها الأسبوع الماضي عن الأكلات المحروم منها، اليوم جهّزت له بعضاً مما حُرّم منه، وبدأت بالأرناب، أمام إلحاحها قادها للمطبخ، ورافقها حتّى دخلت، تقابلت عيونهما، وأحسّ بالامتنان والشُّكر لها، لم يدرِ بنفسه، وطبع على وجتها قبلة سريعة، وتركها في المطبخ ومضى لـحجرة الاستقبال، وجدها واقفةً أمام صورة زوجته تتأملها.

— فارقتني منذُ خمسة أعوام... اعتدلت ناحيته، ونظرتُ إليه، وصمت صمتاً لم يدم طويلاً وبعينين تشعّ منها شبه أسئلة ساخرة.

— ومن يومها...

— ماذا تقصدين؟

— شوف سيادتك... هيه فعلاً مرّة حلوة... يعني أنت صياد واعر...
ضحكت الفتاة ضحكة غريبة طويلة وغريبة، لكنّه لم يتوقّعها، فلم يستطع
مجاراتها في الضّحك واكتفى قائلاً:

— لست أنت الوحيدة يا ابنتي التي تظنّ أنّها تفهم في كلّ شيء، فجميعنا
ننصب أنفسنا قضاة وولاة، ونفهم في كلّ الأمور... وضحك... كما يقولون
الواحد منّا يفهمها وهيه طايرة، أنت الأمّ، فتوقّف الحديث الذي لم ينته،
وكانت بدايته صادمة له، وربّما كان هذا هو السّبب في أنّه اقتصر في حديثه
على التّرحيب، تحدّثت الأمّ وهي تحاول أن تبعد عينيها عن مرمى بصره،
أشارت في حديثها لوضع المنزل وأثاثه، وأنّها مستعدّة لأيّ خدمة يطلبها
منها، تصفه بنعم الأخ والصّديق، ولكن يبدو في عيني الفتاة عدم الموافقة على
هذا التّصنيف، يعلّل ذلك بأنّ السيّدّة التي كانت تأتيه لنظافة المنزل امتنعت
من مدّة ولا يعلم السّبب، وبسرعة تكلمت الفتاة بأنّها تعرف سيّدّة قريبة من
هنا وستحدّثها في هذا الأمر، إلى حدّ ما عادت إليه ثقته التي ذهبت، وهدأت
أعصابه، وألقى عن رأسه حديث الفتاة، سألها هل تناولا غداءهما؟ أدركت
الأمّ ما يرمي إليه، فضحكت وهي تخبره بأنّ ما أحضرته له لا يكفيه بمفرده،
أخبرهما بنظامه يوم الجمعة وغداء السمك المعتاد، وأنّه لن يستطيع أن يترك
أكله للغد، فهو متشوّق لهذا الطّعام منذ وقت طويل، بعد شدّ وجذبٍ وحين
منه، ليشعر بجوّ أسريّ، وكذلك ضيفتاه، ولكنّها لم تظهرها ذلك، أخيراً
وافقا، تحرّكت سباح وأمّها للمطبخ وجهّزا الطّعام، منذ مدّة طويلة لم يجلس
ليتناول طعامه على السّفرة، تناولوا الطّعام، وأقسمت أمّ سباح أن يستريح
ويترك لها تنظيف المكان، بعد محاولات كثيرة أذعن لرغبتها، دخل حجرة
النوم لينام نوم القيلولة كما اعتاد، قلب في رأسه أشياء كثيرة، وراح يستعرض

ما فعلته هذه المرأة، وما فعله معها، قُبِلته التي تجرّاً وطبعها فوق وجنتها امتناناً، لم تبدِ تبرُّماً من فعلته، ولكنّها بدتْ أكثر نشوة وجمالاً وابتسامتها التي تخفيها تفضيحها أكثر، ماذا يقَدِّم لها؟ وهي ماضية يهبها... ماذا...؟... أيعطيها نقوداً؟! لن تقبل، وستظنّها إقلاقاً من شأنها وهو لا يودّ ذلك، يقَدِّم لابنتها تلك المتئمّرة الشَّرسة، لتكن ما تكون فهي صغيرة ولا تدرك الحياة، ولأجل عيون أمّها يجب أن تُكرم، لم يذهب في النوم كثيراً، شعر أن جسداً ما يجلس على حافة فراشه، تقلّب، واعتدل، وجلس، ونظر فوجد سماح، تحرّكت، ووقفت أمامه بجوار الفراش، وكأنّه يسألها، ولكن لم تخرج كلمات من بين الشَّفاه، دهشة ظاهرة جليّة فوق وجهه وعيون الفتاة مملوءة بالدموع، وما لبثت أن انثالت فوق وجنتيها، أخيراً تحرّك من سريره، وهزّ الفتاة، يسألها عمّا حدث؟ فترقع تحت قدميه، يرفعها بيديه لأوّل مرّة يشعر بطفولتها وبنوبتها حقيقةً لا لفظاً، فترتمي في أحضانه، تتوسّل إليه ألا يأخذ أمّها منها، وأنها مستعدّة أن تهبه حياتها، تراجع للخلف، وترفع عن رأسها رباطه، وتهمّ بفكّ بلوزتها وهي تقول بأنّها وصلت لمصاف السيّدات وتستطيع أن تهبه ما يريد من الأنثى، يعلو صدره، ويهبط بصورة غير معتادة، بدتْ معالم جسدها تتعرّى أمامه بنفورها وشبابها، ولا إرادياً وبصفعات قويّة، رد إليها صوابها، وتناثر شعرها حول وجهها، بلّل وجهها واختلطت دموعها مع كحل عينيها، والتصقت بعض الشعيرات، راحت تغلق أزرار بلوزتها، وهو خارج يبحث عن أمّها، لم يجدها، سألها صارخاً أين هي؟ بصعوبة وبكلمات ذات حروف متناثرة تكاد تجمعها الأذن بالكاد، أجابتْ بأنّها ذهبتْ لتشتري مساحيق إزالة الدهون، صمت لا تبدّده الأفكار التي تداهمه، يريد الحديث، ولكن فيم يتحدّث؟ إنّها تقول آخذ أمّها منها، تعرض نفسها وجسدها،

وتقول إنني وصلت لمصافِّ النساء، ينظر إلى الشَّبَحِ الواقفِ أمامه، من بين شعرها المنكوش حول وجهها ترسل عينها سهام حقد، لا يدرك شيئاً، يحاول أن يبدو هادئاً، تمتدّ يديه، ويعيد شعر رأسها المبلل بالدموع للخلف، يحاول أن يقول لها إن ابنته أكبر منها عمراً، وبسرعة تردّ عليه... جميعهم يقولون ذلك، يرجوها أن تعيدَ رباط رأسها، ويسحبها بهدوء إلى الحمام، ويتركها لتغسل وجهها، وكأنّه فرّ هارباً، ودخل بسرعة حجرة النّوم، وأغلق الباب بالمزلاج، وراح في دوّامة الأفكار الغريبة، التي لا يجد لها إجابة ترضي عقله، مهمومٌ بأفكار، يسترقّ السَّمع ويتنظر أن يسمع صوت الأمّ، سيخرج ويشكرها، ويطلب منها أن تمضي، متذرّعاً بأيّ حجة مقبولة، أو غير مقبولة... لا يهمّ.

عندما نفكّر في الغد القادم، غالباً يصيبنا الدُّعر، ويرهقنا الدّوار، وتمتدّ الصّور وتختلط، تظهر جلياً أمامنا مشاهد العجز والشَّيخوخة والموت، نتأمّل القبح الجسديّ الذي تحوّلنا إليه، العروق الزّرقاء بشبكته العنكبوتية تبدو في الأطراف في المعصمين، وحول الرّسغين، ضمور الوجنات التي كانت تتألّق تظهر في المرأة، هذا العنق الذّابل الذي بدا عليه العجز من حمل الرّأس، تحاصرنا الأفكار المتشائمة، كآبة في عيوننا، ونحن نحّدق في أزهار الحدائق، أو كما تتخيّلها عيوننا الذّابلة... سأم ويأس، وعلينا نقبل واقعنا الحتميّ حين.

الفصل الثامن

الوافدون الجدد

رياحٌ غريبةٌ تهبُّ على حياتهم، تجديداتٌ للقرية، وزياراتُ السيِّدة "هبة السَّماء" تعدَّدت، وبرفقتها آخرون من جنسيَّاتٍ مختلفة، تواصل الدَّعوات لأبناء الشَّوارع، وومن لا عائل لهم، صرف مساعداتٍ عينيَّة وماديَّة لهم عبارة عن مساعداتٍ غير مدرجة بحسابات، نعم كلُّ شيءٍ بيد الجزَّار، فهو الحاكم بأمره في البيت، رغم ذلك، ارتفع رصيد "أبو عنيد" بين هؤلاء البؤساء، بل صار بالنَّسبة لهم قائدًا، بالإضافة إلى مزيدٍ من الزَّوَّار بدرجاتٍ مختلفة، فمنهم أساتذة في الجامعات، كما أنَّ هناك مصريين وغير مصريين، الجميع يتحدَّثون لصالح الفقراء البؤساء، يطالبون بمزيد من الاهتمام بالتَّعليم ومحو الأمِّيَّة، ومحاولة النُّهوض، أحاديثٌ جميلة، وملابسٌ أجمل، وأفعالٌ تنتهي بيومها، ويعودون لممارسة أفعالهم المعتادة في الشَّوارع، ولكنَّ يحتفظون لهؤلاء القوم بالتَّقدير ولأبي عنيد بالولاء، يقولون إنَّ الجزَّار متَّهم بالسَّرقة، وتأكَّدت هذه المعلومة وبتدخُّل السيِّدة "هبة السَّماء" مع كبار رجال الدَّولة، تمَّ حفظ التَّحقيقات، ولم يكتب عنها في جريدة بأوامرٍ علويَّة صادرة.

تتابعت محاضراتُ الدكتور "ندا" القادم بدرجته العلميّة من خارج حدود مصر والعامل لدى إحدى مؤسّسات البنك الدوليّ، أحاديثه تقطر حباً وأملًا في الحياة، تتسرّب داخل نفوسهم أمنيّات سراب، وأحلام تنتهي بانتهاء اليوم، يستقدمهم "أبو عنيد" وبعض معاونيه من مناطق متعدّدة، كلُّهم تجمعهم صفة اللا عائليّة، أو اللا انتماء، وكأتمّهم لا ينتمون لوطن، أو لبلدٍ معيّن، ويكن تصنيفهم بأنهم غير مهتمّين بكينونتهم، والفكرة الغالبة أنّه لا فرق بين ذكر وأُنثى، يتحدّث الرّجل الدّكتور الذي حفر في قلوبهم مكانًا خاصًا، كثيرًا ما يشاركهم حتّى طعامهم، يقول، ويصف لهم معاناة الرّسول - عليه الصّلاة والسّلام - وما ذاقه من عذاب من أقرب المقرّبين إليه، فكثيرًا ما يكون الأهل هم سبب البلاء والشّقاء الذي يعيش فيه النّاس، ينكأ جراحهم، وداخلهم يلعنون، ولكنّ يستسلمون، فما بيدهم حيلة، يتحدّث عن اليهوديّة ومعاناة سيّدنا موسى - عليه السّلام - معهم، كثير منهم يسبّون أجفانهم، ويهْمُون بالسّففر في غفوة النّوم، ولكنّ الدّكتور لا يهبهم هذه اللحظة، فيطرق حكايات تستفزّ انتباههم، فينصتون، ببلاغة يحكي لهم عن محاكمة السيّد المسيح - عليه السّلام - فلم يجد الحاكم سببًا لقتله، وكان عليه أن يأخذ برأي الشّعب، والشّعب يزرع تحت إمرة الكهنة، وممن فرضوا عليه الجهل دستورًا، فوصف الكهنة للشّعب أنّ المسيح سيذهب بما توارثوه عن أهلهم وذويهم، إنّهُ سيحرّم عليهم الكثير من مباحج الدّنيا وزخارفها، بموجب ذلك ثار الشّعب الجاهل، رغم أنّ الحاكم قال سأكتفي بجلده وأطلق سراحه، لكنّ الشّعب صرخ مطالبًا بقتله، المصيبة أنّهم طالبوا في الوقت نفسه بإطلاق سراح سجين قاتل قائلين: "اقتله... اقتله... وأطلق لنا "باراباس" ومن جديد صرخوا اصلبه، نادوا بقتله وصلبه، وانتصرت صرخات الغوغاء، يصمت

الدكتور، وهو قاصٌّ بارع، يدغدغ أمانهم بكلماته التي ترتفع تارة وتصل لحظة للهمس قائلاً... أتدرون ماذا يقول السيّد المسيح - عليه السّلام - محدّثاً الله سبحانه وتعالى... "يا أبي... سامحهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون" ويستطرد، قد يكون الموتُ بدايةً للحياة، وعلى المستوى الملموس بيننا، فحبة القمح بموتها في تراب الأرض بداية لنماء جديد وحبّات ربّما تعدّت المئات، يتسم ويضحك ضحكة هادئة لا يسمعها إلا مَنْ كان في الصّفّ الأوّل من الجالسين، يواصل ويقول... بعض النّاس يخلو لهم ترديد كلمات التّسامح، ويلصقونها بالسيّد المسيح - عليه السّلام - فيقولون إنّه قال: "مَنْ ضربك على خدّك الأيمن فأعطه خدّك الأيسر"، هذا ليس تسامح، هذا جبن بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وعلينا أن نعيش بلا جبن، ففي الإنجيل يقول المسيح... لا تظنّوا أنّي جئتُ لكي أرسّخ سلاماً على الأرض، لم آت لأعطي سلاماً بل سيفاً، أتيت لينقسم الرّجل على أبيه، والبنت على أمّها، والكنّة على حماتها، فيكون أعداء الإنسان هم أهل بيته... ماذا يلقّنهم؟ ولماذا؟ تأخذهم رياح غير ثابتة على وجهة معيّنة، هل هو فعل مقصود ومدروس؟ أم مجرد انفعالات وأحاديث لقضاء الوقت؟! يبلّ ريقه بقليل من الماء، ويتسم ابتسامته التي تشعّ في نفوسهم حبّاً غريباً، ويمسح وجوههم بعينيه، وتتحرّك شفاهه... كان فيه واحد في ألمانيا اسمه "هتلر"، حرق ملايين من اليهود ظلماً وعدواناً، هم بشر وهم دين أنزله الله سبحانه وتعالى، ومنهم مَنْ خرج عن أمر ربّه، حرقهم في أفران الغاز منتهى الوحشيّة، ألم يخلقهم الله؟ هتلر هذا ادّعى أنّه مسيحيٌّ صالح، استند للإنجيل في حرق اليهود المفسدين كما سمّاهم، نتيجةً لسلوكهم المشين في ألمانيا، هكذا يقول، ففي إنجيل اسمه إنجيل "متّى" يقول فيه... هكذا ستكون نهاية العالم، إذ سيرسل ابن

الإنسان ملائكته الذين سيجمعون من ملكوته كلَّ المفسدين والأشرار، ثمَّ يطرحونهم في الفرن المشتعل، كثيرون لا يدركون قصده من وراء حديثه، يهزؤون رؤوسهم، لا يتركهم، يتبسَّط أكثر، ويشرح... ويفهمون أحيانًا أنَّه مطلوبٌ أنْ يثوروا، ولا يتركون حقوقهم، فالأوصياء يدفعون بهم للموت في سبيلهم، يشعل داخلهم ثورة غريبة، ولكنَّهم مسلوبو الإرادة والقوَّة، يحفَّزهم بأنَّهم شركاء في الأرض التي خلقها الله، لا يستسلمون، ولكنَّ عليهم انتظار اللحظة المناسبة، ليفجَّروا ما بداخلهم.

هل نلتمس العذر للمجرم الذي يخرج عن القانون؟ وهل للجرم درجات للحكم بموجبها؟ هل هناك فرق بين قاتل وقاتل؟ كلاهما قاتل، والدرجة واحدة... إزهاق روح أليس كذلك؟ وإنْ كان أحدهما عالمًا بأبعاد جريمته وفعلته، والآخر جاهل ومدفوع، اختلفت طريقة القتل والعقوبة واحدة!!!

تتنامى الأحداث بصورة سريعة وغريبة، ويجفرون في قلوب المحرومين والبؤساء أفكارهم، "أبو عنيد" مسيرٌ في ركبهم، ولا يدرك ماذا يفعل؟ يحسُّ بحبِّ جارف نحوهم، إنَّهم لا يطلبون منه أو من غيره شيئًا سوى الحبِّ، كلُّ ما يفعلونه يقدمون يوميًّا المزيد من المساعدات، لأطفال القرية والملاجئ وحتى أولاد الشوارع، يذهبون، ويزداد السُّؤال عليهم، والكلُّ يترقَّب عودتهم، ويلحَّون على العاملين في السُّؤال، أغلبهم ببشرتهم الأوروبية، وقليلٌ منهم بوجوههم المصريَّة، وجوهٌ لا تعرف الأتربة الطرِّيق إليها، فلم تلمحها شمسُ يومٍ حرٍّ، وحتى السَّيَّارة من المؤكَّد أنَّها مكيفة، وجوهٌ صبوحه وابتسامات فوق الشِّفاه، معالم عزِّ وثناء بادية، حتى في تبادل الكلمات، تبدو أيضًا جليَّة في الملابس المتألِّق، أمَّا السيِّدات، ورغم أنَّ منهنَّ من فاق عمرها السِّتِّين عامًا، وظهرت تجاعيد السِّنين واضحةً فوق

وجوهنَّ، إلاَّ أَنَّهُنَّ يَجِبْنَ رَفْعَ الْمَعَانَاةِ عَنِ الْفَتِيَاتِ وَخَاصَّةَ الصَّغِيرَاتِ، فَيَتَحَدَّثُونَ كَثِيرًا عَنِ حَقُوقِ الْبَشَرِ وَالْأَطْفَالِ خَاصَّةً، يَخْصُونَ بِاهْتِمَامِهِمْ أَطْفَالَ الشُّوَارِعِ وَالْمَلَاجِئِ، بَدَتْ بُوَادِرُ قَدُومِهِمْ ثَانِيَةً وَعُودَتِهِمْ جَمِيعًا فِي حُضُورِ الدُّكْتُورِ "نَدَا"، وَسِيلَ مُحَاضِرَاتِهِ، يَطْرَحُ أَفْكَارَهُ وَرُؤَاةَ الَّتِي تَتَوَاكَبُ مَعَ أَمَانِيهِمُ الْمَحَالِ تَحْقِيقَهَا، يَبْدَأُ فِي تَصْنِيفِ مَسْتَمْعِيهِ وَفَقًّا لِمُقَابِلِيسِ يَضَعُهَا بِقَوَاعِدِ خَاصَّةٍ جَدًّا، فَكَانَتْ "زَهْرَةٌ" مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَشَارَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطَاهَا دَرَجَاتِ التَّنْفُوقِ، وَأَصْبَحَتْ ذَاتَ وَضْعٍ خَاصِّ، فَقَدْ كَانَ وَاضِحًا فِي تَقْرِيرِهِ، تَمَّ إِدْرَاجُ اسْمِهَا بِالْعَمَلِ ضَمْنَ الْمَوْضُفِينَ بِالْقَرْبِيَّةِ، صَدَرَتْ الْأَوَامِرُ وَاضِحَةً لِلسَّفَاحِ بِاسْتِكْمَالِ كَافَّةِ أَوْرَاقِهَا وَفَقًّا لِمَتَطَلِّبَاتِ التَّوْظِيفِ، أَخْضَعُوهَا لِتَدْرِيبِ مَكْتَنَّفٍ، أَظْهَرَتْ تَفُوقًا وَاضِحًا وَاسْتِجَابَةً رَائِعَةً، تَقَلَّدَتْ مَنَصِبَهَا الَّذِي لَمْ تَحْلَمْ بِهِ يَوْمًا وَالَّذِي لَا يَسِيرُ وَفَقِ قَوَاعِدِ التَّوْظِيفِ الْعَامَّةِ، أَوَامِرُ مِنْ جِهَاتٍ عَلِيَا، ظَهَرَتْ الْبُوَادِرُ فِي تَغْيِيرِ مَلْبَسِ وَمَخْرَاجِ حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ تَدْرِيبِيًّا، فَالْكَلِمَاتِ الصَّارِخَةِ وَالْمَتَحَفِّزَةِ لِلْعِرَاكِ ابْتَعَدَتْ، وَنَسِيَتْ، وَكَأَنَّهَا تَحَوَّلَتْ لِهَمْسٍ، بِمَوْجِبِ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ تَبَاعَدَتْ الْمَوَاقِيتُ وَسَاعَاتِ الْعَشَقِ الْمَحْرَمِ فَوْقَ رِفَاتِ الْأَمْوَاتِ، لَمْ يَخْتَلَفْ الْحَالُ كَثِيرًا مَعَ "أَبُو عَنِيدٍ"، شَيْءٌ غَرِيبٌ يَطَالِبُهُ إِلَّا يَلْقِي بِنَفْسِهِ كَلِيَّةً لِأَحْضَانِهِمْ، يَبْعَدُ تِلْكَ الْهَوَاجِسَ عَنِ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ، وَلَكِنْ هُوَ لَا يَجِبُّ أَنْ يَقَيِّدَهُ عَمَلٌ مَا، اعْتَادَ الْحَرِيَّةَ، وَاعْتَادَ الْهَرُوبَ، أَجَادَ اسْتِغْلَالَ قُدْرَاتِهِ وَعِلَاقَاتِهِ، فَتَبَحَّرَ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَمَلٍ، لَمْ يَفْرَضْ إِتَاوَةً، أَوْ يَطَالِبُ بِدَفْعِ قَسْرِيٍّ، كَمَا اعْتَادَ بَعْضُ الْبَلَطْجِيَّةِ، كَانَ بَعِيدًا عَنِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ، لَمْ يَخْلَفْ مَوْعِدًا لِمَسْتَجِيرٍ بِهِ، أَوْ مَطَالِبًا بِمَسَانِدَتِهِ، بَعْضُهُمْ وَخَاصَّةً الْكِبْرَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، أَوْ بَعْضًا مِنْ مَعَاوِنِيهِمْ يَطَالِبُونَهُ بِخِدْمَاتٍ مَعِيَّةً، أَكْثَرُهَا وَوَفَقًّا لِلشَّائِعِ الْيَوْمِ تَحْتَ مَسْمِيَّاتِ أَفْرَادِ أَمْنٍ وَحِرَاسَةِ، الْعَارِفُونَ مِنْهُمْ بِبُؤَاظِنِ

الأمور لا يطالبون بمواصفات جسديّة فحسب، كما يسمّونهم "بايعين
 روحهم" شباب وكأنّ قلوبهم ماتت، أو ربّما تحجّرت، أو أصبحت أشدّ
 قسوة، فكانت عينه ماهرةً تصطاد هؤلاء الشّباب المطلوبين، يتردّد في الموالد
 في الأفراح، وخاصّة في المناطق الشّعبيّة جدًّا، يرصد لعبهم بالسّيف أو
 بالسّنجة والمطاوي وكافة أنواع الأسلحة البيضاء، وخاصّة "السّنجة" كما
 يحلو لبعضهم التّسمية، أغلبهم يضربون بالقوانين عرض الحائط، جلسات
 وموائد خاصّة منصوبة، تختلف باختلاف الجالسين عليها، خدمات الطّاولة
 التي يجلس عليها "أبو عنيد" معروفة، فقد أصبح شرفاً يتباهى به أصحاب
 الليلة، زجاجات البيرة، وأفضل قطع الحشيش المجهّزة، والتي تراض بكثرة،
 وبطبيعة الحال، لا ينسى "أبو عنيد" تحية الليلة وصاحبها، وحتى إن
 تواجدت الرّاقصة فلها نصيب، وكل الرّاقصات يعرفنه جيّدًا، وما أن تطأ
 أقدامه مدخل السّرادق ترتفع الزّغاريد، وأحيانًا تطلق الرّصاص، يحتفون
 به وبوجوده، ليلتها يشير على فتى، أو اثنين حسب الحاجة، يحدّد المكان
 والزّمان ويختبرهما برؤيته الخاصّة، على مشارف الصّحراء، وفي مكان محدّد
 يعرفه ومريدوه وأحابيه، يطلقون أعيرتهم النّاريّة، ويرى درجات دقّتهم،
 العقد الموقع يشهد عليه بعض من المعارف، وهو كلمة شرف، فخيانة الأمانة
 معناها أن ليس للخائن دية، وحتى أهله لا يطالبون بثمن للخيانة، فليس
 هناك حقّ أو ثأر للخيانة، الحرص بكلّ الطّرق على تنفيذ طلبات وأوامر
 الوصيّ، تتسارع الأيّام ودورتها ويحسّ "أبو عنيد" وكأنّ "زهرة" ستطير
 منه، شيء غريب يمنعه أن يحدّثها في هذا الموضوع، وكأنّه أصبح يتجنّب
 لقاءها، يحاول الابتعاد، ويحبس نفسه أحيانًا بعيدًا عن العيون، يلعن قلبه،
 ويلعن مشاعره، ويكسر قواعد العشق المتعارف عليها، فيحاول أن يبدو

أكثر طربًا، وما إن يراها في ثوبها الجديد وبريق عينيها الذي يحطفه في شباك الهوى، يتأملها، يشعر في حلقه بمذاق شهد رضاها فيمتص لعابه، لا تتركه، تتحدّث معه علنًا بحديثٍ تحاول أن تجعله يبدو عاديًا، لا تتخلّص عيناها من قبضة عينيها، ولا تحاول، مخارج حروف كلماتها وكأنّها تنتمي لبيئة غير التي يعرفها، يعاتب نفسه بأنّ العيب الحقيقيّ فيه هو، هو الذي اختزل كلّ النّساء في امرأةٍ واحدةٍ، لا يطلبها، وكأنّ كرامته تأبى وهي تتمنى، ولكنّ تنتظر أن يفصح، وكأنّه أدرك أنّ أعظم صفات المرأة عندما تقترب من صفات الحيوان في لحظات العشق الهمجيّ، وسط آهاتها، وهي تشب أظافرها في ظهره لحظة النّشوة الكبرى، وساعتها يجلو للبعض أن يقول إنّ تلك أسوأ الصّفات البشريّة في المرأة، لماذا؟ هل نستطيع التّحرّر من نزواتنا؟ هل تستطيع إرادتنا أن تتخذ ردّ فعلٍ مغاير لمطلّباتنا الإنسانيّة الحيوانيّة، تمشي عكس المسار الطبيعيّ البشريّ، هل الجسد مثل الملابس الذي نلبسه؟! هل من الأفضل أن ننعّم به قبل أن يبلى وتركه النّفس؟ لندع الأجساد ترح ما شاءت وتقتنص اللحظات والسّاعات السّكري، يحاول أن يخرج نفسه من دائرة هواها، هل تشعر حقًا أنّك حققت انتصارًا؟ هل تشعر بأنك الرّجل المغوار الذي تبحث عنه الأنثى؟ ألم تلاحظ أنّها سلّمت لك كلّ مقاليد جسدها؟ فكنت غازيًا، ورفعت راية النّصر، هل تعلم أنّك أغبى خلق الله؟ فالغازي دخل أرضًا جرداء لا حياة فيها، ربّما ظننت نفسك فارسًا مغوارًا، دخل أرضًا غير مقاومة لغزواته الحيوانيّة، فلا ردّ فعل حقيقيّ لفعل صورته لك نفسك أنّك قمت به، إنّها وهبتك ليس بمحض إرادتها، هي مجبرة مستسلمة، ألم تعلم أنّها مجرد جسد لا روح فيها؟ ماتت يوم أن ماتت مشاعرها تحت أقدام الغزاة ممن سبقوك، ارجع وتروّ والغد قادم، وتتضح الرّؤى أكثر وأكثر، فالأرض تنتظر

الموتى من الأجساد يا أخي، لا تحقد عليها، ولا تكرهها، لقد أكرهتم جميعاً على أفعالكم، ربّما جادت الدنيا على البؤساء من أمثالكم برحلة حاملة قبل أن تذهبوا في سبات الموت، فرقصات الموت الأخيرة عليك أن تتأملها في حركة السمكة بعد صيدها، تأملها وهي ترقص أثناء خروجها من الماء، وبعدها يعقبها صمت النهاية، كذلك رقصة الطائر أيّما كان في النزع الأخير بعد ذبحه قبل الصّمت أيضاً، تأمل عيون البشر من حولك، تجدها زائغة، هل تستطيع أن تفسّر ذلك أحبّ هو أم خوف؟! كأنني أحسّ أن النّاس من حولي مشغولون بحرب غير معلنة، حرب صامتة، كلُّ نازحٍ في أفكاره، يحسب، ويقبّل، ويتطلّع لمزيد، حتّى الشباب من حولي، أشعر أنّهم غرباء والعاشقون منهم، عشقهم مشحون بالتوتر والتسرّع، فأحاديث تملأ جوف النّاس، وكلُّ منهم يتمنى أن يفرغها، ويتخلّص منها، فكم هي مؤلمة! ولكن من يسمعها، كلُّ عازفٍ عن الاستماع للآخر، وكلُّ يسير في طريق عكس الآخر، أين الحبّ؟ كلُّ يبحث عنه في صدر الآخر، والآخر بدوره مهمومٌ، لا تؤنسنا حتّى آدميتنا في نفق الحياة المظلم، نستنكر أفعال الآخرين، ونحن نفعلها بكلّ أريحية وودّ، ابتسامات مرسومة رائعة الملامح لا ندرکها أصناعة محلية هي؟! أم مستوردة من خارج حدود وطننا؟! هل يتمّ شراؤها ولصقها للظهور؟ هل تبارى المصانع في إنتاج أفضل ابتسامة؟ ومن يشتري؟

تتغيّر الدنيا من حوله، وتتغيّر معها، ملابس تواكب وضعه الجديد، جلسات ومعارف جديدة وعلاقات مع كبراء، وأموال ينفق منها ببذخ، وكأنّها لا تنتهي... وكلّ يوم برزقه وخيره، لكنّه لم يترك مأواه ومسكنه الأساسي في التّرب، غريب في تصرّفاته، وكأنّه ينتظر الموت، ولكنّه يأبى أن يفكرّ فيه، يعيش أغلب ليله بين الأموات، وكأنّه يستريح لمجاورتهم،

صدرت إليه أوامر، نقلها له مباشرة "الجزائر"، فاستمع له... الرجل حدّد له المكان... باخرة نيلية، في تمام الساعة العاشرة ألا يحمل أي أسلحة معه، حفل خاص بالنخبة المثقفة، وبعض الفنانين، فتأمل الدعوة، ضحك الجزائر بقوة حتى سعل، فامتدّت له يده بكوب الماء.

— اضحك على قدك... ممكن تروح فيها... بتتريق، يرشف بعضاً من الماء وينظر إليه، وعيناه أكثر سخريّة، وبكلمات متحشّرة.

— عشنا وشفنا... تعرف يا "أبو عنيد"، أنا عامل ألبوم صور... ممكن تشوف نفسك وأنت عيّل، يوم ما فتحت السّت "هبة السّماء" القرية... آه زمن.

— عارفها وفاكرها... وعاد بلهجة متحدّية... يكمل... أنا عارف برضه حاجات كثير وممكن في لحظة ضعف أفرّج النّاس عليك... وكأنّه تذكّر شيئاً.

— آخرتها يا "أبو عنيد".

— النّجاسة عمرها ما تتطهّر بالبرفانات... أنت عارف أنك أنجس خلق ربّنا.

— أنت ابني.

— مصيبة سودة... أنا راضي عن حالي، هتبليني وأشيل اسمك كمان؟!!

— للدّرجة دي.

انتهى حوارهما المباح، وغير المستباح بإشعال "أبو عنيد" سيجارة من المخصوص للجزائر، مبتسماً وهو يسبح في ضبابها الكثيف، يمدّ بها يده ويسحب من يده بطاقة الدّعوة ضاحكاً وهو خارج... أنت أبويا... ه... هه...

— عموماً كثر ألف خيرك... تمتد يده لدرج المكتب، وتخرج برزمة من الأوراق الماليّة، ويمدّها إليه... قالوا الفلوس دي لزوم قيافتك... يعني اتهنّدم، والبس لك بدلة جديدة... أنا عارف إن جتتك مش هتقبل... ومنظرك إن راح ولا جه مستحيل يركب عليه غير الصّياغة وقلة القيمة... يأخذ رزمة الأوراق ضاحكاً.

— هسأل... خصمت من المبلغ؟

— مجرد حاجة بسيطة... تبرّعات...

يقاطعه وهو واقف... أنا أتبرّع، أنت ما تخصصشي مني... ومزاجي رافض التبرّع وغصب عني أنت عارف... لسه ما تخلّش اللي يغصّبي على حاجة.

— أنا عمك.

— أنا رافض يا سيدي إنّي أنتمي ليك ولا لعلّتك.

— ناوي أعمل...

— ما تعملش بفلوس... من الوقت هسأل وهاعرف نصيبي قبل ما اتحرّك، يخرج رزمة صغيرة ويناوّلها لأبي عنيد الذي يقوم بعدها ويضعها في جيبه، يتسم وهو خارج مودّعاً بإشارة من يده وقائلاً... ما تخفش أنا أعرف آكل بالشوكة والسكّينة، وأعرف واحد صاحبي يفهم في الإتيكيت والذي منه.

وقد كان، فأسرع إلى إحدى مناطق وسط القاهرة، بلا أدنى تردّد، ووهب البائع عشرين جنيهاً، طالبه أن يقوم بتأنّقه واختيار البدلة المناسبة بكلّ مشتملاتها، أيضاً طالبه أن يكون مرآته، استسلم له بعد أن عرفه أنه سيتزوّج وأنها المرّة الأولى التي سيرتدي فيها بدلة ورباط عنق، قام البائع بكلّ المطلوب

على أكمل وجه، وقام بعمل التعديلات اللازمة بكل دقة، في النهاية أشار عليه بأن يذهب مباشرة إلى صالون حلاقة قريب منه، عندما سأله عن السعر المعتاد للحلاقة فأخبره، ذهب في الضحك بصورة غريبة، وفي النهاية لم يملك البائع سوى مشاركته في الضحك، عمل بمشورته، في الشقة المفروشة التي استأجرها في الحي الجديد الذي لا يعرفه أحد فيه، تأمل نفسه قبل الخروج، لم يصدق عينيه، وقف كثيرًا أمام المرآة، دار دورات، واتخذ مواضع للوقوف والجلوس، ولكنه متضرر من رباط العنق، شعر أنه مخنوق، ولكنه مجبر وعليه تحمّل ذلك، استقل التاكسي، وأمر السائق بالتوجه إلى المكان، حاول أن يبدو هادئًا، الأضواء تغرق المكان، البشر كلهم من طينة واحدة، بعد أن أخرج بطاقته قاده أحد القائمين على الحفل إلى مائدة مستديرة، حولها عدد من المقاعد غالبًا لا يقل عن ثمانية، جلس يتفحص الجلوس بترتّب وتوجّس لم يعتده، برزت من بين السيّدات بلباسها الأبيض المشوب بلونٍ أحمر في بعض أطرافه، وكأنّها أضواء المكان بنورها، وكأنّ كلّ العيون توجّهت إليها، مضت تلقي تحياتها على الجميع، وكأنّها تعرفهم جميعًا، تقدّمت ناحيته مباشرة، وامتدّت يدها إليه فحسب، رغم أنّ كلّ الجلوس وقفوا تحية لها ولجهاها، اكتفت بإبائة من رأسها وابتسامه، وسحبته من بينهم، همّ أن يقول يا بنت الكلاب، ولكنه تمالك نفسه، وكأنّها كانت حريصةً ألا تتركه وحده طوال السهرة، يتأمل القوم فمنهم كثير يراهم في التلفزيون، وآخرون يبدو على ملاحظتهم أنّهم يتركون أثرًا لا يمحي من العين، تمالك نفسه، ولم يسأل كثيرًا، وتركه لدقائق، وتعود إليه، أحاديث لا تنقطع، وكلّ يحاول أن يصبغ حديثه بأهميّة أن يعيش كلّ البشر، أحاديث عن العدالة والخير والمساواة، كلمات جميلة، ولكن يشعر أنّ من يردّدونها لا يعرفون عن الفقراء شيئًا، لا

يسمعون عن أطفال الملاجئ أو الشوارع، أو من يعيشون في المدافن أو الحكر، ألم تحدّثهم زهرة؟ أظنها اقتربت منهم؟ أم أنها نسيت الماضي؟ وتحاول أن تغيّر جلدّها وفقاً للحاضر الذي تعيشه، استعرضوا مشاريع لخدمة البؤساء والمحتاجين، وكيف تبرّعوا بوقتهم وأفكارهم؟ ومنهم من تبرّع بأمواله، ليلة غريبة، أخيراً عرفته بأنّ السيّدة "هبة السّماء" معها قوم من خارج مصر، سيزورون أماكن متعدّدة وتريد حماية خاصّة بهم، ولكنّ ليست حراسة ظاهرة، وأفصحت أنّ تكون الحماية من بعيد لبعيد لا يشعرون بها، وهبته بطاقة شخصيّة جديدة باسم "راشد جميل السّروحي"، أحسّ بالضيق من الاسم، ولم يألّفه، لم يفصح عمّا يداخله من قرف من الاسم، حدّدت له المهام المكلف بها، وعليه أن يستعين بثلاثة أو أربعة مساعدين، ولا مانع من سيّارة خاصّة مؤجّرة بالمُدّة طوال تواجدهم، أخبرته بالمبلغ المتروك مع "الجزّار"، وعرف أنّه اقتطع منه فضحك، دسّت في يده أوراقاً نقدية، لم يتعوّدها من قبل، ولم تلمسها يداها، تنتمي لبلادٍ غير بلاده، حفّزته وأثارت همّته، وهي تقول له في أذنه علينا أن نعيش وقد جاءتنا الفرصة، اهتزّت رأسه موافقة على حديثها، عيناه تتأملها وأجزاء جسدها الظاهرة، وكأنّه لم يرها مسبّقاً، داعبته ذكرياتها بقوة، وتحركّ الحنين، ولكنّ التردّد كان مسيطراً عليه، مشاعر غريبة تقرب من فكرة اغتصابها غصباً عنها، ليلة هامت برأسه كلّ مراحل الجنون والشّبق الجنسيّ، لم يدرِ بنفسه إلاّ وهو يسحبها للخارج، ألقى بتعاليمه لسائق التاكسي فانطلق حتّى وصل للمبتغى، حديث يدور بالعيون فحسب، هبطا من السيّارة، وركبا درّاجته البخاريّة وانطلق كأيّامها السّالفة، في المدافن في مسكنه القديم وفوق رفات الأموات رقصة لا بد أن تتمّ، ولكنّ بالملابس الرّسميّة، لم يقبل شفتيها فحسب، كان عازماً أن يترك بصمة شفاهه فوق كلّ

أجزاء وتضاريس جسدها، استجابت لكل فعل يأتيه في دهشة مستحبة
مترخية متأوّهة، هل وداع وعبور على جسد الحبّ لمناهة جديدة، يمهر كل
مساحات الفضاء في جسدها بتوقيعه وكأنّه يراه للمرة الأولى، كما ذهبت
أصابعها تتحسّس آثار الجروح القديمة وأظافرها ترسم خطوطاً جديدة فوق
ظهره، ربّما سطحية، ولكنها تائهة نسوى في العشق، هل يتلاشيان؟ هل
يحاول كلُّ منهما أن يخفي نفسه داخل الآخر؟ نشيج داخليّ غير معلن يخضع
لمعزوفة واحدة يطلقها قائد فرقة العشق فوق رفات الأموات! كلُّ منهما
يشتهي، ويتشوّق أن يقول شيئاً، ولكن حديث الصّمت أقوى، يركضون
فوق مخدع قديم بال، تشاركهما زقزقة حوامله، وهي تفيض بالفرحة
والجنون، انهمر مطر الشوق، وكأنّ كلّ منهما يودّع تفاصيل الآخر، ولكن بلا
دموع للنّدم، ليلة كلّها الجنون والحبّ، ومزيد من الحزن حتّى فاقا من نومها
على صوت الأحزان القادمة مع جنازة وأصوات النّحيب، بسرعة ارتديا
ملابسهما وانطلقا مبتعدين.

obeikandi.com

الفصل التاسع

الغريب والتأهية

أغلبهنَّ نصف مصريّات، تعتبر "لولا" الوحيدة من بين المجموعة كلّها ذات الأصول المصريّة، لم يحصل أيُّ من والديها على جنسيّة أمريكيّة أو أوروبيّة وفق ما هو متّبع مع أثرياء اليوم، ذات عرق واحد مصريّ النّزعة بالنّسبة للطرفين أب وأمّ وجدّ وجدّة، مجموعتهنَّ واحدة من مجموعات متعدّدة، تزخر بها جامعات اليوم، يتحدّثون في وضوح، يدخّنون، ويجرّبون، وينفقون ببذخ بالغ، وحرّيّة في تناول أيّ شيء، ينتقلون بأحاديثهم من داخل أسوار الجامعة للحدائق للمقاهي للشواطئ، وكلّ شيء مباح.

وقف فصمتوا... في ملابسه غير التّقليديّة، وشعر رأسه الهائج، جرّب أحدهم أوتار العود، وبدأ في العزف، رفع يده، وانسابت موسيقى هادئة تواكب ما يليقه من أشعار... ما أجمل رجلك!... دوائر فخذيك مثل الحلبيّ!... ثدياك كعناقيد الكرم! لم تستطع أن تستوعب باقي أشعاره، فقد سرحتُ بفكرها بعيداً، ولم تقبل وتهوى مزيداً من الاستماع، اهتزّت الرُّؤوس طرباً، وأبدوا إعجابهم، وهام بدوره، فجلسوا وكان بينهم، وبدأ يقصّ عن أشعاره التي أخذ أغلبها من نشيد الإنشاد، وأعاد صياغتها من جديد، جعل الجمل قصيرة، لتساير سرعة العصر، دارت عيناه في الجموع حوله، وكأتمّها تبحث عن "لولا"، لم يتوجّه إليها بحديث مباشر، ولكن لم يرفع عينيه عنها،

بعد وقتٍ ليس بالقليل أصبحا بمفرديهما، تحدّث إليها، والصّمت يغمرها، وتكتفي بردود سريعة، لم يمضِ على تعارفهما أكثر من ساعةٍ واحدة، متقلّداً في عنقه مجموعة من القلائد والعقود الغريبة الأشكال والألوان، شرح لها أهميّة كلّ قلادة وإلام تشير وقوتها وقدرتها، تلك فرعونية المولد، وهذه إغريقية، وهذه من منابع الشّمس والمعرفة من آشور وبابل، سألها مباشرة عن رأيها في أشعاره، بلا تردّد، أجابته أنّها لم تستسغ الكلمات، وفيها خروج كثير، واصل حديثه عن نشيد الإنشاد، ووجوده في الكتاب المقدّس، وما لبث أن دار بحديثه عن الحرّيّة، وعنّها، اتّسعت دائرة الوصف والتّحليل، فخلط ومزج بين جمال الأمس واليوم، ومتعمّداً تسلّل إليها مدقّقاً وهائماً ومتفحّصاً، وكأنّه يقرأ ما كتب في بؤبؤ عينيها، حاول أن يلمس أنفها بأنامله، أو يمرّر أصابعه فوق شفّتيها، ابتسمت، وأبعدت يده، راح يصف العين... الشّعـر... الـيـديـن... الـوجـه... الفـم الرّـقـبـة، وهي صامتة، وفي ثقة زائدة طلب منها أن يرسم لها وشماً فوق ظهرها، وبدت ثقته أكثر عندما حدّد موضع الوشم نهاية الظّهر، وقبّل مفرق الفخذين، نهرته بشدّة، في صوتٍ خفيضٍ ولكنّ قدحت عيناها بشرر التّدّم والثّورة، كما الثّلج في هدوئه، وكأنّه قلب صفحة الحديث عن الوشم، طلب أن تترك له جسدها، ليرسم فوقه بالطّباشير الملوّنة معالم الحياة، مدّعياً أنّها نبع للحياة لم يكتشف بعد، وأنّها مازالت عذراء، فكّر الحرّيّة أم حرّيّة الفكر التي بموجبها يتجاسر الكلّ، فيطرقون كلّ الأبواب مفتوحة أو مغلقة ويدخلون بلا إذن، ممكّن أو غير ممكّن، حقّ أو بدون حقّ، حرّيّة وفوضى، فوضى تعبت بكلّ ملامح الجمال المستمدّ من عقب الدّين والتّاريخ، مستسلمة فهذه ملامح المدينة والرّقيّ، تأخذها الفكرة ومسماها، عادت إليها ذاتها وابتسمت، وردته وإنّ بدا ردها فيه عزوف وقبول بين تحلّف

ومدنيّة، كم تتمنى! ولكنّها مازالت تعشق الصّياغات القديمة، والتّراكيب المعشقة العاشقة تحت مسمّيات العادات والتّقاليد، من ينتصر؟ دعوات اللحظة أم نشوة التّمنّع، لا يهتمّ، فيواصل شرحه وكيفيّة الرّسم الذي تبدأ من أسفل الرّقبة حتّى رحم الحياة، تهترّ شفاهها، وربّما جسدها بالكامل، وتُجفل من الكلمات، فيفسرها بأنّها رعشة البداية وقطرة الغيث، فيستلّ سلاحه ويواصل، لماذا اختار الطّباشير الملوّن؟ لأنّه من السّهل محوه وإعادة صياغته من جديد بفرشاته أو بلسانه وربّما بأنامله، يسوق أسبابًا، وهي بركان خامد يكاد يشتعل وتُحاف صعود الحمم البركانيّة، تزّم شفيتها، وتُحيد بعينها، ولكنّها لا تستطيع أن تغلق أذنيها، تكاد الثّورة أن تعصف بها، ولو فعلت واستسلمت، ماذا يقولون عنها؟ بماذا يصفونها؟ يمكن أن يكونوا مشاركين، وهو بفكره الغازي صائدها ومخرجها من تحلّفها ورجعيّتها، قد تصبح ماثرا لسخريّتهم، قالت لها صديقتها المقرّبة إليها جدًّا مرّة "لا تشعر الأثى بجهاها وفتنتها، ويكتمل عقلها إلّا بفضّ عذريتها!!"، تائهة بين أفكارها وحياتها، بين أهلها وأفكار مقرّبيها، آه منك أيّها الحزن!! يا ألم النّفس!! يا حاجب الجمال عن العين والروح!!... آه منك أيّها الطّيف ذو الملامح السّوداء!! من يرفعك عني، ويبدّد كثافة طيفك حتّى تحترق عين الروح حجب الألم، وتهرول مصحوبة بدعوات الأمل، آه أيّتها النّفس المتناعة الأثمة المتمنيّة الخشوع في محراب العشق الأبديّ، والصّفاء الرّوحي، راضية مرضيّة بما قدر لها، وسابحة في ملكوت الخالق، مدركة قدرها وضالّة حجمها، متشبّثة بأغصان الرّحمة في ركوعها الخاشع المتضرّع! ساعتها تتقلّص الآلام والبراعم الصّغيرة لأزهار الخير، تتفتّح يوم تغدق الدّنيا من فيض حكمتها وجمالها،

فتراخى أغلال الحزن رويدًا رويدًا، وتنبثق عيون الأمل في رحمة المعزّ المذلّ...
هيّا للصلاة في خشوع.

هو راضٍ بما قسمه الله له، تأتيه كلمات الشيخ... اعلم أنّ أوّل عبادة الله عزّ وجل معرفته، وأصل معرفته توحيده، نظام توحيده نفي الصّفات عنه بالـ "كيف" والـ "حيث"، والـ "أين"، لا تدع أفكارك تتشعب، وتطرق الصّراعات أحلام عقلك، لا تسلخ عن واقعك، فلا تكره يومًا إنسانًا أيّا كان، لكنّه قدرك، فتمعنّ فيمن حولك... لقد كنت خادمًا لإخوتك، وحمدًا لله وشكرًا وضعوا أقدامهم على الطريق الصّحيح في الدّنيا، رغم كلّ ما يشعر به من أسي... أمّا أنا فنصيبي كان الفشل، إنّ أصعب القصص هو ما لا نرويه، ندور في فلك تلك القصص والحكايات التي تؤرّق نومنا، وتدمي حياتنا، لكننا لا نستطيع أن ننش بأظافرنا قلبها خوفًا من نزيّف الألم والدّكريات، نبتلعها، ونصوغ حكايات حولها، قد تقرب أو تبتعد، ولكنها محاولة فاشلة للنسيان، عندما تشتعل نيران الألم في الجسد وترتعش الأنامل قسرًا، وتهتزّ الأطراف خوفًا أو رعبًا وجنونًا، يتسارع نبض القلب، وتهول الدّماء في الأوردة والشرايين، فتكاد تنفجر، ساعتها تستعر النيران، وتجفّ مياه العين، ولا تنثال الدّموع، تصطك الأسنان، وكم يتمنّى الإنسان أيّا كان أن ينهش المهاجم الذي خطّ بيده خطوط الألم فوق أجزاء الجسد فيبحث عنه ولا يجده، وضع بصمته، وفرّ هاربًا، بين آلامه يحاول ألا يسجن نفسه فيها، هو معذب، لكنّه لا يتمنّى أن يحدّد إقامته في كهف الأحزان، يحبّ الحرّيّة، ولا يعيش الأسوار، وكأنّه مثل جذور الأشجار تنطلق بحرّيّة، الحرّيّة ليست في الهواء الطلق فحسب، فالسجن لا يقتل الحرّيّة، وعاشقها يلتمس طريقه في

ظلمات الليل، أو حتّى في باطن الأرض، يعلم أنّ بعضهم اتّخذ من تعذيب الجسد وشدّة الألم وسيلةً وسبباً لراحة الرّوح والنفس.

كانت رغبته في الأنثى تتحرّك بمجرد رؤيتها، كان يسرع بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، مجرد الاقتراب يلهب حواسّه، فيبعد، أمّا كونه يلامسها فمصيبة تخترق كيانه كلّها، ولا يتحكّم فيه، فيؤثر عدم ملامستها وفقاً لما يقتضيه الشرع، فهي من المحرّمات، قسراً عنه لا حكم لعقله في نومه، فيشرد بخياله ويداعب أمانيه، وقد تكتمل أو لا تكتمل، فيسرع للغسل من الجنابة، عندما قرأ الخطاب الذي وجده أسفل الباب، الخطاب مكتوب على جهاز الكمبيوتر، ومطبوع، مقدّمته تهاني وأمنيات له بالسعادة، وبلهجة تلمس فؤاده يتسرّب بما يريد أن يقوله، يعرفه بأنّه واقع في فحّ منصوب بدقّة بالغة، ف"الإنسانة" التي سيرتبط بها لا تستحقّه، يذهب في حديثه إلى أنّها في أيّامها الجامعيّة تزوّجت عرفياً، وسلوكياتها لا تعكس وضع أسرتها الطيّب، وكثير من حكايات عن تردّدها شبه اليومي للمدينة، تحت دعوى العمل وهي لا تعمل، عبارات قاسية عليه، وناصحة كما قال كاتبها، وتحت كلمة (الدين النّصيحة) سرد الكثير، الغد هو موعد الزّفاف، وسيتمّ في إطار عائليّ بسيط، كما اشترط ووافقوا، لم ينم ليلتها، وهو ليس خبيراً حتّى يكتشف الحقائق بسهولة، نعم، تعدّى الأربعين وصديقه المقرب إليه، كثيراً ما يقول له "أحمد ربّنا أنّ واحدة توافق تتزوّجك وأنت في هذا السنّ، وخاصّة أنّها بكر"، كلّ شيء يسير بسرعة، وبصورة غريبة، نعم، هي جميلة وجريئة منذ أنّ كانت أمامه تلميذة في المرحلة الثّانويّة، صغيرة... لماذا وافقوا عليه، والفرق العمريّ بينهما يقرب من عشرين عاماً، هلّ ما جاء في الخطاب حقيقيّ؟...

ماذا يفعل؟ هي زوجته وفق العقد الذي كتبه مأذون البلد منذ أسبوع مضى،
ما احتمال الكذب في الخطاب؟

كانت ليلة وزّعت فيها الابتسامات من ولكلّ الحاضرين، رغم ذهنه
الشّارد بيتسم ويشارك في الحديث، وكأنّ داخله يتمنّى الانتهاء من تلك
السّاعة، ينظر إليها وحياء غريب في عينيها، ويفسّر ذهنه بأنّه دلائل العهر
والفسق، يستغفر الله ويلقي باللوم على أفكاره السيّئة، ربّما شاخت
أحاسيسه، فلا يدرك المعنى في نظراتها، كأنّها تدعوه أن يأخذها بين ذراعيه
بين كلّ الحاضرين، لم يذكر يومًا أنّه كان عصبيّ المزاج، أو حادّ الطّباع، أين
منطقه؟ وأين عقله الذي يشاد به في حلّ المشكلات التي تعترضه؟ يعلم أنّ
كاتب الرّسالة يعرفه جيّدًا، ولكنّها جاءت بعد فوات الأوان، يا ترى كم
إنسانًا في البلد يعرف حكاية زوجته؟ كم منهم أصبح الأستاذ بالنّسبة له مثار
سخريته وحكاياته المتداولة؟

انصرف المهتّون، وانتهت مراسم الرّفاف، روائح ذكيّة ما بين بخور
وعطور وخلافه، بمفرديهما، ومائدة عامرة بأطعمة كثيرة متنوّعة أتت بها
أمّها، حياؤها يقول له عليك برفع الرّاية، هل يستطيع أن يصرخ ويسأل أيّ
راية وأيّ شرف؟! يحاول استبعاد ما جاء في الخطاب من ذهنه، لكنّ بلا
جدوى، يعلم أنّهم منتظرون الصّكّ الموقّع بدم ابنتهم، في انتظار ختم بحسن
سير وسلوك لصاحبة الصّون والعتاف دلالة على العفة والطّهارة التي تعيش
بها، كيف يكون هذا؟ ومن أين يأتي دمّ العفة؟ هو ليس خبيرًا ولا عارفًا، ولم
يتعرّض يومًا لعملية ممارسة جنسيّة حقيقيّة إلّا في النّوم وفي الخيال، ليقبل
عليها ويتأكّد، هلّ ما يبدو على وجهها خوفٌ وحياءٌ، أم تأكيد لانتصار
حقّقته وضحكّت على كلّ من يعرفونها، وأولهم بطبيعة الحال زوجها، هي

تعلم أنه تعدى الأربعين، ولا خبرة لديه، خلعت ثوبَ الحياء، واقتربت، فنفر بهدوءٍ، ضحكتُ وحرَّكتُ جسدها بجسده، وكأنَّها لا تقصد، فابتعد، بدا جليًّا لها أنه خائفٌ وكأنَّها تلمس له الأعذار، تخلع عنه ملابسه، يحاول التملُّص، ولكنه في النهاية يستسلم، بدأتُ في خلع ملابسه، وهي المرَّة الأولى في حياته التي يرى فيها تضاريس حقيقيَّة لأثني، ملابس شفافة ناعمة تبرز من خلالها معالم الجسد البلوريِّ بأطرافه المصقولة حديثًا، كم من أحلام باغته! وها هي الحقيقة مجسَّدة تفتح ذراعيها، وتناديه، مجرد رؤيته لأفلام عاديَّة كانت تثيره، وكان يعيش في أوام التمنيِّ، ماذا يحدث له الآن؟ هل يتعد تحت أيِّ ذريعة يطلقها، واتته النشوة، وهامت به اللحظة، ليفكَّ أسر سنوات عمره السَّابقة، فكَّر أن يلقي بكلِّ الأفكار بعيدًا، ويعيش اللحظة، طغت أمانيه، وبين ذراعيه... بعد تردُّد طال... همستُ بهمس عشق يفتَّت ذرَّات الصَّخر الصَّلب، تسرَّبتُ مياه في شقوق الأرض البور منذ زمان، فتحلَّلت، واقتربتُ، وتماسكتُ، كأنَّها مدرَّبة همسات وعيون... أسبلتُ أهدابها، وتراخت الأعضاء واستسلمتُ، وكأنَّه ذاهب في إغفاءة، وبين جذبه وتراخيها وآهات عشق، نسي كلَّ شيءٍ، واثارت نائرتَه حاول أن يكون هادئًا كما نصحه النَّاصحون، تحرَّكتُ كلُّ أعضائه ما ظهر منها وما بطن، وتسارعت نبضات القلب، وامتدَّت يده لتقطف ثمار العشق، وكأنَّه اختزل كلَّ حياته في تلك اللحظة، نرَّت أطرافه بعرقٍ خفيف لتخفِّف عنه وطأة الحمى التي أصابت أغلب جسده، وما همَّ إلا وتراخ سيطرَ عليه وخاصَّة على أعضائه الدَّاخليَّة، لحظات وتبدَّدت كلُّ الأمانى، حاول أن يعود ولكن دون جدوى، أحسَّ أنه يحننق، ولم يستطع أن يلج مفاتها، زفير وشهيق متتابع، وتراخي الأعضاء والاستسلام، يحاول... لا فائدة ترجى، وكأنَّه مسلوب

الإرادة، عرق غزير غطى جبهته، وأصاب جسده خمول غريب، كم يتمنى في هذه اللحظة إثبات رجولته فحسب!! تقبله، وتبتعد، وتطالبه بالهدوء، محاولات كثيرة كان نصيها الفشل، قدمت له الليمون المثلج، وهي تحاول أن تقول له "ليس بالضرورة الساعة أو اللحظة فالأيام قادمة"، كأنه يلمح في عينيها نظرة غريبة، وكأنها تستخف به، همساتها فيها دعوة يفسرها بأكثر من تفسير، وكثيراً ما تكون الأقرب إلى أن تلك دلائل فجرها، هو أصبح عاجزاً، فليصمت، ولا يتحدث فيما يثير ريبها في أقواله، ردود أفعال متباينة، ولكنها لا تتفجر من الشفاه، تحاول أن تخرجه بحديث عن أي شيء، لا يستطيع مجاراتها، حتى كان أذان الفجر، فأسرع وتطهر من جنابة بلا فعل حقيقي، وصلّى... كم كانت أمنيته في ليلة الرّفاف أن يدعو زوجته للصلاة! ولكنه أقام الصلاة بعيداً عنها في حجرة أخرى، فهل كان يخاف سخريتها منه؟! ثلاثة أيام متعاقبة وزيارات لا تنتهي، ونظرات أمها كأنها سياط تلهب فؤاده، حتى أختها الكبرى التي تقرب منه عمراً نظراتها تحمل الكثير من العتاب، أو كثير من السخرية، لا يدري، فأصابه صمت غريب، وكلما اجتمعوا استأذنهم في الانصراف، يذهب للدور العلوي، ومن بين كتبه الكثيرة يسحب كتاباً، فيقلب أوراقه، لا يستطيع القراءة، ولكن أفكاره معهم، فماذا يقولون؟ وماذا تقول زوجته عنه؟ هل يضحكون ويسخرون؟ هل يسترق السمع وليسمع ماذا يقولون عنه؟ يرفض... فهذا من المستحيلات فلم يفعلها في حياته، ما حدث حدث، وهي حقيقة لا تقبل الجدل، في اليوم الثالث وجد ثلاثتهم زوجته وأمها وأختها، ولكن زاد عليهم قابلة البلد التي يعرفها جيداً، بادرت السيدة بالسّلام، وأخذت تدعو له، وتذكره بأفعاله الطيبة، وتذكر أمه رحمها الله بالخير، ماذا يفعلون؟ أو ماذا يدبرون؟ لم يدر بخلده شيء محدد، نعم،

هناك شيء ما، ما هو؟ دخلوا جميعاً الحجره وأغلقوا الباب خلفهم، أسئلة بلا أجوبة تتوارد، ولكنّها غريبة عليه، هل يدقّ الباب ويسأل؟ أم يصمت ويتنظر؟! حاول أن يسبح مع ما يبثّه التلفزيون ولكن لم يستطع، صرخة وكأنّها مخرقة صادرة من الحجره، ماذا يفعل؟ همّ بأن يفتح الباب ويدرك أنّ هذا خطأ، بين تردده خرجت عليه أمّها ومن خلفها القابلة وفي يدها خرقة ملوّنة بالدم، لا إرادياً وبدون تفكير كسر حاجز الصّمت، ودفع الباب، ودخل، فوجد أمام عينيه أغرب مشهد، زوجته وآثار الدماء بين فخذيها ويبدو على وجهها شبه إعياء أو خوف، ماتت كلّ الكلمات، واستردّ وعيه وأختها تحدّثه بكلمات غريبة "الحمد لله... أحسن النّاس كانت هتاكل بوشنا عيش"، وكأنه لم يفهم ما تنطق به، قاموا بدوره، ورفعوا عنه عبء القيام بإثبات رجولته، ابتسامتهم واسعة، حتّى زوجته ما هي إلاّ دقائق وخرجت، وعلى وجهها أيضاً ابتسامه الرّضا، تمشي وتأرجح ذات اليمين وذات اليسار، وتفرج ساقها، وتنظر إليه وكأنّها تهنّئه، وما فارقت عيناها حتّى دخلت الحّمّام، وخلفها أمّها، بقايا العمليّة الجراحية من قطن أبيض وشاش ومشرط، وأغلبها ملوّث بالدم، يصرخ، وبماذا يفيد صراخه؟ هل يقوم بطردهم من منزله؟ وكما يقولون، ستصبح فضيحتهم بجلاجل، طالبتهم الأمّ بكلّ بجاجة أن يهب القابلة هديّتها، وكأنه لم يفهم، فطلبت منه أن يدفع لها، بدون تردّد امتدّت يده، وجاد عليها وبالزّياده، مرارة في حلقة، ومنظر لا يمكن أن يزيحه من ذاكرته، ألقي بنفسه فوق أحد المقاعد مستسلماً، تحدّثه أختها بأنّ العمليّة مستورة، ولا أحد يعلم شيئاً، يتمنى أن يسألها عمّا تعني بكلمة السّتر، هل أصبحت هناك أسرار؟ معروف عن قابله البلد أنّها تدخل كلّ البيوت، ومشهود لها بنقلها لكلّ الحكايات والأخبار، فهي ركنٌ أساسيٌّ في عمليّات

الختان للفتيات، واستقبال المواليد الجدد، يتندّر أهل البلد كلهم على أطفالهم عندما يكثرون من الكلام بأنّ مرجعيّة ذلك أنّنا هي من شدّته من بطن أمّه، فهي كثيرة الكلام وقليلة الصّمت، فصفة مكتسبة منها، لم يسألوه، أو يأخذوا رأيه فيما يفعلون، تردّد الأمّ كلماتها كصفعات فوق وجهه، وأنّ كلّ ما فعلوه خوفٌ عليه، يلعبها آلاف المرّات، طوال عمره يؤثر الوحدة، وقليلًا كانت أحاديثه مع السيّدات، لم يألف الجلوس، وتناول حياة الآخرين، وما يدور في حياتهم، ودائمًا يقول يكفيني ما أنا فيه، سحبوا أنفسهم ومضوا، وخرجت زوجته من حجرة النوم، وكأنّ شيئًا لم يكن، أضافت على وجهها مساحيق، ولوّنت شفاهها وخدودها، وابتسامة واسعة، ارتدت لباسًا شفافًا يظهر تقاطيع جسدها جيّدًا، هل يطالبها بتغيير ملابسها؟ أو يطلب منها أن تغسل وجهها مما لطّخت به، لا يطيق النّظر إليها، ولكنّها جلست بجواره، عيناه لا تقبل حتّى التوجّه إليها بنظراته، وكأنّه عاكف على التّفكير في شيء آخر، أخذوا الخرق الملوّثة بالدمّ معهم، وكأنّه يسأل نفسه هل سيرفعونها فوق ساري العلم دلالة على علوّ الشّأن وحسن السّير والسلوك؟ هل أخذوها وطافوا بها شوارع القرية كلّها؟ هذه عادة كانت قديمة وكانت موجودة في البلد، ويتذكّرها منذ طفولته، ولكنّها انتهت، لماذا يجيئونها من جديد؟ يعرف أنّ هذه الأسرة طيّبة، وأغلب أفرادها مشهود لهم بسلوكيّاتهم الرّاقية، ولهم نصيب كبير في العلم، أسئلة كثيرة تردّد بين خلايا عقله، ولكن لا يجد لها إجابات، هل يضع الضّجر بالخدر؟ أيّا كان نوع المخدّر، هل يستمر؟ إنّ لفرة محدودة، وتعود الذاكرة، وتتوالى الصّور والأحداث تبعًا، تؤرّق صاحبها، وتذهب بعقله، قالوا للمرأة أشدّ أنواع الخدر فخرها لذيذ رائع، وأيضا للحظات، فما بالك عندما تكون هي سببًا للضّجر؟ الخمر

والمسكنات والمخدرات هي محاولة فاشلة لاصطناع السعادة، ولكنها مؤقتة، يكاد يصرخ، ويتسرب إلى نفسه شعور غريب، آه لكل عاشقٍ في معشوقه خدر، وفي فراقه ضجر!!! أمّا الحبيب ﷺ فحبه سباحة في وادٍ وملكوتٍ آخر، نسمة صبح فوق قمم الزروع الخضراء قبيل الشروق، خدر محبب بلا عصيان، والسير على نهجه ونهج من وضع اليقين بين يديه فالق الإصباح سبحانه وتعالى، مسيرة خيرٍ وبرٍ، فلا خوف ولا ضجر، يحمد الله، ويشكر فضله، ويصلي العشاء، وبمفردهما ولكن ماتت دعوات الجسد بصورة غريبة، وكأنّ مركز الإثارة الجنسية في العقل قد توقّف عن إرسال إشارات إلى الأعضاء التناسلية، يحاول، ولكن بلا جدوى، لا جاذبية لها في عينيه ولا جسده يتمنى، وشعورٌ غريبٌ، عيناها سيات وحديثها دعوة ولكن لا ديب لنشوة في الأطراف أو الفؤاد، يستسلم، ولكنها لا تستسلم، هكذا أحزاننا تأتينا كبيرة كالمدّ فتجرّفنا في متاهات الألم، ثمّ جذر يسحب وتنسحب ويمسح كلّ ما كتب وصيغ فوق رمال القلب، هل ينسى؟ وهل تعود إليه حياته التي كانت بسيطة؟ لكنّ الذكريات تأتيه، فتسج من جديد حكايات فوق الرمال، فهل تقصّيها الموجات القادمة من مدّ وجذر؟ تجرّجه الأمواج.

حياته ومتعته الوحيدة في القراءة، يجلس إلى جهاز الكمبيوتر، ويدير الباحث ليقراً عن غشاء البكارة، يقرأ أنّ هناك أغشية للبكارة تباع في الأسواق، وتستطيع الأنثى تركيبها بنفسها، وأرخص الأنواع صيني الصّناعة، فهل وصل هذا لحدود قرّبتهم؟ الدّنيا كلّها وفق عالم الاتصالات الحديثة قرية صغيرة، غشاء صناعيّ به مادّة حمراء تشبه الدّم يسمونها مادّة " الهيماكروم"، نعم، سمع من قبل عمّا يعرف بترقيع غشاء البكارة، وهي عمليّة بسيطة لأيّ جراحٍ خبير، عند الاتصال الجنسي يحدث نزيف مشابه

تمامًا لعملية فضّ البكارة، لو كان طبيعيًا، هل يقبل أن يقوم بهذا العمل؟ عشرة أيام كاملة يجافيه النوم، ويستحثّ جسده أن تخرج منه شرارة الحياة، وكأنّها أخته تمامًا، ظنّها اقتنعت بأفكاره التي حاول أن يبثّها في عقلها، وأنّ عليها الانتظار.

الشيخ علوان مجرّد لقب فحسب، وأغلب البلد تعرف ذلك، مصدر كسبه الوحيد الكذب الذي يدّعيه، وتسخيره للجانّ في أعمال فكّ الأسحار والأعمال التي تصيب الإنسان أو الحيوان، كثيرون يدركون كذبه، ولا يؤمنون بأفعاله، ولكنّه اليوم في أرذل العمر، وليس له ولد أو بنت، مصدر رزقه في أكاذيب يردّها، وأوراق يكتبها، أحيانًا يهبونه قبل أن يتزوَّج أحدهم فيعمل له (تخويطة) تقيه من الأسحار والأعمال السُفليّة، أعلن جرس الباب عن ضيوف، كان بالباب أمّ زوجته وابنته، ولكنّ هذه المرّة معها الشيخ "علوان"، مجرّد أن فتح الباب دخلوا، والأمّ تدفع الشيخ أمامها، وكأنّهم يسرعون لأداء مهمّة سريعة، ما إن جلسوا، وقبل التّرحيب أخذ الشيخ يتمتم بعبارات مبهمّة، وينظر في نواح متفرّقة من الحجرّة التي يجلسون فيها، عقدت الدّهشة لسانه، وجاءت زوجته، فجلست بدورها تنفيذًا لتعليقات الشيخ، سأل الشيخ عمّا طلبه من الأمّ مسبقًا من قلم ملوؤ بمداد طاهر أحمر اللون، ومسك وزعفران، وماء ورد، لم ينسَ طبعًا زيت الزيتون، والعسل الأبيض، والحبّة السوداء، أخرجت الأمّ كلّ ما سأل عنه ووضعت أمامه، ضجر وألم غريب وشعور لم يحسّه من قبل، هل وصل بهم الفكر لهذه الدّرجة؟ هل أصبح إمّعة لا رأي له في بيته؟ هل هذا هو الزّواج؟ أليست للبيوت أسرار؟ أليس لكلّ منّا نوايا داخلية؟ ربّما تكون سيّئة، ويحاول إخفاءها عن أقرب المقربين إليه، وكثيرًا نشبّث بالأوهام، وأحيانًا

بالأكاذيب، نبتعد عن الحقيقة، وتزداد معاناتنا، لا يستمر في دهشته كثيرًا، وبدأ الشيخ يلقي أوامره تارة للآم أو الأخت، وفي النهاية زوجته، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وكبح جماح غضبه، تسارعت نبضات قلبه، وتزاحمت الأفكار، ولكن لم تأت الجرأة لفعل أو كلمة يلفظ بها، يمزج الشيخ الأشياء بعضها ببعض في إناء صغير، ويأتي بآخر، ويحدّد هذا الماء للشرب وخاصة قبل الصلاة، وهذا للاغتسال، وهذا المعجون الزيتي، فتدهن به الجهة والصدر، وأحيانًا العمود الفقري، في هدوء امتدّت يده، وسحب الشيخ من ياقة جلبابه، فقام من جلسته، سحبه، وعند الباب توقّف، وامتدّت يده لجيب جلبابه، ودسّ في يده مبلغًا من المال وشكره على أن يذهب مباشرة إلى بيته، عاد، وجمع كلّ ما كتب بالمداد الأحمر والسائل الممزوج أو المعجون، ولقّهم بعناية، وألقاهم من النّافذة للخارج، الدّهول يسيطر عليهم، فينظرون إلى بعضهم، ولا يجدون حديثًا، في اليوم التّالي مباشرة كانت في بيت أبيها، اتّخذ قراره، ولا عودة مطلقًا

ظهورٌ مباغت، وقف الشّخص أمام طريق السيّارة مباشرة رافعًا يديه لأعلى مطالبًا بالتوقّف، كانت المفاجأة لها، فتوقّفت مع صوتٍ لمكابح السيّارة، وقد تركت أثرًا ظاهرًا للعجلات فوق الأرضيّة الإسفلتيّة، تحت ضغطٍ قويٍّ ولا إراديٍّ للفرامل، وكأنّ قدمها ثبتت عليها، فلم تستطع رفعها من فوق الفرامل، الرّجل عيناها زائغة، وکلماته لاهثة، فتح الباب الأمامي مباشرة، ودلف مباشرة وألقى إليها تعاليمه بصورة شبه أمرّة... "من فضلك يا أخي بسرعة وراء هذا التّاكسي" تتابعت كلماته ما بين الأمر والترجّي، وعيناها مثبتة للأمام، ويطلبها بالإسراع متخوّفًا من ضياع التّاكسي في زحام

السَّيَّاراتِ وَالشَّوَارِعَ، يَتَحَدَّثُ وَقَلِيلًا مِنْ حَدِيثِهِ تَفْهَمُهُ، وَلَكِنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَدْرِكُهُ دَعَوَاتُهُ لَهَا بِالسَّرْعَةِ، اسْتَسَلِمْتُ لِأَوَامِرِهِ، وَأَسْرَعْتُ خَلْفَ التَّكَاسِي الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ، كَمَا تَتَمَنَّى أَنْ تَنْفَجِرَ ضَاحِكَةً لِدَعَوَاتِهِ لَهَا وَنَدَائِهِ لَهَا بِـ "يَا أُخِي"!!!... انْقَلَبْتُ إِلَى ذِكْرِ فِي لِحْظَةٍ وَغَلَبَ عَلَى الْغَرِيبِ دَعْوَتَهَا الذِّكْرِيَّةَ، أَعْطَتْ إِشَارَاتٍ مُتَابِعَةً لِلسَّيَّارَةِ الَّتِي تَتَعَقَّبُهَا بِالْأَضْوَاءِ، أَوْ بِالنَّفِيرِ الْمُتَقَطِّعِ، وَهُوَ مَا زَالَ يَسْتَحْتِجُّهَا كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ، أَدْرِكُ سَائِقَ التَّكَاسِي مَا تَعْنِيهِ رِسَائِلُهَا، فَأَبْطَأُ فِي سُرْعَتِهِ، وَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَتَعَدَّدَتْ وَوَقَفْتُ أَمَامَهُ، وَهَبَطَ الْغَرِيبُ وَاقْتَرَبَ مِنَ التَّكَاسِي، امْتَدَّتْ يَدُهُ، وَأَمْسَكَتْ بِظَرْفٍ كَبِيرٍ بَعْضَ الشَّيْءِ يَبْدُو مُتَخَمًّا بِالْأَوْرَاقِ، حَمْدَ اللَّهِ أَنَّ ظَرْفَهُ الَّذِي نَسِيَهُ فَوْقَ شَبَكَةِ السَّطْحِ لَمْ يَطْرُقَ فِي الْهُوَاءِ بِسَبَبِ سُرْعَةِ السَّيَّارَةِ، بَدَأَ التَّذَمُّرُ وَاضِحًا عَلَى وَجْهِ سَائِقِ التَّكَاسِي، وَوَصَلَتْ كَلِمَاتُهُ بِهَا تَحْمَلُ مِنْ لَعْنَاتِ أَذْنِيهِ، وَلَكِنَّهُ صَنَعَ ابْتِسَامَةً فَوْقَ شَفْتَيْهِ، وَكَرَّرَ اعْتِزَارَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، رَغْمَ قَامَتِهِ الرَّيَاضِيَّةِ وَعَيْنِيهِ اللَّتَيْنِ تَشْعَانِ بِوَمِيضِ الثَّقَّةِ، بَدَتْ كَلِمَاتُهُ الْمَعْتَذِرَةَ مَنْكَسِرَةً، وَكَأَنَّ فِيهَا تَذَلُّلاً فَشَجَّعَ ذَلِكَ السَّائِقَ عَلَى التَّمَادِي، ثَوْرَةٌ كَادَتْ تَكْسِرُ مَعَاقِلَ صِمْتِهِ، وَتَرْفَعُ عَنْ وَجْهِهِ ابْتِسَامَتَهُ، وَتَغْيِّرُ نَبْرَةَ صَوْتِهِ، فَاَنْطَلَقَ سَائِقُ التَّكَاسِي فِي طَرِيقِهِ، اعْتَدَلَ عَائِدًا لِصَاحِبِ السَّيَّارَةِ الْمُتَوَقِّفَةِ وَصَاحِبِ الْفَضْلِ الَّذِي تَوَقَّفَ بِسَيَّارَتِهِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشَاهِدَ مَلَامِحَ وَجْهِهِ جَيِّدًا، نَظْرًا لِأَنَّ الشَّمْسَ سَاقِطَةً عَلَى زَجَاجِ السَّيَّارَةِ الْأَمَامِيَّةِ، يَدْرِكُ جَيِّدًا ضَرُورَةَ الْعِزْتَارِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ، اقْتَرَبَ مِنْ بَابِ السَّيَّارَةِ الْأَمَامِيَّةِ، وَمَالَ بِجَذْعِهِ وَمَادًّا رَأْسَهُ لِلنَّافِذَةِ، نَظَرَ، وَكَأَنَّهُ أَعَادَ النَّظَرَ جَيِّدًا، وَرَبَّمَا فَرَكَ عَيْنَيْهِ، أَصْبَحَ ثَابِتًا كَتَمَثَالِ، ثَبِتَتْ نَظْرَاتُهُ فَوْقَ وَجْهِ "لَوْلَا"، ذَهَبَتْ كُلُّ الْكَلِمَاتِ، وَشَعَرَ أَنَّ رِذَاذًا خَفِيفًا مِنَ الْمَاءِ فَوْقَ جَبْهَتِهِ، أَعَادَ النَّظَرَ جَيِّدًا مُتَمَّلاً هَذَا الْوَجْهَ الصُّبُوحِ الرَّائِقِ بِلَا أَصْبَاغٍ نَهَائِيًّا، وَالشَّعْرَ الْمُسْتَرَسِلَ الْأَسْوَدَ

الملفوف في جدائل رقيقة في نهايته حول الوجه القمري، ابتسمت، فلم يدر كيف يكون الرّد؟ حاول، ولكن التصق لسانه بسقف حلقه، دقات قلبه متصاوية، وكأنّ العمر رجع به كثيرًا للخلف، استعاد رباط جأشه، ولكنّ مازال الصّمّت مسيطرًا عليه، جاءه أمرها بالركوب والعودة لمقعده، يحاول أن يشكرها، ولكن كلماته تخرج مبتورة بلا معنى، هي تعود وتطالبه بما قالت معللة ذلك بأنّ ترجعه لمكانه السّابق، هو حدّثها بصفة ذكوريّة كذكر، وهي أنثى فيها جمال يفوق ما تتخيّله عيناه سابقًا، فكيف الاعتذار؟ والآن تطلب منه الرّكوب، وابتسامتها فيأضة، بين عزوف وإقبال وتمنّع واعتذار وأسف بالغ في تقديمه، كانت ابتسامتها حافزًا ومشجّعًا كبيرًا له، جلس بجوارها في المقعد الأمامي، ولم يستطع مجرّد النّظر إليها، وكأنّها تبحث في خلايا عقلها عن كلمات تخرجه من هذا الصّمّت، كيف تخرجه من حيّز انفعالاته التي بدتّ جليّة فوق وجهه؟ أخيرًا سألته عمّا حدث، أخذ يسرد لها ما حدث، فبمجرّد خروجه من التّاكسي وقف بجوار الباب، امتدّت يده لتخرج نقوده من جيبه واضعًا الظّرف بأوراقه الخاصّة جدًّا فوق الشّبكة العلويّة للسيّارة وحقيبتيه بجوار قدمه، تحرّكت السيّارة، وظرفه فوقها فلم يدرك ماذا يفعل؟ دفع بالحقيبة بما تحويه من ملابس لأحد الواقفين وكان ما حدث، لم تصمّت، وابتسمت قائلة:

— أنا... أنا... تقولي لو سمحت يا أخ!!!

تلعثم في الرّد، وحتىّ ابتسامتها الفيّاضة بالمرح لم تفلح، فعادت...

— أنت بتشتغل إيه؟

— مدرّس...

— طبعًا دماغك في الدّروس الخاصيّة والمجموعات...

— عمري... مقاطعة له...

— يا سيدي كلّه يقول كده... عموماً أنا مش بشتغل في الضرائب، وكم إن عمري ما حسدت حد... وبضحكة ممزوجة بنظرة مشجعة... المهم أنت شاعر بإيه؟

— رحم الله نجيب الرّيحاني وفيلم غزل البنات.

— سيدي يا سيدي... أعتبر دا غزل؟

— أنا مبسوط... ويمكن تعتبرها سعادة معجونة بألم.

— الأستاذ فليسوف.

— ياريت ما تكون تريقة.

— من أولها سحبت في العالي... ما معنى سعادة معجونة بألم؟ عاده تريته ووقاره المعتاد متحدثاً.

— الألم فكرة رائعة تتلامس مع الإنسان في مختلف المجتمعات، فمثلاً مفهوم الألم في المسيحية... كان الصليب رمز الألم والمعاناة... والصليب هو علاقة للحب الذي غلب الموت واستهان بالألم... فالألم هبة روحية، مجرد قياس للمعنى وتعريف للسعادة المؤلمة، وأكرّر أسفي واعتذاري عمّا سببته لك... شكراً لك لقد وصلت، وها هو الرجل كما تركته واقفاً ينتظرنى وبيده حقيبتى.

— هل تعرف هذا الرجل؟

— أول مرة أتأكد من شكله... مبتسماً... عرفته من حقيبتى، همّ بالمضي

وبسرعة سحبت الظرف من يده قائلة:

— هات الشنطة وتعالى.

— ليه؟

— فيه حساب لازم تدفعه.

— كم؟

— الحسابات ليست بسهولة... وليست حسابات نقدية فقط... لقد... لم تجد ما تقوله سوى... أنا حاسّة إن خلفي انقطع، وطبعًا لو اتجوزت... تحدّث بابتسامه:

— العملية باين فيها طمع...

— بسرعة... هاتِ شنتتك.

انطلق صوب الرّجل المنتظر، وشدّ على يديه شاكراً وعاذ، ومازال واقفاً خارج السيّارة منحنيًا، مازال التّرّدُّ بادياً في ملامحه، وكانت نظراتها آمرة له وباعثة في صدره الطّمأنينة والموافقة، واستطرد:

— لك كلّ شكري وتقديري وامتناي... وعمومًا لو بإيدي كنت ميلت، وبست إيدك "ضاحكًا" المصيبة إني فلاح، ومن بلاد الصّعيد، ولا أجيد لثم الأيدي... جاءه أمرها بالركوب مع ابتسامتها مشجّعًا، فركب السيّارة وتحركت، وداخله يموج طربًا، ولكن... قالت:

— تقبيل اليد رمز عبودية أم رمز حبّ؟!

— الفراعنة رسموا القبلات على جدران المعابد... كافأت "كليوباترا" جنودها بقبلة، وفي المسيحية يقول القديس بولس "ليسلم بعضهم على بعض بقبلة مقدّسة".

— هذا رمز حبّ.

— أحيانًا تكون بعيدًا عن الحبّ نهائيًا... فقد كانت قبلة يهوذا للمسيح ليدلّ الرومان عليه، فأصبحت رمزًا للخيانة.

حاول أن يستأذنها، وهناك شيءٌ محبَّبٌ غريب يدفعه، بل يطلب منه التريث وأن يستسلم لمطلبها، ويجلس معها أطول وقت ممكن، مشهود له بين الزملاء والأصدقاء المعدودين بأنه متحدثٌ بارع وقاصٌّ يشاد بحكاياته رغم عاداته المنطوية غالبًا، لا يفكر كثيرًا في الولوج لمداخل حكاياته، وحتى لو حوت الفواجع، ففيها غيث وودق كالضباب الأسود الذي يتفجّر عن ماءٍ يشفي غليل الأرض العطشى، أحيانًا يكون كفيضان لا يجده سدٌّ أو مانع، يحب أحيانًا الاسترسال في الحكايات والقصص، كم يتمنى أن تكون هذه اللحظة امتدادًا لحكاويه وتمتدّ وتطول! ولكن كلماته تخذله، وأفكاره لا تأتيه بجديد، أصبح وكأنه يستجدي قريحته أن تجود ببعض من حكاياته، سألته من جديد عن وجهته، بلا تردّد أجاها، وكأنّ كلماته ساخرة مع ابتسامة، ضاربًا كفًا بكفٍّ وكأنه ينفض ما علق بهما من تراب أو غبار، ولسان حاله يقول:

— كنت في السفارة.

— مسافر.

— تمنيت السفر.

— ألا تعمل مدرّسًا؟... وتكسّب الكثير، أم أنّ المكسب أكثر في الخارج؟

— حمدًا لله رفضوا، وقالوا تجاوزت السنّ القانوني.

— متزوج.

— ولي ثلاثة من الأبناء... الأوّل طيب والثاني في نهائي هندسة والثالثة

تزوجت في العام قبل الماضي.

ظهر على وجهها علامات الاستغراب، تطلّعت إليه بريبة وشكٍّ، ولكنّه

شكٌّ لم يطل مداه، فأفصح، عرّفها بأنهم إخوته، وأنّه كان مسؤولًا عنهم بعد

موت والديه، كيف كان مهمومًا بهم أكثر من نفسه حتى تجاوز السنّ القانوني في كلّ شيء... واستطرد مكملاً:

— كنت أفكّر في الهروب.

— تهرب؟!!!

— كانت أمنيّة أبدأ حياة جديدة.

— البلد كلّها بتصرخ والنّاس فاض بيها... وثورة قريبة... ضحك قائلاً:

— سيّدي الفاضلة... في لغة السّياسة الأكاذيب تبدو كالحقائق... فالقتل

تصرّف أخلاقيّ سامي... انطلق في كلماته، وهو ينظر بعيداً، فلم يشعر بأنّها

أوقفت السيّارة، فواصل حديثه... الظلم صفة إنسانيّة بحثة، حتى الحيوان لا

يعرف الظلم، فالحيوان الذي يفترس فريسته تدفعه الغريزة، وليس الظلم،

ويوم يشتدّ الظلم فإنّ المظلوم يتمنّى الموت، أمّا الظالم فيخاف، كثيرون غيروا

وجه التّاريخ فعندما أظهرت هند بنت عتبة عن وجه الخليفة معاوية بن أبي

سفيان وهو طفل في أثناء طوافها حول الكعبة للعرّاف، انتفض وهرب

مسرّعاً قائلاً "إنّه لرجل سيغيّر مسار الزّمن"، فتورات العالم الكثيرة المتنوّعة

من بلشفيّة، لفرنسيّة لأمريكيّة، لبرتغاليّة، حتى للشكالي ثورة كما في

الأرجنتين، آه، ولكن من يصوغ كلمات الثّوار... قالوا... حرّيّة وإخاء

ومساواة... يضحك بشدّة، ويتأوّه في نهاية ضحكته... في النّهاية أرجعوا كلّ

الثّورات لأفكار الماسونيّة أصحاب فكرة مهندس الكون الأعظم، البناءون

العظماء، وأفكار اليهوديّة بلباس الصّهيونيّة تلبس رداء التّقوى ورداء الجمال

والحبّ لكلّ الإنسانيّة... نسي نفسه فلم يدرك أين هو؟ كان وكأنّه يحدث

نفسه، ويقرأ في كتاب مسطور في زجاج السيّارة الأمامي...

توقّف، ونظر إليها، وجدها تنظر إليه، ووميض غريب في عينيها، أعلن
عن أسفه مجدّداً، ولم يكمل عبارات السّلام النّهائيّة، وهمّ بالنّزول، قالت:

— أنتَ عارف أنتَ فين؟

— اللي يسأل ما يتوهشي.

خرج من السيّارة حاملاً حقيبتَه في يده بعد أن أودع داخلها الظرف
الخاصّ بأوراقه الشّخصيّة، ووقف يتأمّل النّيل، ووقفت بجانبه، سألتَه عن
سبب خروجه من السيّارة، فعلّل ذلك بأنّه سيمضي في طريقه، أخذتْ تسوق
أسباباً، ولماذا لا يبدأ حياة جديدة بالقاهرة؟ فقال لها بأنّه لا يشعر بالرّاحة
التّامة، وكثيراً لا يستطيع أن يعيش فيها أكثر من أسبوع فحسب، وأنّه يشعر
بالضّيق، بل يصل الأمر به لشعور بالاختناق، حاول أن يقدّم تبريرات
لمشاعره، ولكنّها في النّهاية أيّدت كلامه من الزّحام والعوادم، وراحت تعدّد
الأسباب، ولكنّها أخذتْ تعدّد له أماكن بجوار القاهرة تتمتع بالهدوء
والجمال، وبنيت وفق قواعد خاصّة جدّاً، وتعتبر منتجعاتٍ سياحيّة، غرق في
الضحك، وكأنّها أدركتْ إجابته، فعلّقت بأنّها تعلم أنّ أسعار الشّقق
والفيلاّت باهظة، ولا يقدر عليها سوى أصحاب رُؤوس الأموال الأثرياء،
وعادتْ تؤكّد أنّ هناك مساكن ومبانٍ في بعض هذه المدن بأسعار في متناول
الجميع، اهتزّت رأسه موافقة على حديثها، لم يفصح عن حقيقة ما يعتلّ
داخله من ألم وأماني الهروب من المكان الذي يعيش فيه، هناك عدم قناعة بما
يدور حوله، خرج من صمته قائلاً: "كلّنا نشعر بالاختناق... علينا
بالهروب"، وما لبث أن غرق في الضّحك، وهي تنظر إليه، تنتظر ليعرب عن
السّبب في ضحكاته فأكمل قائلاً: "شعر بأنّه ضيف غير مرغوب فيه، فقال
للمضيف أشعر أنّ سقف الحجرة سيقع... فأجابه... يا رجل حرام عليك،

ألا تعلم أن كلَّ موجود يسبِّح لله؟... فسقف الحجرة يسبِّح للمعبود، فقال الضَّيف... أنا خائفٌ أن يزداد الخشوع بالسَّقْف فيسجد ويركع!!!... ضحكا، ضحكاتها هادئةٌ كنسيم قبيل الشروق بين المزارع.

— اسمك إيه؟

— حمدي عبد الوارث.

— شايف... بلدنا حلوة... حلوة يا بلدي... قالتها منعمة، فابتسم مردِّداً.

— وهو في السَّجن استضافته المذيعَة الزَّائرة للسَّجن في حوار تليفزيوني،

وفي النَّهاية سألته تحبَّ تسمع إيه؟... أغمض عينيه، وعَضَّ شفتيه مغنياً...

خلوة يا بلدي... خلوة يا بلدي... خلوة يا أهلي يا ناسي... يا حضرة الضَّابط خلوة لله.

ابتسمت، وذهبت ابتسامتها سريعاً، وشعر بأنه أخطأ في حكايته، وها هو

مردودها يظهر جلياً فوق وجهها... فأكمل حديثه...

عموماً أنا طول عُمرِي أخاف زلَّةَ لِسَانِي... ساحيني، وأتركك في رعاية

الله، نظرتُ إليه، وقالت في تحدٍّ غريب:

— مطلوبٌ منك أن تسمع كلامي... بدتُ علاماتُ التَّعَجُّبِ باديةً على

وجهه.

— نعم...!!!

— أنا ممكن أصرخ وألمَّ عليك أمة لا إله إلا الله...

— والسَّبب... وليه؟

— تمثني بمزاجي... ابتسامتها الجميلة شجَّعته في الاسترسال مبتسماً...

— تعرفني أنا لو اتجوّزت يوم ما فكَّرت في الجواز كان عندي بنت في سنِّك

وأكبر.

— أنا قرّرت، وأنتَ حرّ... اركبِ العربيّة... تحرّك من مكانه، وجلس على مقعدِ رُخاميّ، وولّى نظره صوبَ النّيل، اقتربتُ منه، وجلستُ بجواره، وأكملتُ...

أنتَ هارب... إيه سبب هروبك؟

لم يدرِ بنفسه، فانساق يشرح لها عن حياته، وكيف كانت سعادته مع كلّ نجاحٍ يحقّقه إخوته؟ لم أهتمّ في حياتي إلّا بمستقبلٍ إخواني، أصبحت متيماً بالقراءة وسبحت في دنيا العارفين والسّالّكين، فقرأت وقرأت، وذهب العمر، ولم أدري أنّ عجلة الزّمن تدور، لمحت في عينيه دمعاً، لم تخرج حيزيّ الظّهور، وكأنّ عينيه ابتلعتها، وحاول أن يداري ما كاد أن يظهر، حكى عن أخيه الأصغر الذي أسلم مقود فكره للمغالين في الدّين، وكيف يستبيح الحقّ لنفسه، وصحبته في كلّ شيء معلّلاً بأنّهم هم فقط العارفون، ودونهم جهلة وغوغاء، وكأنّه يحدّث نفسه كثيراً، اقتنع بوجهات نظرهم، فكثيراً تأمل النّاس حوله، وكيف سارت حياتهم فقد أضحى الفساد ضارباً في مختلف الأماكن بجذور لا يعلم أحدٌ إلّا الله كيف نجتّتها؟! فالرشوة والمحسوبيّة والأطماع في مزيد من الثروة أصبحت أكثر ما يشغل النّاس، استسلم النّاس لأفكار استفزازيّة، وسلع تعرض، ومبالغ تدفع تفوق خيالات شباب في مستهلّ حياتهم، أجهزة إعلاميّة تصوغ العقول بأفكارٍ غريبة فمن حقّ الشّباب الهروب إلى معين يستقون منه رحيق فكرٍ حقيقيّ، وأين الطّريق؟ الطّريق الوحيد معروف، وهو الطّريق إلى الله، المصيبة أن هناك من نصبوا أنفسهم دعاة لله، وفي نفوسهم نشوى وتطلّع لكرسي السّلطة، من يبتّون أفكاراً في عقولٍ بكر لم تتعود بعد المداورة، لم يكن مستسلماً لرواهم، وكثيراً ما جابههم بفكرهم، استطاعوا أن يكسبوا أخاه الأصغر لصفّهم، وظنّها مجرد

تطلّعات، وأفكار ثوريّة متأجّجة في نفوس الشّباب وقتياً وتزول، لم يدرِ نفسه وهو يقصّ عليها معاناته في محيط بلدهم الصّغير، وكيف تحوّلت المناقشات إلى صراع وتوتر غريب؟ اتهموه باتهاماتٍ غريبة، أقلّها أنّه ينتمي للشّيعة، وكيف قابل اتّهاماتهم بابتسامه؟ وكيف أقسم لهم بأنّه عاشق لآل البيت؟ لم يتبرّأ من محبّة في قلبه، وكيف استند في حبه؟ وسرد أقاصيص، وحكايات خاصّة بالشيخين - رضي الله عنهما - وأمّهات المؤمنين، وخاصّة السيّدّة عائشة - رضي الله عنها - وكثيراً يتذكّر حديث رسول الله ﷺ عنها، وهو يقول للمؤمنين أن يأخذوا نصف دينهم منها، لم تشفع له كلماته الصّادقة، الغريب موقف أخيه الأصغر منه، ففي حواراته معه، وكأنّه مصدّق ما تناولوه به، لم يهتم كثيراً، وحاول أن يصحّح بعض الأفكار الخاطئة التي يطلقها الفتى دون جدوى، لأوّل مرّة في حياته يثور عليه، كان صوته عاليّاً، وأخذ الفتى الحياء فخرج يومها، ولم يعد للمنزل قرابة شهر، كم حزّ في نفسه ألاّ يتذكّر أخوه ما فعله، وكيف كان خادماً لمتطلّباتهم جميعاً؟ وبذكر الله تطمئنّ قلوب البشر وبهاء الوضوء تنقشع آثار الغبار، وبالسّجود والرّكوع يذهب الحزن، وتنفرج القلوب في رضا وسكينة، استمعت له، وأنصتت، وتوالى الكلمات منها، وكأنّها تؤازره وتقويه، يضحك، وينظر إليها، وكأنّه يعرفها من أمد طال، يعود ويقسم لها بالله بأنّه لم يشعر بضيق من أيّ فعل قام به، وأنّه راضٍ عن حياته، تستفرّزه قائلة:

— فيم هروبك إذن...؟ لا يستطيع أن يقصّ كلّ الحقيقة، فقال:

— ابن عمّي يعتبر توأمًا لأخي، لم يفترقا إلّا قليلاً، كلاهما أطلق لحيته، وصار شيخًا مهندسًا، لا أدري كيف تتمّ عمليّات غسيل المتخّ هذه؟ لم يرتكبا معصية وكلاهما صالح في فعله، ولكنّها استغنيا عن العقل والفكر

نهائياً، حضر ابن عمّنا ومعه أخي طالباً يد أختي الصّغرى، كانت فرحتي
 كبيرة، ويعلم الله أنّني بكيتُ وأنا بمفردي، وأحسست بأنني وفيت بالوعد،
 أعلم بأنّه سيّتقي الله فيها وسيكرمها فهذا مؤكّد، لم يتبقّ سوى شيء واحد هو
 رأيها، فأفصحت بأنني يجب أن أرجع إليها، وكانت مفاجأة غريبة لي،
 فكلاهما رفض أن يؤخذ رأيها، وأضافا كلمات غريبة بعيدة تماماً عن الدّين،
 فيها عنجهية وقبليّة غير محبّبة يرفضها الدّين عموماً، سألتها عن سندهما في
 قولهما، فراوغا كثيراً، صمّمت على رؤيتي وأنّ الأمر بيدها، ولا رجوع في هذا
 القرار، وهذا ما يفرضه الدّين والشّريعة، عندما انفردت بها كانت مفاجأة
 غريبة، وسألتها، انخرطت في بكاء طويل، أخذتها بين ذراعي، وواسيتها
 وأخرجتها مما هي فيه، هدأت وأخذت تسرد على أذني ما أمرها به أخوها،
 واستغربت من إجباره إيّاهما، حاولت أن أكون أكثر هدوءاً، واستندت في
 أقاصيصي وحكاياتي على الشّريعة، وأهميّة الرّأي للفتاة، وأقسمت أمامها بأنّه
 لا توجد قوّة في الأرض تجبرها على قبوله، وهذا حقّها، ارتمت في أحضاني،
 وذهبت في بكاء، وبين دموعها قصّت عليّ عن ارتباطها بزميل لها، تذكّرت
 نفسي وأمنيّاتي أن أرتبط بـ "إنسانة" بادلتني الحبّ، وحالت ظروف العائليّة
 دون تحقيق الأمنيّة، وكانّ دموعي كانت على حياتي السّابقة، فاستجبت
 لطلبها، وطلبتُ منها أن يسرع زميلها بالحضور، انقلبت العائلة كلّها ضدّي،
 ولكنني لم أستسلم، قالوا كثيراً عن حقّ ابن العمّ في الزّواج بابنة عمّه، وهو
 أولى بها، ضحك... لم تسأله عن سبب الضّحك بهذه الصّورة، وبعد أن نظر
 إليها، ومازالت ابتسامته فوق وجهه... في قديم الزّمان وسالف العصر
 والأوان، وفي أقاصيص عن عائلتنا الميمونة صاحبة الأفكار الغابرة في الأيّام
 السّالفة، سافر جدّنا العمدة في زيارة لبيت الله الحرام حاجّاً وكانت الأسفار

فوق ظهور الجمال، وتستغرق الرحلة أيّامًا بل شهرًا، وتقريبًا قالوا ثلاثة أشهر، وتقدّم لابنة من بنات العائلة فتى مشهود له ولأسرته بالأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة، فوافق أبوها على الفور، وتمّت مراسم الخطبة المتعارف عليها وقراءة الفاتحة وتحديد المهر، ودفعه يومها الرّجل، واستعدت كلُّ من الأسرتين للفرح القادم، بعد موسم جني القطن كالمعتاد، لك أن تعلمي أنّ هذا قديمًا عندما كان القطن المصريّ يشاد به، وبمنسوجاته على مستوى العالم أجمع، أمّا اليوم فلا حرج لا قطن، ولا منسوجات، فكلّها أو أغلبها مستوردة، وخاصّة من الصّين، المهمّ، وبعيدًا عن التفاصيل المملّة والخروج غير المستباح، المصيبة البنت احلّوت في نظر ابن عمّها، وكانت قبل كده قدّام عينيه في الرّايحة والجاية، حلف الواد براس أبوه ليتزوّجها، المهمّ عندما حضر جدّنا المغفور له من الحجّ، وبعد ثلاث ليالٍ من الأفراح والولائم، اقترب الفتى من قدم جدّنا العمدة، مجرّد معلومة، فوق الدّكّة التي يجلس عليها جدّنا العمدة لا يجلس بجواره أحد، ومَن يريد الحديث إليه يقترب، ويجلس قريبًا من قدميه على الأرض، وهكذا فعل الفتى، بكى الفتى وقصّ عن أمّيته في ابنة عمّه التي قرئت الفاتحة عليها، مسح الجدّ على رأسه، وسكت، وبعدها مباشرة استدعى والد الفتاة وبعضًا من الكبار، طالب أو قل أمر أن تفسخ الخطبة، ويرد المهر لصاحبه، والفتاة لابن عمّها، اعترض والد الفتاة، ولكنّ اعتراضه لم يدم كثيرًا، فقد وافق مجلس أمن العائلة، ولا رجوع في قرارات الجدّ، لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، وإمعانًا في الاستعلاء على العريس، وعلى تجرؤ تلك الأسرة البسيطة أن تتناول وتتزوّج فتاة من عائلتنا صاحبة المقام الرّفيع، أمر يومها جدّنا أن يرد المهر لصاحبه، ولكن كيف يردّ؟ وبصورة يعلمها كلُّ أهل البلد والبلاد المجاورة، لا تتدكّري

كانت قديمًا عملة معدنية قيمتها خمسة مليمات مخرومة في الوسط، كان المهبر المدفوع يومها عشرين جنيهًا، وعليك أن تتخيلي جبروت جدنا العمدة، أكرم الله مثواه، أمر أن يتم تحويل مبلغ العشرين جنيهًا لعملات من ذات الخمسة مليمات، تخيلي الجنيه الواحد مئة قرش والقرش عشرة مليمات، يعني بعملية حسابية بسيطة أربعة آلاف قطعة معدنية، أمرهم بسلك طويل وعلق كل القطع المعدنية في السلك، وإمعانًا في استظهار القوة، طلب أن يعلق السلك بما يحتويه من مال فوق باب مزين البلد، الحكمة من ذلك أن يسأل الناس عن هذا المبلغ المعلق على باب المزين، ويعرفون الحكاية، وأن تصل الحكاية لكل البلد والبلاد المجاورة أن بنات عائلتنا، ذوات الشرف الرفيع لا يتزوجن بعيدًا عن العائلة، مثال نابض بكل معاني العنجهية والقبلية، ومزیدًا في الفخر الكاذب ألا يستلم أهل العريس المبلغ إلا بعد شهر كامل من تعليقه... وذهب يضحك بصورة غريبة، يبدو أنه ضحك بطعم البكاء، وعاد... لم يتغير الحال كثيرًا، أهلنا يتفاخرون بتلك الحكاية حتى يومنا هذا، أخي الشيخ المهندس في القرن الحادي والعشرين، وبعد كل ما وصلت إليه البشرية، يعود بالتاريخ للخلف، لينسج خطوط حكايات عفا عليها الزمن، يوم قصوا عليّ الحكاية، وأعادوها أكثر من مرة هاجمتهم جميعًا، وما كان منهم إلا وصفي بكل ما هو بعيد عني، انتصرت، وأعلنت انتصاري بزواج أختي بمن تحب وترید، وتحملت تبعات كل ما حدث، وقاطعني أغلب أهلي... لم أهتم بما يُقال، وكان أهلي لا يعلمون ما قمت به تجاه إخوتي، لم يكلف أحد منهم يومًا مجرد السؤال واليوم يريدون التّحكّم، أكثر ما أصابني بالألم أخي الأصغر وموقفه، صمت... لم يكمل باقي الحكاية وغضبًا عنه، هبطت فوق وجتتيه دمعتان، حاول أن يثدها فلم تفلح محاولته، اكتفى بمسح خديه بيديه، وصنع

ابتسامه، وكأنّها تسخر من كلّ الحياة، ونظر بعيداً، تتمنّى أن تتفاعل معه، ولكن كيف تواسيه؟ تحدّثه وتشجّعهُ أن يبدأ من جديد، وأنّه مازال في شبابه، يتسم لها، ويدرك جيّداً مشاركتها وتفاعلها مع حكايته، يحاول أن يستردّ بشاشته المعهودة، فيحدّثها... وما هو مطلوب من الإنسان ألا ينسى أبداً فضل الله عليه، وأن يجعل من فرحه شكراً، ومن حزنه صبراً، في بلدنا تأكل النساء الطّين، وخاصّة الحوامل، فكّرت كثيراً في هذا الأمر، ولم أصل إلى نتيجة، وعندما سألت جدّتي العجوز، قالت وبثقة غريبة، وكأنّها متأكّدة بنسبة عالية، الطّين أساس البشر، والله خلق الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه، وقالوا: الطين يساعد على خلق وتكوين الجنين للحامل، أمام إصرار الفتى على شرائها التّرمس ونظراته لهما... "ربّنا يخلّي لك الهانم يا باشا" ينظران لبعضهما، وبتسّمان وكأنّه يسألها هل توافقين؟ هزّت رأسها، فطلب المزيد، ولم يكتفِ بالتّرمس فحسب، اشترى التّرمس وزجاجتين من المياه الغازية، بين مضغ حبّات التّرمس، ورشف جرعات من المياه المعدنية، تحدّثت وكأنّها تقول إنّها المرّة الأولى التي ترى فيها جمال النّيل، رغم أنّها تمرّ عليه يومياً، ولا تعيره اهتماماً، يذكّرها بأنّ النّيل معبود المصريين القدماء، وأطلقوا عليه لقب "حاي"، وصوّروه كأنّثى ثديها... لم يكمل عبارته، فقد منعه الحياء أن يقول ثديها مملوء بالخير عارياً، وتمتم بعبارة... "لا تلوّث ماء النّيل... ولا تبني بيتك على أرض زراعيّة" واستطرد قائلاً إنّ هذه أحد النّصوص المقدّسة للمصريين القدماء، فأين نحن منها اليوم؟ تواصل غريب، واستعداد يدفعه أن يجلس معها طوال يومه، أمّا هي فكانت تفضحها عيناها، وهي تنظر إليه فتحاول أن تبعد بهما، وهي ابنة الجامعة الأمريكيّة،

والأسرة ذات المكانة الرَّاقية، والمجاهرون بلا خوف بما يعتلّ في نفوسهم بلا مداورة، وهي تنظر لصفحة النَّيل.

— أنا نائرة على كلِّ ما حولي... أحسَّ بأنني بندقيّة محشوّة بالرّصاص، ولا يتبقّى سوى الضَّغط على الزّناد، أنا أبحث عن العدل من فوّهة بندقيّة، لا يخيفني سوى لحظة إطلاق رصاصاتي، فيمكنها أن تصيب مظلوماً...
تصمت، وتدور في رأسه كلماتها الغريبة على شكلها وملبسها وحديثها السّالف، إنّه يشاهد التّلفاز، ويرى كيف تفكّر فتيات هذه الأيام، هل هذه الفتاة نموذج جديد لم يشاهده من قبل، ولم يتعرّف على ما تخفيه ملامحها، يستعيد بالله، وهو يدرك تماماً أنّ دنياه لم يدخلها من قبل شبيهة لها، فحدوده من القرية للمدينة القريبة، وهي مدينة في صعيد مصر فأين هي من مدينة كالقاهرة!! معروف أنّه كلّما زاد علم الإنسان زاد همّه، وهي نموذج جديد، شكاوى كلّ شباب الجيل أو أغلبهم، تتلخّص فيما يعانون من فقر والظُّروف المعيشيّة الصّعبة، ومتطلّبات الحياة، واستفزاز القلّة المتحكّمة في ثروة البلد، هي تقود سيّارة حديثة جدّاً، ومؤكّد تمتلكها، نعم... يبدو على وجهها حزن وألم، فهل فقدت حبيباً أو قريباً؟ ربّما خان حبّها من وثقت به، غريب جدّاً حزنها، وعندما تواصل حديثها، فتصف مشاعرها، وتقول إنّها تشعر أنّها شجرة عقيمة، لا تزهر ولا تثمر، أحاسيسه تقول إنّها منتمرة أحياناً، ومتمرّدة غالباً، كم هي رائعة في صمتها وخاصّة عندما تطبق جفניה!! هل تعيش مأساة قديمة؟ فيذكر أمّه أو جدّته، عندما كانتا تجتران أحزانها في "عدودة" منعمة في أيّ وقت، شريقيون نحن في اجترار ذكرياتنا، وأشدّ ميلاً للماضي دائماً عن الحاضر، فهل يذوب الثلج، ويظهر باطن فكرها؟... ويلقي بكلّ همسات فؤاده بعيداً، ويستنكر بأن يضع نفسه حاكماً، ويقرّ بجعله بأشياء

كثيرة في الحياة، فيهدأ ويصمت، ويداري أفكاره، وكأنه يفيق من غفوة على سؤالها:

— كيف تراني؟ وبسرعة، وبلا تردّد.

— أأنتِ متزوّجة؟

— أنا ممن قالوا عنهم... أمري بيدي.

— أعرف أنّ المرأة العزيزة في الجاهليّة، كان أهلها يقولون عنها أمرها

بيدها، فإذا كرهت رجلاً فارقتة... فكيف أمرك بيدك؟... تتزوجين و...

— أوّلاً هذه كلمات أسمعها لأوّل مرّة، ولكنّها تقارب حقيقتي... كلّ ما

تتخيّله أفعله بإرادتي فلا يوجد رقيب عليّ... صمت، وما لبث أنّ نظر بعيداً،

وكانه يمتصّ مرّ كلامها، كلام غريب يخرج من شفاه تورّق من يفكر في رسم

جمالها، ولو كان فنّاناً خبيراً، شفاه طبيعيّة تفيض بحمرة التوت الأسود...

يرفع رأسه قائلاً:

— ليس لداء السّكران دواء، فمغيب عن الدُّنيا، لا يرى سوى ضباب

أحلام هواه، وما غوى، أعتقد... لم يكمل حديثه، وبلهجة متحدّية.

— ربّما تظنّ بي الظنون... وإن كان ما تتخيّله في بعض الأحيان حقيقة...

وكانت ساخرة في حديثها... هل تقيم الحدّ عليّ؟ وعموماً عليك أن تعرف

أنّني أخاف الله.

— يا سيّدي أنا لا أقيم حدود الله على إنسانٍ خلقه الله، وسبحانه هو

صاحب الأمر والنّهي فيما خلق... طالما أنت تحافين الله، فهذا خير كثير، فمن

خاف الله ترك المعصية، وابتعد طمعاً في جزاء، أمّا من سكن قلبه الحياء من

الله، فإنّه ينسى المعصية كليّة.

— أنا مثل الغريق... فأنا لا أخشى البلل.

— عليك أن تستهدي بنفسك لنفسك، لا تأسري نفسك لفكر غيرك، فلا مرجعية لأحد في وجود كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تتبعي الأصول وجاهدي نفسك في العمل بها، أما الفروع فستظل جدلاً قائماً حتى النهاية، ومن أصاب فله أجر، ومن أخطأ فله عذر، ولا مفر... آه... أكثرنا مثل الطلبة جوفنا فارغ، وصوتنا عالٍ بما فيه الكفاية.

كان المكان غريباً عليه، لم تطأ قدماه يوماً مكاناً مثله، زاد المكان بهاءً وجمالاً ابتسامتها التي لا تفارق وجهها، وعندما تذهب الابتسامة، وتذهب بعينيها بعيداً وتلقي بشعرها خلف أذنها، تزداد رقعة البهاء فوق وجهها وتظهر بشائر عنقها البلوري، تأخذه الذكري، فيضحك، تقسم عليه أن يكون صادقاً، ويذكر السبب الحقيقي وراء ضحكته، يصف لها كيف كانت الراقصة في الأفراح أيام طفولته وكيف كان أهله وذووه من الفلاحين يصفونها لبعضهم؟ فينصت لهم، ويستمع لهم، وما زالت ذاكرته تحفظ حديثهم الدائر، ويصفونها من شعر الرأس حتى أصابع قدميها، وما يضحكه حقيقةً وصف أحدهم لرقبتها فيقول:

إنها من المرمر الصافي، فهي عندما تشرب الماء، تستطيع العين أن ترى الماء وهو ينزل لمعدتها، ضحكا... قالت:

— بلد غريبة... الناس قربت تأكل بعضها، فالأحقاد و... لم يصمت، فقاطعتها:

— عن ابن عباس - رضي الله عنه -... أن نوحاً - عليه السلام - دعا لمصر بن بصر بن حام فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، التي نهرها أفضل

أنهار الدنيا وأجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض، وذلَّلها لهم وقوَّاهم عليها... وسمَّيت بلدنا مصر نسبة إليه... يا سيِّدتي إنَّ السِّلَاحف تضع بيضها على الشَّاطئ، وتتركه وتمضي... لم تنقرض السِّلَاحف، وما زالت سلالتها على قيد الحياة، لنْ تتوقَّف الحياة... وأكمل ساخرًا... عندما سأل أحدهم المعلِّم، يا أستاذ هلْ يذهب اللصوص إلى جهنِّم؟ ابتسم، وقال له... لا، يا بني، سيذهبون للتسوّق والسَّيَاحة والمتعة في أسواق وشوارع وملاهي أوروبا وأمريكا، عموماً الإفراط في الشَّيء يتحوَّل لنقيضه، فالضحك إذا كثُر واشتدَّ سال الدَّمْع من العينين رغم أنَّ الدَّمْع وليد الحزن.

— أنتَ نائر.

— أنا أبعد إنسان عن الثَّورة.

— الخوف.

— ممكن.

— وإلى متى؟

— يوم ما أنفض عن نفسي غبار السَّفَر، يوم ما أكسر تابوت العشق والوعد لأبي وأمِّي، يوم ما أهرب من تابوت الموت.

— تعمل إيه؟

— ههرب من كلِّ الكتب والحكايات، ومن سهر الليالي مع الخالدين في الفكر والثَّقافة والأدب والموسيقى... وأعيش.

— تحرق كلَّ الكتب!!!

— مصيبة سودة... ثورة تحرق كتب ومكتبة... مستحيل... أقول أهرب.

— ممكن تبقى فوضى خَلَاقَة.

– الفوضى تؤدّي للخراب، ومحاولة تغيير سريع بغير حكمة، استخدام خادع ومجرّد جاذبيّة إعلاميّة، هي عبارة عن خطط تخريب منظم، ففوضى خلّاقة هي عمليّة جمع بين مفهومين متناقضين، أو كما قالوا فوضى الأفكار تنتج إبداعًا في البحث عن المناسب... عمومًا حدوده أولها كذب وآخرها كذب.

– أمّيتك إيه؟

– أكون جميلًا... في داخلي.

– نعم!!

– هي دعوة سقراط في صلاته للآلهة، فقد كان دميم الوجه، وجاحظ العينين وأفطس الأنف، فكان يقول إنّ هاتين العينين هديّة؛ لأنّهما تستطيعان أن تنظرا في مختلف الاتجاهات، أمّا الأنف الأفطس، فإنّه يستطيع أن يلتقط الروائح أفضل من الأنف العادي، ورغم صراعاته مع أقرانه دائمًا بسبب ذلك، إلاّ أنّه كان يدعو أن يكون داخله جميلًا... تتأمّله، وتنفرج شفّتها متعجّبة.

– حكاياتك غريبة وعجيبة... يضحك.

– العجائب في الدُّنيا ليست سبعًا، فهي كثيرة، والغرائب تستهوي الإنسان فيتأملها، وعليه أن يأخذ العظة والحكمة، عندما ولد الرّسول ﷺ أسرع "ثوبية الأسميّة" جارية "عبد العزّي بن عبد المطلب" أبو هب، تبشّره بمولد ابن أخيه، فأعتقها... وما حدث نعلمه جميعًا!!! آآه، إنّ ملح الدُّموع يا سيّدتي، يغني عن الألم... اتركي دموعك، ودعيها تغسل آلامك...
– بتحكي لتلاميذك.

— يومها يخرب بيتي الموجّه والمدير... أنا ملتزم بمنهج أدرسه، لا خروج عنه.

— البلد بقت غريبة، حتّى سلوكيّات الشّباب... النّاس عموماً... النّفاق والكذب والخيبة الكبيرة... لا تعرف كيف تكمل حديثها...

— طول عمر الدُّنيا فيها الكذب والنّفاق والإيمان... وكلّ ما يصنع التّعجّب موجود في كلّ مكان وزمان... من حكايات التّاريخ، وفي مبايعة يزيد تتابع المؤيدين للمبايعة، وآثر "الأخنف" الصّمت، فلم يتركه معاوية - رضي الله عنه - صامتاً وسأله، وأنت ماذا تقول؟ فقال بلا تردّد... أخاف الله إنّ كذبت، وأخافكم إنّ صدقت، فقال معاوية بدهاء... جزاك الله عن الطّاعة خيراً، وأمر له بألوف، يا سيّدتي، الدُّنيا نيران متّقدة نشعر بلهبها، لكنّنا نعدو ناحيتها كالفراشات، وأخيراً ندفع حياتنا ثمناً، ونحترق، من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، وحبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة، فالذّاكرون مذكورون... صفقت بدون صوت، واتّسعت ابتسامتها قائلةً:

— أحبّ نظام الدّروشة... الله عليك يا سيدنا الدّرويش.

— الله... ذكرتني بالشيخ الرّومي - طيّب الله ثراه، فالدّرويش كلمة فارسيّة تعني الفقير، والرّومي أوّل من أسّس للفقراء الرّاقصين رقصة صوفيّة، سمّيت "المولوية"، كانت ملابسهم ما بين بيضاء بلون الكفن، وسوداء بلون القبر وقلنسوة طويلة فوق الرّأس كشواهد القبور.

— تقصد رقصة "التّنوّرة".

— "التّنوّرة" ألوانها مختلفة، وفي دورانهم تجسيد للفصول الأربعة، ومناجاة للخالق سبحانه، فلا ذكر إلاّ لله، والمدد والعون من أولياء الله الصّالحين.

عندما يفيض في القَصِّ وهي تنظر إليه، وتتأمل عينيهِ السَّابحة بعيداً،
والتي يغمضها أحياناً، وكأنَّه يستلهم وحيّاً من ذاكرته، أو فيضاً، فتسأله
ضاحكة عن هذا السبب، وهو لا ينظر إليها، يقول... لماذا عندما تفكرين في
شيءٍ فإنَّك تغمضين عينيكَ؟... لأنَّ الأعمى أكثر مقدرة على الحفظ
والتذكُّر، وتلك الحركة هي مجرد تقليد، تفيض بضحكاتهما، فتبهج نفسه
العليلة، ولكن لا تظهر ما يداخلها.

— ما رأيك في الأعمى الذي يحمل فانوساً في يده؟ تتردّد في الإجابة،
وكأنَّها تسأل.

— في الليل أم في النَّهار؟... يضحك، ويحيبها.

— غالباً في الليل... في صمتها دعوة له للاسترسال... هي عمليّة
استرشاديّة، فهو أكثر خوفاً من التّصادم... يضحكان، ويتأملها، ولكن بلا
أمان.

وكأنَّهما أفاقا من حديثهما الدَّائر، فلم يشفع الصَّخب حولهما في سحبهما.

الفصل العاشر

الرَّهِينَةُ

تذكّرت أمنيّتها وحرصها بأن تدفعه للدُّنيا الجديدة عليه، تشعر بأنّ الدّهشة لا تصيبه، وكأنّه معتاد على هذه الدُّنيا، أمّا هو فيكاد يزفر زفرات متتابعات، تعكس مدى الدّهشة التي تصيبه، ولكنّه يتحمّل، ويمتصّ زفراته، كانت حريصة أن تسحبه وبسرعة لدنياها، أو للدُّنيا الحقيقيّة حولها، هي حانقة على كلّ ما يدور حولها، بدءاً من أسرتها لعلاقاتها لمعارفها وأصدقائها، عندما التحقت بهذا العمل، أثارها ما يحمله من أفكار إنسانيّة رائعة وسامية، عرفت أنّ تلك المؤسّسة غير حكوميّة، وغير ربحيّة، تموّها أيدٍ محسنة، وقلوب يدفعها حبّ الإنسان، شخصيّته بأفكارها بحدِيثها جذبتها لدُّنيا لم ترها من قبل، بعد تردّدٍ لم يطل، قرّرت أن تصحبه لتلك الأماكن، هل كانت تتمنّى أن ترى ردّ فعله أم تجهيزه لدُّنيا أخرى؟ وهي لا تدرك حتّى حقيقة مشاعرها المتناقضة حياله، تعلم أنّ الظمآن في صحراء الدُّنيا يوم يجد ضالّته في بئر الماء، فعليه التّريث في الشّراب، عليه أن يبلّل عروقه في البداية، وبعد فترة يشرب حتّى يرتوي، جلس بجوارها، وابتسامته مرسومة على وجهه، ولا تدري كيف تصنّف ابتسامته في سوق الابتسامات المرسلة في الجوّ العامر

بالرِّياحين الطَّبيعيَّة، أو غير الطَّبيعيَّة، تنفَجَّر في روائح الغايات والرَّائحات من الفاتنات، وقد تنبعث من هفهة أثوابهنَّ المنتقاة، هنَّ يمضين، يستعرضنَّ ما امتلكن، وما يستطعن تقديمه للرُّوَّاد، ينظر إلى الفاتنات... صغيرات ومسنَّات ذات أقنعة صنعتُ بأيدي خبراء في فنِّ التَّجميل، أقنعة لا تزول بانتهاء الليلة، يتأمَّلهنَّ، وفي ثبات يحسد عليه لا تأخذه الدهشة، تنعكس الأضواء من فوق الوجوه، أو من فوق الملابس، وقد تكون من الجدران، يتناوب الجميع الحديث ثنائيات أو مجموعات، مَنْ يقمن على الخدمة، وكأنَّ اختيارهنَّ تمَّ وفق قواعد وقياسات محدَّدة، تبدو عليهنَّ المهارة والدقَّة في التَّعامل، وحتَّى في رشق الرُّوَّاد بالابتسامات، وقد تحطَّى العين بينهنَّ لزيهنَّ الموحد، كحوريَّات قادمات من الجنَّة، ومع ذلك، مازال سطح بحيرة قلبه هادئاً، عندما سأها عن القائمات بالخدمة، ردَّت عليه بأنَّهنَّ من طالبات الجامعة، وتختلف أعمارهنَّ وفقاً للمطلوب، مَنْ تقوم بتقديم المشروبات هي أقلَّ رتبة، أو بمعنى أصحَّ تتقاضى أقلَّ مبلغ في يومها، يرتفع المقابل الماديَّ المدفوع وفقاً للأعمال، فتلك التي تجلس على مائدة رجل الأعمال المعروف، وتقوم على خدمة طاولته فقط وتجاربه ومَنْ معه في الضَّحك بلا سبب، وليس عليها سوى ذلك، أو فتح زجاجات المشروب، أو صبَّ ماء أو خلافة، كلِّما فرغ كأس الرِّجل المبروك كبير الجلسة عليها أن تملأه، يرتفع الأجر أكثر، إذا ساعدت الكبير في خلع سترته الخارجيّة، وتزداد، لو صحبتته لحجرته في الفندق الفخم الضَّخم، الذي يتربَّع على ضفَّة النيل الهامد الصَّامد الباكي، وكما قالت الأساطير الفرعونيَّة بأنَّه نابع من دموع "إيزيس" عندما كانت تبكي أوزوريس، وتبحث عنه في مجاهل الدُّنيا، أمَّا أغلى الرِّواتب، فلمن تطوَّعت، وأحسنّت فخلعتُ عن الكبير سترته، وخاصَّة الدَّاخليَّة، كانت

تتكلم معه بعفوية غريبة، لا تتصنع، أو تخفي شيئاً، وتأثر بطريقتها، وعدم إخفاء شيءٍ عليه، تدور عيناها في أرجاء المكان، ولكنها تحيطه بكلّ عناية ورعاية، على المائدة المستديرة الكبيرة، كانت حريصة أن تجعل مقعدها بجواره، استمع للأحاديث، وتأمل وجه السيّدة التي كثيراً ما كان يشاهدها في التلّغاز، ينظر إليها، ولا يفتن كثيراً، تتكلم السيّدة، وهي تنفث الدخان من فتحتي الأنف والشم ذي الشّفاة الغليظة المتورّدة اليانعة، فتعود به ذاكرته للأرض، والزّرع، وثمرات الطّماطم عندما تتلوّن بفعل الطّبيعة، وجمالها، وكذلك ثمرات الفراولة وما يلبث في ذكرياته كثيراً، وكأنّها تنهيدة من أعماق قلبه على تغيّر الحال، حتّى في الطّبيعة، وكيف اشترى أهل بلده الكيماويّات التي تغيّر المعالم والطّعم، وتلوّن الخضراوات، والفاكهة بألوان زاهية تبهج العين والنّفْس، ويصير حجمها أضعاف الحجم الطبيعيّ، ولكن بلا طعم، يستمع للسيّدة المتفنّنة في شدّ جلد وجهها، وربّما صورت له خيالاته ذلك، ولكن لا يشعر بحقد أو تذمّر، فالجميع مجاهرون بالتّغيير حتّى البسطاء، يدرك أنّه مجرد ضيف زائر فحسب، ولن تطول إقامته، تتحدّث السيّدة، ويصمت الجميع، وتقسم بأنّها يوماً استطاعت أن تصلح بين بلدين عربيين، عن طريق معارفها ومرتادي حفلاتها من سفراء وأمراء، راحت توظّف أحاديثها وتلوّنها، كما وجّهها بألوان المحبّة والخير، وفي جملة اعتراضية سألها أحدهم: وأين أنت الآن؟ بترفع ودلال، ونبرة صوتها تتحدّى سائلها أجابته... بأنّها تمثّل الهرم الرّابع في مصر، أطلقت ضحكةً عاليةً رائعة الخروج من أعماق حنجرتها، مسحوبة النّهاية متخاذلة، وكأنّها في أحضان عشيق مستسلمة، قابل جمعهم كلماتها بتصفيق، واهتزّت رءوسهم بالموافقة - وتحدّثا بدورهما في همس.

— هرم حقيقي... ابتسمت، وردّ...

— كثرت الأهرامات في بلدنا.

— عمومًا، الهرم صرّح لا يُبنى إلا بالجهد والعرق والتعب، وأظنّها بذلت

في سبيل ذلك الكثير، والله أعلم... وذهب في ضحكة موجزة، وأكمل...

واعتقد أنّها صنعت مجدها وهرمها... قاطعته...

— لقد سمعت من أحدهم، وقد أقسم يومها بأنّه التقطها من أحد

الأفراح الشعبيّة أو الموالد، وهو صاحب الفضل عليها...

— هذه!!!

— وهذا الشخص مازال على قيد الحياة، ولكنّه لا يتحرّك إلا على كرسي.

— شفاه الله وعافاه، فقد أدخل الفرحة في قلوب البشر... تناوبا حديثها

الهامس السّاخر غالبًا... حتّى جاء الدّور على الوزير السّابق، وصاحب المدن

الجديدة الحالي، بعد أن قضم عقب سيجاره، وبولّاعته الذهبية راح يشعله،

يتكلّم، فتخرج كلماته متموّجة مع ذوائب نيران ولّاعته، يفيض بالثناء على

السّيّدة وكيف أنّها شاركته في إحدى المدن الجديدة التي قام بإنشائها، وفي

مجالس النّفاق المعتاد بين مرتادي السّهرات ذات الطّابع الخاصّ جدًّا... سأل

أحدهم:

— لماذا ارتفعتم بالأسوار لهذه الدّرجة؟

لم يترك الإعلاميّ الكبير المشهود له في العلن بأنّه صاحب القضية الوطنيّة،

وبثعلبة ودهاء، وكأنّه مقدّم للحصول على شقّة، أو فيلاً جديدة، يريد لها،

أو لأحد أولاده، أو ربّما لاستثمارها وبيعها، فأخذ على عاتقه بسرد بعض من

إنجازات الوزير السّابق والمستثمر الحالي، في خدمة القضايا الوطنيّة، وخاصّة

السكّانيّة، علّل بأنّ الأسباب تكمن في علوّ الأسوار في المدن والقرى الجديدة،

عدّد الأسباب، ورفع من شأن الرَّجُل كثيرًا، فهذه القرى مَنْ يقطنها لم يقلّ إنّ أكثرهم تجّار وسامسة الوطن، والمتلونون بكلّ ألوان الدُّنيا، واستطرد - بعد أن رشف ما تبقى في كأسه - أدرك جيّدًا يا معالي الوزير أنّ أفكارك تفوق أفكار دكتور حسن فتحى في العمارة، وحتىّ هذه اللحظة لم تخرج مكنون عقلك... إنّني أشعر... ولكنّ الوزير بكلّ أدب وتواضع العلماء قال... يا أخي، دكتور حسن عالم كبير، ومَنْ ينكر أستاذيّته، فهو جاهل بأفكاره... أمّا السَّبب الرَّئيس فهو وصيّة أبي، يتولّى الرَّجُل الشَّرح، وهو الذي خصّص الأراضى، وهو في كرسي الوزارة، بأسماء وهميّة، أو وزّعها على أهله وذويه ومعارفه، كما يقولون بتراب الفلوس، واليوم، المتر في هذه الأراضى يتجاوز العشرة آلاف جنيه، صمتا، وأنصتا لمعالي الوزير، فيقول بأنّه كان حريصًا على تنفيذ وصيّة والده - رحمة الله عليه - قاطعه الإعلاميّ الكبير، وطلب من الجميع رفع أكفّ الضّراعة لله وقراءة الفاتحة على روحه، رغم أنّ رائحة فمه مازالت... وكذلك الجميع رفعوا أيديهم وقرأوا الفاتحة على روح المرحوم أبو معالي السيّد الوزير السّابق... سألته:

— لماذا لم تقرأ الفاتحة؟... ابتسم.

— قرأتها في سرّي.

— لم ترفع يديك... وما زالت ابتسامته.

— قال أحد الصّالحين لا ترفع يدك عاليًا بالدُّعاء، ولتجعل السرّ بينك وبين خالقك... وما لبث أنّ أشار عليها بالصّمت، حتىّ يسمعا ما تجود به قريحة المستثمر الكبير، فأسرّ الرَّجُل بحديثه أسماع الجالسين، وهو يسرد ما جاء في وصيّة أبيه...

كيف كانوا يعيشون في قرية صغيرة، ووالده - رحمه الله - كان عمدتها ووارثها أباً عن جدٍّ، حُكِّي عن امتداد أصول الأسرة حتَّى أشرف مصر، كان أبوه معتاداً التَّجوال بفرسه في أراضيهم التي تمتدّ إلى نهاية ما تری العين، اعتاد ذلك بعد صلاة الفجر، يخرج، وغالباً لا يعود إلَّا مع صلاة الظهر، فإن أدركه موعد الصَّلَاة، وهو عائد صلَّاهَا غالباً في المسجد الذي بناه جدُّهم، ويكون غالباً إماماً للمصلِّين من أهل القرية، ويصف أباه بأنَّه كان صاحب رؤية مستقبلية لا تخيب أبداً، وفي يوم طلب منه أن يقوم بدوره، فيذهب ويشترى عشرة أرطال من اللحم، وعلى غير العادة، في هذا اليوم رجع والده مبكراً، فرآه، وهو يحمل بين يديه هذا الكمّ من اللحوم، فانفرد به محدثاً، وراح يعلمه أن كلَّ مَنْ حولك أهلك وذويك، فإن لم تعطهم مما معك حسدوك عليه، ومن الدين مشاركة الأهل والجيران، وإذا كنت لا تستطيع أن تعطهم مما معك، وهو بالكاد يكفيك، فما عليك سوى أن تحبِّي ما معك، والأولى بك في هذه الحالة أن تضع اللحم في سلَّة، ولا تُظهِرْهَا أمام عينٍ محتاجة، وابل من كلمات الاستحسان والإعجاب بتلك الشَّخصية الفريدة، أرجع أن سبب علو الأسوار ألا يحسد من بالداخل وحفاظاً على الخصوصية، أحاديث كثيرة، ومسببات عديدة، وهم يستقبلونها إعجاباً، ابتسامة مرسومة على وجه كلِّ منها، وبعد أن نظرت إليه.

— ما رأيك فيما سمعت؟... وقريباً من الهمس، أجاها:

— إنَّه الخوف... أمَّا الحقيقة، فتلك الأسوار حاجز، وفرقة بين أبناء البلد الواحد... ففي زمان "أبو جعفر المنصور" أراد أن يبني مدينة بغداد، فخطَّ لبنائها، وترك لخالد بن برمك التَّصرُّف في ذلك، وطلب منه أن يهدم المدائن وإيوان كسرى، ويستخدم أحجارها في المبنى الجديد للمدينة، ونقل أبواب

مدينة كانت تسمى "واسط" وجعلها لبغداد، ولم تكف، فصنع مزيداً من الأبواب في الشام، كانت أسوار المدينة على شكل دائري، وكانت فلسفة منقّذا أن يقترب الناس من بعضهم أكثر، فاجتمعت كلّ النَّاس في المدينة، فكان المسجد، والقصر، والأسواق كلّها في المدينة، في زيارة لرسول ملك الرُّوم للمدينة، أراد أن يريه عظمة المدينة، وأمر أن يصطحبه أحد الحراس في الزيارة، وأن يدور به في أحيائها المختلفة، كان ينتظر أن يشيد بها رآه، وعندما أنهى الزيارة، سأله عمّا رأى... فقال له الرسول... رأيت بناءً رائعاً، ولكنتي رأيت أن أعداءك معك، ساعتها اكتفى الرسول بذلك، ولم يفصح أكثر، ومضى لحال سبيله، وأدرك أنه يجب أن يبعد السّوق والعمامة خارج أسوار المدينة، وفعل ذلك، فأبعدهم، ومن يومها كانت المدن في عصور الاستبداد والخوف، يراعي فيها فصل أصحاب الشّان والكبراء ومن يتولّى أمور البلاد بعيداً عن البسطاء وعمامة النَّاس... ابتسم لها قائلاً... وتوته توته خلصت الحدوتة... وكما قالوا... ضلّ مَنْ كانت العميان تهديه.

بلا تردّد، انتقدت حواراته وكلماته، وكأنتها تسأله عن أنّها محاولة للابتعاد عن الدّنيا ومعاشتها، وقعت كلماتها وتعليقاتها على قلبه جميلة، وأحسّ بشغف كبير أن تستمرّ في الحديث، أطلقت لنفسها العنان، وهي تصف له ما يحدث في الدّنيا اليوم، بعيداً عن كتب التّاريخ والحكايات الممزوجة بالمرارة والقياسات بين ماضٍ وحاضر، قصّت عليه ضرورة أن يجاري الدّنيا، فالفرصة تأتي مرّة واحدة، ها هي أمامك الآن، وبسهولة يمكنك أن تقتنص عملاً في أعظم الأماكن في مصر كلّها، أغلبها شركات ومؤسسات لأكبر رجال البلد، ابتسم قائلاً:

— سأقوم وأصعد فوق إحدى المناضد، وأقول... قاطعته:

— المهّم يكون الفعل فيه إثارة.

— عشرة!!! ولا... قالها ضاحكًا.

— المهّم على واحدة ونصّ.

كانت وهي تقصّ عليه بعضًا من مسيرات هؤلاء القوم ممن تعرفهم، جميعهم استغلّوا الفرصة، فمنهم من بدأ من الصّفر، ووصل لأعلى المناصب، ومنهم أعضاء اليوم في البرلمان، لم يصدّق أذنيه، وهي تحدّثه عن نفسها، وأنها لم تفكّر يومًا في العمل بمقابل مادّي، يوم التحقّت بعملها، فظنّت أنّ كلمة مؤسّسة إنسانيّة غير ربحيّة بأن ليس لها راتب شهري، المفاجأة التي لم تتوقّعها أنّ لها راتبًا وليس بالعملة المصريّة، أمّا المفاجأة الأكبر، فكانت قيمة المبلغ الذي يتعدّى راتب وكيل وزارة مع أرباحه، اللحظة الوحيدة التي ظهرت فيها الدّهشة على وجهه وسأها إنّ كانت أمهت دراستها، عرف بأنّها في عامها الأخير، فقال لها... في قديم الزّمان كان هناك تاجر ممن يقولون عنهم يبيع الكحل في العين، ينادي على معروضاته في السّوق، مضى الملك في الطّريق، فمرّ به وهو ينادي على سلعته ويثمنّها بخمسة دینارات، أمسك الملك بقطعة مما ينادى عليها... سأله الملك بكم هذه؟... فأجابه التّاجر بألف دینار، استغرب الملك، وقال له... لكنني سمعتك وأنت تنادي عليها بخمسة دینارات، فقال التّاجر... يا مولاي من لحظة أنّ تلمس يدك السلعة يزداد ثمنها ألفًا، آه يا مولاي، لو أنّني أمتلك مالًا ما بعت من هذه البضاعة شيئًا لمسته يدك، لاحتفظتُ به ذكرى لي ولأولادي وأحفادي من بعدي، ضحك الملك من حديثه، وسأله ثانية عن ثمن السلعة نفسها فقال التّاجر... أصبحتُ يا مولاي بعشرة آلاف دینار، فوهبه الملك ما حدّده ثمنًا للسلعة، وأثنى عليه، طالت الليلة في أحاديث، وفي نهاية المطاف حدّد له مسؤل

المؤسسة التي تعمل بها موعدًا في الغد للمقابلة، ودعته قبيل الفجر بقليل أمام الفندق الذي ينزل به، غاص في أحلامه وأحزانه وهمومه وأفكاره.

لا مفرَّ أمامه، اقتنع أخيرًا برؤيتها، والعمل في المؤسسة الخيرية العالمية، لم يأخذه مباشرةً، فقد جلس لاختبار ثقافيٍّ ودينيٍّ لوقتٍ كافٍ، أسئلة كثيرة متنوعة في مختلف الثقافات والمعارف، كما حدثته ألا ينسى أن هذه المنظمة همها الأول في العالم رعاية الأطفال، ذكَّرتُه ألا يتعرَّض لديانات أخرى بالتَّقد والتَّجريح فالمؤسسة أو المنظمة ترفض ذلك، كلَّ الأديان عندها سواء، وكلَّ أعضائها من مختلف الأديان، شعر أنَّها تحدِّثه بأنَّها أفكار الماسونية العالمية، يلجأن إلى جهازها المحمول، وعبر آفاق شبكته العنكبوتية يبحثان، يطالعها اسم لكتاب عن الماسونية وكتاب يدعى "ش ماكارايوس"، يجلسان سويًّا، ويستعرضان آفاق ومبادئ الماسونية التي تقترب من رؤية المنظمة، ولكنَّ المؤسسة لا تشير إليها من قريب أو بعيد، فيقرأ... مبدآن أساسيان، وهما حرِّيَّة الضَّمير والتَّكافل الاجتماعي، ومن أصولها الجوهرية الاعتراف بوجود إله واحد خالق لهذا الكون العظيم، نعبده ونمجِّده، ونسمِّيه مهندس الكون، والاعتقاد بخلود النَّفس، وهي تحترم ما لكلِّ عضو من أعضائها من المعتقد الدينيِّ والسياسيِّ، وتحرم في مجتمعاتها كلَّ مناقشة في موضوع دينيٍّ أو سياسيٍّ يكون الغرض منه المناظرة في الأديان، أو القدح في السُّلطة المدنيَّة، تعتنى المحافل الماسونية بانتقاء الذين يدخلون فيها، فلا يقبلون بينهم إلاَّ كلَّ مَنْ عرف بالتَّقوى والأدب والعلم، وكان من أصحاب النَّسب والمقامات الأدبية بين النَّاس، والعمل على ترقية شأن الإنسانية كلَّها، وأنَّ المالك القديمة التي نمت فيها الماسونية يقابلها تاريخ عمرانيٍّ، وتمتدُّ شهرتها، وتنتشر سلطتها،

فإنسان حرٌّ في نفسه، وحرٌّ في أن يكتب ما يشاء، ويتكلّم عمّا يشاء، ويعبد إلهه متى شاء، فالماسونيّة تعلّم أولادها وجوب الاعتقاد بالله عزّ وجلّ، ولا يأخذون بالمذاهب التي تقيّد عقول البسطاء والشُدج بحبال التّعصّب... انتهيا من قراءة الكثير عن الأفكار الماسونيّة المطروحة من خلال الكتاب، استشعرا بلغة وفكرة إنسانيّة رائعة يتمنّاها أيُّ إنسان سويّ، فالحرّيّة والإخاء والمساواة دعوة كلّها نبل إنسانيّ بكلّ أبعاده، وكأنّه راجع دروسه جيّدًا، فكانت نتائجه مبهرة، وفي نفس الأسبوع بدأ يلقي محاضرات في الجمعيات الأهليّة المختلفة عن الخير، وتتابع التّدوات التي حملت مفاهيم إنسانيّة تبعث على الرّقّي، كانت فكرة الحرّيّة الشُّغل الشّاعل للمؤسّسة في هذه الفترة، استطاع "عبد الوارث" و"لولا" أن يجوسا خلال التّاريخ البشريّ، جاءت موضوعاتهما عن الحرّيّة رائعة، أشاد بها حتّى أساتذة الجامعات، صاغ موضوعاته في لغة عربيّة رصينة، حصّنها بالعديد من المراجع الدّينيّة والتّاريخيّة، لم يصدّق عينيه، وهو يستلم راتبه للشّهر الأوّل، إنه يعادل راتبه في التّربية والتّعليم لعام كامل، ناهيك عن أسلوب الحياة، والأماكن التي يحاضر فيها، ومَن يستمعون إليه، حفلات ودعوات في فنادق تترع فوق بنايتها النُّجوم الخمس، شجّعته وشاركته في أبحاثه ومحاضراته، واكتفت بلقب المساعد في درجات التّوظيف المعتمدة، فالتّوظيف بعقود... العقد تراوح مدّته ما بين العام والثلاثة أعوام فحسب، عقدهما كان لثلاثة أعوام، أمّا ما أثار حفيظته فكان التّكليف بتأليف كتاب أو كتيب عن اليهود في مصر، وعليه أن يختار أيّ عصر كمجالٍ لكتابه، ويمكن أن يختار عن حياتهم كلّها منذ وطئت أقدام سيّدنا يوسف - عليه السّلام - أرض مصر، إنّها المرّة الأولى، ولم يكن يومًا مؤهلاً لكتابة كتاب، نعم، هو عاشق للقراءة والتّبحر في

التاريخ في كلِّ عصوره، الغريب أنَّ هذا الموضوع يكفل له إجازةً لمدةً تتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أشهر، مكافأةً خاصَّةً تقترب من العشرة آلاف دولار لزوم سفراتٍ وأبحاثٍ وإقامة، وهذا بعيدًا عن مرتبها الشهري المعتاد، لم يصدِّق أذنيه، وهي تقول له إنَّها ستعمل في الموضوع نفسه، هل فعل مقصود؟ أم الغاية عمل وكفى؟ لم يتعب نفسه في السؤال فقد كانت سعادته لا تقدَّر، فكم ضاق صدره في البداية عندما أحسَّ بأنَّه سيفارقها، لم يدرك حقيقة المشاعر التي انتابته ما بين الحدين، هل هي مشاعر حبٍّ وعشقٍ لها؟ أم مجرد راحة يفيض بها قلبه عندما تكون قريبة منه؟ يعرفان أنَّ الموضوع واحد، وحتَّى الكتاب في النِّهاية طبعة واحدة، لم ينكرا عليها حقَّها في وضع اسميهما، ولكنَّ تحت رعاية الفرع الثقافيِّ في المؤسسة، لقد سبقهما كثيرون في الكتابة عن ذلك، هل هي مجرد إلقاء الضوء على مشاركة المؤسسة في الحياة الثقافيَّة، أم أنَّها محاولة لإثبات مقدار ما فعلوه في مصر، قرأ الكثير عن أعمالهم ومكاسبهم في شتى فروع التجارة والزراعة، وحتَّى في إصدار المجلَّات الثقافيَّة بمختلف فروعها، لا ينسى حتَّى قدراتهم الفنيَّة وأنَّ لهم اليد الطولى حقيقةً في صناعة السِّينما في مصر، رأسه محشور بالعديد من الأفكار، ولكنَّه يفكر فيها يختار، يستعرضان سوياً كتباً ومقالاتٍ وأخباراً، الحلَّ الأفضل، كما رآه... أن يحمل شيئاً جديداً، أن يدوّن الحديثَ من أفواه رجال أو نساء مسنِّين، راقتهما الفكرة، كانت البداية من أسوان، أمَّا لماذا كان الاختيار لأقصى مدن الجنوب؟ مما قيل إنَّ اليهود في مصر كانت لهم رؤية إيجابية في الاستثمار، وخاصَّة الجنوب، حتَّى إنَّ البعض كتب يوماً عن امبراطوريَّة اليهود، التي تبدأ من مدينة "كوم أمبو"، وما حولها، من آخر مدن الجنوب المصري، ولكنَّ هل تسافر "لولا" معه بمفردها، إنَّها تقول إنَّها سيِّدة

قرارها، ولكن يستبعد موافقة أهلها على هذا السفر، وبصحبة زميل لها في العمل، وعدد الأيام التي ستقضيها بعيداً، الغريب أنها أكثر من مرة أفصحت أمامه بأنها كانت تنوي السفر لأوروبا بمفردها، وأن أهلها في النهاية وافقوها على قرارها، وأنها في العام الثاني من دراستها في الجامعة سافرت في رحلة إلى أمريكا استغرقت شهراً كاملاً، كانت هذه الأسباب كثيراً ما تحول بين ما يداخله من مشاعر نحوها والإفصاح، كثيراً أثر التريث، رغم كل هذا فإنه لا يطيق فراقها، وهي تفضحها عيناها أكثر منه، بعد أن غاب ثلاثة أيام في عمل في الإسكندرية لم تتردد يوماً أن تنتظره في محطة القطار، لم يشعر بنفسه وهو يأخذها في أحضانها، هي أيضاً ألقّت بنفسها بين ذراعيه، من البادئ بالفعل ومن كان صاحب ردّ الفعل، فعلاً واحداً صادراً من القلب مباشرة لا عودة فيه للعقل، سافرا بالطائرة... وجدا حجزهما للإقامة بفندق "كترأكت" القديم، الفندق الرائع الذي يحتضنه النيل، وسط جوٍّ من البهجة، والمناظر الخلابة للمياه، وهي تتخلل الصُخور، تنوعت الطيور المختلفة، والمراكب الشراعية، وسحر الشروق والغروب، تنوعت الزيارات ما بين المعابد القديمة، من أبي سمبل، لمعابد فيلة ومعبد كوم أمبو ومعابد إدفو، من السدّ العالي، لقرى النوبة الجديدة، من ناصر لكلايشة، لقصر أحمد باشا مصطفى، وبقاياها، حتى كفور كوم أمبو، وزيارة بقايا المنازل القديمة، التي بنيت على شكل قباء، كيف تكون تهويتها في وهج حرارة الصيف، وكيف يلعن الكثير من كبار السن المساكن الجديدة ذات الحديد والأسمنت ووهج حوائطها في الصيف، يسمعون ما يبدو، وكأنه أساطير قديمة تتناقلها أفواه الناس، المدينة الغريبة التي تظهر في أيام معينة من العام، وقبيل الغروب يستطيع أي فرد أن يراها، وإن قصد الطريق إليها يستطيع رؤيتها طوال الليل، ويمكن أن يرى

مبانيها وقبابها ومنازلها، كيف حاول كثيرون الوصول إليها؟ ولكنهم في الطريق إليها، تهبّ رياح غريبة، ويتنازعون فيما بينهم حتى يطلّ الفجر وتختفي المعالم، أمّا حكاية الشيخ "تمام النوبي"، فهو ليس نوبياً ولكن اسم العائلة، فكان حالة خاصة جداً، فهو يضع في يده خاتماً غريب الشكل، عبارة عن جعرانٍ ذهبيّ ذي فصّ ذهبيّ، ويقول عنه بعض الناس، إنّه ينير له في الليل، ويحفظه، وهو سرّ طول عمره، الرّجل خفيف الظلّ، يستقبلها بترحابٍ ومودةٍ غريبة، ويقصّ عليها، وهو يتسم، أنّه عشق يوماً جنيّة من بنات الجنّ، وكان لها قريب من الجنّ، عرف بالموضوع، وصمّم أن ينتقم منه، وكانت قوّته تظهر جليّاً على كلّ هوام وحشرات الأرض السّامة، وفوجئت بها تأتيني ويبدو على وجهها الهلع وأسرعت تضع هذا الخاتم في إصبعي، فاستغربتُ حالها، واستغربتُ شكلَ الخاتم، ولا أنكر عليكم، فقد حرّم الإسلام لبس الرّجال للذهب، فكيف أبدوا أمام النّاسِ بهذه الصّورة، ونحنُ مسلمون وموحّدون بالله، أقسمتُ بأنّني إن خلعته ستخرج حيّات أو عقارب أو طريشة وستنهش جثّتي، وأصبحتُ بين نارين: نار الدّين، ونار الحياة! أتمنّى أن أعيش، وأخاف إن خلعته، وعندما سألت شيخنا الأزهرّي - أكرمه الله - أبدى رأيه واضحاً وضوح الشّمس بالأنا نلقي بأيدينا إلى التّهلكة، ويومًا نسيت، وخلعته وقبل أن أبعده عن متناول يدي هاجمني ثعبانٌ غريبٌ، لم أر مثله في حياتي فرجعتُ مسرعاً، ووضعتُ الخاتم في إصبعي، وأخذت جسمي كلّه رعشة غريبة وهبط عليّ العرق كالسّيل، فصرخ الثّعبان صرخة غريبة، واختفى، لا أدري كيف؟! هل الرّجل صادق في حكايته؟! أقسم أحد المقرّبين للرّجل بأنّ أحد تجار الآثار عرض على الرّجل مبالغ كبيرة وصلت في إحدى المرّات، إلى ربع مليون دولار، فكان الرّجل يضحك، ساخذ المال،

وتذهب حياتي في اليوم نفسه، ويسرع مستغفراً الله العظيم، وذاكراً أن لكل أجل كتاب، يواصل الرَّجُل ضحكته قائلاً: النَّاسُ تورث أولادها الأرض والمال، وأنا أورثهم "جعراًنا" هدية من الجن، يضحكون جميعاً، بينما الرَّجُل مصمّم أن يتناول الغداء عنده، يشكرانه وينطلقان، ليس عيباً أن نسمع لكل الحكايات، ولكن ليس منطقيّاً أن نجمّد أفكارنا وعقولنا، اتّفقا أن تكون خطة عملهما، أن يستمعا لما يحدث، وعلى كلٍّ منهما أن يصيغه وفق رؤيته وكما حدث كحكاية وليست حقيقة، في النّهاية يجمعان ما كتبا، وعليه أن يقوم بمراجعتهم، وإعادة كتابته من جديد، على أن تتولّى هي كتابة الموضوع على جهازها الخاصّ، وبالمثل هو، كانت حكاية اليوم عن "علي بن أحمد باشا مصطفى"، فيقول العجوز لها بأنّه كان يستطيع أن يوقف سير عربة يدفعها جوادان، ويجذبها للخلف، ولا يستطيع الجوادان أن يسحبا العربة، ويتأسّف العجوز، ويسبّح بحمد الله، فهو الجبّار فعّال لما يريد، ويبدو على وجهه الأسى، وهو يقول، إنّه كان سباحاً ماهراً، فكان يسبّح، ويعبر النّيل غادياً وعائداً، وقدّر الله أن يغرق في ترعة "كاسل" التي لا يتعدّى عرضها عشرة أمتار، وأقصى عمق لها لا يصل لثلاثة أمتار، تأخذها الحكاية، ويدركان مغزى حديث الرَّجُل العجوز، اقترب منهم حفيد الرَّجُل، وكان بادياً على حديثه أنّه مازال في التّعليم الجامعيّ، وراح يضيف لها معلومة عن ترعة "كاسل" هذه، هذه التّرعة يعتبر من أسس لحفرها المليونير اليهوديّ البريطانيّ سير "أرنست كاسل"، واستزرعوا الأراضي حولها، واستغلّوها، وهناك بعض الحكايات سمعناها من الأجداد، تقول إنهم طردوا الفلاحين من مساحة تبلغ ثمانمائة فدّان، وفي هذا الوقت قامت ثورة ضدّهم، لكنهم قاموا بدفع تعويضات كبيرة للفلاحين، مثل هذه الحكايات يضعون تحتها مئة

خط، فهي المراد من عملهما، اليهود ووضعهما في مصر، وخاصّة هذه المنطقة، واستمعوا لقصة إنشاء مصانع السُّكَّر بكوم أمبو التي شارك في إنشائها "قطاوي باشا" اليهوديِّ المصريِّ، عرفوا دور "عبود باشا"، ولكن المراد هنا دور اليهود، فقطاوي باشا اليهوديِّ الذي شغل يوماً منصب وزير الماليّة، ومرة ثانية وزيراً للمواصلات، وكان عضواً في البرلمان المصريِّ لثلاث دورات متتالية منذ عام ١٩١٤م، وبعده تولى شقيقه "يوسف قطاوي" عضويّة مجلس الشيوخ، وأيضاً ثالثهم "رينيه قطاوي"، وقد كان هذا هو الموضوع الأهمّ لهما، فأعيدت القراءة والصياغة، ووفقاً للمطلوب من أهميّة اليهود في مصر وما قدّموه، بعيداً عن التّعصّب والتذمّر، وترغيباً في روح السّلام بين كلّ البشر، الذي ترفع رايته المؤسّسة، وتحت هذه الفكرة راحا يطرقان المواضيع القريبة من الفكرة، فجماعات الأتّحاد الصّهيوئيّ التي جاءت لمصر، قدّمت أيضاً تحت دعاوى الحبّ والخير، وأبو الوطنيّة المصريّة "سعد باشا زغلول" استعان بـ"جورج دوماني" اليهوديِّ وعيّنه سكرتيراً خاصّاً له، هنا أفردا صفحات وصاغوا عبارات الوطنيّة الرّائعة والمحبّة القائمة، فـ"جاك جوهر" كان أكثر المقرّبين للملك أحمد فؤاد رغم ديانته اليهوديّة، وكان يثق فيه ثقة عمياء، ولا يشكّ في إخلاصه وولائه للملك، أمّا "أليس سوارس" زوجة "قطاوي باشا" وصيفة للملكة "نازلي" زوجة الملك "أحمد فؤاد"، صفحات في تاريخ مصر تموج بالحبّ، هكذا أرادوا صياغتها، ومدى التّرابط بين المصريين واليهود، وأيضاً مكانة اليهود الخاصّة في قلوب المصريين، وصاغها عاشق وعاشقة لمصر ولكنّها لم يدركا المقصود من وراء الكتابة، وأمّا في مجال الأدب والفنّ فتمّ تعيين الحاخام "حاييم ناحوم أفندي" عضواً بمجمع اللغة العربيّة عام ١٩٣١م، سألوا في كلّ النّواحي التي

قدّم فيها اليهود أفكارهم، وخاصّة منطقة وادي "كوم أمبو"، من إنشاء
 مصنع السُّكَّر، وذهبا وشاهدا بعينيهما المستعمرة السكّنيّة، وكما يسمّيها
 الأهالي "الكولنيه"، خاصّة بالمهندسين والمديرين ومديري العموم بالشركة،
 وشكوى الأهالي من الدُّخان الخارج من مداخن الشركة، ومطالبهم...
 ظنُّوهم صحفيين، فأملوا عليهم نقل شكواهم التي تتردّد منذ عشرات
 السّنين، ولم يستجب لهم أحد، يحدّثهم عجوز عن أيّام زمان واستخدامهم،
 "الديكوفيل"، كان الاسم غريبًا عليهما، في النّهاية عرفا أنّها كانت أهمّ
 وسيلة مواصلات بين القرى، في بدايات القرن العشرين، وبعد إقامة شركة
 السُّكَّر وكذلك شركة "وادي كوم أمبو"، أنشأوا مصنع السُّكَّر ونقل
 القصب أقاموا سكّة حديدية، ولكنها أقلّ اتّساعًا عن الخطوط العاديّة،
 وكيف استغلّها الأهالي للتّنقل بين القرى والعزب والنُّجوع، فكان
 "الديكوفيل" عبارة عن عجلات صغيرة لعربة سكّة حديدية، ومصنع
 فوقها حامل خشبيّ وفوقه أحيانًا كرّاس خشبيّة، يجرّها غالبًا حمار أو حماران،
 كتبوا عن التّوبة وبعض منهم كيف أبدى استياءه من إقامة السّدّ العالي، رغم
 أنّ بعضهم قال إنه تمّ تعويضهم عمّا أتلّف من منازلهم وأراضيهم، فأنشئت
 "كلابشة ومدينة ناصر"، والعديد من الأماكن، أشاروا أيضًا لما سمعوه عن
 حكايات الجعارين الذهبيّة وأهمّيّتها، تجوّلوا في أماكن عديدة، أخذت بلبّها
 لسحرها وجمالها، قبر "أغا خان" وحديقة النّبّاتات، استمعا لحكايات عمّا
 كان يتمتّع به "أغا خان المسلم" من محبّة ودعوته للتّسامح، وحتىّ اليوم
 مازالت مؤسّسته الخيريّة لها أوجه خير، ولا تفرّق بين الدّيانات، بل إنّ هذه
 المؤسّسة كانت ضمن المؤسّسات التي ساعدت اليهود في محتهم، وخاصّة في
 العصور الحديثة، وكيف استطاع اليهود إقامة العديد من المؤسّسات

الاقتصاديّة، فوصل تعداد هذه الشّركات إلى ما يوازي ثلث الشّركات القائمة في مصر، كلّ هذا في أربعينيّات القرن العشرين، سجّلا كثيرا من القصص والحكايات، ولكنّها لا تعود لحقائق تاريخيّة ولكنّها متناقلة من أجيال لأجيال، فكتبوا كيف كان يفكر اليهود في جعل المنطقة ما بين إدفو وكوم أمبو و دراو مستعمرة يهوديّة جامعة لكلّ الديانات، وكيف كانت مساهماتهم في تطويرها؟ من حفر ترع وزراعة ومصانع، نقلوا ما حدث بينهم وأحد العاملين في تجارة الآثار، فقد ظنّهم الرّجل آتين تحت ستار أبحاث وهم يبحثون عن الآثار، لم يجدا مفرّا من القسم بأنّهم ليسوا تجارًا للآثار، أمّا الشّيء المثير والغريب الذي لم يدرك أبعاده، فأول مرّة يشعر بالخوف، وشعر أنّ السّبب الحقيقي وجودها معه، ما إن هبطا من الفندق وتوجّهتا للسيّارة الأجرة الخاصّة المعتادة لمرافقاتهما، وفي الموعد المحدّد، ركبا في الكرسي الخلفيّ للسّائق، انطلق السّائق بعد أن ألقى إليه بتحيّة الصّباح، سمع أنّ صوته مغاير، أو كأنّه غريب عليه، تأمّل المرأة التي أمام السّائق... إنّّه ليس السّائق المعتاد، سأله... وبسرعة أجاب بأنّ السّائق اليوم مرهق بعض الشّيء، وأنّه تحت إمّرتها، المكان المتّجهان إليه زيارة ثانية لمعبد كوم أمبو وهو يعرف من أمس، انطلقا من فندق "كتركت"، وبعد مدينة "دراو" بمسافة لا تزيد عن ثلاثة كيلومترات، انحرف السّائق لطريق جانبيّ، وعندما سأله كانت إجابته حاضرة بأنّ هذا الطّريق مختصر، وكأنّ السّائق يدرك غرابة وجوده، وكذلك الطّريق، فأراد أن يقطع حبل الصّمت القائم، فراح يحكي عن مدينة "دراو"، وتجارة الجمال المشهورة به، وكيف كانوا يصطادون الجمال البريّة قديما؟ فكانوا يهاجمونها بقوة وضاوة، فقد كانت مفترسة، ولا يستطيع إنسان الاقتراب منها، ومجرّد أن يوقعوها في شباكهم يخزموها، باستخدام هلب من

الصُّلب القويّ في أنفها، أصغر مما يضع فيه الجُزَّار ذبيحته، ولكنّه من الصُّلب
 الأقوى، وما إن يخزموه، ومن السُّلسلة القويّة يربطونه لثلاثة أيّام، وقد تصل
 لخمسة أيّام، يجرّمونه من الأكل والشُّرب، في اليوم الأخير يتقدّمون ناحيته،
 ومرّةً يقدّمون الأكل ومرّةً الشُّراب، ما يزيد عن شهرٍ كاملٍ حتّى يألفهم
 ويطاوعهم، انتهت الحكاية وتوقّف السائق، فقد اعترضت طريقه سيّارة
 بعرض الطّريق، تقدّم اثنان، وطلبا منها الهبوط، اهتزّ عبد الوارث بقوّة
 واستشعر بخوفٍ يهزّ كيانه كلّهُ، أمسكت بذراعه بقوّة، دفعها أن تكون
 خلف ظهره، أحسّ بأنّه لن يتوانى أن يموت، ولا يمسه سوء، لا يرفعان
 سلاحًا، ولا يبدو على وجهيهما أيّ ملامحٍ للعنف أو القسوة، سألهما عمّا
 يريدان، أقسا بأنّهما لا يريدان لها أيّ مكروه، وكلّ ما عليهما أن يتبعاهما، ولا
 مزيد من الأسئلة، الخوف يسيطر على كلّ معاقل جسده، طلبا من السائق أن
 يعود أدراجه وأن ينتظرهما على مشارف مدينة "دراو"، كان الهدوء بادياً على
 وجهيهما، مضطران صعدا للسيّارة، بعد خمس دقائق، أو أقلّ امتدّت يد
 أحدهما، وسلّم كلّاً منهما واقياً أسود للعين، مما يستخدمه المسافرون
 بقطارات النوم أو الطائرات، طالباها أن يضعها فوق أعينهما، ومجرّد أن
 سأل، أجابه أحدهما، إنّنا سنقوم بنزهة خاصّة جدًّا في مكان لا يعلمه إلاّ
 القليل، حاولت أن تعترض، أقسا لها ثانية بأنّهما ضيفان مكرمان، لكنّ
 الأوامر الصّادرة تشترط ذلك، الموقف غريب ولكنّها لا يستشعران أيّ محاولة
 للعنف أو الأمر، وضع العصابة فوق أعينهما والسيّارة تمضي بهما، استشعرا أنّ
 الطّريق الذي تمضي فيه السيّارة غير معبّد، ارتجأ كثيرًا، ولكنّ كانت أيديهما
 حرّةً طليقة، فاستندا بها، وصمتا وفقًا للتعليمات، ما يقارب الأربعين دقيقة،
 وتوقّفت السيّارة، وطلب منها ألاّ يفكّا عصابة أعينهما، ساعدهما على

الهبوط، ويدها وأناملها مشبوكة بقوة في أنامله، بعد أن تحرّكا مسافة لا تتجاوز خمسين مترًا، رفعا العصا، استقبلها رجلٌ في الأربعين من عمره، يقرب طولًا من عبد الوارث، وملاحه السّمراء وسنّه الضّاحك يبعث الثّقة والهدوء، وما زاد ثقتهما، وبدّد الخوف داخلها، أنّه عرفها باسميها، والمهمّة القادمين بشأنها، ورئيس مجموعتهم واسمه بالكامل، فلكلّ مجموعة رئيس محدّد، والمسمّى في المؤسّسة خليّة، وليست مجموعة، هو المرجعيّة لكلّ خليّة والمشرف على أعمالها، ذكر أكثر من شخص ومجال عمل المؤسّسة نفسها، بدا في حديثه، ومخارج ألفاظه وثقافته وأدبه البالغ، مرحبًا بحرارة بكلّ منها، جدران أربعة عالية، وفتحات صغيرة قريبة من السّطح، ومجرّد مصاطب حجريّة بالجوانب، وفوقها مفاراش من جلود ووبر الحيوانات، وأغلب الأرضيّة على الشّكل نفسه، وأخرى منسوجة بألوان مقاربة للألوان التي يستخدمها النّوبيّون في منازلهم، رسومات غريبة على الجدران شبه ممحاة، لا تبدو جليّة متداخلة، لا تعكس صورة محدّدة، محفورة ظاهرة في بعض الأجزاء، سألهما عن آلات التّصوير التي معها، وكذلك عن أجهزة الهاتف المحمول، وإمكانية التّصوير فيها، يتوفّر كلّ من هذا وذاك، دخل رجلان، ورفعوا عن الأرض غطاء، وجذبا صخرةً على أرضيّة القاعة، انفرجت عن الطّريق إلى أسفل مدرّج بسلم حجريّ، تردّدا، كانت ابتسامة الضّيف مشجّعة وباديّا فيها المودّة، هبط أمامهما، وأضاء مصباحًا كهربائيًا في يده وتبعها اثنان بمصابيح أكثر قوّة، شعر برعشة يديها، وأطبقت على ذراعه بكلتا يديها، تنفرج المساحات بعض الشّيء، هواء بارد لا تستطيع أن تحدّد الجهة القادم منها، قاعة ذات أعمدة من حجر البازلت الأسود، قواعدها ليست مستوية جيّدًا، تبدو آثار معاول بادية عليها، تتّسع بعد أوّل عمودين،

لا وجود لأيِّ منافذ للتَّهوية، تماثيل متعدّدة لحيوانات أغلبها تجلس على قوائمها الخلفيّة ذات قواعد من المادة نفسها المصنوع منها التّمثال، ومسجّل فوق القاعدة كلمات فرعونيّة عبارة عن صور موضوعة بتناسق، أمّا الجدران فيها لوحات غريبة الشّكل، فهذه لوحة تمثّل ملكةً وملكًا جالسين، وفوق ساقبي الملكة يجلس طفلٌ صغيرٌ، وفوق رأسيهما تاجان وإشعاعات في صورة خطوط ساقطة من الشّمس، وقريبًا منهم تقف عازفة بلباس شفاف، تبدو من خلاله تقاطيع جسدها، تعزف على آلة وترية ضخمة، صورة شبه عارية لنساء منحوتة في الصّخر، تماثيل بأشكال متعدّدة وغريبة، تذهب أعينها في مختلف الاتجاهات، تبدو الدّهشة جليّة فوق وجهيهما، والرّجل يقف بجوارهما ساكنًا، لا يبدي كلمة واحدة، والحارسان يحاولان أن تسقط الأضواء على مختلف الجوانب والاتّجاهات، يشير عليها أن تنظر هذه المجموعة من التّماثيل، لا حديث دائر، يكتفي بلمس يدها ويشير بيده للاتّجاه، مجموعة من ثلاثة في الوسط تقريبًا الملك، وعلى يساره أنثى، وكأنّها الملكة، ومن النّاحية الثّانية فيبدو ككاهن، يصل ارتفاعهم إلى ما يوازي المتر والنّصف تقريبًا، ثمّ لوحة غريبة للملك يلبس التّاج، وعلى جانبيه اثنين من الجوّاري شبه عاريات، ينظر إليها، وكلٌّ منهما يداري عينيه، أو يبعد بها عن الآخر، أمّا الجعارين الصّغيرة الزّرقاء اللون، فأسفل قاعدة تمثالٍ فرديٍّ رائع من الدّهب الخالص، منشورة وكثيرة، وطولها لا يتجاوز عقلة الإصبع الواحدة، في النّاحية الثّانية جعارين، ولكنّها ذهبيّة مرصّعة بحجرٍ أحمرٍ قانٍ، تذكّرنا حكاية الرّجل النّوبّي الذي يضع واحدًا منها في أحد أصابع يديه مدّعيًا أنّها للحماية، تتّجه أبصارهما للجعارين، وكأنّه أدرك المغزى من نظرتيهما، فيصف هذه الجعارين بأنّ لها قوّة غريبة في الحياة، وربّما لا يدركها كلّها،

ويشير لتماثيل كثيرة مرصوفة بجوارها، طولها لا يتعدى خمسة عشر سنتيمترًا، فيحدثهم عن أنهم يسمونها في ربوع مصر "ونائس الموتى"، والاسم الصحيح لها تماثيل "الأوشبتي" وهي تماثيل بعدد أيام السنة ثلاثمائة وخمسة وستين تمثالًا، غالبًا تكون مصنوعة من الألبستر، أو الخشب المغطى بالذهب، وعليها أدعية دينية وهي تخدم الميت، وتلبي طلباته، وتساعد في ساعات البعث والخلود، وهناك علاقة ما بين الجعارين الذهبية، وونائس الموتى متعلقة غالبًا بفكرة الخلود، يصمت، ويطلبها أن يصورًا كل المقبرة، وما تحتويه من أثريات، ويضيف أن بعض هذه الآثار منقولة أيضًا من مكان قريب من هنا، وهذا يفسر السبب في أن هناك أشياء ربما غير متجانسة، هما لا يعرفان أي معلومة عن ذلك، يكتفيان بهز رأسيهما، يتصور أنهما يأتيان بهما، وقد تصورًا أنهما تجار للآثار، وهذه ليست المرة الأولى، يستبعد هذا الخاطر بسرعة، لقد عرفها بحقيقة عملها، وأنهما يتبعان خلية معينة، وطبيعة عملها، ذهب الخوف منهما، وحلت طمأنينة، فراحت العيون تتفحص بعمق، تستمتع بما أمامها، وتتأمل الجمال في تناسق الشكل واللون والمضمون، تقترب أكثر من الجعارين الحجرية، وتكاد تلمس أناملها بعضها، قال المضيف بابتسامة هادئة مشيرًا عليها بعدم اللمس لأي قطعة، فيمكن أن تؤثر عليها، وبدا وكأن عينها تسألانه عمًا يكون هذا؟ فيحدثها أن هذا الجعران من أندر الآثار المصرية، وأنه يوجد بكثرة في المناطق الأثرية المختلفة، وحاليًا أهميته القصوى في الكشف عن الآثار المخفية والاستدلال عليها، كل ما هو مطلوب، أن يؤخذ هذا الجعران، ويوضع في المكان المطلوب للكشف عنه، وباستخدام الثوم وعصير الليمون، يتحرك هذا الحجر ويدل على المكان، علت الدهشة وجهها، أما عبد الوارث فكان سابقًا في دنيا أخرى، راح

يصوّر كل ما تقع عليه عيناه، هائماً مفكراً، غير مصدّق ما يراه بعينه، تماثيل
 ذهبية وبرونزية سوداء في أوضاع مختلفة، أغلبها تقف الوقففة التّقليديّة شبه
 العسكريّة... قدّم للأمام... غالباً اليسرى، والثّانية للخلف قليلاً، وأغلبها
 فوق رؤوسها التّيجان، وأوانٍ فخاريّة غريبة الأشكال لا يدرك ما وراءها،
 فلم يتعمّق يوماً، أو يبحث في الآثار، فهو جاهلٌ بها، وتوايبت ذات رسوم
 للوجه مذهّبة أو غير مذهّبة، خشبيّة وأخرى حجريّة، أقنعة غريبة مختلفة
 الأشكال والألوان، أغلبها أقنعة لوجوه نسائيّة، تعود عيناه للجدران من
 حوله، فيتأمل النقوش والرّسوم، وكأتمها تصف الحياة اليوميّة، أو ربّما شعائر
 دينيّة قديمة وتقديم القرابين بين يدي الملك الجالس على العرش، ألوانها ما
 زالت قائمة وجميلة، في نهاية القاعة الغربية الضّخمة باب منحوت في
 الصّخر، فاقتربا منه، سقطت الأضواء، وكأتمها يسألاه: هل يدخلان؟ اهتزّت
 رأسه بالنّفى، وعدم الموافقة، قائلاً بأنّه هو نفسه لم يدخلها، فهي تعتبر قاعة
 خاصّة بموميّات ملكيّة لم يتم التّعرف عليها حتّى الآن، فيها ما يقارب
 عشرين مومياء لم تلمسها يدٌ من قبل، ولا يعلمون إن كان بها زئبقٌ أحمرٌ من
 عدمه، تأكّد من أنّها صوراً كلّ ما احتوته القاعة، وراح يستعرض الأسباب
 التي من أجلها أتى بها إلى هذا المكان، أوّلاً؛ ليريا على الطّبيعة هذه الآثار،
 وهو يعرف أنّها ليسا خبراء، ومعلوماتها لا تتعدّى الإعجاب الشّكليّ،
 ويمكن أن تكون غير حقيقيّة، أمسك بيده "بساً" ذهبياً وهو القطّ المصريّ
 المعبود، وراح يقلّبه بين يديه، ويطالبها أن يصوّراه من مختلف الزّوايا،
 فالمطلوب منهما أن يعرضا ما شاهدها على السيّدة أو معاونيها العلماء
 الأوصياء، كان في نعمة كلماته شيءٌ من السّخرية، فقد كان يضغط على مخارج
 الحروف بطريقة معيّنة، نظراً لبعضهما، وفوق وجهيها علامات استفهام

كبيرة، لم يهتم بما انعكس عليهما، فواصل حديثه، شارحاً لها أنّ تجارة الآثار لها العديد من الطرق والوسائل، أكثرها انتشاراً أنّ تصوّر الأثر على جريدة يومية منتشرة للتأكد من صحّة التاريخ وصحّة الأثر، وتعدّدت الطرق... منها طرق التّأمين بدفع مبالغ كبيرة لا تُردّ في حالة النكوص، أو عدم صحّة وسلامة الأثر، وقد وجد فيها أفضل وسيلة للترويج لآثاره عن طريق مؤسّستها، وما لبث أنّ أشار على أعضاء سابقين من خلية أخرى قدموا، وباسمها وبدون ذكر للمؤسّسة اشتروا وباعوا، ولكن لا شيء يخفى في بلدنا، طلبوا سمسة عالية، وكانت ظروفنا تستدعي البيع فوافقنا مجبرين، ولم يدفعا نصيب أكبر سلطة في البلد، وهذا خطأ كبير، فالجميع يشارك في اللعبة والسّمسة، والكبير ومعاونوه والمحافظون على الأمن لهم دور لا ينكره إلا جاحد، فهم جحدوا، وأنكروا، وتمّ القبض عليهم، ولكن في صورة سرّيّة لا يعلم بها أحد، سوى رجال الأمن فحسب ووفق الخطط الموضوعة، نقل الخبر للقاهرة، وبسرعة تحرك الكبار، وتمّ الدّفع بما هو مطلوب، وذهبت الأشياء لأصحابها وتمّ فصل أصحابكم، ولكنّها فازا بمبلغ يكفل لها حياة هائلة حتّى أحفادهما... ثم قال ضاحكاً... سيكون لكم نصيب سينفع أحفادكم، ولكن ساعة أنّ تنتهي عملية التسليم والتسليم، كلّ ما عليكم العرض، حتّى لو كان لمؤسّسة أخرى، امتدّت يده لداخل جيب صديريه الدّاخلي، وأخرج مفتاحاً للحياة صغيراً مرصّعة دائرته العلويّة بحبات بارزة، ولكنّها ليست من مادة المفتاح نفسها، ابتسم لها، وتوجّه حديثه لعبد الوارث، هذا النوع مقصور على السيّدات فقط، فهو كفيف بجذب قلب الحبيب، وحماتها من أيّ أفعال سحرية، يقوم بها المنجّمون أو أشباههم، وكما قال إنّّه يعتبرها عربون صداقة بينهم، أملاً أنّ يراها من جديد، وأقسم أنّ

نصيبها تحت أيّ عمليّة بيع من خلالها، وبسبب عرضها، محفوظ، وحتى إن لم يتواجد في أثناء عمليّة البيع، واستأذنها إن وافقا أن يتركا له تليفونيهما المحمول، لا إرادياً، وبعد أن شدّ على يديه عبد الوارث شاكراً ومنحه تليفونه فقط، ابتسم بدوره، وقال إنّه كان متأكّداً من ردّه هذا، وضعتْ هديّته في حقيبتها، وبالطريقة نفسها التي أتيا بها بعد عصب أعينها مضياً، وجدا السائق في المكان المحدّد.

يوم غريب، مشاهد لم نخطر على بالهما، فعيناها ما رأّت قبل ذلك هذا الكمّ من الآثار الذهبيّة الفرعونيّة، حقاً، إنّ بريق الذهب يخطف العيون، ولكن أين هذا المكان؟ إنّ تحدّثنا فمن يصدّقها، لقد سمح لها أن تصوّرا ما شاء، تصوّرا كلّ ما وقعت عليه عيونها، تصوّرا بأجهزة المحمول فيديو وصوِّراً وحيدة، كما صوروا بالكاميرا صوراً متفرّقة، أشكال غريبة، وأسما لم يسمعا بها من قبل، فتلك "وناييس" الموتى في القبور، تماثيل من الجرانيت يقول عنها شواهد للقبور ولكلّ قبر واحد أربعة منها، كلّها مدموغة ومختومة بخاتمها الفرعونيّ، وكأنتها دمنغة ذهبيّة كما يعتادها الجواهرجيّة، يسمعون ويرى دهشتهم ويحاول أن يفسّر ما خفي عنهم، يدركا أنّها لو عادا فكثير من الأسئلة تاهت عنها فقد اعتراهما الخوف، شرح لها عن كيفيّة التأكّد من صحّة هذه التماثيل، فهذه خرطوشتها أو ختمها على القدم، وهذه على الظهر وتلك فوق حزام الوسط، أمّا أشكال تماثيل "أنوبيس" ذو الرّأس الأسود المطعمّ الجسد بالذهب، فهذا حارس الأموات، مجموعات كبيرة من القطّ المقدّس من الذهب الخالص، كما يُسمّونه "البسّ الذهبيّ"، وثمان الواحد منه يتعدّى ثلاثة ملايين من الدُولارات... هكذا قال.

عندما وصلا إلى الفندق أحسَّت برعشة غريبة تأخذ جسدها كله، وكأَنَّها
 تلمس في يديه وجسده الدَّفء، أخذها بين ذراعيه وصعد بها لحجرتها، عرق
 غريب يتصبَّب على جبهتها، وأسنانها تصطكَّ بصورة غريبة، أسرع وطلب
 من عامل الاستقبال طبيبًا على وجه السُّرعة، لا يدري ماذا يفعل في تلك
 الظُّروف؟ تمالك نفسه، وسحبها ووضع رأسها تحت وابل من المياه الباردة،
 رفعها بين يديه ووضعها فوق مخدعها، ثمَّ وراح يصنع ضمادات مثلَّجة،
 ويضعها على جبهتها ويقوم بتغييرها، مضطرًّا يمسح بالضمادات رقبتها
 وجيدها، لم يرَ، ولم يشاهد شيئًا، يغمره خوف عليها، وبعد حضور الطَّبيب،
 وإشارته بأنَّها مجرد ضربة شمس ستزول بعد ساعات، ولا خوف منها، أمَّا ما
 عليه فهو أن يواصل الضمادات المثلَّجة، تناولت علاجها، وذهبت في نوم
 عميق، كما قال الطَّبيب، طوال الليل بجوارها، لا تفارق عيناه وجهها، تكاد
 تنساب من عينيه الدُّموع، ماذا يحدث؟ وماذا يجيِّ له القدر؟ إنَّه يشعر بأنَّها
 ملكت كلَّ كيانه وحياته ووجدانه، ليس صغيرًا، وليس فتىً مراهقًا، لقد
 وصل للأربعينيَّات، نعم، خبراته مع النِّساء لا تتعدَّى الحديث، ويوم أن كان
 له نصيب، لم يفلح، ولم يستطع أن يصل لمصافِّ الرِّجال، وماذا يكون بالنِّسبة
 لها؟ يشعر بلهيب عشقها، ولكن هل يُدخلها في سجن زواج مع إيقاف
 التَّنفيذ؟ هل قبلها يذهب لطبيب ليشرح له حالته الرَّاهنة، وما حدث له في
 زواجه الأوَّل؟ هل ما حدث مرض؟ نعم، لقد تعدَّدت حالات الاستحلام
 في النوم، فهل تقتصر على ذكريات النَّوم؟ هل يذهب بفكره لتلك الأقوال
 الغريبة المستفزَّة لأفكاره؟ فما حدث نتاج لعمليَّات سحر وشعوذة، ولا يحلُّها
 إلَّا اللجوء لأمثالهم، لكن هذا من ضروب المستحيل بالنِّسبة له، انظر... هذه
 المدينة الضَّخمة التي لا يعرف فيها الجار جاره، مَن يسأل عنك، ومَن يهتَم

ذهبت لطبيب، أو مشعوذ أو ساحر من إياهم، عليك أن تعيش، عليك أن
 تلمس كل الطرق لأجل هذه الفتاة تكاد تخرج من عينها كلمات العشق لك،
 حرام عليك، عليك أن تحترم كبرياءها، أنتتظر أن نفاحك هي؛ لتحدثك بما
 يلج في صدرها من مشاعر؟ كثيراً ما تعاملك، وكأنك سيد مطاع تأمر، وما
 عليها سوى التنفيذ، لقد أسقطت كل الأفكار الخاصة بحرّيتها الشخصية،
 سقطت في بئر زوجات العصور السالفة، قالت لك إن أمرها بيدها منذ
 لقائكما الأول، ينظر إليها، ويقوم بتبديل الضمادات والمياه المثلجة، تغيّرات
 كثيرة في حياتها حدثت بمحض إرادتها، كانت تستجيب لكل فعل يرضيه أو
 مجرد أن تحس في عينيه ذلك، هل تحلّت فتاة الجامعة الأجنبية عن مفهومها
 للحرية بسببه، هل تحاول أن ترضي كبرياءه الشرقي؟ هل في صمته وعدم
 البوح بما يعتلّ في صدره كبرياء عليها؟ أم عدم قناعة بها كحبيبة وزوجة، أمّا
 هو، فكثير من الأفكار تأخذه، أوّلاً: عدم يقينه من قدراته يوماً كزوج، وثانياً:
 الأمور التي لا تفارق رأسه... فارق السنّ بينهما، وإن وافقت هي، هل يوافق
 أهلها؟ ومن يكون؟ وقدراته المادية، فهم يحسبون كل الأشياء في الدنيا بالمال،
 طوال الليل بجوارها، لم يغمض له جفن، ولج بفكره لكل الآفاق علّه يجد
 بصيصاً من نور يرفع عن عينيه الظلمة، ذهبت درجة الحرارة تدريجياً، توضعاً،
 وصلّى الفجر ودعا الله لها كثيراً، مسح دموعه، وكان وجهها القمريّ اكتمل
 بصفاء ليلة المنتصف من الشهر العربيّ، بجوار السرير جلس مسترخياً، تسلّل
 النعاس إلى عينيه، حاول أن يبعده، وكان لسلطان النوم قدرات، غفا وذهب
 في غفوته، لم يصدّق عينيه، وجدها أمامه وقد عاد لوجهها بهاؤه ونضارته
 المعتادة، في لباس نومها، حديث وأسئلة وأجوبة بين العيون، ألقّت بنفسها
 بين ذراعيه، فاحتواها بقلبه، وكأنّها أقسمت ألا تتركه، التصقت أكثر، نعم،

هو مَنْ جلس أمام فراشها حتَّى الصُّباح، هو مَنْ خلع عنها ملابسها، ومَنْ ساعدها في ارتداء ملابسها المنزليَّة، رجعت للخلف تتأمّله، وهو لا يتحرّك من مكانه، تتعلّق عيناه بها، وكأنّه ينتظر ما تسفر عنه أفكارها، تنهمر دموعٌ من عينيها، وكأنّها اللؤلؤ المنثور، ركعت، وجلست تحت قدميه، بلّ بينهما، رفعها بيديه، جلست فوق ركبتيه، تتحسّس يديه وجهها ورأسها، يرتّب بحذر بالغ على كتفها، وتداعب يده خصلات شعرها، تذوب عيناها فيه، تحتضنه أكثر، فتدفن رأسه في صدرها، تتشابك يديه حولها وتحصرها هيأماً وحبّاً، أصبحت هي ملاذه في الدُّنيا، لحظة تتألّف كلُّ رؤى الجمال، لتصوغ في نظر العاشق مثلاً فريداً للجمال، تذهب كلُّ صور النِّساء من مخيلته، وما أقلّها في حياته! فلا تبقى إلاّ صورة وحيدة، تطوّقه بذراعيها وكأنّها تخاف أن يرفع رأسه من بين نهديها، تهبط دموعها فوق رأسه، ويستشعر لهيب نبض قلبها المتدفّق، يتماساً طرفا العشق، أقطاب الحياة وسبب الحياة، تتوافد زخات مطر شتويّ، فتهتزّ أغصان الهوى، يغمض عينيه المحاصرة، وتلتمس شفّاته الطريق لأعلى، يبدأ من خطّ الحياة، ومن فوق ثدييها، فيرتفع ملثمّاً كلُّ ما يعترض طريقه، باذراً بذور العشق والهوى، تهيم وتبته في وادٍ، لم تزل قدميها فيه من قبل، لم تستنشق عقب زهور وندى صباح من قبل، هل تمضي الشِّفاء في خطوطٍ مستقيمةٍ؟ أم في خطوطٍ متعرجةٍ؟ كلُّ الطرق تصل لنبع الحياة، تسقط، أو تسبح وتهيم في بئر عشقها، تلتمس القلوب الحياة في الشِّفاء البكر، في الرّعشة العذراء، تغرق في رضاب، تأتلف الرّوافد من مزيج الرّضاين فيفجّران نهراً لعشقهما، يرفعها بين يديه، رغم النّهار وتسلك أضواء الصُّباح، تتحرّك السّتائر بفعل فاعل، وتغمض أضواء المصابيح جفنيها، ليسبح العاشقين في هو الظلام، أغمضا عينيها، وتاها، يدبّ النّشاط ما بين سكر

ونشوة، موسيقى تعزف من خلال همسات وآهات، إيقاع راقص لعضلات مع دقات طبول نصر في القلب الهائم، تفاعل كيميائي إنساني رباتي في رضاب يمتزج في حركات تشن وتلوّ ونشوة وارتخاء عضلات، كلّ عضلة في الجسد كآلة موسيقى لها دورٌ محددٌ مصاغ بدون نوتة موسيقية، فلا وجود لمايسترو يشير لتنوع الحركة ليعطي كلّ دوره ولحظته، فلا يشير بتنوع وتزامن الحركات، ترتعش وتلتمس الدّفء في عناقه ثانية، همسات، حركات شفاه بلا كلمات، كلام هامس لا يسمعه سواهما، يذوب جليد الوحدة في عناق الشّهوة الملتهبة، يذوب كلّ منهما في الآخر، لا مسافات فاصلة ولا حدود، هو هي... هي هو... تتألّف موسيقات العشق المعزوفة، وتتردّد في جنبات قلبيهما، من أنفاسهما وآهاتهما تصاغ سيمفونية عشق لم تعزف من قبل.

ذهبتُ عذريته وعذريتها، إنّها مازالت بكرًا!!! حدّثته نفسه متعجّبة، رغم كلّ ما تمتلكه من حرّية!!! وهي تعلم أنّها عذراء، هو تأكّد أنّه ما زال مكتمل الرّجولة، زهو يغمره، ويكاد قلبه يتيه فرحًا بما حقّقه، إنجاز كان يمثّل نهاية الدّنيا بالنّسبة له، يختلس النّظر إليها، تخفي بقع العشق الوردية القائمة اللون، التي أعلنت سقوط صروح عذريتها بإيعازٍ منها وموافقة قلبية، تتقابل عيونهما وما تلبث أن تتّجه للنّاحية الثّانية، وكأنّ كلّاً منهما يحاول الهرب من فعل محبّب إليه، هل يعتذر؟ كيف؟ ماذا يقول؟ هل اغتصبها؟! أم هي التي اغتصبته؟! هل داور وحاور ودفعها للفعل؟! أم هي من دارت به، وأسكنته بواديا وجنتّها بإرادتها؟ سحب ملابسه، وهو مطرق على الأرض، ارتداها وخرج لحجرتة.

كيف يواجهها؟ كيف يهرب من عينيها؟... نظراتها المعاتبّة... هل يطلب منها الزّواج؟ مؤكّد، ستظنّ أنّه يطلب ذلك بعد أن وصل لمبتغاه، وهي لن

ترفض في هذه الحالة، ستفكر في شرفها، وإنقاذ سمعة أهلها، ستوافق على الزواج منه مضطرة، إذن ليعرض عليها الزواج على أن يطلقها بعدها مباشرة حرصاً على سمعتها، أفكاره لم تخرج من عباءة أيامه السالفة، من تخرج من أطر القرية وعاداتها وتقاليدها، كيف الطريق؟ إنها أصبحت كل حياته وأمنيته، عاشا اللحظة معاً، وكانت دافعاً له، ربّما؛ لأنّها صغيرة لم تدرك نهاية المطاف والفعل، أدركته وعرفته الآن، وشعرت أنّه ذئب في ثياب إنسان، استغللت لحظة ضعف ومرض عضويّ، وربّما هذيان، وسرقت شرفها، ذهب في التّوم، ولم يدر بنفسه، طرقات على الباب، وأخيراً سمعها، قام من فورهِ، فتح الباب، أمامه في أجمل ما يمكن أن ترى، كم هي رائعة! ونضارة وجهها غير الملوّن إلاّ بقليل من الكحل في عينيها، لا إرادياً، فتح يديه، فألقت بنفسها بين ذراعيه، دفعت الباب بقدمها فأغلقتة، كانت تستعدّ للخروج، ناما ونسيا كلّ المواعيد، كم جميل المساء على شاطئ النّيل! يمضيان وذراعاهما متعانقان، وكأنّها تحسّ بما يعانيه، فقد عرض عليها ضرورة الزواج في أقرب وقت ممكن، بلا تردّد أجابته أنّ هذا مستحيل، راحت تضرب أمثلة، وتسوق أسباب ومعاذير، صامت لا يبدي اعتراضاً أو موافقةً، تكرر له كلمتها بأنّ أمرها بيدها، راحت تستعرض أمامه أشياء كانت خافية عليه من حياتها ومن الوسط الذي تعيش فيه، هل ترفضه؟ أم أنّها ما زالت على كبرياتها؟ هل تخاف أن تبدو أمامه بأنّها تتوسّل إليه للزّواج منه، راحت تقصّ عليه أنّ أغلب بنات الجامعات الأجنبيةّ يعشنَ وفقاً للتّقاليد الغربيّة، فلا يمهّن أنّ تظنّ عذريّتهنّ أو تنفض، بل إنّ كثيراً منهنّ يصفن من تحافظ على عذريّتها بالتّخلف، قطع حبل الصّمت الجميل...

— لقد رجع لي كياني، لقد أرجعتيني للحياة... توكزه في جنبه، يضحك،
ويبتعد قليلاً.

— انتظرت أبو الهول ينطق... أخيراً نطق... انتظرتك كثير.

— بدأت حياتي يوم رأيتك.

— أرسلك الله لي... كدت أهرب من الدنيا كلها.

— نتزوج.

— موافقة.

— الآن.

— موافقة.

— سنذهب إلى أيِّ مأذون هنا في أسوان.

— لنتنظر.

— لا أستطيع الانتظار ثانية... هل عرفتِ كلَّ شيءٍ عني؟

— أعتقد أنّك حكيت لي عن كلِّ شيء... حتى زواجك شبه الصُّوري...

وأنا لم أخفِ عنك شيئاً في حياتي... لنبدأ من جديد.

لم ينتظر، فقد وصلا لمنطقة "السييل" بمساعدة سائق السيّارة الأجرة،

الذي استقدم شخصين آخرين للشهادة، أروع أيّام عمرهما، طافا بكلّ ربوع

أسوان، وكأنتها يطيران من فوق الأرض، هاما بكلّ شيء، ضحكت، وكأنتها

لم تضحك من قبل، نامت على ذراعه، وكأنتها طفلته المدلّلة، استشعر كأنّ

عمره لم يتعدّ العشرين عاماً، أرجع كلّ السعادة التي يعيشها، وأنّ الله منّ

عليه بها، لسبب رئيس، وهو طاعة والديه في حياتها وبعد مماتها، قصّ لها عن

حبّه الأوّل، كيف أقسم يوماً ألا يعود للقاهرة ثانية مهما كانت الظروف،

حنث في قسمه، وصام أيّاماً ثلاثة، وكان الله أراد أن يهبه أحلى هديّة في حياته،

فعاد للقاهرة ليجمعها الله، قصّت عليه ما خفي من حكايات، كانت لا تخفي شيئاً كعادتها، عاشت بصدق، وهي ترجع أن الله أهدها لها؛ لأنّها كانت طوال عمرها صادقة ولم تكذب قط، وسأقت حديث الرسول ﷺ في شروط المسلم الحق وإمكانية أن يفعل أيّ شيءٍ إلا الكذب، لم ينسيا الموضوع الأساسي، وما قدما لأجله إلى أسوان، فكتبا وصاغا عبارتهما في فلك الحب والخير والسّلام، وكأنتهما يكتبان ما يختلج قلباهما من مشاعر، فكتبا عن اليهود في مصر منذ سيّدنا يوسف - عليه السّلام - وكيف عاشا في محبة مع المصريين، وكيف وصلوا لأعلى المناصب في الدّولة، عن حارة اليهود في القاهرة، ورغم مسأها إلا إنّ غالبية أهلها من المسلمين والمسيحيين، وكيف عاشوا في وئام وسلام؟ وسكنهم أيضًا في درب "سعادة" بحارة "الجو دارية"، حقوقهم المشروعة أيام صلاح الدّين الأيوبي، ولا ينسى التّاريخ الطّيب اليهودي الذي عمل أثناء الدّولة الأيوبيّة، المدعو "موسى بن ميمون"، أمّا عهد الخديوي "إسماعيل" فكانت أفضل العهود، وفتح الباب أمامهم، فتقرّبوا من الحكّام، وصاروا أصحاب رؤوس أموال كثيرة، وأيضًا أحبّهم المصريون، فعلى سبيل المثال سنة ١٩٣٨م الحاخام "ناعوم" قال إنّ اليهود المصريين موالين لمصر، بل إنّ طالب يهود مصر أن يدافعوا عن مصر، ونفى ما تقوله الصّهيونية ضدّ مصر، ولم يقتصر الأمر على مجال محدّد، ففي مجال السّينما من أروع ما تراه من تلاحم وحبّ المصريين عمومًا، في عام ١٩٦١م تمّ إنتاج فيلم اسمه "رسالة إلى الله"، فمنتج الفيلم اليهودي "إبراهيم مراد"، وكاتب السّيناريو والحوار "عبد الحميد جودة السّحّار" المسلم، ومخرجه "كمال عطية" المسيحي، ولم ينسوا أن يشيروا لأحد أعلام الصّحافة والأدب الأستاذ "محمد ذكي عبد القادر" وعمله الرّوائي الرّائع "أجساد من تراب" عن مجموعة من البشر

كان نصيبهم الجنة، وأرادوا أن يهبطوا للأرض، ليروا ما حدث فيها وعليها، وحاولت الملائكة أن تردّهم عن مطلبهم، لكنّهم تمسّكوا به، عادوا للأرض، وبالطّبع عاد كلّ منهم لحياته الأولى التي كان عليها، فكان منهم اليهوديّ والمسيحيّ والمسلم، وكان بينهم ثائر لا دين له، وسيّدة كانت ذات سلوكٍ منحرف، ومَن يتأمّل العمل يشعر بمدى السّاحة بين المصريين، حتّى في أفكارهم التي تنادي بحرّيّة الفكر والعقيدة، مضتْ أحلى أيّام العمر، وكتبا كتابًا جمعاً فيه الكثير، وحازا مكافأة، وكانت أحلى المكافآت أن اجتمعا فوق مخدعٍ واحدٍ، ووفقاً لشرع الله.

الفصل الحادي عشر

سماسرة الكلمات

"مس لافويت" عاشقة مصر و تراب مصر، من يوم قدمت لربوع مصر، تنوعت خدماتها، وكانت البداية الإنسانية الرائعة، مبنى ومستقر قرية أولادنا، تعددت اليوم هذه المراكز في مختلف مناطق مصر، وصلت حتى حدود السودان، خدمات لا تنتهي للأطفال، لم تغفل الجانب الثقافي، ولكنها استعانت بأكثر من خبير في هذا المجال، رغم ضيقها الواضح من دكتور "برهان"، فكثيراً ما يهيل التراب على التراث اليهودي، إنه يكره اليهود بصورة مستفزة، تصنّفه بأنه ممن رضعوا أفكار التعصّب من ثورة عبد الناصر، ليقراً الكتب الجديدة ليعلم أنّ عبد الناصر جرّ البلاد لمصائب لا تعدّ ولا تحصى، ألا يدرك أهمية اليهود في الحفاظ على التراث المصري والعربي؟ تطاردها كلماته التي يطلقها بين حينٍ وحينٍ، تقرأ الجريدة التي قليلاً ما تنشر أحاديث عنه، حديث طويل تناول فيه العديد من القضايا، بين كلماته ثورة وتذمّر وألم وأمنية، هي تمنى ذلك، ولكن كيف الحصول والوصول إليه؟! فيقول مقاله: نعم... نحن مطرودون من جنّة مخلوق مثلنا، نحني هاماتنا، ونخرج منها مطأطي الرءوس، نخرج قسراً وغصباً، فهل نبدأ في رسم معالم جنّة تخصّنا؟ نخطّط لجنة جديدة تخصّنا، الخوف حتى لو وفقنا، هل يتركوننا نعم بالجنّة التي بذلنا فيها حياتنا؟ غرسنا أشجارها، ورفعنا عروشها، لا

أعتقد أنهم سيتكوننا، فليست كل الأرض مباحة، فالأرض خارج الجنة مملوكة لأصحاب جهنم، وأصحاب جهنم لا يمنحون صكوك غفران في الدنيا والآخرة، هم خارج سرب البشرية والحياة الإنسانية، ليس أمامنا سوى الاقتحام والدخول للجنة، فإننا شركاء في استزراعها وبنائها، لندخل وليكن ما يكون، من البداية على الجميع أن يقتنع أن يوماً في الجنة أفضل من عمر كامل، وفي سبيل ذلك، فليمت من يموت، وليعيش الباقيون، علينا ألا نقبل بالتّهجير، أو بالطرد ومطلوبٌ منا أن نبني على الجانب الآخر من الجنة مدافن لبقايا أجساد أصحابنا، وعلينا وبجوار الصّبار أن نزرع بعضاً من أغصان الياسمين والفلّ والنباتات العطرية، ولنضع لوحة تمنع الزوّار من الاقتراب في الشهرين الأوّلين من الموت، حتّى لا تزكم أنوفهم رائحة أجسادنا التّنة، وفي اللوحة نفسها علينا أن نسجّل أنّنا ولدنا في هذه الدّنيا، لم نترك حقوقنا، وهذا تاريخ حياتنا، إذن لا مفرّ من الثّورة، فالثّورة كتابة على وجه التّاريخ، قد تحمل النّجاسة والطّهر، شأنها شأن كلّ الأفعال البشريّة، فلا ملائكة في الثّورات، فإنّها ثورة الإنسان ضدّ الإنسان، ولا يستطيع إنسان أن يتخيّر أفعال الثّوار، أو أن يمضي وفق قواعد ونواميس، فالثّورة ضدّ كلّ ما هو قائم، تكسر كلّ الجدران، فتتعرّى أفئدة النّاس، فهل الثّورة فعلٌ همجيّ وقرايين تقدّم ونيران تشتعل؟ نعم، إن فشلت ستسجّل في التّاريخ فعلاً همجياً، الشّباب ثمّ الشّباب، فالثّورة مقترنة في توهّجها بالشّباب، ولكن خارج عباءة القدماء، هل يستطيعون أن يخرجوا من أطر الصّور التّقليديّة شبه البالية؛ ليتأمّلوا؟ فالثّائر كالواقف أمام جدران كلّها مرايا، وعدد الصّور المرئيّة كثير، ولا يستطيع حصرها، وليست كلّ المرايا مستوية فتعكس حقيقة الصّورة بلا أبعاد كاذبة.

تذكّرت "أنيس الروي"، وفي لحظةها تحدّثت إليه بصوت فيه صلف وعنف، وكأَنَّها تشير بين كلماتها لما قامت به، من مساعدات خاصّة به طوال الأعوام الماضية، من مجرّد عامل في مكتبة ودار نشر لا حول له ولا قوّة، لصاحب دار نشر يُشار إليها وعليها، وزاد من بهاء الدّار، كمّ الجوائز التي رُشّحت إليها مطبوعاته التي لا تصل غالبًا لهذه المرتبة! إلاّ بالعلاقات الممنوحة لكبار القائمين على الثّقافة والفكر، فتارة تفرد لها ولكتابتها وكتبها صفحات، لكن تمنع أصحاب الفكر الحقيقيين من المساهمة في تلك الكذبة، وكأَنَّها تخلّت عن كلّ أصول البروتوكول المعتادة في وسطها المتعالي، وكأَنَّها فكّت عن وسطها ملاءة بنات البلد، وثارَت فارتفع صوتها، فبادرت، وأشارت لما قدّمته له، كيف كان؟ وكيف أصبح دورها؟ وكيف اشترت هذا الموقع في وسط مدينة القاهرة؟ لم تحجل، وأشارت لكمّ المصائب التي يرتكبها، وآخرها شيكات بدون رصيد، وأرسلت من أنهى المشكلة قبل أن تصل للقضاء، كيف تطالبه منذ ما يزيد عن شهر بأن يجذب المدعو الدكتور "برهان" لحديثهم؟ لماذا لم يعرض عليه حتّى الآن نشر أحد كتبه من خلاهم؟ أقسم لها بأنّه أرسل إليه أكثر من مرّة، ولكنّه لم يحضر، طالبته بأن يذهب إليه بنفسه، وليحاول معه بكلّ الطُّرق، وكأنّه أحنى هامته، وأبدى استعداداته لكلّ ما أشارت به عليه.

في الصّالة الدّاخلية لدار النّشر، لا يفصلها عن الباب الخارجيّ سوى ممر طویل بعض الشّيء، يستطيع من يدخل مباشرة أن يلاحظ الجالسين، نحن في شهر رمضان، وهذا العام حرارته شديدة، لا يدري كيف تمّ ذلك؟ ولكنّه ضغط الجرس أكثر من مرّة، لم يرد أحد... وفوجئ أن الباب مفتوح، دفعه بحرصٍ شديدٍ فهو أوّل مرّة يدخل هذا المكان، شروط الضّيافة أن يستأذن،

كثير من الأصول تسقط منه، لكنّه قد تربّى على عادة الاستئذان منذ طفولته، فلم تسقط بعد، تقدّم وخطاه تسبق عينيه... تمسح المكان، طالعه مباشرة كميات الكتب المرصوفة في الواجهة الداخليّة مباشرة، وكأنّه تعمّد ألا يسعل، أو حاول فلم تتواصل معه، متلصّصاً... ألقى بعينه للممشى الطويل، داعبت أنفه بقوة رائحة الدخان والحشيش، ليست هناك احتمالات، ولكن المؤكد أنّ الضباب الخارج من الحجرة الداخليّة، مشبّعاً بغزارة برائحة الحشيش، هو صائم، رغم أنّه كثيراً ما يخرج عن النّصّ الدينيّ والمفروض، لكنّ عادة الصّوم مكتسبة أيضاً من طفولته، نظر ثانية "لعن سنسفيل الي خلفوهم"، عاد متريّثاً، وماذا لو لم يكونوا مسلمين؟ من حقّهم أن يأكلوا ويشربوا ويدخّنوا، هل الحشيش حرام على المسيحيين؟ تذكر صديق طفولته المسيحيّ، وكيف تقاسما سيجارة الحشيش في أوّل حياتهما؟ كانا في المرحلة الإعداديّة، أبعده عن رأسه اللعنة، وعليه أن يلتمس العذر، توقّف فنظروا إليه، وضحكوا، وكأنّه الرّجل الخارج من الدخان، ألقوا نكتهم تباعاً، شاركهم في الضحك، ولم يتحرّك من مكانه، لم يجد بينهم المسيحيّ الذي يلتمس له العذر، يأكلون ويشربون ويدخّنون في نهار رمضان، تأمل من جديد، فهذا الحاصل على جائزة الدّولة العام السّابق، وهذا حصل على جوائز مجموعها يُقدّر بالآلاف، وهذا يُفردون له صفحة في الجريدة التي يقولون إنّها ممولة من جهات أجنبيّة، ويحصل شهريّاً على ما يوازي راتب مئة شاب من خريجي الجامعات، أمّا هذه التي يظهر أكثر من نصف ثديها الرّائع في نهار رمضان، فصاحبة الخطوة عند الكبراء، صاحبة الأحاديث التي تقطر إنسانيّة عن الفقراء والمحتاجين، كتاباتها تحوّل لسيناريوهات، ومقالاتها لكتب، شاهدها آخر مرّة في التّلفزيون تناقش شيخاً في الدّين، آه، كم كانت رائحة

وكاذبة! وكأنَّ الحديث متَّفَق عليه، أمَّا صاحب الدَّار الثَّوريِّ الكبير المتَّفنن في إرضاء الأصدقاء، فقد أسرع إليه مرحبًا، تراجع للخلف، وصنع ابتسامه، أخذه صاحب الدَّار بالأحضان مقسمًا برحمة أمه أنَّه ينتظره من فترة طويلة، ساق له العديد من الأسباب، أحسَّ الرَّجل بأنَّه يتراجع للخلف، همس في أذنه "أنت صائم"، لم يجبه، واكتفى بابتسامه، سحبه إلى إحدى الحجرات الدَّاخليَّة، وراح يسوق الأسباب والمعاذير الغريبة التي بسببها يفطرون رمضان، وتارة يقول إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، وتارة أخرى يعود قائلًا: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، هو يسمع إليه متمنيًا أن يقاطعه، معلنًا أنَّه لا يهمَّ ما يفعلونه، يتمنى أن يقول له هم أحرار، لا يعطيه الفرصة، ما لبث أن حدَّثه أن كلَّ واحدٍ منهم مريض، فهذا غصب عنه السُّكَّر يكاد يقتله، يتمنى أن يقول له إنَّ زجاجة البيرة المثلَّجة التي كانت أمامه لو كان كلامه حقيقيًّا لقتلته، فيستمع له صامتًا، وابتسامته لا تفارقه، وهذا داؤه في القلب، وهذا ضغط الدَّم مرتفع لأقصى درجة، يتمنى أن يسأله عنها؛ لأنَّها لفتت انتباهه، قبل أن تتحرَّك شفاهه، راح يلمس العذر لصاحبة الصِّدر المفتوح بأنَّها تشعر بحرارة الجوّ، فاضطرت لفتح بعض أزرار بلوزتها التي تقبض على صدرها، كلَّهم مرضى، وينقلون أمراضهم، ما أسوأ من مثقَّف مريض بداء الحاجة! من يسعون على أقدامهم وأيديهم يلتمسون مزيدًا ومزيدًا، مدَّعون الفقر والحاجة، وما يفعلونه مجرَّد سببوبة من ورائها يستطيعون مواجهة تكاليف الحياة، أظنَّ تتساوى العاهرة والمثقَّف الذي يبيع فكره، هي تبيع جسدها وهو يبيع عقله، يظلُّ خادماً في دواوين السَّادة الأوصياء، ليس جديداً، فقديماً قرَّب الولاة والسُّلاطين من جرَّدوا موهبتهم في مدح سلطتهم، وآخرون وهبوهم عندما هاجموا أعداءهم، ووصفوهم بكلِّ ما هو قبيح سيِّء...

وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى لِلْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

وكثير يتصنعون الثورية، ليس حباً في الثورة، ولكن إرضاءً لقوى تسعى، يقبضون ويقولون ويدعون، وآخرون - وخاصة شباب - يصدّقون، فيمضون يفتحون صدورهم للموت، صادقون في مشاعرهم وأملهم للغد، وكثيرون معهم مؤمنون، ذاقوا العذاب ألواناً، يركبون موجات الثورات ويدعون أنّهم ملهمي أبطالها، المصيبة أنّهم يمنحونهم جوائز الدولة، عمومًا لا فرق بين أمس واليوم، هذا يمدح، وهذا يذم، وهذا يموت، وندعوه شهيداً، وهذا يشرب نخب دم الشهيد، عاد من آفاه المتردية في متاهات، دفعه للنظر لجملة الكتب المرصوفة فوق الأرفف، بعناية بالغة، سحب أحد الكتب وأشار للمكتوب على الغلاف الخارجي، عن عدد مرّات طباعة هذا الكتاب، عدد المرّات التي رُشّح فيها لجوائز عربيّة وغير عربيّة، بعض الأساتذة نصحوا بتدريسه في الجامعات، يطالبه بأن يكون آخر كتبه منشورًا من خلال داره، يهزّ رأسه، وهو يستعرض له ما سيعود عليه من مكاسب ماديّة، بعيدًا عن المكاسب الماديّة، هناك العديد من المكاسب المعنويّة، تتمثّل في العديد من التّرشّحات، لجوائز محليّة، وجوائز عربيّة، وعالميّة، يستعرض أسماء القائمين على الجوائز، وعلاقاته بهم، ومجلس أمناء كلّ جائزة، ولا ينسى أن يشير لصاحب الدّور الأكبر في التّرشّحات، وعلاقته بمن رآها للتوّ، وما الدّور الذي تستطيع أن تلعبه في نيل الجوائز؟ يضحك، ويرد عليه بلا صوت... وما نيل الجوائز بالتّمتّي، ولكن تؤخذ الجوائز بالأحضان والقبلات!!!... يسأله عمّا يضحكه، وبلا تردّد يجيبه... ربّنا يكون في عون مصر منك، ومن أمثالك، يتقبّل كلماته بأعصاب هادئة وابتسامة تعلبيّة، وتصميم أن يأتيه بالأوراق التي كتبها، أو التي تحدّث عنها في حوار التّلفزيوني الأخير، سيقوم بصياغتها من

جديد، وهناك مَنْ يستكتبه؛ ليضفي عليها توابل ومقبّلات تفتح شهية القارئ، وعليه أن يجهّز أوراقه الشخصية، مثل جواز السفر الخاص به، وإن كان لا يملك جوازاً فكلّ ما عليه أن يأتيه بأوراقه الشخصية، وهناك مَنْ سيقوم باستخراج الجواز في خلال يوم واحد، يخبره بأنّه حصل على الجائزة من الآن، يكاد ينفجر في الضحك، والرّجل يواصل الحديث عن قيمة هذه الجائزة بالدولار الأمريكيّ، يطالبه بأن تكون له نسبة في القيمة، وعليه أن يحدّدها من الآن، ما الذي يحدث؟ هو يسمع كثيراً عمّا يشوب عدداً من الجوائز من أفعال مهينة ثقافياً، الرّجل يتحدّث إليه قبل أن يرى أوراقه، وقبل أن يطبع كتابه، ما هذه الثقة التي يتحدّث بها، هلّ حقيقيّ ما يقوله أم يدعي؟ هناك كثيرون يلوّثون سمعة الشرفاء، ولكنّ أليس من رآهم للتوّ حصلوا واقتنصوا أعلى الجوائز؟ لا يعرفهم جميعاً ولكنّ على الأقلّ استطاعت عيناه أن ترصد أربعة على الأقلّ تعرفهم، شرفاء في نهار رمضان، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، استغفر ربّك يا رجل، أنت مثال لكلّ الأفعال التّنتنة، تريّث، لا تلقِ أحكامك على الآخرين، ربّما كان حقداً منك عليهم، فأنت لم تنل يوماً جائزة بها ترفع وترتفع، هلّ يتراجع ويعلن رغبته في طباعة كتابه عنده؟ هلّ يأتيه بالأوراق، ويعتذر عمّا نفوّه به من لحظات؟ هلّ ينهي صيامه اليوم وبينهم يجلس؟ وأقلّها سيتمّع بما ظهر من جسد الكاتبة والمفكّرة الرّائعة، إنهم السّادة المحترمون في دنيا الثّقافة والرّذيلة، لم يكسر صيام يومه وهو طفل لمرضٍ أو جوع، ولم ينه يوم صيامه في رمضان، وهو فتىّ مراهق لحظة أن هامت به غريزته المجنونة في النّهار، أظنّه من المستحيلات، عليه أن يقلب هذه الصّفحة من ذاكرته، ويبحث عن سببٍ آخر، هو لم يأت إليه من نفسه، لقد أرسل إليه أكثر من رسالة عبر بريده الإلكترونيّ، وكذلك أكثر من دعوة

ورقيّة على عنوانه فلماذا؟ أوّلاً عليه أن يسأله، هو يعرفه من قبل، ولكن لم يتقابلا وجهًا لوجهٍ، ما أسباب دعوته؟ قاطعه، وتحدّث هو شارحًا... إنني أوّل مرّة آتي هنا، وللأسف كنتُ مازًا بالصُدفة، وقرأت العنوان، وتذكّرت دعواتك التي أتتني إلى منزلي، وأعلن عن أسفه لأنّ زيارته بلا مقدّمات، تقبل عذره في ضحكات وكلمات توحى بمعرفةٍ منذ زمنٍ طال، دعاه للجلوس معهم، فاعتذر مبدئيًا بأسبابه وموانعه، وسأله عن الموافقة عن عروضه للنشر، تهرّب على أن يكون هناك موعد آخر في القريب العاجل، همّ بالمضي، وكأنّه تذكّر شيئًا ما، طالبه بالانتظار لثوانٍ معدودة، فوقف منتظرًا ما يجود عليه به، وأخذ ينظر من جديد للأغلفة والكتب المرصوفة، ويتأمّل العناوين، عاد الرّجل إليه، وقدم إليه بطاقة دعوة لأمسيّة ثقافيّة، في أحد المراكب النيلية المشهورة، وتحدّث عن لفيّف من المدعوّين من مختلف مجالات الفكر والثّقافة، وطبعًا هذا سحورٌ خاصٌّ جدًّا، عندما أفصح أنّ السُحور التّقليديّ له عبارة عن الفول والزّبادي، بلا تردّد أشار عليه بأنّه السُحور نفسه، ولكنّ التّوابل من أرقى أنواع التّوابل المفيدة صحّيًّا وجسديًّا، ما ج الرّجل في الضحك مجرّد أن أنهى كلمته بعد أن غمز له بعينه، وأشار إلى أنّ هناك أكثر من زائر مدعوّ ينتظر قدومه، استطاع أن يجذب انتباهه بكلماته، وأكّد عليه بضرورة الحضور للأهميّة، لم ينسَ أن يشير إلى أنّ صاحب الحفلة ممن يهتمّون بالثقافة وأهلها، وما لبث أن قال إنّّه يقصد صاحبة الحفل، وكأنّه أدرك أنّ في التّأنيث دعوة مجابة منه، وقد كان فعلاً، لم يسأل، وتصنّع الجهل، بادلته التّحيّة، ومضى لحاله وهو يقلّب بطاقة الدّعوة بين يديه، يضحك ويقول لنفسه دعوة للسُحور على أنغام المسحّراتي، ربّنا يستر، ولا تتخلّل الحفلة رقصات ممنوعة، عمومًا أمامك حتّى صلاة الفجر غالبًا، يمضي، تضرب رأسه حرارة الظّهيرة، وتنزّ

جبهته وما بين شعر رأسه مياهاً دقيقة، ويشعر باللهاث، يتحاشى الشوارع الواسعة في وسط المدينة، يأخذ طريقه في الدروب الفرعية، يحسها أقل ارتفاعاً في درجة الحرارة، جاء صوت النداء لصلاة العصر من مسجدٍ صغيرٍ قريبٍ في أحد مداخل العمارات الفارهة، حافظوا على الصلاة الوسطى، لم يتأن، ولم يفكر، فقد كانت هذه الأيام التي تنفرج فيها أحاسيسه بالصلاح والتقوى، جدّد وضوءه، واستقبل القبلة في صلاتين متتاليتين تحيةً للمسجد والسُنن قبل العصر، وسحب أحد المصاحف، وراح يستعرض ما يذكره من آيات الذكر، رغم كل ما يمرّ به من خروج وابتعاد عن الله، ما زال عقله حافظاً، حمد الله، وأثنى عليه، دعا الشيخ لإقامة الصلاة، تستوي عنده الإقامة في القصور أو الشقق الضيقة، كثيراً ما استقبل دعوات وإقامة شبه كاملة في فنادق خمس نجوم، فلم تستفرّج معالم وتأخذه مشاهد، لا يعلّق كثيراً على هذه المواقف، فلم يكن جديداً استقباله لدعوة للسُّحور في أحد الفنادق العائمة من فئة النجوم الخمسة، لا يتبقّى من الوقت إلا القليل، وقد اقترب المغرب، راح يسأل نفسه عن الفرق بين المولود أعمى ومَن فقد البصر بعد عمر، كيف يرى كلُّ منهما الأحلام؟ حتى ذهب في النعاس.

هل يستطيع إنسانٌ أن يوظّف القبح الذي يعيش فيه؟ في خلق منظومة جديدة للحياة من حوله، مَن لم يستطع التغيير في ظلّ التلوّث المرئيّ والمسموع والمحسوس، إن استسلم، فقد حكم على نفسه بالموات التدريجيّ، أيّاً كانت المكاسب التي ستعود عليه، كانت رائعة، سافرت، ولم تعد، وصلت لأسوأ المراحل التي يمرّ بها عاشق أو عاشقة للجمال والفنّ، كانت تنظر لكثير منهم بتأفّف بالغ وتقول ما بدا لها... انظر، ها هو يبيع فنّه وفقاً للمطلوب، مثل مَن يؤلّف قصيدةٍ شعرٍ يمدح الملك الإله، تأمل ما يرسمه

الجاهل يقول مثلاً للجمال، المتبحر في فلك الإنسانيّة، ينظر إليه ولا يعلّق، سيكون تمثاله مبتدلاً، رغم ينباع الجمال المتعدّدة حوله، لو تأمّل مخلوقات الله، لقد لُوِّثَتْ روحه، وبالتّالي فكلّ ملامح الجمال التي يرسمها ستكون ملوثة، لا يدري ما السّبب الذي بموجبه استدعتها ذاكرته الآن؟ الوحيدة التي طلب منها الزّواج، عاشا أكثر من عام معاً، أكثر أيّامها كانت في شقّته، ساعتها كانت بدايات حياته في صحب المدينة التي لا تنام، الغريب أنّها كانت دليله، تعاطفت معه وعليه، وافقت على زواجهما عرفياً، رغم عدم قناعتها بتلك الورقة التي احتفظ بها، أرضته لأنّه كان مازال جديداً وكان يخاف الوقوع في جريمة الزّنا، لكنّها احتفظت بحقّها في أن تمضي متى تشاء، تأمّل مزهريّة قديمة فارغة... ساعتها نظرت إليه، وهو يضع زهرة جديدة ناضرة بين باقي الأزهار الدّابّلة، ضحكت، واقتربت، وهمست له بالأفعال هذا ثانية، وما تفعله يشعرني، وكأنّك مثل من يرتقي ثوبه القديم بقطع من ثوب جديد، يومها أجادت الوصف، فإذا رتقنا قطعة قماش قديمة بقطعة جديدة مستحدثة، فعندما يلمسها الماء سننكمش، وتجذب أنسجة القديم، ولا يستطيع مجاراتها، فيقطع الثّوب، أفضل ثوب قديم في كلّ الأحوال، بلا تردّد ساعتها، أجابته وقد نويت على السّفرة، أنت مازلت رهينة جاذبيّة العادات والتّقاليد القديمة، وأنا استطعت الفرار منها، ولن أعود، ولن نستطيع أن نصنع ثوباً قديماً برتقه بقطعة جديدة، مضت، وحاول أن يعيش وفق آفاقه التي أتى بها، تكسّرت كلّ الأشربة القديمة في أجواء عاصفة المدينة الكبيرة، استسلم في البداية، واستردّ وعيه في النّهاية، ربّما فات الكثير، ولكنّه مازال يعيش، أسرع، وتأنق في ملبسه، فقد اقتربت السّاعة، وأشرف موعد افتتاح حفل السّحور الثّقافي الرّمضانيّ.

فيض من الجمال والبهجة، ارتدت الفتيات القائمت على الخدمة الملابس
 الفرعونية الطويلة، وكأنه يسأل لماذا نقضي رمضان في أحضان فرعونية؟
 أفضل من السيقان العارية في ليل رمضان، يتأمل الوجوه، يحاول أن يتسلل
 ليجلس في أي مكان، لكن في الدعوة رقم مكتوب، الكثير من الوجوه التي
 تظهر كثيرًا على شاشات التلفزيون، إعلاميون ومصوّرون وكتاب وأزهار
 الشُّحور بعض من فئات السّينما والمسرح، لا يقبع لسانه في جوفه، فلا يجد
 مفراً من الحديث إلى نفسه، الشّارع... وكأنّ النَّاس يركضون لحتفهم، لماذا
 يبدو هذا على وجوه ناس بلدنا؟ عيونهم تلمع بوميضٍ غريب، لا يستطيع أن
 يفرّق هل تبدو قاسية؟ أم مستسلمة؟! هل تحاول أن تظهر الرّضا وأنها راضية
 مرضية؟ يستبعد هذا الخاطر نهائيًا، أهاربون من الأحداث البائسة التي تلقّهم
 كخيوط عنكبوت؟ هل مرجعية ذلك لساعات الأرق، والقلق، وهجر النّوم
 للعيون؟ هل ذهبت كلّ ألوان الحياة، ما عدا اللون الأسود، فلم تستطع
 الشّمس أن تبدّده، اللون الأسود كثيرًا ما كان لون الحكمة والعلماء، لماذا
 أضحى مثالًا للحزن؟ فالضّباب الأسود المتعلّق في السّماء يحمل المياه غالبًا
 والحياة للأرض القاحلة، هل ضاعت لحظات التأمّل والفكر، طغت وسائل
 الشّرة والتّسرّع، تأتيه كلمات... طالما أنت فقير، فالصّمت أولى بك، لا
 تتحدّث، فلا كرامة لك، فأنت لا حسب تحسب عليه، ولا نسب تستند إليه،
 ستظلّ الأبواب مغلقة أمام تطلّعاتك وأمانيك، فالمال سند، والنّسب ذراع في
 الحياة، وعلى الفقراء أن يزحفوا على بطونهم، ليعظّموا أسيادهم أصحاب
 السّلطة والجاه، عليكم أن تحافوا... فالنّاس يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا...
 أكثر النَّاس يرفعون من شأن من يخافون سطوتهم لا من يحبّونهم، لماذا لا تقفز
 أمواج البحر؟ ولماذا تعود؟ كانت في قمة ثورتها، أتت للشّاطيء ثمّ تراجعت،

فهل الخوف، عندما لا تتسوّل الحياة، عندما تصبح حياتك الشخصية مكفولة، عندما تجاهر بما في قلبك؟ وإن لم تجاهر كتب قلمك ما شئت، فأنت يومها في المجتمع الحرّ، تتكلّم بما تشاء، تعبد إلهك متى تشاء، وللآخرين الحق نفسه، فلو عشت مئة عام متسوّلاً، فأنت محاسب من قبل خالقك، وكأنه لا يريد أن يجلس في مكانٍ معيّن، يدور ولكن من بعيدٍ لبعيد، ويرصد كلّ الاتجاهات، قطع ترصده "أنيس الروبي" الناشر الثوريّ، فأسرع إليه مستقبلاً وهو يلقبه بما يحبّ، فهو يفضّل دائماً أن يدعوه بالنشاط السياسيّ، فيأخذه بالأحضان شاداً على يديه، وسحبه من يده، وأجلسه على مائدة في صدر الجلسة، على الجانب الأيمن من حَمَام السباحة، وقطع حبل صمته بسؤاله عن معرفته بصاحبة الحفل، "مس لافويت" صاحبة اليد الطولى في رعاية الثقافة، كما أنّها أوّل سيّدة وضعت حجر الأثاث الأكبر لمجموعة من القرى والملاجئ الخاصّة بأولاد الشارع، راح يصفها شكلاً فيفيض، ويتحدّث عن ثقافتها فيغوص مستخرجاً كلمات من أعماق قلبه، وصل بها لمصافّ عظماء العالم، علاقاتها بأكبر المؤسسات الثقافيّة والخيريّة في العالم، بكلّ بروودٍ يردّ عليه بأنّها المرّة الأولى التي يسمع باسمها، يطرع بإصبعيه بطريقةٍ معيّنة مستدعيّاً فتاة الخدمة، يسحب من فوق صينيّتها مشروبين، ويقدم له أحدهما، راح يذكرّه باستعداده لنشر كتابه، دقّ جرس هاتفه المحمول، وما أن نظر ولمح الرّقم انتصب واقفاً، وكأنّ عقرباً نفث سمّه في جسده، فتلعثم في الكلمات، واختلطت الحروف ببعضها، ولم يستأذنه، وأسرع إلى الخارج، يرشف بعضاً من المشروب المتلجّج، وكأنّه يستحلب قطع الفاكهة النائمة في داخله، تدور عيناه يتأمّل، لكنّ ليس بحثاً عن أليفة تجاوره ليلة عشق، ففي رمضان يخاف، وكثيراً يلتمس المغفرة، وكأنّها حوريّة السّماء

نزلت، فتعلقت بها عيون كلِّ الحضور، أمّا صاحب دور النّشر فبجوارها
 محني الرّأس، ومحدّثاً لكنّه يبدو خادماً جيّداً، ابتسامتها وكأنّها تتوغّل داخل
 جسده، فتياتها العذراوات أو شبهه، فرغم جاهلنّ وشبابهنّ ودلالهنّ الحركي لا
 يحجبن فتنتها، وكأنّها حلم لكلِّ الموجودين، محظوظٌ من قدّر له الجلوس
 بجوارها، أو تجاذب معها أطراف حديث طال أم قصر، وكأنّه حاقّد على
 النّاشر الذي يدور في فلکها، ولكن يبعد الحقد، فالرّجل بادٍ عليه أنّه خادمٌ
 مخلصٌ، كلُّهم يقبلون يدها وفقاً لقواعد البرتوكول أو الإتيكيت، لكنّه لم
 يقبل يد أحد سوى أبيه وأمه رحمهما الله، وكأنّه يشكر الله بأنّه لن يقرب منها،
 ولن يصفحها، يتأمّل بريق عينيها، فيمتصّ لعابه، وتراقص أمام عينيهِ
 أمميّات هواه، يذكر فيهِزّ رأسه طارداً الأفكار إيّاها، آهة مكتومة، ومعاتباً
 نفسه، فليس عيباً أن يركع عشاقها عند قدميها، لم تتزوّج... لها الحقّ،
 فالزّواج كما قالوا أفضل علاقة طويلة اخترعها الإنسان، وكأنّها ابتسمت إليه،
 فأشعلت عمّة ليل وحدته المعتاد، كبرقٍ خطف البصر كفلاش آلة تصوير
 رسم صورتها فوق عينيهِ للحظة أو تكاد ومضى، تسرّب حلمٌ جميلٌ يدغدغ
 حواسّه، رغم كلِّ الأضواء، والليل كالنّهار فإنّه يحسّ بأنّه مسحوبٌ في
 سرداب غريب، وقلبه منساق بلا إرادة، يتتبع حتّى حركة أناملها، يطالع
 تقاسيم وجهها، أين رآه؟ هو معتاد رؤيته... أين؟ عينان لامعتان من نوع
 القذائف الحارقة المخترقة!! أسنان تنعكس من سطحها إشعاعات المصابيح،
 حاول عدم مسaire جاذبيّتها، يقلّب في كتاب بين يديه، يأمر الفتاة بأن تأتيه
 بفنجانٍ من القهوة المضبوطة، يواصل حرق دخان سجائره، ولكن بلا تلذذ،
 وكأنّه أسير طقسٍ سحريّ، وهي كاهنة المعبد، ينكمش، وكأنّه يداري نفسه
 من كاميرات المصوّرين وأحاديث الإعلاميين، رغم أنّ المكان به أشهر

الرَّجال والنِّساء، يحاول أن يطلق بصره بعيداً عن مركز سطوتها، يجوب بصره صفحة النِّيل بمراكبه الطَّافية، يحاول أن يتذكَّر أين رآها؟ لم يحس يوماً أن الرَّهايمر ركب جسده، ما زالت ذاكرته تنبض بفيض قراءات وذكريات بعيدة، وجه قمرِيٍّ مستدير، غمَّازتان ترقصان مع كلِّ ابتسامة تمنحها وهي دائمة الابتسام، وبالتالي، فالرَّقص مباح، ولا ينقطع من فوق وجنتيها، تنهادى في مشيتها وحركتها كملكة متوجِّة، ترحَّب بكلِّ ضيوفها، وذيلها أو من يقترب من ذيل فستانها النَّاشر الممصَّوص العود، فإن تاهت عن شخص قام بالتَّعريف، أمَّا جواربها أو وصيفاتها فإنَّهنَّ ينتشرن حولها، لكن لا ينترن الورد أو الرِّياحين فهنَّ رياحين متحرِّكة، لا يقبضن بأيديهنَّ على مباخر تطلق بخور الجمال، فيكفي أن يتسمن، أو يملن برأسهنَّ محييات، حتَّى ستصل إليه، فيلملم آفاقه المبعثرة في ذكريات ضبابيَّة، لا يستبين منها شيئاً، ذهبت كلِّ محاولاته سُدَى، فلم يتذكَّر، ولم يهتد، اقتربت ونظرت إليه، واستطاع أن ينتصب واقفاً، ينظر إليها وتتقابل عيونهما، و"النَّاشر" يهمس في أذنها، تتسع ابتسامتها، وهي تنظر إليه، تمتد أناملها لمن جاوروه فيميل ملثماً، في دوره احتضنت يدها يده، فلم يلثمها، وإنَّا كانا كقطبين تماساً، فأشعلا الثَّورة والنِّيران، هزَّت يده أكثر من مرَّة، أبدت سعادتها، بدا جليلاً أنَّها تكن له وضعاً خاصاً، فراح فؤاده يصوغ حكايات للغد القادم، ولكن بعد رمضان، ادَّعى "النَّاشر" أنَّه اتفق معه على نشر كتاب خاص به عنده في الأيام القادمة، سألته إنَّ كان قد قرأ أحدث الكتب التي أصدرتها المؤسَّسة، وكيف حاز إعجاب الكثيرين في مصر وخارجها؟ وترشيح الكتاب لأكثر من جائزة خارج الحدود، لم يسمع بالكتاب، فنفى علمه به رغم أنَّه قرأه كاملاً، بسرعة اتَّصل النَّاشر من خلال هاتفه المحمول، طلب مزيداً من النُّسخ فوراً، مضت،

ولكن على موعد قادم أتفقنا، مالت رأسه شكراً، وتذكر أن يده تحتضن يدها، فابتسم وتركها، أخيراً ستتحدث بعد فيض من المقدمات، كالمعتاد عبارات الترحيب المعتادة، ذكر أهمية المناسبة، وتكريم بعض من العاملين في المؤسسة، وأصحاب الشأن في أكثر من وزارة ممن يقدمون خدمات لا حصر لها، الأفكار الإنسانية التي تنبع منها أفكار المؤسسة، ضربت أمثلة كثيرة، والجائزة المقدمة اليوم لأفضل كتاب عن الإخاء والحرية والمساواة، فالكاتبان من أبناء المؤسسة، وستترك الحكم والحديث لأشهر الأدباء والمفكرين في هذا الشأن، استمع جيداً، وأنصت، فقالت "علينا أن نستقيم في رؤيتنا، فلا ننحرف لرأي أو فكر، علينا ألا نأخذ موقفاً مسبقاً من قضية لم نسمع شهودها، ولا نحكم على مصابيها، مطلوب أن تكون رؤيتنا كالمرآيا المستوية، فنرى الأشياء بطبيعتها وحقيقتها، فإن انحرفت فتعرت أو تحدبت، يومها ستضيع الحقيقة من فوق السطح، ربّما تظهر معوجة وتتوه المعالم، علينا أن نحكم عقولنا، علينا أن نعيش في عالم جديد، نرفع رايات الحب، ونقدس الإنسان وروحه التي أبدعها الله، وحسب ما يراه عابدوه، وبأي صورة يقدّسوه، فكل إنسان حرّ في معتقده وفكره، فعلى سبيل المثال أهرامات مصر ليست ملكاً لمصر وحدها، هي تراث للإنسانية جمعاء، عندما نضع المسئلة الفرعونية أمام أهمّ الأماكن في أمريكا، فنقول إنّها تراث إنسانيّ لنا جميعاً، وغيرها موضوع في الفاتيكان وأغلب دول أوروبا، فقديمًا نقل أجدادنا الحكمة من الأرض القديمة للأرض الجديدة، وكان الحلم أن نجعل تلك الأرض خالية من الاستبداد والظلم والاضطهاد، وكانت أمريكا..."، عاصفة من التصفيق استمرت قرابة خمس دقائق، وتنحني شكراً، عيناها مصوّبة ناحيته، يقرأ "النّاسر" عبارات مسجوعة الوزن تشيد بالسيدة وبلدها راعية الحرية في

العالم، يعلن عن اسم "عبد الوارث" و"لولا"، والجائزة التي تصل قيمتها خمسين ألف دولار لكتابتها الرائع، يتقدّم كلاهما ليتسلّم الدرّع الخاصّ بالمناسبة وشيكًا بالمبلغ وشهادة التقدير، لا تنسى أهمّ شيء، هي أن تطبع على خدّ كلّ منهما شهادة تقديرها الخاصّة، وجاءت التعليقات والتّعقيبات من الأديب المليونير المعروف بسطوته على كلّ موائد الثّقافة المصريّة، صاحب تاريخ النّفاق المشهود له فيه، وهو أحد أفراد مجلس أمناء هذه الجائزة المستحدثة ونصيبه كما اتفق من البداية معروف، فهو لا يقرأ كثيرًا، ويتحدّث كثيرًا، ويقبض أكثر، راح الرّجل في لغة عربيّة رائعة، يدرك مغزى كلّ حرف فيها وموضع كلّ كلمة أثيرة لديه ينطقها ويستنطقها، فيهم في دنياه، فهو للكلمة ساحر مشهود له، وفي مجال الحديث لا يبارى، فلم ينس أن تداعب كلماته قلوب أصحاب العُرس، فقد امتدّت يده، وسبقت وأخذت نصيبها، فليرد الجميل ولو كذبًا ونفاقًا، فالكتاب عن اليهود وحياتهم في مصر أساسًا، ربّما خرج قليلًا جدًّا لأماكن تبعد، ولكنّ الأساس مصريّ النّزعة والهوى، ذهب يجمع شتات التّاريخ، ويحاول أن يصنع عقدًا متألّفة حباته، فسيدنا يوسف أتى إلى مصر ورفع شأنه وأحبّه أهلها ورفعوه هو ومنّ قدم من أهله، أنزلهم المصريّون مكانتهم، وتوطّدت أسس المحبّة بين الجميع، ومنّ منّا ينسى فضل سيّدنا يوسف على مصر، فهو المنقذ من مجاعة كادت تحيق بأهلها، فهم أصحاب جميل، راح الرّجل، وكأنّه يستنطق الأحجار أن تتكلّم وتوحي إليه، فيذكر الصّفحة من الكتاب وكيف برع المؤلّفان في السّرد والقصّ عن وضع اليهود في مصر حتّى القرن العشرين؟ كيف أنشأوا المؤسّسات الاقتصاديّة، في مختلف المجالات ساق أفعالهم وتربّعهم والمكاسب التي عادت على الشّعْب المصريّ من ورائهم، ساعة كاملة، وهو يقصّ ويحلّل ليحلّل ما اقتنصه من

مال، يطالب أن نتحدّث عن الحقيقة مجرّدة بلا تعصب، لا يستحي وهو يقول
 إِنَّ كَلَّ الْمُفَكِّرِينَ يَقَاطِعُونَ التَّطْبِيعَ مَعَ إِسْرَائِيلَ، لَكِنْ يَوْمَ يَرْجِعُ الْحَقُّ
 لِأَصْحَابِ الْأَرْضِ سَيَكُونُ هُنَاكَ وَضِعٌ آخَرَ، يَضْرِبُ مِثْلًا بِالمُؤَسَّسَةِ، وَأَنَّهَا
 لجديرة بجمع الشَّمْلِ الإنسانيّ، وعلينا أن نساعد القائمين عليها، يستند في
 حديثه إلى القرآن الكريم، وفي النّهاية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
 يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ صدق
 الله العظيم، أستاذ في فنّ الكتابة وأكثر في الحديث، يصفّقون... يتهامسون،
 ولا يبدون اعتراضاً، كثيرٌ منهم يسرون في ركبه، لعلمهم في الغد يتوجّون
 بجائزة أو سفر للخارج، وربّما كان لهم عمودٌ يوميٌّ في إحدى الجرائد التي
 تمنح كتابها رواتبهم بالعملة العالميّة، وهو الوحيد الذي يمنح الصُّكوك، كل
 يسعى لمبتغى وهدف، يلوك قطعة الطّعام في فمه، رغم أنّ هناك أكثر من
 جميلة شاركته المائدة، لكنّ غصّة في حلقة، الكلمات تضرب في رأسه، فاشتعل
 غيظاً، تهرول الدّماء للرّأس علّها تهدي من تأثرته، ولكنها ترفع ضغطه، تنظر
 إليه، لا يتمالك نفسه، يزدرد اللقمة المحشورة في حلقومه، ويدفعها بقليل من
 الماء، يتحرّك، فيقترب أكثر من الميكرفون، يطلب الكلمة، يسرع "النّاشر"
 بتقديمه بكلمات جميلة رائعة، ولكنها لا تحرك له ساكناً، يستهلّ كلمته
 بالشُّكر والتّقدير للقائمين على الحفل، يهنئ الفائزين، ويتمنّى للجميع غداً
 أفضل في ظلّ أملٍ إنسانيّ تنشده المؤسّسة، وثناء وشكر لأستاذ أساتذة الأدب
 والثّقافة في كلمته، وما لبث أن صاغ ابتسامه واسعة على وجهه، معلناً أنّه
 مضطر للحديث، وعليهم تحمّله لبعض الوقت، وأنّه سيحاول أن يكون
 مختصراً بقدر الإمكان، فأشار إلى أنّ الأستاذ اكتفى بآية واحدة من القرآن
 الكريم، وهي سند رائع بكلّ المقاييس ولكنّ هناك العديد من الآيات تعكس

حقيقة اليهود، صمت، وكأنه يرى وقع كلماته فوق الوجوه، صمت غريب، نظر إليها، وكأنه يأخذ منها الإذن في الاستطرد، ربّما فسّر نظرتها بما يريد ويتمنى، فواصل "هل إذا استفحل مرضٌ ما في بلدٍ ما فمنّ المسئول؟ هل الجهل مرض؟ وكيف تسارع الحكومات بمحاصرة الداء؟ كمصري، لا أعشق القتل أو إراقة الدماء، هي طبيعة مصريّة مكتسبة منذ أقدم العصور، من لا يصدّق يستعرض تاريخنا، لا أحبّ أيّ إنسانٍ يجرم إنساناً آخر حقّه في الحياة أيّما كانت الاختلافات بينهما، أنا لا أعيب على رجل الأمن أحياناً أفعاله التي تتسم بالعنف، فما هو إلّا ضرر في فكّ نظام دولة تتمنى أن تبطل مناوتها، أنا ضدّ هذه الدولة، وداعياً لها أن تتريّث بعض الشّيء، فأيا كانت معدتها وقوتها فإنّ البلع سيسبّب لها كثيراً من الألم"، استقبلوا الكلمات بتصفيق، ولكنه يبدو حذراً، فواصل:

"فعلى سبيل المثال للحصر، ساق كاتبنا وزميلته في كتابها أن السيّد "جاك جوهر" اليهودي حاز ثقة "فاروق" ملك مصر، علينا أن نسأل كيف حاز هذه الثقة؟ كان يعمل على إعداد جلسات تحوز إعجاب الملك، وخاصّة جلسات القمار التي كان يعشقها الملك، فكان يأتي بأثرياء اليهود ليتظاهروا بالهزيمة أمام الملك، فيثيرون شهية الملك للمزيد من القمار، نستطيع أن نتعلّم من كلّ البشر حولنا من آباءنا وأمّهاتنا وأساتذتنا وأصدقائنا وإخواننا ولكنّ علينا أن نحرض على أن نتعلّم من خصومنا، أهمّ وأقوى، علينا ألاّ نعطلّ العقل ونقيّد الفكر، نعم في حسابات المواجهة، نحن أضعف، لا نملك السّلاح الذي نجابه به، كمّن يملك رمحاً ومجاهمه يملك أسلحة متطورة حديثة، نستسلم!!! تقول الأسطورة اليونانيّة القديمة عن أخوات ليبيا أو كما يسمّون أخوات "الجرجون"، فأبيّ منهنّ إذا نظرت إلى شيء صار

رملاً وحجرًا، أي تميته وتذهب الحياة عنه، كلُّ ما تقع عيونهنَّ عليه يصير
 حجرًا ويموت، خاف البشر فلا سلاح يجدي معهنَّ، وأتى من يُعمل فكره،
 نصب المرايا في كلِّ مكان، فقدمنَ ونظرنَ وارتدَّ بصرهنَّ إليهنَّ فتحوَّلنَ إلى
 أحجار، وخرج النَّاس من المخابئ "وأشار إلى "مس لافويت"، مكملًا
 "هذه السيِّدة أرجعتني لقراءاتي القديمة بإشارتها أنْ نظر للمرايا المستوية،
 وللأسف أقول... ليس شرطًا أساسيًا كي تهزم إنسانًا أو بلدًا أنْ تدخل
 حربًا مباشرة معه، فلماذا كره "هتلر" اليهود؟ أحد الأسباب، أنَّ اليهود
 جاهدوا في التَّيْل من التُّراث الثَّقافي والفكريِّ لألمانيا، بأبواق دعايتهم في شتَّى
 المجالات، فاستخفُّوا وحطُّوا من شأن الفيلسوف "جوته"، وروَّجوا
 لـ "شوبنهاور" و"هيجل"، وغيرهم، قلَّلوا من قيمة "بسمارك"، فكان هذا
 بمثابة بتر خيوط الماضي وروافده التي ينهل منها الشَّعب الألمانيّ، وبقدراتهم
 المعروفة تريِّع الأدبُ الإباحيِّ، وتراجع الأدبُ الرِّصين، فقد كانت أهمُّ
 التَّجارات القائمة آنذاك تجارة البِغاء، وكان لهم دورٌ فيها، فقد قيل إنَّ البنات
 اليهوديَّات قد نشرنَ ذلك في الحانات والأندية والملاهي، فانتشر مرضُ
 الزهريِّ بين الشَّباب الألمان، ثارتُ جلبة، استمدَّ المصفِّقون والمقاطعون
 لحديثه قوتهم، من نظرات عينيها التي بدتْ تعلن تذرُّمها، لم يتحرَّك من
 مكانه، لعنات تسقط فوق رأسه، وما زال ثابتًا، قرأ في وجهها الضيق لكنَّه لم
 يهتم "فقد قال الفيلسوف "شوبنهاور"، إنَّهم أساتذة عظام في فنِّ الكذب،
 بل إنَّ صفة الكذب وكأَنَّها مشتقَّة من اسم اليهوديِّ، فقد زعموا من البداية
 أنَّهم شعب الله المختار"، تعالت الصَّيحات، وتوقَّف الميكرفون عن البثِّ،
 ألبسوه صفاتٍ غريبة، فصوت يقول إنَّه سلفيِّ، وآخر إخواني، وآخرون
 رجعيِّ بلا فكر... يساري... يميني... نازي... شيوعيِّ، كيف تجتمع كلُّ

هذه الصِّفات في شخصٍ واحدٍ، يتسم، وهي أكثر سعادة، ولكنها لا تبديها،
 ظهرت في صورة المدافع عن الحرِّيَّة وحقِّ إبداء الرّأي، أجلسته بجوارها،
 وطالبت الجميع بالهدوء، وأوضحت لهم أنّ الجلسة ثقافيَّة فكريَّة، عاد شيخ
 المثقِّين للميكرفون الذي عادت إليه الحرارة، وبدت فوق وجهه ابتسامة
 واسعة تموج بالسُّخريَّة، أشار إلى أنّ أفكار التَّسامح والمحبة تفتح صدرها
 لكلِّ الآراء المخالفة، بلّ المجابهة "كثيرون يزرعون في الأرض الأشواك بدلاً
 من تسويتها وريِّها واستزراعها، يثرون الأشواك متعمِّدين، علينا أن نمضي
 في أرضنا، لننتعل أحذيتنا، ونعيد تسوية الأرض من جديد، فالعارفون منّا
 يلبسون أحذيتهم في أقدامهم، وقليلون لا يعلمون كيف يلبسونها ويقعون
 غالباً في خطأ كبير، يرتدون أحذيتهم في رءوسهم، فالتلوث الفكريّ أصاب
 الكثيرين الذين لا يرون أبعد من موطن أقدامهم على الأرض"، وزادت
 ابتسامته السَّاخرة، وتردَّدت حوله أصوات ضحكات في مختلف الأماكن،
 وراح يلتمس العذر لأصحاب الرُّؤى الضَّبابيَّة وأنصاف المثقِّين، وبلا تردُّد
 انسحب من جوارها، ووقف بجوار المتحدث، طلب منه أن يقول كلمةً
 أخيرة، فنظر للسَّيِّدة، وكأنَّه ينتظر إشاراتها، كانت بالموافقة، طالبه أن يختصر
 قدر الإمكان، اهتزَّ رأسه بالموافقة، وكأنَّه يطرح سؤالاً، فتساءل عمَّن
 يعرف "كيف كان الوضع لليهود بولندا في أوائل القرن العشرين، قالوا عن
 بولندا... كان عصر اليهود الذهبيّ في أوروبا كلّها، فجمهوريَّة بولندا جحيم
 الفلّاحين وجنَّة النبلاء وفردوس اليهود، ووصل تعداد اليهود فيها إلى حوالي
 ٥٥٪ من تعداد السُّكَّان، علينا إعادة قراءة التَّاريخ من جديد، ومعرفة سبب
 ما حاق بهم، ومع هذا يقول "شامير" في مذكراته... إنّ البولنديين يرضعون
 معاداة اليهود من لبن أمهاتهم، ففي القرن السَّادس عشر أطلقت بولندا

الحرية لليهود تلك الحرية لم ينعموا بها من قبل، وسمحت لهم بإقامة برلمانات يهودية، ولأول مرة كان هناك برلمان يسمى بالبرلمان اليهودي، امتدت أيدي اليهود بالقروض الميسرة والمنح لولاة الأمر من أمراء وأعيان فكانوا بدورهم يدافعون عنهم، بينما كانت الكراهية من عامة الشعب؛ لأنهم أقرضوا الفقراء والبسطاء أيضًا، ولكن بنسب للفائدة تقترب من المائة في المائة، وكانت جميع الحانات في بولندا ملكًا خاصًا لليهود ويُقال إن ٦١٪ من العاملين في إنتاج المشروبات الكحولية من اليهود، وهنا في مصر في سنة ١٩٥٤م وأمام سينما "ريو" بالإسكندرية، شوه دخان يتصاعد من جيب شاب، فأبلغه الناس بخروج الدخان، هرب أو حاول الهرب، استغرب الناس حاله فأسرعوا خلفه وقبضوا عليه، وجدوا أنها قبلة موقوتة صناعة محلية، وكما قال صنعها بنفسه، كان اسم الشاب "فليب ناتاسون" وكان الهدف الأساسي حدوث انفجار في السينما، وباعترافه اكتشف الأمن مجموعة من القنابل، وكما تمت انفجارات في بعض الشركات البريطانية، ومحال وشركات يمتلكها رأساليون يهود، تبين من التحقيقات أن المخابرات الإسرائيلية وراء ذلك، لدفع يهود مصر وشمال أفريقيا إلى الهجرة إلى إسرائيل، سحب منه الميكروفون، مدعيًا أن لكل مقام مقال، فما الداعي، ونحن نتحدث عن السلام؟ واستطرد وابتسامه عريضة تملأ وجهه "نعم، للصوت صدى، يظهر غالبًا في الفراغات والمتاهات، والحارات الفارغة تصدر أصواتًا يفسرها البعض بمعانٍ غريبة، وكما للأصل ظل والظل قريب من الدل، لا تجعلوا داخلكم فارغًا، محصوا الكلمات، وافحصوها، وقلبوها على اختلاف احتمالاتها واستنتجوا، واعرفوا، وكل عام أنتم جميعًا بخير، ونحو مزيد من الحب والحرية والإبداع، وبارك الله لصاحبة الرؤية الرائعة والفكر المتقد"،

مجرد أن بدأ كلمته كانت هناك إشارة، تقدّم صوبه شابان، بدا من شكلهما ولباسهما أنّهما من حرّاس المكان، همس أحدهم في أذنه، خرج معهما، ولم يستمع إلى باقي الحديث، سألهما عمّن ادّعوا أنّه يطلبه، وقفت أمامهم سيّارة من السيّارات ذات الزّجاج الضّبابيّ، حاول أن يتكلّم، دفعاه لداخل السيّارة، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار، يتحدّث ولا يجيبانه، هبطا بعد مدّة قصيرة، صعد للسيّارة شابان آخران شبه ملثّمين، أغلقا عينيه، وقيدا يديه من الخلف، وكمّما فاه، استسلم، ولم يشعر بشيءٍ بعدها، بعد وقتٍ لا يدري كم أو كيف؟ في صعوبة بالغة حاول أن يفتح عينيه، حوّمت عيناه الزّائغتان في الفضاء من حوله تستقصي، ارتدّ إليه بصره، ولم ير شيئاً جديداً، استسلم للنّوم القسريّ، فلم يستطع أن يستقيم من نومه، يحاول من جديد فتح عينيه... تحوم في لمحة سريعة، وتعود ثقيلة الجفون، فيواصل، دماء متجمّدة في الجبهة وعلى الدّراعين، وبعضٌ منها في فروة الرّأس، ذباب الصّباح يتجمّع فوق أكثر من موضع، وخاصّة حول العينين، يهشّه أو يحاول أن يبعده لكن لسعات تؤلمه فيتمنّى الصّراخ، ألم طاغ على كلّ أجزاء جسده، يحاول أو أن يسحب نفسه من استسلامه القسريّ دون جدوى، بعد وقتٍ لم يطل، استشعر أنّه وحيد ملقى في فضاء غريب عليه، شعر بضوء الشّمس يضرب عينيه، فتتحرك يداه لتقي بصره، تأوّه، حاول أن يصرخ، لم تخرج من حنجرتة للفضاء، أصوات سمعها هو فقط، وكأنّ أحباله الصّوتية تقطعت، وتنفسه أصبح غير منتظم، تدرج على الأرض، فشر بوخز حبيبات الأرض الصّلبة طينية كانت أم صخرية، صرخ بلا صوت، وذهب في سبات.

طالعت الجريدة، وما هو مكتوب، رفعوا من شخصه لعنان السّماء، وكأنّه الثّائر ضدّ ظلم البشريّة، كيف كاد أن يدفع حياته ثمناً لكلمة حقّ؟ تقرأ...

يطاردها قلقٌ غريبٌ، تلعن كلَّ القائمين على العمل الثقافي، تلعن مساعدتها الذين لا يجيدون كيفية التصرف، رغم كلِّ الدورات، وكلِّ الدراسات، فأغلبهم تحكمه ردود الأفعال الفورية المستسلمة لرؤيته، هي لا تريد دفاعاً بلا عقل، دائماً تقول لهم علينا أن ننسج ثوباً من الكلمات، يكون فسيحاً واسعاً يستطيع كلُّ البشر أن يرتدوه براحة كاملة، علينا أن نرصعه بكلمات المحبة الإنسانية، ننسجه بخيوط من الحريرة، تتداخل خيوطه ويتشابك نسيجه مع اختلاف ألوانه، ليتنوع فيبدو كلوحة، وكأنَّ كلَّ عشاق البشرية قاموا على رسمها، نعم، تقول دائماً الجميل من الكلمات وتدعو لها وتدفع ملايين، تسترد رباطة جأشها، وتستجمع أفكارها، وتذكر أنواعاً من الثعالب القطبية في بلدها الأم، هذه الثعالب إذا أطبق الشرك على قدم من أقدامها، فإنها تظلّ تعضّ هذا القدم وتمزقه وتتخلص منه لتواصل الحياة بما تبقى لها من أقدام، فإذا برّ عضو من الجسد علينا أن نمارس حياتنا كالمعتاد، لم تنتظر... تحدثت إلى أحدهم، قُصوا عليها مسبقاً كلُّ ما حدث مع الدكتور المتطاول في الحفلة، لن ينسى يوماً ما حدث له إذا ظلَّ على قيد الحياة، ها هي لطفة تأتيها، جريدة لا يسمع عنها، وكاتب مغمور يفرد صفحة كاملة للحدث، يصفه بالبطل الذي دافع وكان جزاؤه هذا الفعل، أعطت أوامرها بأن تعرف المستشفى الذي يرقد فيه، وبسرعة يتم نقله إلى جناح خاص، في مستشفى استثماري حدّته بالاسم، تعرف القائمين عليه، يتم حجز جناح خاص به، أن يتم هذا الفعل فوراً وبسريرة تامة، أشارت في أوامرها الصادرة إلى أنه في حالة حدوث أيّ مضايقات من إدارة المستشفى، حدّدت من يقوم بالاتصال بالمحافظ أو مدير الأمن أو وزير الصحة، طالبت أن يأتيها الردّ في خلال ساعة من الآن، فأر صغير يستطيع أن يصبح أسداً، الإعلام وقدراته وبوقه الذي يعطي نوبة

اليقظة لكلِّ النَّائمين، فالفئران عندما تقف أمام مصدر الضوء، سيبدو ظلُّها أكبر من الأهرامات، ظلال لا تعكس الأصل، تمضي الأيام، وتكتب الجريدة إياها أن الدكتور المذكور اختفى!!! فهل قُتِل؟ ومن وراء عملية قتله؟ وعرفت أن الصحفيِّ المغمور إياه يحاول التَّواصل مع "النَّاشِر" بكلِّ الطُّرق، ليعرف أسماء مَنْ كانوا مدعوِّين للحفل، وكذلك ما حدث بالتَّفصيل، يوماً واحداً، وأصبح الفتى المغمور مكتسباً لعضوية وليس منتسباً، وكأنَّه نسي الموضوع، فمَنْ يقلب في بقايا النيران، ومَنْ يلعب في رمادها عليه بالحدز ربَّها، صوِّر للدكتور يعرضها الصحفيِّ إياه مشيراً للكذبة التي كانت، جالساً في حديقة المستشفى، لكنَّ الصُّورة تقول في الفيلاً الخاصَّة بصديقه ويده الجريدة اليومية، واضح جداً أن الصُّورة حقيقيَّة، لكنْ لا ضمادات ولا جروح ظاهرة، ولا قدم يبدو في الجبس، داومت على الحضور، لكن ليس يومياً، في اليوم الأوَّل حضرت، وبعد إجراء الإسعافات اللازمة تأكَّدت أن أغلب الإصابات سطحيَّة.

الفصلُ الثَّانِي عَشْر

نعش العشق

سعادتهما لا تضاهيها سعادة، الشَّقَّةُ صغيرة، الأثاث بسيط وجديد، اختارها وفق هواهما، السَّتائر ذات الألوان الهادئة الرَّائعة، قليلٌ من اللوحات موزَّعة فوق الجدران بتناغم سلس راقٍ، أضواء تتسرَّب من بين الثَّنايا، فلا مباشرة تضرَّ بعين، يشعرُ بأنَّها فيض خير أفاء اللهُ بها عليه، يتضحان، قسمت يومها، فكانت لا تبيت في الشَّقَّة، انتظرا لإعلان الزَّفاف، لكنَّها يقضيان أغلب وقتها معاً في الشَّقَّة، وآخر الليل تذهب إلى بيت أسرتها، نعم سيتمُّ الزَّفاف في أسرع وقت، هي ستحدِّد كلَّ شيءٍ، متأكِّد هو أنَّ كلَّ الأمور تسير في مجراها الطبيعيِّ، واثق في شخصيَّتها وإرادتها، وأتمَّ سنهي كلَّ شيءٍ من إجراءات الزَّفاف، متزوَّجان مع إيقاف التَّنفيذ، يرشفان من كئوس السَّعادة والهوى يومياً، تحكي له كلُّ ما خفي عن حياة أسرتها، تقصُّ عن أمِّها وحديثها الحزين عنها، وتردِّد ما تقوله من أمثالٍ تشكو بها حالها للدُّنيا... هم البنات حتَّى المات... الولايا بلايا... أمَّا هو، فهي تحبُّ ما يقصُّه من حكايات، وخاصَّة الرُّائيَّة، وما تسمعه حتَّى لو ساعات، فيغوص في أقاصيص جدِّته، وهو يضحكها، يقصُّ لها عن الشَّاطر حسن، ووصايا

أبيه إليه... فقالت له من الوصايا... "إن لعبت القمار، العب مع شيخ القماريّة... وإن سرقت اسرق كبير الحراميّة... وإن رحمت لبنات الليل روح الصبحة"، تترك كل الحكاية، وتساءل عن الذهاب لبسات الليل، ولماذا الصبحة؟ يضحك، وهو يصف لها بنات الليل، ففي الليل تتجملن، وتبدين زينتهنّ لكلّ من أراد، أمّا في الصّباح، فالموعد مفاجأة، فلا زوّار، وغالبًا تذهبن في النّوم، ساعتها سيراهنّ على حقيقتهنّ، فلا أصباغ، ولا ألوان، ولا شعر مصبوغ، أو مصفّف، وجه طبيعيّ لتوّه، مستيقظ من النّوم، يضحك، يعني شكلاً يقترب من أمنا الغولة! يضحك أكثر، وهو يذكرها بأنّ عمره في تلك الآونة لا يتجاوز السّنوات العشر، حتّى إنّهُ لا يدرك معنى كلمة بنات الليل، وكأنّها تحدّرنى من البداية، كلّما سنحت لهما الفرصة، يقبلان في صفحات كتابهما، نعم، هما كتبا أغلب ما جاء في الكتاب، لكن هناك إضافات تمّ إضافتها لمزيد من المتعة، كما يقولون، ولكنّ في مجمله يعكس آفاق الحبّ والسّلام، وخاصّة مع اليهود، أوحوا إليهما بأنّ الكتاب الثّاني، وكما هو مطلوب، وما تراه المؤسّسة، يختصّ بموضوع الأقليّات، وحقوقهم المشروعة، وخاصّة أبناء النّوبة، وهما قد ساقا بعض أحاديث في كتابهما الأوّل، لكنّ كانت هناك دعوات غريبة من هذه الأقليّات، فلماذا؟ هل تحت مسمّى الحرّيّة؟! هل على كلّ جماعة أن تطالب بوطن خاصّ؟ تحت مسمّى الحرّيّة كلّ شيء مباح، في المرحلة القادمة، هل يجب أن تقوم كلّ عائلة بالنّسب في التّاريخ؟ هل في المستقبل ضياع لمعالم الدّولة؟ يقول لها إنّ الدّولة المصريّة ابتدعت منظومة الدّولة، الدّولة الموحّدة منذ أقدم عصور التّاريخ، فما الدّواعي لهذا الآن؟ حاولا أن يكذبا على أنفسهما، إنّ الدّوافع الحقيقيّة إنسانيّة بحتة، وتحت مسمّيات الإخاء والمساواة، وكأنّهما أمنا حقيقة بأهميّة ما تفكّر

فيه المؤسسة، وما يواكب فكر هذه المؤسسة الإنسانية الجميلة، فلماذا لا يعيش كل البشر؟ لماذا يتقاتلون؟ أليسوا في نهاية المطاف سيرجعون للأرض؟ ومن الأرض كانت البداية، يتقاتلون على قطعة أرض، هناك أراضٍ على امتداد البصر لا يسكنها إنسٌ ولا جانٌّ، ليتفقوا وليعمروها، وليقتسموا خيراتها، فمن سيرث الأرض ومن عليها؟ يستعين بحكايات، ومن الإمام عليّ - رضي الله عنه وأرضاه - ووصيته للمالك الأشر... يا مالك، إنَّ النَّاسَ إِمَّا أَحُّ لَكَ فِي الدِّينِ، أو نظير لك في الخلق... هذه العبارة، وما تحمل من معانٍ رفيعة، تعكس أو تقترب من فكر المؤسسة وأحلامها للإنسانية، فكوفي عنان أمين عام الأمم المتحدة، عندما قرأ هذه العبارة قال كلمة مشهورة... إنَّ هذه العبارة يجب أن تعلق على كلِّ المنظّمات الدَّوليَّة، ويجب أن تنشدها كلُّ البشريَّة، يحسُّ أنه لأول مرّة في حياته تختلط عليه الأمور، وكأنه يقترب من الكذب على نفسه، وهي آفاقها التي تربّت عليها، هل تأثرت بأفكار تلك الجامعة الغربيَّة التي تنتمي إليها؟ هي أيضًا تحسّ بشيء من عدم الرِّضا، لكنّها لا يفصحان عمّا يداخلهما من مشاعر، إنَّهما سيران في ركب خير، وفي الوقت نفسه عليها أن يستفيدا من فرصة ممنوحة لهما، وكلّ القياسات تحسب المكسب والخسارة تقريبًا، تأتيها أغنية فينصتان، يردّد المغنّي عبارات الهوى، الآلة الوحيدة التي تصاحبه هي النَّاي، ينظر لعينيها، تهيدة النَّاي تهزّه، فالنَّاي حديث بين عاشقين، يصوغها بالأهات المعدّبة، يحاول أن يخرج بها وبنفسه من هذا المجال، يضحك، وهو يقصّ إحدى حكاياته، وفي نهايتها يقول... جريمة لا بدّ منها... الحبّ... أسوأ ما فيها، لا بدّ من شريك آخر، يضحكان... تهجم عليه، يتقاتلان عناقًا، تكبّل شفّيته، أو هو يكبّل شفّيتها، وكلاهما يستسلم، حتّى يذوبا في هوس القبلة والعشق.

في لحظة هوىً محبب، وقبيل الغروب، يقتربان من إنهاء استعدادهما للعمل
 تنويريٍّ كما يسمونه في شكل محاضرة، في إحدى الجمعيات الأهلية في منطقة
 شعبيةٍ معروفة بازدهامها الغريب، حتى إنهم يطلقون عليها كلمة الصين
 الشعبية، وما حولها من منشآت عشوائية غريبة التشييد والبناء، فكلُّ كان
 يبني وفق هواه ورغبته، المهم أن القائمين على رئاسة الحي يأخذون هديتهم
 للموافقة، غالبًا هذا هو الحال الساري، فعرض الشارع لا يتعدى ثلاثة أمتار،
 كان يرغب ألا تذهب معه إلى هذا المكان، أمام إصرارها وافق، وهي تعلم أن
 هذا من صميم عملها، ولا تستطيع التخلُّف عن الحضور، اقترب موعد
 المحاضرة، استعدًا بعد ساعات قضياها عاشقين، فبعد أن رسا خطط
 مستقبلها في هذا العش الجميل، تحدّثا، وصاغا أحاديثها عن المستقبل، حتى
 إنهما لم ينسيا تعداد الأبناء، دقات جرس تنساب كصوت لزقزقة عصافير أو
 بلابل الصّباح، أسرع وهو يربط رباط عنقه، متوجّهًا للباب، فتح الباب،
 وقف متسائلًا، ولسان حاله يسأل من...؟ من خلفه أتت، سمع صوت آهتها
 المكتومة، نظر إليها، وكأنها تمثال جامد، وزع نظره ما بينها وثلاثتهم، رجل
 أشيب الشّعر، وسيّدة تمسك بذراعه، وتبدو معالم الدهشة فوق وجهها،
 ضابط شرطة بلباسه الميري يدفعها للدّاخل، ليغلق الباب، صدرت منها
 كلمة بابا... ماما... في مخارج حروفها رعب وخوف، تقدّمت صوبها، وضع
 الرّجل يده حاجزًا بينها وبينهم، فأوقفها، لم تتعدّ الأسئلة الدّائرة سوى... من
 هذا؟ من يكون؟ ومتى؟ لماذا كذبت، ولم نعتد منك الكذب؟ كنت دائمًا حرة
 في كلّ تصرّفاتك، لماذا تضعين رأسنا في الوحل؟ أعطيناك الحرّيّة، لم تسألني
 شيئًا إلّا وكان رهن يديك، حاول أن يتكلّم، أصدر الرّجل الكبير أمرًا ناهيًا،
 تخرج حروفه وكلّها الغلّ والألم، ألا يتحدّث مطلقًا، أمرتها أمّها أن تجمع كلّ

ما يخصّها فوراً، وعليها أن تذهب معهم، وتنسى كل ما كان، حاول أن يعترض بأنّه لم يخالف شرع الله، وأنّه تزوّجها على سنة الله ورسوله، دخلت الحجرة الدّاخليّة، وقد دفعتها أمّها أمامها، جلسوا، تحدّث الضّابط بلسان الرّجل، قال إنّ سيدفع الثّمّن غالياً، فقد تلاعب بشرفهم وشرف عائلتهم، قبل أن يسأله من تكون؟ كانت إجابة الرّجل أنّه ابن أخي، فردّ أمام عينيه إحدى الأوراق، فكانت صورة من عقد الزّواج، لم يسأل كيف وقعت بين يديه؟ ثمّ راح يستعرض صوراً كثيرة لهما، ثمّ عرض عليه صوراً له بمفرده بجوار آثار فرعونيّة، ولم يتحدّث أيّ منهما بأيّ شيء، وما لبث أن عرض عليه صورةً لأخيه الشّيخ المهندس كما يحلو له تسميته، قائلاً "تمّ القبض عليه من ثلاثة أيّام وهو تابع لتنظيم إرهابيّ"، وراح ضابط الشرطة يسرد على أذنيه جزءاً كبيراً من سيرته الدّاتيّة، ولماذا هرب من بلدهم بعد الزّواج، ويستعرض تاريخ أسرته وإخوته، ويحدّره بأنّه سيكون سبباً للبلاء على كلّ الأسرة، بعد سرد الكثير من معلومات منها المغلوط إلى حدّ كبير، استشعر بأنّه محاصر من كلّ اتّجاه، وكانّ عقله عاجز عن التّفكير في أيّ شيء، الرّجل يصفه بأنّه طامع في ثروة ابنته، الرّجل يحدّره، ولا يلبث أن يذكره بعمره وسنّه، وعيب عليه ما يفعله، يسأله بأنّه لو تزوّج في أوّل حياته، لكانت له ابنة في سنّها، كلمات وكأنّها سكين تقطع في جسده، ذهبت كلّ الكلمات، جفّ حلقه، خوف لا يدرية من أيّ مما كان، أصدر الرّجل له أمراً بأن يأتي في الغد إلى مكتبه الخاصّ بإحدى شركاته، فهو غير جدير بدخول البيوت، وأمثاله لا يؤتمنون، أخيراً خرجت كلمات تحاول الاعتراض، وكان الرّدّ قاسياً، فأشهر الرّجل مسدّساً، وأقسم بأنّه قد يرتكب جريمة بيديه، وما لبث الضّابط أن قام بتهدئة عمّه، موضّحاً بأنّ أمثاله لا يستحقّون أن نلوّث أيدينا بدمائهم، هناك كثيرون

جاهزون للقيام بهذا الدور، لكن هذا يكون في نهاية المطاف، تذكر أحاديثها عن أبيها وقدراته وسطوته، لم تنكر منه يوماً شيئاً، وكما اعتاد منها الصّدق، كيف كان يصل لمأربه بكلّ الطرق المتوية مستخدماً حتىّ الدين، ألم تحدّثه يوماً بأنّه سافر للحجّ، ليتعرّف في الطّريق للحجّ على رجل ذي مركزٍ مرموقٍ، ليوّقه تحت سطوته وشراكه؟ وكيف استغلّ هذا الرّجل في تحقيق مكاسب بالملايين، أمّا أمّه وأهلها وسطوتهم وقربهم من صنّاع القرار في البلد كلّها، كيف يتفنّنون في عمليّات السّمسة والبيع والشراء لصالح الكبراء، كيف يتخذونهم درعاً لممارسة أفعالهم، وبيعهم وشرائهم للبلد ومن خلفهم يكسبون ويتكسّبون؟ من يساعده ومن يؤازره في تلك المحنة؟ هل صار مثل سيّدات بلده يولول مثلهنّ؟ أم يندب متذكّراً مريّيات وعدودة أمّه وجدته؟ الطّريق أمامه شبه مغلق، خرجت وفي يدها حقيبة، ومن خلفها أمّها تدفعها أمامها، ضرب له الموعد، وحذّره من التّأخير، وذكّره الضّابط بأنّه سيكون مستعدّاً لإلقائه في السّجن لمتاجرته في الآثار، وبالنّسبة لأخيه أيضاً، وكلّ من يمت له بصلة قرابة، خرجوا ومضوا، يعصر رأسه بين يديه، لا تفارقه أحاديث نفسه، واللحظة تشاركها دموعه فتنساب، يتركها، لعلّها ترفع عن عينيه مظاهر السّكوت والصّمت والتّدلّل، فلعلّ الرّؤية الشّاحبة من بين الدّموع لا تعكس الحقيقة... آآآآآه، دائماً أصبر وأصبر وأصبحت كلّ أحلامي مؤجّلة، ومازلت صابراً، يوم أحسست بأنني على قيد الحياة وأنني إنسان، ووجدتها لتؤنس وحدتي فيما بقي لي من العمر، أخذوها عنوة، هي، أيّاً كانت تتحدّث عن الحرّيّة، وفي النّهاية هي امرأة شرقيّة، لحظة أن نظرت في المرأة، وأدركت أنّ عمري كاد أو قارب برّ نهاية أحزان الإنسان وهو الموت، تحسّست تجاعيد الوجه، وانتظرت أن تجود على الأحلام في ظلمة

الليل، وقل يومها تعداد الأحلام، وأحسست بأني إنسان بلا حلم، يمن الله عليّ، ويخطفونه من بين يديّ، صارخاً... إنَّها زوجتي...

قالوا الحبّ ماء الحياة... يشمّ شعر رأسها، وكأنّه يتنّسّم عبق أزهار، فيغمض عينيه تائهاً، كأنّه يتنفسّ عطر الهواء المتسرّب من بين ثنايا شعرها، خصلات شعر رأسها المتباينة الألوان، تبعد وهي ضاحكة جزلي ويواصل الحديث... الموتُ قادمٌ لا مفرّ، رحلة ذهاب بلا عودة، متى تبدأ؟... لا أحد يعرف، ولا يستطيع أيّ إنسان أن يدرك النّهاية، ضحك الفراعين على البشر، فقالوا رحلة الخلود وبداية الرّحلة هي الموت، ضحكوا عليهم لينتظروا، وربّما ضحكوا عليهم ليستمرّوا في استعبادهم واستعباد الآخرين، وأنا لن أنتظر، فعلينا أن نقهر الموت... يحاول أن يأخذها في أحضانها... تهرب وتجري من بين يديه، وكأنّهما في ريعان شبابهما، ويواصل... نقهر الموت، ونتمتّع بكلّ ما في أيدينا، طالما امتلكننا فعلينا التّمتع بكلّ ما هو متاح، بكلّ اللحظات التي تأتينا، فلا مواقيت للعشق، فلا نجعل اللحظة تمضي بلا متعة، فإذا امتلكننا اللحظة فلا ندعها تفلت من أيدينا، علينا أن نغرق أنفسنا في متع الحياة، ولنتأمّل ما حولنا... يسحبها من يديها، ويسقطان سوياً في حَمّ السّباحة، يتناوبان العشق في المياه، يقسم على جمال هذه اللحظة التي لم يمر بها من قبل، هي المرّة الأولى يقولها، وهو يضحك ويذهب في وصف الفرق ما بين السّباحة في حَمّ السّباحة وبين السّباحة في التّرع وربّما المصارف، يزيد في ضحكه، أمّا نهر النيل فمتعة، وأفضّل مياه البحر وخاصّة عندما يمتلئ الفم بالماء المالح، ويذهب في وصفها بأنّها صاحبة الفضل في تطوّره الحاليّ، فلم

يحلّم يوماً أن يغتسل... ومع مَنْ؟!... ستّ ستّات الدنيا، تحاول الهروب، ويعانقها، وتستسلم، ويشعر بالجديد عليه.

هو الوحيد الذي رفع عن وجهها قناع الشمع المتجمّد، أذابه أو ربّما تصوّر ذلك، كم تمنّت أن تجعله خادمًا في بلاط جلالته! كان بلا قلب، فلم تجد أشياء كثيرة، قدّمت إليه بصورة غير مباشرة من أتباعها، حاولت ألا تبدو في الصّورة، حتّى كان يوم الحفلة والسّهرة الرّمضانيّة، ضربوه وألقوا به في الصّحراء قريبًا من مدينة القاهرة، خافت وخصّة أنّ بعض الصّحف بدأت تجري وراء الخبر، في المستشفى الخاصّ جدًّا، ذهبت إليه، وأبدت اعتذارها، طلبت منه أن يبلغوا الشرطة، لكنّه أبى، وقال إنّه لا داعي، فهذا يثير ويفتح أكثر من حديث، استراحت، واعترف بفضلها وما قامت به، وأخيرًا صاروا أصدقاء، ولكنّه لم يخرج عن طوره المعتاد، ولسانه الذي يضرب به كسياط، لا تعرف السّبب الحقيقي وراء وقوعها في هواه، كم من رجال اقتربوا أو حاولوا الاقتراب!! هلّ ما دفعها لذلك همجيّته وعدم احترامه لأيّ موثيق العشق؟ عندما تناولت عليه، وكانا بمفرديهما، لم يفكّر، وكانت يده فوق وجهها بصفعة سريعة، بهتت... تحجّرت، ونظرت إليه، وقد تجمّدت عيناها على وجهه، لم تشعر به إلاّ وهو يمصّ شفّيتها في نهم همجيّ كما قالت لحظتها غريب، حاولت إفلات نفسها، وأخيرًا مستسلمة وراغبة في المزيد، كلّما تحدّث ووصف اليهود بما يريد تزداد ثورتها عليه، تتمنّى أن تقتله وتمثّل بجثّته وتحرقها وتشرها رمادًا، يزورها حتّى في منامها، لا يتركها للنوم، دققت وسألته عنه في شتّى المجالات، ما يمتلكه وما رصيده؟ قالوا رصيده لسان سافل وقح متناول دائمًا، كيف تسكته؟ إنّها في مشروع زادت مدّته عن عشرين عامًا، عرفت سيرته وشهوته الجنسيّة، واحدة قالت وكانت من

الجماليات اللائي يسنن في ركبها، وصفته بالجنون فقد قال لها عبارة غريبة، خلاصتها أنه وصفها بحيوان يشبع غريزة، وهو يرجو "إنسانة"، وليس شرطاً أن تمارس معه الجنس، اختلفت الأقوال حوله، فهل هذا ما أثارها نحوه؟ أم عدم احترامه لأهلها، ممن تخفي نسبهم غالباً من اليهود، وتطاوله عليهم، هو ما دفعها أن تحرسه وتغرقه في بحر هواها؟ لا... ليس هذا صحيحاً، هل نيته أن يطبع كتاباً موثقاً يتحدث عن مساوئهم؟ شيء غريب يجذبها إليه، هل تتمناه زوجاً أم عشيقاً أم حبيباً؟ لا تدري أيّ المسّميات أصحّ، لا يهتم بشيء في الدنيا، يتكلم ويطلق كلماته كطلقات مدفع وكأنّ الجميع يتحاشونه، هل تطمع أن يصبح أحد قادتها فوق رقعة الشطرنج التي تصوغها وفق رؤيتها؟ يستطيع أن يتقلد كلّ المناصب، بدءاً من العسكري الصّغير ذي الخطوة الواحدة، إلى الحصان المتعرج الخطوات أو الفيل الذي ينحرف قطرياً، وهو بطبيعته يهوى الانحراف، ولكنه لا يمثل دور وزير، ولا يتمنى، عاشق للمضيّ في الأحياء الشّعبيّة، لا تسعده وجبة في أرقى المطاعم في فنادق خمس نجوم، قدر سعادته أنه وقف في الصّباح أمام عربة فول، وتناول إفطاراً لا يخلو من الجرجير أو البصل الأخضر، هو لا يكذب... إنّها حقيقة، عندما تسأله عن نفسه بلا مواربة يجيب وبعفوية مطلقة يتحدث، البعض يذهب في تساؤل، فيضعون كلماته نصب أعينهم ويترقون أحياناً أبواباً لا يقصدها، ولا يشير إليها من قريب أو بعيد، ربّما عفويته وعدم اهتمامه بما يحدث له حداً ببعضهم إلى أن يصنع حوله هالات غير حقيقية، بل ذهب بعضهم إلى أن نصّبوه مفكراً ومثقفاً كبيراً، يضحك وبملء فيه يقول، واهمون وهذه طبيعة بشرية، فيوم لم يجد البشر شيئاً يعبدوه ويقدّسوه صنعوا بأيديهم آلهة، يضحك كثيراً حتّى تفيض عيناه بالدموع، لم أهجر بلدنا، وأتيت إلى هنا

لأعيش مثل سائر البشر، آكل وأشرب وأنام وأتزوج وأنجب، لم أطمع في كثير، ولكنني لم أدر حقيقة الدنيا إلا من خلال صديقة، تزوجتها عرفياً؛ لأنني كنت أخاف الله، ولا أستطيع أن أعيش بما يخالف الشرع، أحسست أنها وافقتني، واشترطت أنها ستمضي، وستترك البلد متى جاءت لها الفرصة، ويوم واتتها، ودعّنتني ومضت، لم أر مثلها، ولن أرى، وأحسست أنني رغم حصولي على درجة الدكتوراه إلا أنني جاهل بما يدور حولي في الدنيا، فانسقت وراء شيطاني، ذاكرتي لم تخونني قط، وشعرت للحظة بأنني يجب أن أكون محط أنظار البشر من حولي، لا يهمني أن تكون نهايتي القتل أو الرفع فوق الأعناق، أصبح همّي الأوحاد نفسي، غنوا لي أو غنوا عليّ لا أدري، أصبحت مهموماً بأن أبسط يدي في أحلامي، مثل نجم متألق في سماء الناس، وكأنني كنت أتمنى أن أصنع من نفسي صنماً يعبده الناس، ومضت بي الدنيا وسرقت أحلامي وأيامي، ووجدتهم جميعاً سخّروني لخدمة أغراضهم، فرحت بظهوري الإعلامي أكثر من مرة، وتتابع اللقاءات، وظننت نفسي نجماً، والعمر يجري، لم أنزح لوادي التيه كليّة، ولكن احتفظت بكينونتي، وخاصّة ما تربّيت عليه صغيراً، وبعد هذا العمر أصبح يتساوى عندي المدح والذمّ، وكأنّ الصنم الذي تمنيت صناعته تحطّم، وأفل نجم الهوى المصنوع من خيالات بشرية، وزهدت فيما ملكت، ولم أطمع فيما يملكه الآخرون، وحمدت الله على أنني لم أتزوج، ولم أفكر في الزواج، فربّما أجبرني حمل الأسرة على البحث عن غنى ومال، فحمدًا لله وشكرًا، ونمت قرير العين، ومازلت عاشقًا، والمفروض للعاشق ألا ينام، وأعرف أنّ التوم للعاشق لا يوجد إلا في الكفن، وأنا أنتظر الكفن، فلم التوم؟ ولم السير بجوار الحائط؟ ولم الصمت؟ يضحك وهو يقول سأعيش كلّ لحظة، كم هي رائعة عدالة الله! يضحك

عاليًا، ويترى قليلاً، ثم يواصل... في المسيحية يقولون إنَّ الرَّبَّ ينظر إليها، ويتسم وهو يلثم أناملها ويرشف قليلاً من الخمر، تتسم له، وتأخذ رشفة من كأسه، وكأنها تدعوه للاستطرد، خاف الرَّبُّ عتابَ البشر، خاف أن يحاسبه البشر!!! نزلَ بنفسه، وعاش حياتنا، واحتمل أكثر مما نحتمله من عذاب، رأى بعينه الأهوال ووحشية البشر فيما بينهم، يومها لو أيَّ إنسان نطق وقال أنا ظلّمت أو أعدّبت في الدُّنيا، ساعتها سيكون ردُّ الرَّبِّ جاهزًا، يستطرد مستشهدًا بالإنجيل، وكذلك من الأسفار المختلفة، تقاطعه وهي ترمي من وراء عبارتها حديثًا آخر، فتسأله عن موقفه المعادي لليهود دائمًا، وكذلك أمريكا وأوروبا، يضحك كثيرًا، ويرفع يديه للسَّماء، وكأنه يدعو أن ينالَ رضاهما، تتجمّد ملامحه، وينظر إلى أعلى، وكأنه يقرأ شيئًا مكتوبًا على سطح الغرفة، مردّدًا... قال أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ قال إنَّ سليمان بن داود - عليهما السَّلَام - لما بنى بيت المقدس فكلَّمَا بنى حائطًا أصبح مهدّمًا، فأوحى اللهُ إليه ألاَّ تبني في حقِّ رجل حتّى ترضيه... أتدرين أنَّ هناك بشرًا اغتصبت أَرْضهم، يا سيّدتي، لقد ذهب الحياء من وجهي، فأنا أذكر حديثًا للرَّسول ﷺ وشفاهي مبلّلة بالخمر وأقوى من الخمر يا سيّدتي، لثم شفّتيك، يضحك بصورة هستيرية ويواصل بعد أن يدفع بما تبقى في الكأس من خمر في فمه... في يوم قريب سترين مجلّدًا ضخّمًا عن مصائبهم وما فعلوه في الدُّنيا قاطبة أحباب الله، عليهم لعنة الله اليهود، ألا تعلمين أنّهم يسرقون كنوز مصر تحت دعاوى كاذبة ليس لها أساس من الصّحّة، تدفعه للمزيد من الحديث، خاصّة عن موضوع الآثار، يحاول أن يتعد عن هذا الحديث، في دلالها دعوة للاسترسال، وكم هو في هواها بدا ضعيفًا! كلُّ دعاياهم التي تملأ العالم، هي هيكل سليمان، وإعادة بنائه،

ومعروف أثرياً أنّ هناك أشياء كانت داخل التّابوت، وهي الأهمّ... الألواح المكسورة الخاصّة بسيدنا موسى عليه السّلام، التي استعاض عنها بألواح خشبيّة، وكذلك العصي الخاصّة به، وليس المهّمّ في الحقيقة التّابوت ولا الألواح، المهّمّ هو الحصول على سرّ الخلود وسرّ أسرار سيّدنا سليمان، وكنوز مملكة سيّدنا سليمان عن طريق الحصول الجعارين الذّهبيّة، وتوافقها مع الونائس الذّهبيّة الخاصّة، ولها عدد وعدّة معيّنة، والموجود منها لا يكفي، تستوقفه عمّا يقوله ومدى صحّته، لا يردّ عليها، ويواصل ضحكها فلا تشاركه الضّحك، وكأثما تأخذ منه موقفاً، تبعد، تتبعها عيناه، يداعبها بكلمات غزل غير عفيفٍ، لا تنهره ولكنها تزهو أكثر، تتركه وتمضي، وفي مشيتها هوس شيطانيّ مريد، تتحرّك في القاعة الكبيرة، وكأثما تستعرض جمال تفاصيل جسدها رغم سنّها، في ملابسها القريبة من ملابس النّوم الشّفافة، تسقط الأضواء عليها فيزداد التّألّق، فالأضواء وكأثما سقطت فوق معدن إنسانيتها، فالتهبّت وتفجّرت أنوثتها تتحدّى عمرها الحقيقيّ، ظواهر بدت عليه في تعلقه بها تؤكّد أنّها أصبحت نبع حياة له، كثيرون ينثرون حولها الحكايات، وكثيرون يتمنون نثر أزهار إعجابهم أمام موطن قدميها، هي ما زالت مصمّمة أن تظهر أمام الجميع بأنّها امرأة قويّة، فيوم رآها حبس آهاته، وأدرك أنّها بعيدة المنال، تذكّر المرأة القويّة التي تحدّث عنها سفر الأمثال، كما قال عنها الحكيم سُلَيْمان، مفاتها في هذا السنّ، كانت قادرة على أن تبعث الحياة والرّبيع في قلوب الرّجال، حتّى وإن كانوا في خريف العمر، خليفة بأنّ تعشّش في ذاكرة الشيوخ، فلم يستطع أيّ منهم كبح جماح رغبته الهرمة أمام فتنتها، وهبت بقدر واكتسبت الكثير، مغرورة بجمالها، وحريصة على أن تظلّ أمنيّة في قلوب مطارديها، مشاعرها كصخرة ثابتة أمام طوفان أمواج العشق

التي تغسل قدميها على شاطئ بحر، قدّموا قربانهم إرضاءً لها، اكتفت مرّة بغمزة أو لمزة، وحدث أحياناً بابتسامة، وعندما تتجاوز الحدود التي وضعتها لنفسها، فتطبع قبلة فوق وجنة عبدها الرّاع يلتمس القرب منها والتودّد إليها، قالت عيونهم إنّ جمالها جدير بقفص ذهبيّ، وكلّهم عرضوا صناعته، لكنّها تعشق حرّيّتها أكثر من جمالها، فلم تضع قيود العشق فوق قلبها، فالحرّيّة أوّلاً وأخيراً، كان سلطان عقلها أكبر من سلطان هواها، داروا في فلكها عاشقين متميّنين أن يحظوا بالدنو أكثر، ضاقوا منها، فقالوا إنّها بنت صروح مجدها بالعري، ومزيد من العري يصنع المجد الكاذب المرهون بالفجور، في الحقيقة لم تترك لأحدهم الفرصة ليتأمل تضاريس جسدها بطبيعتها الإنسانيّة المجرّدة، فتاهوا في تأمّلاتهم وخيالاتهم، واستعاضوا عنها بفتياتها اللائيّتين يتبعن إشارتها، وهنّ يدركنّ مواطن ومواهب أصحاب الشّأن حتّى من أدركه اليأس يرفعون من شأنه بأهاتهم وتصنّعهم، ويمنّون عليه بأهات كاذبة، فيسبح في بحور التيه التي يصنعها بدهاء ومكر أستاذتهم، يخرجون من تحت أيديهم وأجسادهم، وكأهمّ فتحوا حصون القلاع الحصينة، شيّدت صروح شموخها من خيالات عشاقها، ينظر إليها ثانية، وهي تحطف بصره في مضيها، وتنظر إليه بطرفي عينيها، يحدث نفسه... ملعون أبوها، نعم، جميلة وللجمال جاذبيّة، فلا تلعن القلوب العاشقة للجمال... مزيج من حضارات الشرق والغرب وثقافات متنوّعة مختلفة، أحياناً تكون معه أليفة وتفويض بالمشاعر الإنسانيّة الرّائعة، وكأنّ الحياة درّبتها في دروبها المتعرّجة، فتعلّمت فنّ الاختراق، التزمت الصّمت أوان الصّمت، في ساعة صمتها تسبح عيناها، فتقرأ صفحات وأفكار مريديها فوق وجوههم، لا تفارقها ابتسامتها، تستطيع أن تصنع حقلاً من الألغام حولها،

يدخل خلفها كثيرون، ينتظرون أن تشير عليهم كيف يسرون على دربها للوصول، من لا يتبع تعليماتها غالباً تزلّ قدماه، وينفجر بعيداً، تجيد نصب الكماثن، وتسهّل طريق الدُّخول بإشاراتنا وإيماءاتها وغمزاتها وفتياتها، يدخل حقل ألغامها من ترتضيه وبحاجة إليه، في أرقى معاهد التّدريب العالميّة اجتازت الاختبارات، أمّا التّنفيذ فهنا، كثيرون حفظت ملفاتهم ووثائقهم، جمعت صوراً وأحاديث وأفلاماً للعديد منهم، وهم على حقيقتهم في حجراتهم المغلقة، فإن اقتضى الأمر وأصبحت في حاجة لخدمات أحدهم، إن وافق أهلاً وسهلاً، وإن أبي فلا مانع من فتح ملفات، ويمكن أن تكتفي بإشارة تستظهر بها مدى معرفتها، كثيرٌ ينصاعون، وكثيراً تكون بعيدة عن مكان الحدث، قالوا عنها: إنّ لها أذاناً كثيرة، وليستا أذنين فحسب، سخّرت كثيرين لخدمة مشروعاتها، أجزلت العطاء والعطايا، رغم كلّ هذا، قليلون من يعرفون رقم هاتفها الخاصّ، يعشقونها وتستطيع أن تسقط من تشاء وقتها تشاء، يمكن بالضّربة القاضية الفنيّة مها تعدّدت الجولات، المصيبة الأكبر أنّ كثيرين منهم تشرح صدورهم، وهم مطروحوون أرضاً فوق حلبة مصارعتها، غارقون في الضّحك رغم هزيمتهم، وهم شبه عرايا، منتظرون لجولة أخرى معها، تمنح العطايا بلا حساب، أحياناً تشعر بأنّها أضاعت حياتها كلّها في خدمة القضيّة التي تعيش من أجلها، نعم... يفتحون لها حسابات في أكبر بنوك العالم، تشعر أنّها تعطيهم أكثر مما تأخذ منهم، فالآثار التي ساهمت في خروجها بمليارات، تحبس أفكارها، ألم يقولوا بأنني ملهمة، وقادنتي العناية الإلهيّة لخدمة قضيتنا؟ تحسّ به مجابهاً قوياً لها، وكثيراً تشعر أنّه لا يعرف شيئاً عنها، وأنّه مجرد مجنون هواها وعشقها، وضعت حاجزاً، فلم تفتح الأبواب المغلقة في حياتها، لكنّه يكسر جمود إنسانيتها المهذرة، تمت أن

تكرهه، ولم تستطع، في حواراته معها تكاد تنفجر، وتطرده ولا تستطيع، ماذا تفعل؟ ماذا لو عرفوا بعلاقتها به؟ تعلقها به مجرد ستار تخفي تحته سحبه بما يكتبه بعيداً عن فتح ملفات أهلها، فدورها محدد مسبقاً ولكن في التطورات الجديدة عليها أن ترى ما يخدمها، لا تنتظر سؤالاً وإجابة، كانت مؤهلاتها تسمح لها بكل هذا، هل أصبح ذليلاً لها؟ إنه المجنون الوحيد في الدنيا الذي صفعها، لا أحد يعرف، ولكنها لثمت يديه، فإلى أين تجرجه؟ تمنى الصمت، تمنى أن تحصل منه على وثائق يقول عنها إنها تاريخية، غالباً حديثه فيه صدق، تشعر في عينيه بحبه الغريب لها، تهتز كل مشاعرها في عناقه، ماذا يحدث إن جاءت الأوامر بأن تنهي حياته بيدها؟ تحاول أن تبعد السؤال وكأنها تخاف مجرد طرحه، لم تفتح له كل الأبواب ولكن عليه القدوم في أيام معينة، وبعد مخاطبتها من خلال هاتفها ورقمها الخاص جداً، يقضيان أجمل الأوقات، وتنتظر أن يفتح ملفاته السريّة، عاشق غريب لبلده، فيقول ليس عيباً أن تكون أنانياً في حبّ بلدك ووطنك وأمك، تعلم أن كثيرين يشاركونك، وعليك أن تحسّ بأنّها لك وحدك، وعندما يضحك، ويذكرها بأحد عشاق وطنه، وكان كثير الترحال، فكان يحمل بين أحماله جراباً به تراب من بلده، فإذا أصابه مرضٌ في غربته، فإنه يتداوى بقليل من هذا التراب، يضحك ساعتها، وتغرق عيناه بالدموع، وهو يتذكر طفولته في قريته، ويحكي إن أصيب وجرح أيّ منّا ونحن نلعب في طفولتنا، فنكبس الجرح بالتراب، والغريبة أنّ الجرح يتماثل للشفاء، وبسرعة غريبة، الغريب أنّه رغم كراهيته الظاهرة جداً لليهود أحياناً يبدي تعاطفاً معهم، فيتأثر بما نالهم من استعباد وقهر وموت، يعود متذكراً أنّهم هم السبب في كل ما حدث لهم، أيام معينة يأتيها، وكأنّها امرأة شريفة تخاف الفضيحة، تحاول أن تكون لقاءاتها في

سرّية تامّة، لا تستطيع الإفلات من قيود هواه، لمساته وكأنتها سحر يحدّر كلّ أعضاء جسدها، تتذكّر لحظات هواه، وكيف يبدأ بمداعبة أصابع قدميها، فتتاوّه بداية ثمّ تصرخ في النّهاية؟! ويوم سألها أتحافين علاقتنا؟ بلا تردّد، أجابته بأنّها الحقيقة، رغم كلّ التّحرّر ومناداتك بفكّ قيود التّعصّب والتّفرقة بين الرّجل والمرأة، تمارسين أفعالاً غريبة، أرجعت كلّ هذا لتربية غريبة رغم انفتاح هذا المجتمع، لم يقتنع بأفكارها وحدثيها، وكأنتها تحاول أن تصنع سبباً، كان السّبب واهياً فعلاً، أدركت أنّه غير مقتنع بما تقول، طلب منها الزّواج، سقطت عليها الكلمة كالصّاعقة، ولكنها استردّت وعيها بسرعة، وقالت له: ولو كنت على غير دينك؟ وعلى الفور أجابها: ولو لم تكوني على أيّ دين، ألسنت أنت من تطالبن النّاس بالحرّيّة والمساواة والإخاء؟ تركها ومضى، عرف إجابتها، وعليها أن تراجع نفسها، لا تستطيع التّخلّي عنه، ولا تستطيع تركه... أصبح متنفسها في الدّنيا، كيف تعيده لحديقتها قبل أن تذبل أزهارها؟ كانت الرّسالة المشفرة التي لا يدرك معانيها سوى أقلّ القليل، خائفة منه وشرحت أسباباً، ولكن لا تستطيع شراءه بأيّ أموال، وتستطيع أن تجعل منه خادماً أميناً، رغم اعتياده الهجوم على عشيرته، فهو يدّعي حبّها، وهي أسيرة قضيتّها، لسانه كفيل بأنّ يعرّي مشاريعهم بعد هذا العمر الطّويل، للسانه سطوة قد يؤلّب البشر علينا، ليس أمامي سوى إيهامه بحبّي، كانت الإجابة أن تهبه ما يرضيه، فما الجسد سوى قطعة لحم فاسدة!! تشعر بغصّة في حلقها لردّهم عليها، تشعر بأنّها مجرد بضاعة أو سلعة يمكن بيعها في سبيل الكسب، هو نفسه الذي تطاول، وقال يوماً بأنّ بنات اليهود كنّ يارسن البغاء في حانات الألمان، هل صدّق كلامه؟ هل هي حقيقة؟ قال لها الرّجل إنّها فتاة مباركة أتت لا تعرف لها أباً، في ليلة مباركة تبادل الرّجال

والنساء، وكأنتها تعيد أفكارها وتقلبها، فعلامٌ أسعى؟ جئت وهمي الأول نقل
كنوز هذا البلد لنستكمل ما سرق من هيكل سُليمان، تحت مسمّى المشاريع
الإنسانية نجهّزهم لأن يتقاتلوا، ليسفكوا دماءهم.

اقرب موعد المحاضرة، تماسك أو حاول أن يبدو كذلك، في رأسه كمّ
من أسئلة لمن يبوح بها؟ داخله رجلٌ شرقيٌّ ريفيٌّ أخذوا زوجته، ذهبت
كرامته، هل تستردّ الكرامة؟ كيف ومتى؟ سيحاضر بؤساء على نفس
شاكلته، سيحدثهم عن الحرّية، ويجب أن يسعى الإنسان إليها، حتى لو دفع
عمره في سبيل الحرّية، وماذا يقول عن حاله، القاعة الفسيحة الخاصة
بالجمعيّة الأهليّة الملحقة بالمسجد، جهّزوها خصيصًا للقادمين ومحاضراتهم،
لا يهتمهم ما يقوله، مهمومون بما ستدفعه المؤسسة، فأوجه الخير التي تراها
كثيرة، وأهمّها أيضًا مساعدة المعوزين في هذا الحيّ الفقير البائس، أغلبهم من
الشباب، وكأنتهم جمعوهم غضبًا عنهم، كثيرون تزين اللحى وجوههم، رغم
سنتهم الحرج، يبدو على وجوههم التقوى والصّلاح، آخرون وكأنتهم جمعوهم
من الشوارع أو من القهاوي، وكأنّ بعضهم لم يكمل لزوم تعديل رأسه، كما
يقولون، فلم يكمل سحب ما تبقى من الدخان المعجون والمخلوط بالمخدّر
المعتاد، يبدو على البعض منهم أنّهم فاقدو التّركيز، ولا يعي غالبًا ما يقوله،
يتحدّث عن الحرّية ومطالب الحرّية ومسالب الصّمت، فالحرّية بداية الطّريق
لأخذ كلّ الحقوق المشروعة التي كفلها الله، وكلّ الأديان تحضّ عليها، فليس
عيب أن نسعى إليها بكلّ ما أوتينا من قوّة، فالحرّية هي الثّراء بكلّ صوره، في
الحرّية تبداع، وفي الحرّية يمكنك أن تصبح غنيًا، ولا تنتظر ما يجود به
الآخرون عليك، علينا أن نحفر طريقًا للغد في سبيل حرّيتنا وقوتنا وثراننا،

تخرج تنهيدة قويّة من بين حنايا صدره، وكأنّها تواسيه في كذبه، متألّق في الحديث، مسلوب الحرّيّة والحقّ، ويجدّثهم عن حقّهم، فأبيّ حرّيّة ينشدها، أخذوا منه زوجته وهو مجرد عبد في بلاط السّادة الأوصياء، قال أحدهم: إنهم يعملون، ويتنظرون أن تسنح لهم الفرصة، وما عليهم في الوقت الرّاهن سوى الإذعان والعمل عند السّادة، بسرعة غريبة عقبّ عليه:

— تنتظر مصباح علاء الدّين، تنتظر عفريته أن يخرج من القمقم ليلبي طلباتك... إذن فأنت رجل مجنون، ستظلّ عبدًا وتموت عبدًا ينتظر، والمصيبة بسبب عبوديتك للعفريت، ستدخل جهنّم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الحرّيّة ولولا هذه المنحة ما حاسبه، أليس كذلك أيّها الشّباب الورع؟ وقف فتى وكأنّه لا يستطيع أن يسند طوله، وقال مبتسمًا:

— والله يا باشا أنتم ناس بيّاعين كلام، كلّ يوم بكلمة وبتكوّشوا على كلّ حاجة حتّى المزاج النّضيف بتغلوه... حرام عليكم، تماسك، ولم يتسرّع، ودار في فلك كلمات الفتى، فكلّماته صحيحة لا ريب فيها، سأله:

— أنت عملت دماغ التّهارده؟

— ما كملتش يا باشا، الشّباب الفلّلي اللي زيّ الورد جمعونا وقالوا ليّا، هتاخذ واحد ساقع وممكن اتنين بسكويت وسيادتك هتصرف لينا كام جنيه لزوم الوقت اللي قعدنا فيه، ضجّت القاعة بالضحك... وطالبه أحد شباب الجمعيّة الملتحين بالتزام الصّمت، وأنّ هذا المكان ليس للتّهريج والكلام الفاضي، اهتزّت رأس المتحدّث، ويبدو أنّ الجميع يعملون له حسابًا خاصًا، حتّى الإخوة شباب الجمعيّة، لم يلتزموا بما طلب منهم، وواصل:

— يا سيدنا... إنتم تعملوا فينا خير لو صرّحتوا ووافقوا وأنتم ناس لكم شنة ورنّة والحكومة بتعمل لكم ألف حساب وفلوسكم بالكوم، يا سلام،

يقولوا فيه بلاد مصرح بها للمزاج والكيف، طلّعوا قانون ويومها لا تقول حرّية ولا غيره... هتلاقي الدنيا كلّها حواليك بتضرب، النَّاس مبسوطه ومزغطة، والفرح باظظ من عين النَّاس، يا دوب تموين يكفّي ثلاث أربع سجاير في اليوم وما يضرّش لو وصلوا خمسة، ولو فيه مقويّات برضه لزوم الحرّية هتلاقي حتّى الحريم هتدعيلكم بالليل والنّهار، هقول لسيادتك كفاية قرص واحد من أيّ نوع يومياً، الحاجات دي هطلع الحرّية من جتتنا، وأبو اللي خلفوا الحرّية، وهتبقى ميه ميه، شجّعه بعضهم وثار بعضهم، وهو مبتسم شكلاً، طالباً ألاّ يقاطعه أحد، فهذا هو حقّه، بداية الحرّية أن يتكلّم الإنسان بما يريد، تجمّع عدد من الشّباب الملتحين من أعضاء الجمعية، وحاولوا إخراجه باللين، فلم يوافق وصمّم على الجلوس، أشار عليهم...
 - أنا لستُ ضده... هذا حقّه.

- يعني كلّ اللي أطلبه... أنه فوق بطاقة التّموين السّكر والزيت نزود التّموين حبة ونضيف لزوم المزاج، لم يتحمّلوا أكثر من هذا، وصمّموا على خروجه، وخرج وبيده زجاجة المياه الغازية، وزوج من علب البسكويت، لكنّ لم يتّضح المبلغ الذي وضعوه في يده، طالب الجميع بالهدوء.
 - لازم يتكلّم... الحرّية.
 قام أحدهم وبلا تردّد قائلاً:

- هيه فين الحرّية يا باشا؟ الواد "كحّة ابن العمشة"، ردّ على الضّابط بكلمة واحدة وقال زيّ ما قلت سيادتك... أنا حرّ... خبطه حتّة بوكس في عينه شرخ فوق حاجبه وسحبه من قفاه على القسم، وحلف أنّه ما هيعرضوا على النّياية وساييه مرمي جوّه القسم، وكانّ ابن عمّها ضابط الشرطة هو من فعل تلك الفعل، وهو يمثل دور كحّة في الحكاية، لا إرادياً، وبحرقة بدت

جلیّة لمستعمیه ومشاهدیه صرّحَ وضربَ المنضدة التي أمامه حتّى سقط كأس الماء، فقال بعد اهتمام:

— أين الإنسانيّة؟ أين الحرّيّة؟ وكأنّهم يسألونه عمّا يفعلون، القهر أسوأ ما حدث، ومن بين الحوادث المهمّة التي ألمت به اليوم، فألقت بظلالها على كلماته، فذهب في حديثه أن يطلقوا سراح الفتى ولو بالقوّة، راح يسأل كم عدد أفراد الحراسة في القسم؟ فليسوا بأكثر من أهالي الحيّ، عليهم أن يحترموا البشر وأن يفرضوا هم عليهم الدّلّ، كلّ هذا نتاج استسلامهم، خرجوا وكأنّهم استمدّوا منه قوّة معيّنة، أليس هذا داعية الحرّيّة؟ هؤلاء النّاس ممن يحاضرونهم، ومن يقدّمون لهم المساعدات لهم حصة خاصّة جدًّا، عليهم أن يستفيدوا مما يحدث حولهم، ما إن خرجوا، وجلس الشّباب والأعضاء الأساسيين للجمعيّة يستعرضون مطالب المرحلة المقبلة، وهو يصوغ الطّلبات وفق ما هو متّبع، فلم تخرج طلباتهم عن الحيز المعتاد، مزيد من المساعدات المادّيّة والعينيّة لأبناء الحيّ، وها هو رأى بنفسه ما يموج فيه الحيّ من بؤس وفقر مدقع، كذلك لم ينسوا مطالبهم بشأن زيادة التّمويل لإقامة الندوات الدّينيّة والمسابقات، خاصّة مسابقة حفظ القرآن الكريم، والمساعدة في زيادة أعداد المعتمرين هذا العام، وأشاروا إلى أنّ هناك جمعيّات أخرى استفادت من سفريّات أبنائها للخارج، خاصّة السفريّات إلى أوروبا وأمريكا تحت مسمّى ندوات ثقافيّة سياسيّة، وأبناء الحيّ أولى، فيكفي ما يحصل عليه المسافر من بدلات، وهم في أمسّ الحاجة أكثر من سواهم، وضع تحت هذا المطلب أكثر من خطّ، ووعد بتنفيذ مطالبهم، وهو يركب السيّارة، وبينما الإخوة يودّعون، وصلت لمسامعهم أخبار أنّ كلّ من خرجوا من لقاء الجمعيّة، توجّهوا مباشرة لقسم الشرطة وحاصروه، بل كانت أخبار تقول

بأنهم أخرجوا الفتى "كحّة" من الحجز وهرّبوه، وأنه يوجد شبه معركة بين الشباب وأفراد قسم الشرطة، انطلق السائق بالسيارة، وجهه بأنه في طريقه للمقرّ الرئيس للمؤسسة، عندما دخل البهو الرئيس سأل موظفي الاستقبال عن الموجودين من الكبراء، أشاروا بأنه لا يوجد أحد مطلقاً، حاول أن يعرف مقرّ إقامة "مس لافويت"، لم يجبه أحد، فحقيقة كلهم لا يعرفون لها مقرّاً، فممرّات كثيرة لها جناح باسمها في أكبر فنادق القاهرة، وأحياناً تعيش في قصر في إحدى المدن الجديدة ذات الأسوار العالية، وممنوع دخول عامة الناس فيها، تأكّد من وجودها في القاهرة، جلس في إحدى قاعات الاستقبال الرائعة الأثاث، كانت القاعة الرئيسة التي تقع في مواجهة الدّاخلين والخارجين، مقابلة تماماً لمكاتب موظفي الاستقبال، أتاه أحد العاملين يسأله عن أيّ مشروب يطلبه، فهذا من معالم الكرم الأمريكيّ على الأراضي المصريّة، كما يقولون، كان عليهم أن يسألوا القادم إليهم عمّا يطلب، طلب منه فنجاناً من القهوة المضبوطة، جلس ووجهه منكّس لما بين قدميه، وتستند رأسه على كفّ ذراعه اليسرى، فلم يشعر بمنّ جلست بجواره، إلّا بعد أن أحضر العامل قهوته، ابتسمت... فسلمّ عليها، بصوت هامسٍ باركت زواجهما، بدت علامات الدهشة فوق وجهه، فبادرته، وبسرعة متسائلة، إن كان يعرفها أم لا؟ أبدى معرفته بها، ولكنه ينسى الاسم، سألته عن العروس، وما أخبارها؟... لم يجبها، أعادت عليه السؤال من جديد، حاول أن يغيّر الموضوع، فسألها عمّن أخبرها بزواجهما، بتلقائية غريبة قالت له، إنّها تعرفه من أمّد طويل، وأنّ "لولا" صاحبة الفضل الأكبر عليها، وما وصلت إليه في الفرع الرئيس في المؤسسة، فالفضل يرجع لها والله أوّلاً، أبدت بدلالٍ بالغ أنّها ستعاتبها ساعة أنّ تراها، فكيف لا يعرفها "حمدي باشا عبد الوارث"،

وهي حبيبتها، لم تصمت، وكأَنَّها مصمّمة أن تستكمل حكايتها، راحتُ تسرد عليه، وكما تقول شيئاً من أفضالها، تضحك وتواصل أنه يكفي أَنَّها علّمتها كيف تأكل بالشوكة والسكين، تضحك وهي تحكي عن أن عمرها ما تخيّلت أن الأرز يُؤكل بالشوكة، تذهب في ضحكة طويلة، وكأَنَّها تسأله عن حبيبة لـ "لولا" اسمها "زهرة" و"لولا" تسميها "وردة"، وكأنّ ذاكرته رجعت إليه فتأملها من جديد، نعم... رأها من فترة ليست بالطويلة، فقد أصبحت في صورة مغايرة عمّا كانت عليه، لم يلاحظ ما هي عليه من جمال، كم تغيّرت معالمها! تقول وهي تسحب العصير من أنبوبها المعقم بعد أن سحبتها من كيسها، لا تتوقّف، وهي تشير بالمصاصة وأن عمرها ما تخيّلت أن تشرب بها!! قصّت عليه عن علاقتها بها، وهو لم يدرك كلّ الحكاية، فكانت رأسه تكاد تنفجر، فطلب من العامل فنجاناً آخر من القهوة، نظرت للفنجان الفارغ وطلبه، وما لبثت أن دعت العامل، وطلبت بدلاً من القهوة كأساً من الليمون المثّج، نظر إليها معاتباً، لم تردّد وهي تصف مساوئ القهوة على العريس الذي لم يكمل شهراً من زفافه، هو متأكد أنه لا أحد يعرف هذا الزواج، ما درجة علاقتها بها؟ أخبرته بأنّها اتّصلت بها أكثر من أربع مرات بعد المغرب اليوم، ولم تردّ، فلماذا؟ داور وحاوّر، ولكنّ بدا على وجهه ما ينم عن حدثٍ ما، هي لا يخفى عليها بسهولة، اعتدلّت وواجهته، وسألته مباشرة: أنت تعرفني؟ تعرف اسمي؟ اهتزّت رأسه، وكأَنَّها تعلن عن معرفتها، وحاوّل أن يجيد بعينه بعيداً عن مرمى بصرها، سألته إن كان هناك مكروه حاقّ بـ "لولا"؟ أم...؟ عاد يجيبها بسؤالٍ عن قدرات السيّدة "لافويت"، مدى علاقتها بصنّاع القرار في البلد، وإلى أيّ مدى علاقتها مع أصحاب النّفوذ؟ كان سؤاله طويلاً جدّاً، يعكس مدى الهَمّ الذي يركب

رأسه، ضحكتُ بصورةٍ أثارتَه، بلْ نظرَ حوله، وكأنَّه يتأمَّل ردَّ فعل المتواجدين لضحكتها، قصَّت عمَّا تستطيعه هذه السيِّدة "مس لافويت"، فتشيرُ أنَّه يكفيها أوَّلًا أنَّها تحملُ الجنسيَّة الأمريكيَّة، وجواز سفرها الخاصَّ، يكفي أنَّها أثناءَ حضورها إلى مصر أو خروجها فصالة كبار الزُّوَّار تفتحُ لقدمها أو مغادرتها، أحيانًا تشعرُ بأنَّها على علاقة مباشرةٍ مع رئاسة الجمهوريَّة، في أيِّ مشروعٍ من مشروعاتها يكونُ الحضور من المحافظ فما فوق، الجميع يعملونَ لها ألف حساب، أمَّا سببُ قربها منها، فيرجعُ لأسبابٍ عديدة لا مجالَ لذكرها الآن، طالبتَه أكثر من مرَّة أنْ يطمئنَّها عن "لولا" وهو يعيدُ السُّؤالَ عليها بصورةٍ مغايرة، ومدى علاقتها هي بـ"مس لافويت"، ارتبطتُ إجابتها برده أوَّلًا عن سؤاها عمَّا حدث لـ"لولا"، حكى لها، ولم يغفلُ أيَّ تفاصيل، بدا على وجهها الانزعاج، وقفت مرَّة ثمَّ جلست، لا تدري ماذا تفعل؟ عاد يسألها عن "مس لافويت" وقدراتها وعلاقتها، هلُ بينهما علاقة قويَّة، استأذنته للحظات وفي يدها تليفونها المحمول، أمَّا حقبيَّة يدها، فقد تركتها بجواره، في القاعة الداخليَّة كان لا بدَّ وأنْ تتصلُ في البداية بالسيِّدة الكبيرة، فهي تعرفُ محلَّ إقامتها في هذه الأيام، لكنْ من المعلوم أنَّه ليس من حقِّها أنْ تخبرَ أيَّ إنسانٍ دون الرجوع إليها أوَّلًا، بمجرد أنْ أخبرتها بأنَّ المدعو "حمدي عبد الوارث" صاحب آخر كتاب... لم تكمل... ضحكت السيِّدة، وأكملتُ زوج "لولا" مع إيقاف التَّنفيذ، قالتها وهي تضحك ضحكةً من ضحكاتها المقتضبة المشهورة عنها، لم تخبرها بشيءٍ فراحت تقول لها بأنَّها تعرفُ السَّبب الذي يرجو الحضور من أجله، كانت قد وصلتها أخبار من المكان الذي ألقى فيه محاضرته الأخيرة، وما حدث وكيف استطاع أنْ يثير حماسهم ويدفعهم لمحاصرة قسم الشرطة؟

وكانت في قرارة نفسها تشعر بالسعادة أنّ فردًا واحدًا من أبناء المؤسسة، يستطيع أن يؤلّب الناس من حوله، ويدفعهم للوقوف، حتى لو كان الأمر ضدّ الشرطة التي ترتعد فرائص أغلب الشعب منها، هكذا تصوّرت هي، وبلا تردّد أجابتها، وكأنّها تقول لها إنّهُ هو من تسرّع، فلم تمنع في أن تحضره وتأتي به إليها في قصرها الخاصّ بالمدينة الجديدة، كانت تجلس هي والدكتور "برهان" يستعرضان ما صورّه كلٌّ من "أحمد" و"لولا"، والمقبرة الفرعونية وما تحويه، فوق شاشة عرض كبيرة ويطلبها أحيانًا بأن تثبت الصورة، يتأمل تماثلاً أو مخطوطة أو لوحة على الجدران، فيحكى أنّ بالمقبرة عدم تجانس بين محتوياتها، تتأكد من رؤيته الصحيحة، فليس هو أول من قال ذلك، يستعرض صورًا بالتصوير البطيء وخاصة للجعارين الكاشفة، وهي الصّغيرة الحجرية، ويقصّ عليها قدراتها واستغلالها، ويضيف لها أنّ هناك العديد من الجعارين، فمثلاً هناك جعران القلب، يضعونه فوق عضلة القلب للميت، مسجلاً عليها التّعويذة الثلاثين من كتاب الموتى، وفيها يستجدي الميت قلبه، قائلاً: "يا قلبي الذي ورثته عن أمّي لا تصبّح شاهداً ضديّ، ولا تقل زوراً في المحكمة..."، يتأمل الجعارين الذهبية، ويثبت الصورة على أحدها، يكاد يلتصق بالشاشة الكبيرة وعلامات الدهشة بادية قويّة، فيتطرق بالحديث عن الحجر المتوهّج وقدراته الغريبة، وتأثيره على الكائنات الحيّة بما فيها الإنسان، فحتّى على الحشرات له تأثير عليها وخاصة السامة منها، وأغلب الباحثين عن الأسرار الفرعونية يتمنون أن يجمعوا عددًا من ونايس الموتى والجعارين الذهبية؛ لأنّها ستكون طريق الكشف عن أسرار الحياة الإنسانية، فقديمًا أطلق بعض علماء الآثار كلمة "حجر الفلاسفة" وبعضهم قالوا عنها "أسطورة"، وكانت البداية عن فكرة تحويل المعادن إلى ذهب، من

معادن رخيصة لمعادن غالية، وسَمَّها البعض "إكسير الحياة"، فتهب الإنسان قدرات غير عادية، وقالوا خاصة القدرات الجنسية، وذهب آخرون إلى أنه يمكن بواسطتها منح المخلوق الخلود، والشِّفاء من الأمراض، ويمكن أن يرى بعض النَّاس أنه تمت الإشارة إليه في أحد مزامير سيِّدنا سُلَيْمَانَ، وفيه سُمِّيَ بالحجر المرفوض، يضحك وهو يقول أَمَّا إِخْوَانُنَا الْيَهُود وَمَا زَالُوا مَصْمُومِينَ عَلَى ادِّعَائِهِمْ وَأَكَاذِبِهِمْ، فَيَدَّعُونَ أَنَّ حَجْرَ الْفَلَّاسِفَةِ كَانَ قِطْعَةً وَاحِدَةً، سَرَقَهُ الْفِرْعَاوِينَ مَعَ الْكَنْوِزِ الْمَسْرُوقَةِ مِنْ تَابُوتِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، وَوَزَعُوهُ لِقِطْعٍ بَعْدَ أَيَّامِ السَّنَةِ فِي أَجْسَادِ الْجَعَارِينَ الذَّهَبِيَّةِ، طَمَعًا فِي الْخُلُودِ وَمَزِيدٍ مِنَ الثَّرَوَاتِ، فَلَوْ تَمَّ جَمْعُهَا وَإِرْجَاعُهَا إِلَى أَصْلِهَا، سَتَتَوَاجَدُ وَتَعُودُ الْقُوَّةُ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لِسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، وَيُمْكِنُ اسْتِغْلَالُهَا فِي مَشَارِعِهِمُ الْقَادِمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ يَا سَيِّدَتِي بِمَا يَنْوُونَ، أَمَّا جَمْعِيَّاتُ "الْمَاسُونِ" وَمَا تَحْمَلُهُ مِنْ أَفْكَارٍ رَائِعَةٍ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا تَنْسَ أَنَّ مَنبِعَهَا وَتَارِيخُهَا مَرْجِعِيَّتُهُ لِلْفِرْعَاوِينَ، وَتَسْتَمِدُّ قُوَّتَهَا مِنْ نَجْمَةِ دَاوُدِ السُّدَّاسِيَّةِ، وَخَلَعَتْ عَلَيْهَا الصُّهْبُونِيَّةَ الْعَالَمِيَّةَ رِذَائَهَا، وَاسْتَعْلَمَتْهَا لِتَحْقِيقِ مَآرِبٍ خَاصَّةٍ جَدًّا، وَعَمُومًا وَبِمَا يَصْرِّحُونَ بِهِ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ فِي الْغَيْبِيَّاتِ، وَيَبْحَثُونَ فِي أَسْرَارِ الْخُلُودِ، فَقَالُوا عَنِ حَجْرِ الْفَلَّاسِفَةِ، إِنَّهُ الْأَسَاسُ فِي فَتْحِ أَوْ غَلْقِ بَوَابَاتِ الزَّمَانِ الْبَعْدِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ وَعَالَمِ جَوْفِ الْأَرْضِ، وَتَارِيخِ الْحَضَارَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْخُلُودِ، وَلَعَلَّ أَشْهَرَهَا فِي مَلْحَمَةِ "جَلْجَامَشِ"، بَيْنَمَا الْخُلُودُ عِنْدَ الْفِرْعَاوِينَ يَبْدَأُ مِنَ الْمَوْتِ، فَفِي دَرَاةِ الْمَضَامِينِ السَّرِّيَّةِ لِعَالَمِ الرَّبِّ وَذَاتِهِ فِي التَّوْرَةِ، فَبِدْرَاسَتِهَا بِعُنَايَةٍ وَمَحَاوَلَةٍ فَكَّ طَلَّاسْمَهَا يُمْكِنُ لِلْمَرءِ الدُّخُولَ فِي عِلَاقَةٍ مَبَاشِرَةٍ مَعَ الرَّبِّ، يَسْمُونَهَا "سِحْرُ الْإِسْتِبْطَانِ" وَهِيَ لِلْخَاصَّةِ وَالْمَتَعَمِّقِينَ فِي الْقِرَاءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ وَالْفِرْعَوْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَهِيَ سِحْرٌ مِنْ خِلَالِ قَوَاعِدِ الدِّينِ، وَهِيَ نَشُوءَةٌ

إنسانية في الالتقاء مع الإرادة الإلهية، فللحروف الأبجدية وتركيباتها ولكل حرف معادل عددي وبتكريز في التجميع ووفق قواعد فكّ الطلاسّم، يمكن الوصول لأفكار غريبة، يصمت وتصدر من فمه تنهيدة عميقة، يرجع برأسه للخلف ناظرًا إلى السّقف، تتركه في دنياه، تستمع إليه في نهم وحبّ، فكانت عاشقة للكثير من أفكاره، كانت تردّها بينها وبين نفسها رغم مرجعيّتها كثيرًا الدّينيّة، جنّتك ونارك في جسدك، فيوم أن تحبّ فمقعدك في الجنّة، أمّا إذا غلبت عليك الكراهية فحياتك ومماتك ستقضيها في النّار، فكان وكأنّه يعاتب كلّ البشريّة على القتل وكلّ يسوق الأسباب، وتعود وتذكّره وهو يقول... كلنا من نفخة واحدة، نفخها الخالق خلفًا له في الأرض، نعمّرها أم نحرقتها، نزيّنها أم نقبح رؤيتها، نحبّها أم نكرها، عندما تصفّق لكلماته، بلا تردّد يجيها بأنّها ليست كلماته، إنّها كلمات الصّالحين ممن حاولوا تغيير مسارات الدّنيا، للأسف لم يفلحوا بل إنّ بعضهم لقي حتفه لعلمه وأخلاقه، ف"شيللر" على سبيل المثال يقول "أيتها الملايين من الكائنات، قبلوا بعضكم بعضًا في عناقٍ واحدٍ"، يضحك واحدٌ من مجانين العشق في الدّنيا، يصوغ عباراته بهوى عاشقٍ متيم، لا أعرف كيف كانت نهايته؟ ولكنني أعتقد أنّه جمع ما بين عقرب وثعبان، فطلب منها أن يتعانقا، فأشبعاه بسمّها حتّى فارق الحياة، لكنني أحبّ كلماته، تعاتبه بكلماتٍ رقيقة أو تحاول، فكم تتمنى أن يقلل من هجومه الدائم على اليهود، كثيرًا ما يدافع عن وجودهم كبشر وحقّهم في الحياة، ويؤكد دائمًا أنّهم هم السّبب فيما حاقّ بهم، فيوم أن أعلن ملك بولندا أنّ السيّدة مريم العذراء هي ملكة بولندا، وتقريبًا كان ذلك في القرن السّابع عشر الميلاديّ، فلماذا؟ وعندما نتساءل نعرف أنّ بعض فصائل اليهود أساءوا للسيّدة العذراء بصورة بغیضة، فكان ردّ الفعل ما

حدث، بموجب ذلك وجد الناس صعوبة في التسامح مع من يخالفهم في العقيدة، قبل الحرب العالمية الثانية، كان يعيش في بولندا ما يقارب من ثلاثة ملايين يهودي، لم يتبق منهم سوى خمسة آلاف فقط، رغم كل هذا لا يشعرون بالذنب، ويلقون بالذنب على الله! فمثلاً، عندما سُئِلت امرأة يهودية عن أحوالها هي وأهلها، أجابت بلا تردد بأنها حانقة على ربنا، وفي دهشة أعادوا عليها السؤال ولماذا؟ فهزّت رأسها ونظرت للأرض قائلة، من المفترض أننا شعبُ الله المختار فلماذا كل هذه الدماء والكرهية والمذابح البشعة لنا؟ أليس من حقنا أن نكون حانقين على الله؟! أعتقد أنه كان سيكون من الأفضل لنا أن يتركنا، فليته ما اختارنا نحن! كان يجب أن يتركنا وشأننا لنعيش كالأخرين، مستحيل يوماً أن يلقوا بتبعية ما حدث لأفعالهم، يقسم بأنه أبداً ما كان ضد أي إنسانٍ من أي طائفة أو عقيدة ولا يجب أي فكر متعصب، فعلى سبيل المثال، انتشار الحانات في بولندا، ومن يملك أغلبها هم اليهود، كانت مأوى للمتشردين والمتسولين واللصوص، فكانوا يجذبونهم كما الذباب يذهب للعسل مباشرة، وكثير من الروايات عكست فكر ومكر اليهودي صاحب الحانة، فكان يغري الفقراء والفلاحين بشرب الخمر، وبعدها يقعون تحت طائلة الدين، ووقفت الكنيسة ضد أفعالهم ورفضتها، لم توافق على أغلب حديثه، ينظر إليها مبتسماً، وكأنه يسألها هل هي يهودية وهو لا يعلم، ويعرفها أنه ليس عيباً أن تكون يهودية، ولكن العيب أن ندافع عن الخطأ، فعندما نتعصب، فنحن ضد إرادة الله، وعندما نصنع حبلاً ونكون مهمومين بتقييد عقول البسطاء من محبيننا أو تابعينا ومن يجهلون ما يسكن ضميرنا، فهذه أكبر جريمة نرتكبها ضد الإنسانية، يمكن أن نسميها فتنة، التَّعَصُّب والعصبية فتنة، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، هكذا قال المولى سبحانه

وتعالى، فلكلِّ منَّا عقل، وليقس كم تبلغ درجة الفتنة أي أنّها تفوق القتل، ومن قتل نصيبه القتل، ولكن ما نصيب من يفتن؟ وعلينا أن نبادر بطرح أفكارنا، فهي كجنين في العقل، وإن لم تخرج للدنيا بعد فترة الحمل المحدودة ماتت، والعزوف عن طرحها خوفاً من أن يكون الحمل كاذباً، وهناك خطأ آخر وهو أنه يوجد جنين في العقل وعلينا أن نخرجه، ونقدّم أوراقه أيّا كانت لجنة القبول.

ابتسامتها بعثت الثقة، استقبلها لها يبعث على الأمل والطمأنينة في نفسه، قطعت صمتهم بضحكة، وراحت تقصّ عن ثوريتها التي أشعلها اليوم أثناء محاضراته في الجمعية إياها، وما حدث بعدها من هجوم على قسم الشرطة، تضحك وتحفزه ضحكتها، وكأنه نسي نفسه، فراح يحدثها فيما يخصّ المؤسسة، وأفعال الخير والحريّة التي يحاولون إرساء قواعدها بين هذا الشعب البائس، يضرب أمثلة فيما تدعو له المؤسسة والخنوع والجنين في قلوب الناس، وهذا البلد الذي يموج بالسّطوة والعنف، يستشعر وكأنّها تحفزه، فيمضي ضارباً الأمثلة والأفعال التي تحدث، وتأخذ الكلمة فينصتان لها باهتمام بالغ، علينا أن نرسم خطوط المستقبل طبقاً لرؤيتنا، في المرحلة الأولى التهيئة والتنظيم، يجب اختيار العناصر المؤهلة للأفعال المرتقبة، صياغة الأفكار وإبداعها في وهج الأفعال الثورية النّاتجة من مختلف أنواع الإحباط، وخاصّة في مجال الشّباب، صياغة كلّ الأفعال تحت مسمّى التّفجير الإنسانيّ لبناء الحريّة والعدالة، وعلينا أن نعجن أفكارنا بمشهيّات الحياة المرتقبة من وراء ثورتنا أو تغييراتنا التي ننشدها، كمستحلب أفيون فكريّ إنسانيّ، قليل من الحديث وكثير من الفعل، ولا داعي للضّجيج الإعلاميّ الثوريّ الفاشل في

النَّهَاية، علينا أن نتفاعل مع كلِّ الحوادث حولنا، علينا أن نستفيد منها بترتّب وتعلُّق، وسنظلُّ دعاة الحرِّيَّة والإخاء والمساواة، وجدته ساهمًا مفكرًا، فصمتت... فعَمَّهم الصَّمْت، عادته كرامته المهذرة، لم يدر كيف يبدأ حديثه؟ أدركت "زهرة" ما هو فيه بفطرتها، فراحت تفتح مجالًا للحديث، ومجرّد أن ذكرت اسم "حمدي" و"لولا"، راحت تضحك، وحاولت أن تكتم ضحكها، صمتت "زهرة" وأفسحت لها المجال لما تريد أن تبوح به، سهام عينيها تخرقه، وتنظر إلى "زهرة" وكأنّها تحدّثها هي، فأشارت إلى جوّ أسوان وحرارته التي تثير قوّة العشق، تداور وفهمت زهرة ما ترمي إليه فشاركتها ضحكها، ودعت لها بالخير، رغم نسات الهواء الباردة إلاّ أنّه شعر بالخجل، أقسم لها بأنّه زواج على سنّة الله ورسوله، وكأنّهما يقولان له وما الدّاعي للزّواج؟ وما لبثت أن تدخّلت "زهرة" في الحديث مباشرة، وجاءته الفرصة ليشرح للسّيّدة، وأخذ يشرح لها ما تمّ بالتفصيل، بدا نائرا وهو يقصّ، وكأنّه يطالبها بالقصاص من كلّ المجتمع، ومضى يقسم لها بأنّ مؤسّستهم التي شيّدتها بفكرها وعلمها، عليها أن تأخذ موقفاً مجابهاً لتلك الأفعال القذرة، أليسوا دعاة الحرِّيّة؟ ومرة يشيد بمؤسّستهم وأفكارها، وأنّها تستحقّ أن يدفع الإنسان حياته في سبيلها، قامت بتهدئته، أمّا "زهرة" فبكلّ جرأة تسألها عن مدى إمكانيّة أن تحلّ هذا الموضوع، وخاصّة أنّ "حمدي" و"لولا" من أعضاء المؤسّسة، وهناك تهديد لحياته، وقد أقسموا بذلك، أبدى "عبد الوارث" بأنّه لا يهتمّ لحياته، لكنّه يخاف أن يصيبها هي مكروه وخاصّة... لم يستطع أن يتفوّه بالجملة الأخيرة، وفي النّهاية تخلّص منها وقال لها بأنّ "لولا" حامل، هنّأته كلّ منهما، وردّت عليها بثقة وتعالٍ بأنّها مذ التحقا بالعمل معها، فإنّ لها حصانة تقرب من حصانة المسؤولين الكبار، لم

تنتظر كثيرًا، فبينما هما يشربان مشروبهما، بدأت اتصالاتها بأحد الوزراء السابقين، والذي يعتبر كلّ الوزراء ممن أتوا بعده للدّاخلية من تلاميذه، وهو الآن يشغل منصبًا شرفيًا في المؤسسة، وبموجه يتقاضى راتبًا أضعاف ما كان يتقاضاه وهو في كرسي الوزارة، كثيرون على هذه الشّاكلة في مختلف المجالات، وبدا من حديثها مدى الارتباط الوثيق والودّي، ويعكس الحديث ما وصلت إليه مع أكبر رُؤوس الحكم في البلد، أملت عليه اسم "لولو" بالكامل وكذلك اسم "حمدي"، وضّحت له أنّ هناك تهديدًا واضحًا عليهما، وأنّهما من العناصر التي تساهم في التنمية بجهدٍ رائع ومشهود لهما، وتعمّدت فتح سّاعة الهاتف ليسمعا الحديث، وعندما جاء ذكر ضابط الشّربة المدعو ابن عمّها، فقد تعهّد لها بأنّه سيتصلّ بالوزير شخصيًا والآن، وأنّها لو طلبت أن ينقل من محل عمله لأيّ مكانٍ سيتم فورًا، والنقل سيكون لآخر حدود البلد، سواء السّلوم أو العريش أو أسوان، تسلّل الهدوء والسّكينة إلى صدره، وشعرت بأنّ ذلك في عينيه، كأل لها عبارات الشّكر والتّقدير، وأقسم بأنّه لن ينسى ما حيّا جميلها الذي طوّقت به حياته كلّها، كانت عباراته الملتهبة الحانقة على كلّ مصر عكس عباراته الشّاكرة للسّيّدة، لو قدر له أن يقدّم لها شيئًا فهو على استعداد أن يقدّم لها حياته، كان يعيش بعيدًا عن مرمى نيران الصّراعات والأمانى الملتهبة، عاشقًا للقراءة والكتب، في المجابهة مع واقع الحياة، عندما تستعر نيران الجهل تأكل وتلتهم الكتب، مهما اختلفت مذاهبها ومؤلّفاتها، ويختفي العقل ويحاول أن يلوذ بمكانٍ وليس أمامه سوى أبواب الصّغينة والبغضاء التي تفتح ذراعها، تستقبله وغضبًا عنه يلقي بكيانه في أحضانها، والكلّ يتربّص بالكلّ، ويبحث في تفاصيل الآخر حتّى يجد مبرّرًا لقتله أو التّخلّص منه، إزاحة الآخر واستبعاده

هي الشاغل، تزرع الدنيا في خراب ونيران المكتبات والكتب، ويشوه وجه المجتمع، فبداية حرق الكتب للمجتمع بكل تفاصيله، مضت "زهرة" لحال سبيلها، واستبقته لبعض الوقت كما قالت، يقولون: "خير البر عاجله"، لا تؤجل عملاً في مقدورها أن تنهيه الآن، فكّرت وقرّرت وشاهدت معه أمام الشاشة الكبيرة في حجرة المكتب، المقبرة التي زارها وزوجته، وكأنّها تعمّدت أن ترددها، حدّدت له المطلوب وعليه الاتصال الآن بمضيفهم، هي تقول إنّها لا تعرفه، وهو قال له إنّ هناك تعاملات سابقة بينهما، فمن يكذب؟ إنّها اليوم، واليوم بالذات، كأنّها تملك كلّ مقلد حياته، هي الصّادقة، ولو ادّعت أيّ شيء، فهي صادقة، أشارت عليه أن يتصل به الآن، نظر في ساعته، ولكنّ رأسها اهتزّت بما يعني الآن وفوراً، اتّصل تليفونياً من خلال هاتفه المحمول، وكان الرّد بأنّ الرّقم خطأ، وبدا على وجهه تردّد غريب، وهو يقسم بأنّ الرّقم صحيح، ابتسمت وراحت تشرح له طريق السفر، ومن أين يتمّ؟ سيقوم هو بالإشراف على عمليّة النّقل، أعلن هاتفه عن مكالمة قادمة فاستأذنها فأومأت برأسها مستجيبة، جاءه صوت لا يعرفه، وأبلغه بأنّه من طرف رجل "كوم أمبو" وأين هو الآن؟ أبعد التّليفون وقال لها عمّا يطلب، كتبت على ورقة بيضاء أمامها، قرية "الرّحاب"، فأجاب الطّالب بما كتبت، طالبه أن يتوجّه بعد ساعة من الآن إلى منتجع "الصّفوة" قريباً منه، طلبت منه الموافقة، فوافقه على الفور، رغم أنّ الوقت قارب على الفجر، وطلبت منه أن يستمع إليها وبسرعة فلا وقت لديهم جميعاً، ليست كلّ المقبرة ستنتقل ما يقترب من نصفها، وبعضاً من التّوابيت والموميאות، ولكنّ أهم ما ينقل هو الجعارين الذهبية، تذكّرها وتسافر في الزّمان وتذكّر أخيراً كلمات برهان عن حجر الفلاسفة، أو الحجر المكسور والمجزأ ويوم

تجمع أجزاءه، سيكون لها الفضل في استرجاع مملكة سيدنا سليمان، نشوة غريبة تملكها عندما تتذكر هذا، ودورها في إعادة تنصيب الهيكل، عاشت لأملٍ يراودها الليل والنهار، نسيت كل شيءٍ في حياتها، الوحيد الذي اخترق حدود قلبها هو برهان، تحاول أن تصف علاقتها به إنَّها خدمة للقضية، وهذا لنفسها، فلم يسألها أحدٌ عن سبب هذه العلاقة، كم تكرهه عندما يتحدث عن عشيرتها؟ وكم تعشقه عندما يهمس في أذنها بكلماته العاشقة، تسقط من حساباتها دائماً عمرها أو عمره، فعندما نحب، وأياً كان السن، نصل لمرحلة انعدام الوزن، تسقط كل قوانين الجاذبية الأرضية... نصدق... ربَّما نظير... فهمساته تغزو كل حواسها، تتنفس عبق كلماته، وهي ليست عطراً يطير بعد فترة، كنبت ينمو داخل قلبها وتتفرع أغصانه وتتشعب في كل أجزاء الجسد، صدى صوت آهاته موسيقى تعزف فتغرّد بلابل العشق والهوى، لا خوف من أزهار في طريقها للذبول، فداخلها فيض من ثمار، تدب الحياة فيها من جديد، لقد ذهب شبابها في أملٍ واحد تعيش له، وستظل لآخر قطرة في دمها، نعم تغلف كل علاقاتها وحياتها بأفكارها الإنسانية وخدماتها للبشرية كلها، تشعر بقدراتها، وكيف أصبحت اليوم قوَّة لا يُستهان بها؟ وهنا في مصر تستطيع أن تحرك الأشياء من مواضعها بإشارةٍ من أصغر إصبع في يدها، سبقت مطالبها بسيل من الهدايا، وفتح أبواب العزّ والجاه أمام كثيرين ممن يملكون زمام الأمور، ارتدت حلة الأفعال الإنسانية، فأموال لا حصر لها تتحكّم فيها، وهي في حقيقة الأمر تردّها، فقد باعت بضاعة أجدادهم بأثمانٍ باهظة، وردّت جزءاً منها، فقدّمته كإعاناتٍ لمساكين الغنى والثروة، والجزء القليل قدّمته للفقراء والمحتاجين، فعليهم السجود والرُّكوع وتقبيل أيدي صاحبة السعادة، استأنفت حديثه إليه مستعرضة، كيف سيتمّ النقل؟

فالمسافة بين مدينة دراو مروراً بمدينة كوم أمبو تصل تقريباً لحوالي ٨٠ كيلومتراً، ثمَّ المسافة ما بين أدفو ومدينة مرسى علم تقرب من ٢٨٠ كيلومتراً، في طريق شبه معبّد بين الجبال، تشرح على خريطةٍ فوق الشّاشة استرجعتها من خلال النّت، بدت الطُّرق واضحة، البداية ستقوم بالشّحن سيّارتان تابعتان لإحدى الشّركات العاملة الكبيرة في مدينة كوم أمبو، وهذه الشّركة معتادة سيّارتها بالسّفر إلى مرسى علم، وباصّاتها أيضاً تذهب بمصيفيها إلى "مرسى علم"، ولهم مجموعة من المنتجعات هناك، كما أنّ بعضها لا يواصل طريقه إلى "مرسى علم"، فقط ينحرف للجنوب قبل الوصول إلى مرسى علم بما يقارب ٩٠ كيلومتراً، وهذه من الزّيارات شبه الدّينيّة التي يقبل عليها المتصوّفة، وخاصّة أحباب "أبي الحسن الشّاذلي" في هذه المنطقة الجبليّة الوعرة، هي تشرح على الخريطة، وكأَنَّها مدرّكة جيّداً لهذه الطُّرق، بلّ يوحى من سردها بأنّها مرّت بها حقيقةً، تحكي أيضاً عن تأمين الطُّريق، وعدم تعرّضها لأيّ معوّقات، فالجميع تراضوا وخاصّة الكبراء، وأمّا مطار "مرسى علم"، فالمسافة إليه تقرب من ٦٠ كيلومتراً، والشّركة التي تدير المشروع شركة خاصّة، أي يمكن أن نقول أنّه خاصّ جدّاً من حيث التّشغيل والملكيّة، والبلد عموماً تعتبر منتجعاً سياحياً رائعاً، ومراكز غوص على أرقى مستوى ومرقاً لليخوت، ويمكن بعد ثلاثة أو أربعة أيّام، سكنتُ وفضولٌ غريبٌ تملّكه عمّا ستقوله بعد ذلك، ابتسامه تنطق بحديث يشبع أمانيه، ستجد في الطُّريق إليك لولا، ليس لديّ مانع أن تقضيا أسبوعين لتنتهيا كلّ مراسم الزّفاف، وعليك أن تختار ما تريد أنت وهي، ماذا يفعل؟ هل يقبلها؟ فكيف يشكرها؟ وكيف يقول عبارات الامتنان؟ لنّ يستطيع صياغة جملة واحدة، عرفته بأنّه سيقابل شخصاً مجهولاً بالنّسبة له، سيحدّد له موعد

مقابلة بالرَّجل في أسوان، سيتولَّى هو كلَّ عمليَّات الشَّحن وما عليه سوى متابعة الوصول من خلال السيَّارة المكثِّفة التي ستتبع المسيرة، عليه أن ينطلق من فوره، استوعب كلَّ الكلمات جيِّدًا، في أوَّل ساعات الصَّباح في المطار سيجد تذكَّرتَه في المطار، وعليه السَّفَر مباشرة إلى أسوان، ستأتيه المكالمات من شخص آخر، بمعدَّل ثابت ويمكن أن يتغيَّر المتحدِّث وفقًا للظُّروف.

الفصل الثالث عشر

المدينة الجديدة

كم كنت أفكر! وتمنيت استقبال الموت مسافرًا مرتحلًا لا نائمًا، تمنيت أن أغوص وأنبش في ذاكرتي؛ لأقتل الملل الذي يصيب أمثالي في شيخوختهم، ألقىت بكل تلك الأفكار التي تدعي العجز جانبًا، أقبلت على الدنيا مترددًا متخوفًا، عاودتني أمنيات الصبا والشباب فقط، وأرجعت كل هذا لأمنيات وأفكاري في الحياة الجديدة، فتطالعتني تضاريس المرأة والفتاة وتفاعلات وانفعالات العشق والحب، أصبحت صاحب حلم أظنه مراهقًا ومرهقًا لسني وعمري ووضعني الاجتماعي بكل ما يحمله، تغازلني فأبعدها، أو بمعنى أدق أحاول، فكثيرًا أو ربما لبعض الوقت أشعر بشيء من الراحة، لا ألوم نفسي، فكثيرًا ما أكون مترددًا، حياتي كلها، لا أنكر أنني كنت أتخوف وأتخيل ما يمكن أن يحدث جرأً قرار أتخذه، ليتني كنت متهورًا، هكذا أنا أحاول الابتعاد عن هواجسي وأفكاري، لكنّها تستमित وتجذبني، ومازالت تعشش في وجداني حسابات للعلاقات القائمة، فعلى سبيل المثال أعمل ألف حساب لأولادي، وربما لأحفادي ممن هم في طور نموهم الأوّل، وجيراني ومن تعاملوا معي، أمّا الجمعية وما أصبحت عليه، إنني مدين لهم جميعًا كبارًا

وشيوخاً، أولوني ثقةً كبيرةً ونصّبوني رئيساً للجمعية، رفعوني فوقهم، رغم
 فترتي الوجيزة التي قضيتها بينهم، آهات تقطر حزناً ويذهب في حسابات،
 يفكر في أولاده، ويسأل نفسه كثيراً، هل يشعر أئيم بي؟ رغم أن هناك
 هواتف محمولة في جيب كلّ منهم أو في حقيبته، متى يتصلون بي؟ ماذا
 يريدون؟ هل أصبحت عاليةً عليهم؟ إذا مرضت فهل ستركون عملهم
 ويلتفتون حول سريري؟ أم سيلقونني في أحد المستشفيات، ويزوروني كلّما
 أتت الفرصة لذلك!!! من يؤنس وحدتي؟ من أبته همومي؟ من أفرغ معه
 شحناتي العاطفية إن وجدت؟ هل هذا حرام؟ فأني جرم أقرّفه؟! هل الجميع
 يكذب في مشاعره؟ أم أنني أحاول أن أصم البشر حولي بوصمة عارٍ عليهم،
 هل هاجر الحب الحقيقي من ديانا؟! هل أضحت المصالح، وما نجنيه من
 وراء علاقاتنا هي الشغل الشاغل للجميع؟ هل أنا أكذب أم هم يكذبون؟
 هل أنا بلا غرض أسعى إليه؟ هل في موتي غرض مستحبّ وراحة للبعض؟
 الجمعية لو تأملنا الموضوع بلا كذب أو رياء بعيداً عن كلمات التّبجيل
 والاحترام المتبادل، يهّمهم في المقام الأوّل من عنده قدرة على التّفرّغ، وجدوني
 متفرّغاً بطبيعة الحال، فكنّت لهم ملاذاً وفرصة، فأغلبهم يديرون مشروعات
 خاصّة بهم في مجالات متعدّدة، كذلك كان يهّمهم أيضاً الحصول على إنسان
 يفهم في الحسابات، ومن يتحمّل أيّ أخطاء تقع على الجمعية، يعرفون أنّ
 عملي الأساسي كان في مجال الحسابات، فحسابات الدّاخل والخارج،
 المطلوب أنّها تخضع للجهاز المركزيّ للمحاسبات كان أغلبها يتمّ بصورةٍ
 خاطئة، فكانت حساباتهم مصلحة بالدرجة الأولى، هم يمدّون أيديهم
 ويأخذون، نعم، لينفقوا في خدمة النّاس، لكنّها وفقاً للقانون بها أخطاء
 جسيمة، إنّها تفتح باباً للسّرقه، أستغفر الله العظيم، جميعهم بلا استثناء نظيفو

اليد، والله أعلم، لكن أليس من الممكن أن تفتح بابًا، لمن تسوّل له نفسه الكسب غير المشروع من وراء ذلك؟ لا أنكر أنّهم خدموني كثيرًا، فأعمال الجمعة رفعت عني عبء الوحدة والقلق الذي أعانيه طوال ساعات الليل والنهار، يكفي أنني غالبًا أصلي كل وقت في الجماعة وفي المسجد، رغم كل هذا وغضبًا عني تأتيني أحلام الشيوخة المراهقة، وتعبث بعقلي، وتداعب قلبي الهرم، المصيبة أن جسدي يتفاعل مع مطالبه ويتمنى، يحاول فكري أن يتخلص، أنّهم نفسي بأن الشيطان يركب رأسي، أعود لقراءة القرآن، وأحاول، تأتيني الراحة ولا يلح السؤال ساعتها، هل أغير مكان النوم، ربّما في هذا المكان يتجسّد شيطان الجنس! رغم عدم قناعتني أقوم بتغيير مكان نومي، لا تفارقني مداعبات العشق وصورة أم سباح، يتذكّر اسمها "حبّية" نعم، اسم على مُسمّى، يلح السؤال، ليس الزّواج بدعة أو فعلًا منكرًا، أحلّه الله ولم يحدّد فيه سنًا محدّدًا، فيه راحة وتبادل منفعة للطرفين غالبًا، ربّما يرفع عنك وزر قسوة الوحدة وأفكارها المتداعية، كم كان طعامها جميلًا! كم كان يتذوّق رائحة الأنثى وهو يمضغ الطّعام! كم كان إحساسه رائعا وهو يجلس النّظر إليها بين مضغّةٍ وأخرى! في المساء ينبش ضجيج الذّاكرة، فتراوده الأمانى، يغني ويردّد... لو عدت لي... رد الزّمان إليّ سالف بهجتي، تتوهج سعادته ثمّ تفتّر، ويعاوده القلق، حبّية اسمها الذي أصبح محبّبًا أن تردّه شفاهه، أمّا سباح ابتها الطّالبة الجامعيّة، فبماذا يصفها؟ هل متنمّرة بطبيعتها؟ ربّما لو تجد من يصوغ لها أفكارها، فأين الأب الذي ذهب ولم يعد؟ حبّية يبدو على وجهها معالم الحزن والألم غالبًا، هل تدرك ما حلّ بابنتها؟ يحاول أن يثني عقله عن التفكير فيها، وفي فعلتها، معللًا ذلك بثورة الشّباب، لحظة لا يستطيع أن يرفعها من عقله وخياله، لحظة اهتزّت لها كلّ معاقل جسده،

وتفجرت بسببها أفكار غريبة، البداية عندما تبكي، ويأخذها بين ذراعية بأبوية حقيقية، وكم كان يفتقدها! تتوسل إليه ألا يأخذ منها أمها، حتى تلك اللحظة ولم تصبه دهشة ولم يأخذها استغراب لفعل، ولكن أن تراجع للخلف بعد أن تمسح دموعها وكأنها استردت وعيها وبكل جرأة، تفك أضرار بلوزتها، وبجسارة غريبة تقول له: إنَّها تستطيع أن تهبه ما يشاء من الأثني، تغيرات طفحت على وجهه، وتعبيرات لا يدركها، وتناوبت ردود أفعالها... لا يجد مبررًا لها، لحظة تعرّت، وظهرت معالم جسدها الغصّ، أغمض عينيه، فكيف تأتيه القوّة أن ينظر إليها وصدرها ومعامله، لم تأته الشهوة التي تعبت به كثيرًا في الليل وإنَّها أتته الجرأة وصفعها، فهل ردّ إليها صوابها؟ هل رجعت وتراجعت؟ هل مرجعية هذا يمكن أن تكون بسبب حبّ الفتاة لأمها وتعلّقها بها؟ فليس لها في الدنيا أحدٌ سواها، هل تخاف أن تتركها أمها؟ أم لا تريد أن يشاركها أحدٌ في أمها، مؤكّد حدّتها أمها بما تكنه له من مشاعر، وخافت أن تبوح بما يعتلّ في صدرها لأمها، خافت من الغد وأمها تتركها وتلقي بنفسها في أحضان رجل آخر، ربّما كان هذا السبب في ثورتها عليه، ربّما أرادت أن تبعد به عن أمها، وكما قالت: تهبه ما يشاء، لا، لا، هناك شيءٌ خفيٌّ لا يدركه، هل نسي نفسه؟ هل يفكر في جرم تقع نتائجه فوق رأس الفتاة؟ الزّواج حرام أم فعلٌ تأباه القيم والمبادئ؟! ولا يلبث أن يعاتب نفسه مؤكّدًا صعوبة الزّواج، ربّما كان مستحيلًا بالنسبة له، طوال عمره كان مستسلمًا يتجنّب المشاكل، طوال عمره متردّدًا حتى في اتّخاذ القرارات، تنتابه حالة من الألم المصحوب بغصّة في الحلق، حالة مشحونة بتوتر خفيٍّ وغموض، فلا يدرك أمرجعية ذلك تردّده في القصر على أولاده، أم نظرة الناس والمجتمع حوله لفعلة وكأنّها فعلٌ شائنٌ؟! تتعدّد الأسباب رغم عدم

إقدامه حقيقةً لأيِّ فعلٍ، في النَّهاية ألقى بتبعيَّة كلِّ ذلك وما يحدث له في تردِّده وتحوُّفه وابتعاده دائماً عن المجابهة، دنياه بدايتها ونهايتها دائماً كانت أسرته فحسب، كرَّس كلَّ حياته في الوصول بأسرته لبرِّ الأمان المعتاد، فكلُّ الأسر المصريَّة تبحث لأبنائها عن النَّجاح وتأمين مستقبلهم، فلم يغرَّه يوماً توهُّج العاصمة بالليل أكثر منها في النَّهار، وما يحدث له الآن مجرد أمنيات جسديَّة تريع الجسد على مفرداتها، حياته كلَّها كانت تقليديَّة، لم يختلف يوماً عن آخر، فما ترصده أفكاره من نزواته لا تتعدَّى في مجموعها عددَ أصابع اليدين!! حياته المعتادة ليست غريبة، فشأنها شأن كلِّ العائلات أو البيوت المصريَّة، خاصَّة الطبقة الوسطى وما حولها، فلا شطحات لخيال و لا هو بلا تروء، تخطفه لحظة، وكأنَّها لحظة الخروج من القمقم، لكن يكتشف أنَّ الأغلال لا تقيد يديه ورجليه فحسب، يتمنَّى الخروج بأحلامه لحيز الواقع، المجابهة ثمَّ المجابهة لا مفرَّ أمامه منها، مسافات فاصلة كبيرة بين كلِّ عقل ونظيره فيمن حوله، يحسُّ بوحده أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، فزوايا النَّظر مختلفة حسب الموقع ومجال الرُّؤية، وطريقة تعبير كلِّ فردٍ مختلفة حسب القدرات، أو وفقاً لأمانيه هو دون سواه، إذن فهناك تباين واختلاف، حتَّى في الإغفاء، والحلم ضباب كثيف يحجب الرُّؤية، تراجع غالباً واستسلام لاحقاً هكذا تبدو نتائج الفكر، يقلِّب الأمر على كافَّة وجوهه، يحاول أن يجد الثَّغرة التي ينفذ منها، ويتحدَّث إلى أولاده، إنَّه لا يستطيع، وكأنَّه يصف لنفسه أنَّ هذا الفعل اختراق لحدود المنطق المتاح في ظلِّ المجتمع، ربَّما يجابهونه، يعارضونه، يقفون في سبيل تحقيق رغبتهم، يتخيَّل إمكانية أن يتناول عليه أحدهم، يستبعد الفكرة، فهي شبه مستحيلة، يجرمونه من ممارسة حقوقه المشروعة، يجرمونه من الحياة، وهو من كرَّس حياته كلَّها لهم، حقَّ كفله ربُّ العزَّة، فهو من

خلقه، وهو مَنْ سيحاسبه، هي فرصة سانحة بالنسبة له ليقتل هذا الظمأ الجميل للمرأة، فليس فعلاً تجرّمه الأديان ولا خروج عن نصّ، أم يفعل ويقدم على إثم، ويدّعي أنّ باب المغفرة مفتوح في أيّ ساعة، ربّما يأتيه الموت ساعتها، فكيف يقابل خالق الخلق؟ ومَنْ أعطاه الرّخصة بالزّواج وعدم الإثم؟ ماذا لو قبض عليه في فعل مثل هذا؟ كيف يدافع عن نفسه أمام الآخرين؟ يقف أمام أولاده، ويحاول إثبات براءته، بطبيعة الحال سيترّوون منه لفعلته، وكلّ هذا في كفةٍ وعذاب جهنّم وفعل الكبيرة التي يأتيها، عليه بالقبول بجهنّم لا مفرّاً أمامه! ربّما يحاول أن يسوق أعداراً تحلّل من قدومه وما يتمناه!!! ربّما يلتمس من النّجوى أعداراً للمجابهة، هل يستقوي بالتّقوى كي يلج لبابٍ يدخله في مواجهة الجميع؟ يأتيه طيف حبيبة فيهم شوقاً منتشياً ناسياً خريف عمره، وكأنّ الحياة تتجدّد، ووهج البهجة يطفو، فينير جوانب روحه، صفاء يطرح بساطاً سحرياً وردّيّ الألوان فوق العيون، فغدا موفور الطّاقة عازماً على طرح رؤاه وأفكاره، لا مفرّاً فحدّث أصغرهم، وكان دائماً عاشقاً لأبيه ومطيّعاً لكلّ أحاديثه، بعد قليل من السّلام والأخبار أخبره بنيتّه في الزّواج، صمتَ لحين أكمل باقي الحكاية، بادله حديثاً شبه وديّ، وحوالَ أن يصوغه بعباراتِ الخوف عليه، وخاصّة أنّه في سنّ... قطعته الرّجل، وشرح له أسبابه ودوافعه كلّها، احتياجه لمن يؤنس وحدته، فعيب أن يقول لولده عن دوافعه الجنسيّة، وحاجته إليها، عرف الفتى أنّها عاملة في الجمعيّة الأهليّة التي يرأسها أباه، ربّما قطع خطّ التّليفون، أو أصابه عطبٌ، أو ربّما لم يشأ أن يكمل المكالمة، لم يطلبه ثانيةً، انتظر، ربّما يطلبه ابنه، لم يطلبه ولم يتّصل به، جميعهم حضروا في المساء، وكأنّ الدّيك صاح بزوال العتمة، فجرّ فجراً جديداً غير معتادٍ منه، تحدّث ولم يهتم بأيّ نتيجة كانت خيراً أمّا

شراً، بركانٌ فجر ما بداخله، ليلة طالت، وأحاديث حاولت أن تحول بين الكلام والفعل، داوروا وحاوروا وضربوا أمثلة، إنهم مستعدون جميعاً لخدمته، وعرض أحدهم أن يعيش معه ثلاثة أيام في الأسبوع، والباقي مع أولاده، أظهروا خوفهم عليه، وربما كانت ترمي من وراء موافقتها إلى أمرٍ آخر، يضحك، وكأنهم يساومونه، استشعرَ بلُ قرَّ في صدره أنهم يخافون على ميراثهم في البيت، وكأنه أحسَّ بمطالبهم، أمسك ورقةً وقلماً وشرع في إجراء التقسيم، وضع شروطاً، سيتم البيع على أن يحتفظ هو بجزء خاص له، وسيعطي كلاً منهم نصيباً، ثم ما لبث أن حدّد الجزء الخاص به بالنصف، والنصف الثاني لهم، دارت مناقشات، ولكن بصورة غير مباشرة، وما تخفيه من وراء الحديث، زيادة الأنصبة وعليه أن يتنازل، وفي النهاية قرَّر أن يقسّمه بالتساوي، ولن يأخذ سوى الربع، بدت معالم البهجة غير المعلنة تظهر رويداً رويداً، نسوا ما طرّقه سابقاً وزواجه من مجرد عاملة، نسوا المكانة الاجتماعية التي تحدّثوا عنها، نسوا ما سيردّه الناس حول هذا الموضوع، والقصص والحكايات التي سيتناقلها أهل الحيّ، غشاوة فوق العيون والقلوب والعقول مرسوم فوقها أوراق البنكنوت، كلُّ يحسب كم سيناله؟! ولا يفصح، المنزل في مكانٍ يقرب من وسط مدينة القاهرة، نعم، المنطقة شعبية وتزيد مساحته عن ثلاثمائة متر مربع، سعر المتر في هذه المنطقة على أقلّ تقدير يساوي عشرين ألفاً من الجنيهات، صافي المبلغ المتوقع لأيٍّ منهم في أقلّ التقديرات الممكنة يتجاوز المليون جنيه، لم ينسوا من حساباتهم أن هناك شقة مؤجّرة، وكأنه يسأل، وهو يتطلّع إلى عيونهم، ويسرح بعيداً، عندما أموت هل سينصبون سرادقاً يتلقون فيه العزاء؟ لكن أين سيقومونه؟ كان من الأولى أن يكون في هذا الحيّ الذي عاش فيه، يمتصّ ريقه الذي قارب الجفاف، ومستهيئاً

بالموضوع، عمومًا دور المناسبات كثيرة، هل وقوفهم على القبر سيعيده للحياة؟ سيكون لهم الشكر طالما أوصلوا الجنان لمثواه الأخير!! المفروض أن يشكرهم ويثني عليهم، ستموت ولا داعي للعزاء، يهدد نفسه، ويربّت على كتفه وقلبه قائلًا: كثيرون ماتوا وهم على قيد الحياة، ولم يستخرجوا لهم شهادة الوفاة، أكمل ضاحكًا: لأنهم غير مقيّدين في دفاتر مواليد الحياة منسين، وأدّ الدّمعة التي حاولت التّسرّب من بين حدقة عينه، ابتسم ابتسامَةً تقطر حزنًا وسخريّة من الدُّنيا بأسرها، الجميع يحسب المكسب والخسارة، كان من الضّروريّ له أن يتمرّد على وضع قائم، كان يخاف أن تكون حجرة النّوم مدفنه وأن يصبح القبر مخدعه، فعزم ألاّ يسلم أمره لها، ومجرّد ساعات يستريح، ويعود لياشر الحياة بكلّ تفاعلاتها، ها هي ملامح تمرّده تظهر جليّة، فتصبّ الحمم فوق رأسه، يتذكّر يوم أن صمّموا على الاحتفال بعيد ميلاده التّاسع والخمسين، فقال له زميلٌ آخر أيّام وظيفته: لا تجعلهم يحتفلون بك، فذكرى ميلادك قد قاربت السّتين، ووصلت للنّقطة الحرجة للعمر، فكلّمًا احتفلوا بك فرحوا؛ لأنّ رصيدك في الدُّنيا نقص عامًا، فكم المتبقّي لك من العمر، أعتقد أنّهم سيرتاحون منك، يومها قاطعه ولم يكلمه فترة جاوزت الشّهرين، وساعتها كم تمنّى أن يشتمه وهو غير معتاد على ذلك، تذكّره لقد مات العام السّابق.

هل كان محقًا "جان جاك روسو" عندما تخلّى عن أولاده، وأودعهم في الملاجئ، وراح يكتب كتابه "العقد الاجتماعي" الذي اعتبره الكثيرون دستورًا أخلاقيًا!!! هل حقًا يغني ملح الدّموع عن الألم!؟

كان اجتماع مجلس الإدارة، كالمعتاد استعرضوا ما تمّ من إنجازات، وأفكارهم للقادم، دخل الجمعية ومقدار الكسب والخسارة في الأيام السابقة، ما هو مدرج من بيانات حسابية يمكن عرضها على أيّ أجهزة رقابية تريد، أمّا المكسب الحقيقي، وهو مقدار ما يوجد من أموال تدخل بلا حسابات، وكلّها باسم السيّد رئيس الجمعية، استعرضوا أوجه الخير التي أنفقوا فيها، مطالب الغد، كانت أهمّ الموضوعات التي فُتحت للمناقشة، دور المؤسسة العالمية، ودوراتها التثقيفية المختلفة، وأفكارها التي تريد نشرها بين الشباب، تناولوا الموضوع باستهتارٍ غريب، دورهم في تجميع أولاد الشوارع ورهن كثيرٍ من التبرّعات بتجميعهم، لم ينسوا حتى القيام بتجهيز مقارّ لخدمتهم، ومساعدتهم لمجابهة الحياة، ومحاولة تعليمهم، يضحك أحدهم قائلاً: لا تعلّموا أبناء السفهاء، وكأنهم متفقون معه، وما زاد من استغرابهم، تلك الرّحلات الخاصّة بالشباب لأوروبا وأمريكا، كانت أهمّ مواصفاتها أنّها بلاد كافرة، ليس عيباً أن يستفيد الأبناء بالسفر وقال: عموماً للسفر سبع فوائد، وهو أيضاً علّم، واطلبوا العِلْمَ ولو في الصّين، يتأمّل الأقوال من مؤيّد نظراً لمرود المكاسب الممكنة، ولمعارضٍ يتخذ من الدّين ذريعة يقوّي بها أحاديثه، وللدّوران حول الدّين مرّة أخرى، طالبوا أن يخاطبوا المؤسسة لزيادة أعداد المسافرين لعشرين بدلاً من عشرة، ليحقّقوا أكثر استفادة ممكنة للشباب من أبنائهم وأبناء الحيّ، أحدهم كان يردّد دائماً: "لو كان الفقرُ رجلاً لقتلته"، وبمداعبة شبه ساخرة مستعيناً بكتاب يوسف إدريس: "فكر الفقر وفقر الفكر"، مطالباً بعدم الإغراق في الفقر... يقولون إنّ طبّاخ السمّ يبدوقه، وما لبث أن ضحك بقوة، وسأل بعضهم السّؤال وبصورة مغايرة، فكلّ الجمعيات تهب أعضاءها بدلات سفر وإقامة وخلافه، وراح آخر يدّعي

الجهل، وهو عارفٌ بما يحدث، فيطرح سؤاله، هل ما تدفعه المؤسسة يدخل في حسابات الودائع القادمة؟ أم...؟ أدرك مغزى الأحاديث، وأجاب بأنها مبلغٌ مودعٌ باسمه على سبيل الأمانة، وأنه حاول أن يبعده عن حسابه، ولكن أمام إصرارهم وافق، وأشار إلى أنهم جميعاً يعلمون، وكلُّ يملك في جيبه ورقة الحسابات التي تتم، وتحت مسمى الصَّرف على النواحي المختلفة للخير، ومنها منح للفقراء لا تردّ، وقروض تصل النِّسب فيها إلى واحد في المائة، وغالباً من يأخذونها لا يردونها، بلا تردّد، صاح أحدهم، وبدا كأنه متأسياً، إنَّ هذه الأموال حرامٌ أن نصرف منها على وجوه الخير، راحوا ينثرون حكايات عن استفادة أعضاء الجمعيات الأخرى، تحدّثوا، تمنى ألا يسمع حديثهم، لاحظ وجود خطاب باسمه فوق سطح المكتب، لم يشر إليه أحدٌ من قبل، فضَّ الخطاب، وقرأ ما جاء فيه: (دعوة لاجتماع موسّع لرؤساء الجمعيات الأهلية التي تتعامل مع المؤسسة)، طالبهم بالتريث، قرأ عليهم ما جاء في الخطاب والاجتماع الأسبوع القادم، على أن يكتب كلُّ منهم رأيه وأفكاره، واحتياجات الجمعية، والأفكار الجديدة التي يمكن من خلالها خدمة المجتمع، وإشارة خاصة لأبناء الشوارع، أمّا الإقامة فهي بالمدينة الجديدة، أو كما يسمونها قرية الرِّبان، ما إن نطق الاسم، حتّى بادروا بتهنئته بصورٍ مختلفة، فقال أحدهم: ما لا عين رأت من عيون أمثالنا، يقولون عنها... فردوس أرضي، وأكمل الثاني: ولا أذن سمعت، فأمثالنا لا يسمعون سوى ضجيج السيَّارات ومعارك الصَّبية، فيكفي أن تتمشَّى على شاطئ البحيرات الصناعيّة، ويقولون أيضاً حمّامات سباحة، والغريب أنّها كلّها على البحر، أمّا نالتهم فقد خرج عن المعتاد متغنياً... فيها نورٌ على نور، فردّ عليه آخر: الله يا ست، تباروا في الكلمات حاسدين له على قضاء أربعة أيّام في

الجَنَّة، تابعت الأوصاف التي تشيد بجمال المعمار والبنيان، أمَّا موقعها وجمالها الأسطوري، ولا يمكن لإنسان عادي أن يدخلها، انتهت ليلتهم وقرروا بالإجماع أن يصرفوا مكافأة خاصَّة لكلِّ أعضاء مجلس الإدارة، ولكن من أموال المؤسَّسة؛ لأنَّ أموالها حرامٌ أن يُبني بها مسجد، أو يُؤسَّس بها شيءٌ في خدمة المسلمين، كانت مكافأته التي لم يتوقَّعها أبدًا مبلغ عشرة آلاف جنيه، وهناك بدلات قرَّروا صرفها أيضًا، نظرًا للسَّفر الخاصَّ بالجمعيَّة، لكن هذه تتمُّ بصورة رسميَّة، تمَّ التَّوزيع في الليلة نفسها، كتبوا طلبًا باسمهم جميعًا بالشُّكر والتَّقدير للمؤسَّسة ويدها البيضاء، فاضوا في زخرف القول بالشُّكر والامتنان، وطلبوا مزيدًا من المعونات للصرِّف في أوجه الخير وتأثيث مكتبة وقاعة للموسيقى، طبعًا هذه الطلبات لا تعكس مطالبهم الحقيقيَّة، فعندما طلب أحدهم - وهو يضحك - مبلغًا لإنشاء قاعة للرَّقص! فبدلًا من الألف سيرسلون عشرة آلاف ويزيد، فالمؤسَّسة تسعى لإفساد البشر، ولكننا نستفيد وكفي.

توجَّه مباشرةً إلى منزل "حبيبة"، في شقَّتْها المتواضعة، استقبلته بترحابٍ بالغ، لم تصدِّق عينيها، وهي تفتح الباب، تحسَّ بأنَّها لا تمشي على الأرض، تتمنَّى أن تأتي إليه بكلِّ ما هو موجود في المنزل، طلبَ منها كوبًا من الشاي فقط، ابتسامتها لا تفارقها، طالبا بالجلوس، بين رشقات الشاي الممزوج بأوراق النِّعناع الخضراء، حاول أن يتحدَّث، فلم تسعفه الذاكرة، أخيرًا انفكَّت عقدة لسانه:

— تتزوجيني؟

كم حلمت! وكم تمتَّ وانتظرت! وها هي اللحظة قد حانت، لم تنسَ نفسها، وعملها، وابتنتها، راحت تسوق المعاذير، وتعدَّد الأسباب، تبدأ

بأولاده وموافقتهم، يستوقفها معربًا بأنَّ حياته ملكه هو، وأولاده يعرفون ذلك، والقرار له، تسأل عن الجيران والنَّاس والأهل وأعضاء الجمعية، بلا تردُّد يخبرها بأنَّه قرَّر ترك كلِّ ما يتعلَّق بالجمعية، وسيستقيل منها في خلال شهر، في الغد هو مسافر لحضور اجتماع، وبمجرد عودته سيشتري شقَّة صغيرة، هو وهي وسماح، تذكَّر، فسأل:

— أين سماح؛ لأطلب يدك منها فورًا؟

وكأنَّها تذكَّرت أنَّهما بمفردهما، فسماح مسافرة في رحلة خاصَّة بالجامعة، تبدَّل حالها، وتغيَّر لونها فجأة، اعتذرت، ولم تدرِ لماذا تعتذر؟ لم يفهم من حديثها غير المترابط شيئًا، وكأنَّ ألمًا مفاجئًا هاجمها، وقف قبالتها، أصبح وجهه في وجهها، اقتربت المسافات، وكأنَّ كلاً منهما سمع أنين الوحدة في عيني الآخر، همَّ أن يقول له إنَّ سماح ليست في الشقَّة، وكأنَّها تجد صعوبة أن يؤوِّلها بمعنى آخر، كانت تأويلاته مزيدًا من الاقتراب، لا إراديًا لمحت الشَّفاء، واهتزَّت الأشجار في خريف العمر، وأغلقت العيون، وسبح في المرافى الأمان، تعانقت الأنامل في البداية، وما لبثت أن حاصرت يداها، وخصرها، وتعلَّقت هي بركبته، نزق الحياة وتفجَّرها قادم كسلحفاة مهرولة، ابتعدت، أو تراجع، وحاولت أن تقع عيناها بعيدًا عن مرمى عينيه، بدت وكأنَّها تبحث عن أشياء لا تجدها، حمرة الخجل والحياء ظاهرة جليَّة، لم تتمالك نفسها، جلست، وكأنَّها سقطت فوق الكرسي، خبَّأت وجهها بين يديها وانهمرت الدُّموع غصبًا عنها، حاولت أن تتناسك، ولكنها اهتزَّت، وخرج صوت نحيبها، ضحك، ومسح بيده فوق رأسها، يفسِّر انفعالاتها المتباينة بالحياء والخجل مما وقعت فيه للتو، وواصل ضحكه قائلاً: يا ستي ديتها كام يوم ونصلح غلطتنا، تعرفي... يقولوا فيه حاجات ممكن السَّت

تبقى بُنوتَه، نَجْرَبُها ونعمل فرح ودخلة، من بين دموعها ضحكك، اختلط البكاء بالضحك، تمسح عينيها، ثم ترفع رأسها وتبتسم، يسألها عن رأيها فيما يقوله، تهتزّ رأسها بالنفي، يطوف في حدائق العشق، ويتتقى كلمات تناسب وعمره، لا يجد، فالحبّ لا يعرف الخريف، والعشق زهوره لا تذبل، وكلماته دائماً فتنة، مفتونٌ بما حدث يمتصّ ما تبقى في جوف فمه من مزيج الهوى، ترفض كلّ أطروحاته التي طرحها، عن قضاء شهر العسل يخنال بمعرفته بأكثر من شاطئ ومدينة ساحليّة، وكأنّه للتوّ تذكّر سماح... أين سيتركها؟ وهل يجوز أن تقضي معها أحلى أيّام عمرهما؟ هو يحبّ الفتاة، ولكنه لن يتحمّل نظراتها، ها هو أخذ منها أمّها؟ هذا ما كانت ستقوله، أو بمعنى أصحّ قالته، وجاهرت به، سيجلس معها... سيحاول أن يقربها إليه، إنّها أصغر من أبنائه، ارتباطها بأمّها... طوال عمرها لم تفارقها، أعتقد أنّ هذا هو الوضع الطبيعيّ، أفكارها ليس فيها أيّ نوع من أنواع الشذوذ عن المعتاد، يصمت، وكأنّه تذكّر شيئاً، كلمتها "أنّها تستطيع أن تهبه ما يرجوه من المرأة"، يستبعد عقله أن تفتح "إنسانة" أيّاً كانت صدرها بهذه الطريقة، لم ينسّ تدويره ثدييها ونفورها وشبابها، تنهض من مجلسها، يحاول أن يأخذها في أحضانها، تبعده، ثمّ تجذبه من يده، لحظة وجيزة همست ومضات العشق، ستدفعه إلى حجرة النوم، تجذبه، سيتعانقان ويتهاامسان ويفكّان عقدة وحدتيهما، استسلم لجذب يدها، مضى خلفها، صدقّ حدسه، ها هي تفتح حجرة النوم، فالشكّة عبارة عن حجرتين بينهما صالة تحتوي في جانب علي سفرة قديمة، ومجموعة من المقاعد متباينة الأشكال ما بين جلديّ وآخر قطنيّ أو اسفنجيّ ولكنها مريحة للغاية، رغم تنافرها الشكليّ، لكنّ فيها جمال وبساطة محبّبة، مضى خلفها ممّنياً نفسه بلحظة... عندما أضاء المصباح جوانب

الحجرة، لم يجد المخدع الكبير الذي يحلم به، مجرد سرير واحد لا يكفي سوى فردٍ واحدٍ، حجرة بدت من الصّور المعلّقة على الجدران أنّها خاصّة بابنتها سماح، وقف، ونظر لجوانب الحجرة، مكتبٌ جميلٌ وخلفه كرسي جلدِيّ دوّار، فوق سطح المكتب جهاز كمبيوتر ثابت، وبجواره أيضًا جهاز آخر لكمبيوتر متنقل "لاب توب"، وكثيرٌ من كتب متراصة بصورة جميلة، تبدو الحجرة كلّها في وحدة متناسقة تعكس جمال رؤية، لكن في ظروف "حبّية" ووضعها الاجتماعيّ، جهازا كمبيوتر فوق المكتب؟! لم يشأ أن يطرح سؤاله، تأمل الجدران التي اكتظت بصور الفتيات والفتيان من مشاهير الغناء والفنّ من شتى أنحاء العالم، صورة لثشي جيفارا، أشارت يد "حبّية" إليه، كانت ابتسامتها قد ذهبّت، فراحت وسط عبوسها تصف له كيف ظنّتها في البداية لأحد المشايخ، ساعتها فكّرت ابتنتها انضمت لأحد الجماعات، وعندما أبدت تخوّفها لابنتها، عرّفها يومها بأنّه هو الإنسان الثائر على الظلم في كلّ مكان، من طالب بالثّورة في كلّ مكان، تحكي، ومأساة تبدو فوق وجهها، فابنتها ثائرة، وهي تخاف عليها، فلماذا هي بالذات؟ ألا يكفي ما نحن فيه!!! من كان مثلنا المفروض يمشي بجوار الحائط! هناك ملايين في البلد، وهي وحيدتها، وبسببها تركت كلّ الدّنيا، وعاشت لها، وهي تشير لصورة "جيفارا"، ونقول وفقاً لكلام ابنتها إنّه ثورة بلا وطن محدّد، وتواصل بأنّها تشعر بالآلام كلّ النّاس، وتحلم بغد أفضل لها ولكلّ البشر، تبتسم ساخرة، ألا يكفي ما نحن فيه؟ وكأنّها تسألها ولماذا نأخذ من الغريب وأفكاره؟! ولكنّها لا تهتمّ بكلام أمّها، وتشرح لها، الثّورة مثل بذرة مطمورة في الأرض، لا بدّ من مياه تساعدها، لتصارع الحياة، لتفتح لها بصيص نور، لتصارع وتقوى وتحطم وتفجّر التّربة حولها لتخرج للدّنيا، فالمساعدات مادّية أو عينية للثّورة

من أيّ ثَوَارٍ في العالم ليست عيباً، فالعيب الحقيقيّ أن تظلّ مطمورةً في الأرض حتّى تفسد وتنتهي، صمتٌ غريبٌ، يدفعها بحنوٍّ بالغٍ أن تنام في صدره، يشعر بلهيب أنفاسها، ونشيج انفعالاتها، تبكي في صدره بحرقة يستشعرها في دموعها التي غسلت صدره، تراجع للخلف، تخاف أن تتقابل عيونها، تعاود مسح الدُموع والمخاط، تطلب منه أن ينسى فكرة ارتباطها، يحاول أن يبحث في فلك أفكارها عن الأسباب التي تدفعها لذلك، تناور وتداور، لم تجد مفراً، فقد شعرت بأنّه غير كلّ البشر، تظنّه ملاكاً أرسلته العناية الإلهية ليرفع عنها مصائب تداريها، لم تفصح يوماً، ولم تستطع، ولم تقول؟ تقتل أفكارها وكلماتها في صدرها، ولكنها تنامي، طالما هو الملاك القادم فلماذا لا تشاركه، وتقصّ عليه؟ تتردّد، فهي تعلم أنّ الملائكة لا رأي لهم، فهم مأمورون من قبل الخالق، هكذا سمعت، وردّدت، فالملائكة لا تزوّج، وهو يتمناها للزواج، هو إنسانٌ يحبّها، وبدا في عناقها حبه لها، لن تتخوّف، ولن تجبن، ستقول له حتّى يعلم كلّ شيءٍ عنها، فالصّمت في حالتها هو عين الكذب عليه، بتردّد في البداية، أفصحت له أنّ ابنتها لها أحوالٌ غريبةٌ، فأفكارها غريبة، منذ دخولها الجامعة، واليوم هي في عامها الرابع، تخلّفت عامّاً دراسياً، لا تهتمّ كثيراً بذلك، منذ وضعت قدميها في الجامعة، ربّما تقريباً بعد أربعة أشهر، لم تسألها عن أيّ مصروفات، بل إنّها كثيراً ما تشتري كلّ احتياجات الشّهر، وكلّ ما يلزم بيتها، يسمع لها، وهي تسرد عليه وقائع غريبة عن تغيّبها عن المنزل، رحلاتها المتكرّرة طوال العام الدّراسي، في الإجازة الصّيفيّة تقول إنّها تعمل، حتّى تخفّف عنها المصروفات، وهي تقصّ، تتحرّك وخلف المكتب تجلس، وتفتح الدّرج الأخير، وتخرج منه صندوقاً صغيراً، أخرجت ورقة، سلّمتها إليه، قرأ ما فيها "عقد زواج

عرفي"، فوق العقد خطان متقاطعان بعلامة إكس الإنجليزية وبلونٍ أحمر، ثم امتدت يدها بآخر وبالصورة السابقة نفسها، أما الثالث فكان بلا خطوط حمراء ولم يتم بعد وضع علامة إكس عليه، في نواح غريبٍ وتشنجاتٍ شبه عصبيةٍ وبين دموعٍ تنهمر بغزارة، تقسم له أنها ما فرطت في جسدها يوماً، لم تكذب يوماً، ولم تعرف رجلاً في حياتها كلها غير "أبو سماح" وهو - تقسم بكل الأيمان - وما تعرفه في الدنيا كلها لا يتعدى حدود الحي الذي تعيش فيه، والجمعيّة التي تعمل بها، وقد حاولت ابتئها أن تمنعها من العمل منذ ثلاث سنوات لكنّها رفضت، عندما حاولت أن تواجهها، تعلّت الفتاة بمعاذير باطلة وغريبة، لمن تشكوها؟ ولن تشكو همّها ومصابها؟! لا تستطيع، إنّهّا تخاف عليه، إنّها تحترم التراب الذي يمشي عليه، فكيف توافق على الارتباط به، تطالبه أن يمشي فوراً، ولا يعود إلى هذا المكان ثانيةً، وأن يمسخ من ذاكرته حتى اسمها، وألاً يفكر في الموضوع نهائياً، وأن يحافظ على سرّها الذي ائتمنته عليه، وكأنّها تذكّرت أنّها بمفردهما في الشقّة، فأخبرته بأنّ ابنتها سماح في رحلةٍ من رحلاتها الجامعيّة المعتادة، وكأنّها تقوده للباب الخارجي، فتفتح الباب وكأنّها تدفعه للخروج من كلّ حياتها، ذهولٌ وصمتٌ، شفاه ملجّمة، ولسانٍ تحجّر، يتحرّك، وتناقل في قدميه، يتأمّلها، ينظر بعيداً، تمسح بأطراف كمّها دموعها، وما اختلط معه من مخاطٍ ولعاب، ينطلق خارجاً.

كلّ يطمع في وضع قدمه داخل أسوار المدينة الجديدة، يكفي ما سمعوه عنها سواءً بنبانها، وما استُحدث فيها من وسائل الرفاهية المتعدّدة، أمنياتٍ للحياة الجديدة بكلّ ما فيها... كلّ يتمنّاها، هو أو غيره... فعندما قال له... اطلب فطلبك مجابٌ، وكأنّه منتظرٌ أن يفتح ذراعيه له، أو يلقي بتلك الكلمة،

فملاً كَفَيْهِ بِالتُّرَابِ، قائلاً... أُمَّتِي قِطْعًا ذَهَبِيَّةً بَعْدَ ذَرَّاتِ التُّرَابِ بَيْنَ يَدَيَّ!!
وَكأنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ طَلَبَ فَأَجِيبَ طَلْبَهُ، فَندُقُ ضِخْمَ عُلَى مَسَاحَةِ
جَانِبِيَّةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفَ مِترَ، حِجْرَاتٌ مَنفَصِلَةٌ مَجْهَزةٌ بِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ
الرَّزَّائِرُ، أَجْنَحَةٌ خَاصَّةٌ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ حِجْرَةٍ، فِي الدُّورِ العُلَوِيِّ صَالَةَ القَهَّارِ
وَأَعَابِهِ المِخْتَلِفَةِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا مَمْنُوعٌ لِلْمِصْرِيِّينَ، وَأَغْلَبُ مَنْ يَلْعَبُونَ
مِصْرِيُونُ، فِي الطَّابِقِ السُّفْلِيِّ صَالَةَ ضِخْمَةٍ لِلطَّعَامِ، كَلِّ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ،
وَتَتَمَنَّا مِنْ طَعَامٍ، كَمَا يُسَمُّونَهُ "بُوفيه مَفْتُوحٌ"، وَعَلَى كَلِّ طَالِبٍ أَنْ يَغْرِفَ مَا
يُرِيدُ وَمَا يَتَمَنَّى، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ طَعَامُهُ فِي الحِجْرَاتِ أَوْ الأَجْنَحَةِ، فَعَلِيهِ
الإِشَارَةُ فَحَسَبَ، وَهَذَا جِزءٌ مِنْ كَلِّ، فَأَمَّا أَغْلَبُ الأَمَاكِنِ، فَعِبَارَةٌ عَنِ حَدَائِقِ
تَتَنَشَّرُ بِنِسْبَةِ لَّا تَقَلُّ عَنِ سَبْعِينَ فِي المِائَةِ مِنَ المَسَاحَةِ الكَلِيَّةِ لِلْمَدِينَةِ الجَدِيدَةِ،
عَلَى الجَانِبِ الأَخْرَ، وَقَرِيبًا مِنْ شَاطِئِ البَحْرِ تَتَنَشَّرُ الشَّالِيهَاتُ الرَّائِعَةُ المَعْمَارُ،
ذَاتُ الدُّورِ الوَاحِدِ، الخِضْرَةُ تَغْطِي أَرْجَاءَ المَكَانِ، بَيْنَ الشَّالِيهَاتِ وَمَبْنَى
الفَنْدُقِ بِحِيرَةٍ صِنَاعِيَّةٍ ضِخْمَةٍ، طَيُورٌ وَأَسْمَاكٌ وَنَافُورَةٌ وَسُطِيَّةٌ مَتَحَرِّكَةٌ،
انْدِفَاعُ مِيَاهِهَا يَصْنَعُ أَشْكَالًا مِخْتَلِفَةً، فِي المَسَاءِ، وَعِنْدَ سِقُوطِ الأَضْوَاءِ المِخْتَلِفَةِ
الأَلْوَانِ والأَشْكَالِ، الَّتِي تَصْدُرُهَا مِصَادِرُ لَّا تَدْرِكُهَا العَيُونُ، لُوحَاتٌ مِنْ
جَمَالٍ تَرَسِّمُ بِلَا رِيشَةٍ فَنَّانٌ، وَلَكِنْ أَبْدَعْتَهَا يَدُ الإِنْسَانِ، وَفِي المَكَانِ نَفْسُهُ، وَعَلَى
بُعْدٍ لَّا يَتَجَاوِزُ نِصْفَ كِيلُومِترًا، حَمَّامٌ سِبَاحَةٌ خَاصٌّ جَدًّا، وَمِنْ حَوْلِهِ مَدْرَجٌ
عَلَى الشَّكْلِ الرُّومَانِيِّ القَدِيمِ، خَاصٌّ بِالدَّلَّافِينَ وَمَدْرَبِيهِمُ الرُّوسِيِّينَ، كَلِّ
الأَعْمَارِ تَرْتَادُ المَكَانَ لِلتَّمَتُّعِ بِجَمَالِ الدَّلَّافِينَ وَتَنْفِيذِ أوَامِرِ مَدْرَبِيهَا، وَالجَوَائِزِ
الَّتِي تَنَالُهَا مِنَ المَدْرَبِيِّينَ، أَصْوَاتُهَا الجَمِيلَةُ، وَصَرَخَاتُهَا المِتْبَايِنَةُ، كَلِّ هَذَا مَتَاحٌ
لِكُلِّ نِزْلَاءِ المَدِينَةِ الجَدِيدَةِ، أَمَّا حَمَّامَاتُ السَّبَاحَةِ، فَأَسْفَلُ مَبْنَى الفَنْدُقِ، العَدِيدِ
مِنْ حَمَّامَاتِ السَّبَاحَةِ، فَهَذَا خَاصٌّ بِالأَطْفَالِ وَعَمِيقُهُ أَقَلُّ مِنَ المِترِ، أَشْكَالُ

وألوان تأخذها حمامات السباحة المتنوعة، ربّما يتجاوز عددها العشرة حمامات، تنتشر حولها الشاسي وكراسي البحر المختلفة، حتّى المناشف الخاصة، العمّال لا يدّخرون جهداً لمساعدة وتلبية احتياجات النّزلاء، أيضاً تتواجد أكشاك تتوفّر بها وجبات خفيفة للنّزلاء ومشروبات متنوّعة، حول كلّ حمام سباحة يتوفّر أكثر من كشك، وهذا بالإضافة لكشكٍ خاصّ بالموسيقى والأغاني، كلّ حسب رغبة الرّوّاد، على الشاطئ أكثر من لسان يمتدّ داخل المياه لمسافة تقترّب من كيلومتر، مرصوف، وعلى جانبه كراسي للجلوس، وفي كلّ مسافة سلام للنّزول للشاطئ وللبحر، أمّا ساعة الشّروق أو الغروب، فكم روعتها ونسائها لا يضاھيها جمال! أسعد لحظات الدّنيا، أيضاً أكثر من مرسي لليخوت الصّغيرة والكبيرة المتنوّعة، وخاصّة بلونها الأبيض الرّائق، وكأنّه مختارٌ بعناية ليتألّف مع لون مياه البحر بزرقها، لوحه أبداع الإنسان في رسمها وتنفيذها، سبحان الخلاق الذي خلق الإنسان! تنتشر أشجار النّخيل كغاية تحيط بأرجاء المكان كلّ، زهورٌ متنوّعة بكلّ ألوان ومباهج الدّنيا، طيور أتت برغبتها، فحامت، ودارت، وحطّت، وكأتمّها تشارك في وضع اللّمسات الأخيرة للجمال، المخطّطون لم ينسوا من حساباتهم الشّباب من الجنسين، فللرّواد والنّزلاء الحقّ في كلّ شيء، أكثر من عشر صالات للرّقص بمختلف ألوانه وعشّاقه، فالإضاءة خافتة ومتنوّعة، والجدران مزينة بصورٍ معتادة في هذه الأماكن، فصورٌ عارية، أو شبه عارية، مرسومة باليد، أو ملصقة على الجدران، موسيقى تصدح، وشباب يرقصون وينهلون من متع الحياة، الحياة والإقبال عليها بادٍ، لا سيّارات تدخل حيّز القرية، على باب القرية جراج ضخم خاصّ بسيّارات أو باصات الرّوّار تنتهي عنده حركتها وتستسلم للرّاحة طوال فترة الزّيارة، الحركة داخل

المدينة الجديدة بالسيارات المكشوفة التي تعمل بالغاز حرصًا على الجو العام ونظافة البيئة، يكفي أن يطلب الزائر الرقم الخاص فتأتي في خلال دقائق معدودة السيارة الخاصة بالنقل الداخلي، أما ملاعب الجولف التي تمتد على مرمى البصر، تتخللها بحيرات صناعية صغيرة، أما سهرات المساء، فمتعددة ومتنوعة، ترضي أذواق كل الزوار، غناء ورقص شرقي، تتناوب فيه الأدوار مصريّات وغير مصريّات، أما الأجناب فكثيراتٌ منهنّ يعملن في مجال الرقص الشرقيّ ويقابلن تشجيعًا منقطع النظير طوال الليل، وأغلبهنّ إقامتهنّ في مصر، وأخذن الجنسية نظرًا لتزوجهنّ من مصريين، أما المسابقات، فكثيرة ومتنوعة، سهرات حتى الصباح، لا ينقطع اللعب والضحك والسّمْر، صالات التزلّج علي الجليد... فهناك أكثر من صالة، كبار وصغار يدخلون ساحتها، منهم من يجيد، ومنهم من يتعلّم، وفي التعلّم سقطات مثيرة للضحك والفرح، يتسامرون، ويلعبون، وفي سقوطهم مرح وسعادة، أسفل الفندق أيضًا صالاتٌ متعدّدة للرياضات المختلفة، ومنها أيضًا المشترك للجنسين، هذا غير الصالات المفتوحة على شاطئ البحر، أو على جوانب حمّامات السباحة في بعض الأحيان، ساعات منسية، كما يقولون، هنا الجميع يلقون مشاكلهم وأحزانهم في البحر.

عندما وصل إلى مشارف المدينة، سبحت عيناه في الجمال الذي شيّده الإنسان في عظمة الخالق، في خارج المدينة، وعلى البوابة الأمامية، ودّعه سائق التاكسي، فهذه آخر حدود السيارات، استقلّ سيارة مفتوحة من سيارات التنقل الداخلي، رفعوا عنه حقيبته حتى وصل للاستقبال، طالبوه بجواز السفر، فضحك، وتساءل إن كان خارج الحدود المصريّة، بأدبٍ جم أسرع

الشباب بالاعتذار معرّفًا إيّاه أنّ الكثيرين يقدّمون جوازات سفرهم، شكره، وقدم إليه بطاقته الشخصية، وقدم معها الخطاب المرفق به الدعوة، كان هناك خطأ غير متوقّع، الخطاب يخبره بموعد ولكن بعد يومين كاملين، ابتسم للفتى، وطلب منه إن كان متوفّرًا حجز على نفقته الخاصّة فلا مانع، عرض عليه الفتى كلّ ما هو متاح بدءًا من الشاليهات الخاصّة جدًا، وحتى الحجرات الفندقية، ومجمل المصاريف الخاصّة بالإقامة، شاملة حقّه من طعام، ورحلات، وممارسة أيّ رياضات، وكأنّ الفتى قد أدرك الخطأ الذي وقع فيه، فبادر بالاعتذار عن عدم وجود أماكن في الفندق لمُدّة أسبوع قادم، لم يقلل من نفسه، وقرّر حجز شاليه لليومين، عندما أخبره الفتى بأنّ هذا المكان يكفي لخمسة أفراد، هزّ رأسه بالموافقة، استكمل بياناته، ودفع إيجاره ليومين، عندما حاول الفتى أن يطالبه بالتريث في الدّفع، شكره، وحمل العامل حقيبته إلى السيّارة، مضت السيّارة بين الخضرة والأشجار المتناثرة، وحمّات السّباحة، مدّة تجاوزت ربع السّاعة حتّى وصلت إلى الشاليه الخاصّ، فتح له العامل، أجزل له في العطاء، قام بضبط جهاز التّلفزيون، وأشار إلى قناة بثّ خاصّة بالمدينة، انحنى الفتى، ومضى، راح يفحص محتويات الشاليه، حجرتان مؤثنتان كأفضل ما يكون بكلّ المشتملات، المطبخ يتوفّر فيه أكثر من مشروب يمكن تجهيزه، التّلاجة وما فيها من مياه ومشروبات رويّة، وغير... العديد من أنواع الفاكهة محفوظة في أكياس خاصّة بها، فعلاً كلّ الاحتياجات التي تكفل الحياة لخمسة أفراد، حرّك الستائر، تأمّل المنظر الخارجيّ من خلف الرّجّاج، ناحية اليمين من نظره مركز للغوص والتّدرّبات الرّياضيّة، أمّا من ناحية اليسار، فمقهى ومطعم يقدّم وجبات سريعة، وكافّة أنواع المشروبات، أمّا أمامه مباشرة، فمظلات متنوّعة من

البلاستيك أو من سعف النخيل وجذوعها، وكراسي بحر منتشرة على طول الشاطئ أمام عينيه، تتخفّف النساء غالبًا من أغلب ملابسهنّ، ويكتفين بالمايوه ذي القطعتين، لم يختر لنفسه الموقع، فتح باب الشرفة، وقف يتأمل الأجساد الماضية من أمامه للرجال أو للسيدات أو الشباب، حتّى الأطفال بألعابهم على الشاطئ يثرون اهتمامه، نسّات مشحونة بأبخرة البحر ورائحته، أغمض عينيه، وتنفسّ ساحبًا دورة شهيق بقوة، قرّر أن يستريح لبعض الوقت وعليه الاستفادة بكلّ الوقت، فلا داعي للنوم زيادة عن المقرّر.

عندما نعقد المقارنة بين شخصين، أحدهما ذكيّ والثاني مجنون، فالطبيعيّ أن يكسب الرّهان الذكيّ، فهو الأفضل، وبذلك نحسم القضية ونهيها، لكنّ علينا أن نتوقّف، ونعيد الصياغة والمقارنة، فإذا كان الذكيّ شريراً، علينا أن نأخذ حذرنا، فيوم يجتمع الذكاء مع الأمانى الشريرة، وسيحاول أن يغلف كلّ أفعاله بذكاء غالباً مدمّر، يومها ستكون الضحيّة فوق خيالاتنا وتصوّراتنا، لنعيد المقارنة.

كانت خليّتهم - مجموعتهم - لا يتجاوز عدد أفرادها عشرة أعضاء، كلّهم أعضاء عاملون في المؤسّسة، منهم موظّف طبقاً لقواعد التوظيف المحدودة الفترة، وبعضهم حرٌّ يطلب منه أعمال وأفعال يقوم بها، وغالباً يكون موظّفاً في جهة حكوميّة، وهذا العمل بالنسبة له عملٌ إضافي، ولكنّ بأجر.

رئيس الخليّة هو إعلاميٌّ معروفٌ، له صولات وجولات ومريدون، أنّهم في قضية خاصّة بأمن الدولة، كانت الدلائل وقتها تشير لصدق هذه

الاتِّهَامَات، أمَّا هو فلم ينكر ساعتها التُّهْمَةَ، حاول أن يبرِّر فعله بصورة
 سياسيَّة فجَّة، قال في جلستهم: أنا من صنعتُ الإعلام في هذا البلد، ماذا كان
 نصيبي؟ يصمت، ويهدأ قليلاً، ويواصل، لن أشخصن القضية، فقضيتنا
 العدل، ولماذا لا تلتزم الحكومة بالعدل؟ فأنا لا أوافق على سيطرة الحاكم،
 واستبداده، وتوريثه للحكم، لا بدَّ من الثَّورة، وبلا تردُّد، وبتلقائيتها التي لم
 تتغيَّر كثيراً، قالت "زهرة"، وهي تضحك: "الي ما عندوش صايح حقه
 ضايح"، وراحت في ضحكةٍ طويلةٍ وكأنَّها ممزوجة بسخرية أو سطحيَّة
 مطلقة، وكأنَّهم سمعوا نكتة فتاهوا في الضَّحك، يبدو أن رئيسهم لم تعجبه
 كلمتها وضحكاتهم، لم تتغيَّر ملامح وجهه ولم تنفرج شفاهه، وكأنَّ "أبو
 عنيد" حريص على تشجيعها، فهو لا يشعر بالرَّاحة لكلمات الإعلاميِّ، فقال
 وهو مبتسم: "فلأحين بلدنا ناس منهم عندهم حمير، وناس منهم عندهم
 خيل"، وطبعاً يا ستَّ الكلِّ، الخيل يربطوها، ويدلِّعوها، والحمير يقيِّدوها،
 والمطلوب منَّا ننهَق... أصدر صوتاً يقارب نهيق الحمار، وممزوجاً
 بالضَّحكات، تبادلوا الضَّحكات، اتَّضح الضَّيق أكثر في وجه الرِّيس، لا يهتمُّ
 "أبو عنيد" بما يحدث له، يشعر الإعلاميُّ بأنَّهم من طبقة دنيا، لا يستحقُّون
 مجرَّد مشاركتته في المجلس، "لولا" و"حمدي" نظراتهما ذات مغزى، ودعوة
 لـ "أبو عنيد" في المواصلة، "لولا" تعرف كلَّ شيءٍ عن "زهرة"، هي التي
 قصَّت عليها الكثير من تفاصيل حياتها، عندما همَّ "حمدي عبد الوارث"
 بالحديث موجَّهاً لـ "أبو عنيد"، ملقَّباً إيَّاه بالأستاذ، على الفور طالبه العنيد
 بالتوقُّف فوراً، وإلا سيرفع عليه قضية ردِّ شرف، مطالباً إيَّاه أن يدعوه باسمه
 مجرِّداً، في التوقُّيت نفسه دخلت السيِّدة الكبيرة "كاتيا"، التي لا يعرفها
 أحدٌ، وربَّما تكون هي نفسها نسيت اسم "هبة السَّاء" الذي ارتبط في ذاكرة

أطفال وأبناء الملاجئ وقرى الأطفال، أمّا الآن فهي "مس لافويت"، وقفوا، سلّموا عليها، وأتسعت ابتساماتهم، وقبّل أغلب الرّجال يدها، وبعدها انضمّ لمجلسهم دكتور "برهان"، فهو رغم أنّها كانا معاً بعيداً عن العيون، إلاّ أنّه لا يحبّ المسير خلفها، أو في موكبها، هي تجبّد هذا، حتّى لا يلفت الأنظار إليهما، كلُّ بوجهة نظره، سحب النّاشر لها الكرسيّ إلى الخلف، فجلست، بينما اكتفى الدّكتور "برهان" بإلقاء السّلام، وجلس مباشرة، كانت جلسته مقابلة لمجلس "مس لافويت"، وجهاً لوجه، ينظر إليها، ويتأمّل، ويدقّق النّظر في تفاصيل وجهها، وكأنّه يراها للمرّة الأولى، يشعر وكأنّها أحد آلهة "الأوليمب" مضرب الأمثال في الجمال والفتنة، وكأنّه يسأل، كيف يهبط هذا الجمال إلى الأرض؟! بدا القلق على وجه الإعلاميّ، رغم عدم إفصاحه، وكأنّها اعتادتُ فحص وجوه من حولها، وكأنّها تقرأ أفكارهم، لم يجب ظنّها، وتأكدت من صدق حدسها، فأغلب الوجوه مطبوعٌ فوقها ابتسامة ما عداها، ما زال أمامهم وقتٌ طويلٌ قبل عقد جلستهم المقرّرة، وكأنّ النّاشر أراد أن يوجّهها لما حدث، وبشعلته المعتادة، أشار إلى أنّ "أبو عنيد" لا يجب أن يناديه أحدٌ بلقب، فأخذت الكلمة، ودعت فيها للانصهار جميعاً في بوتقةٍ واحدة، كجسدٍ واحدٍ، أمّا الإعلاميّ، فكان له رأيٌ آخر، ساخرًا، طالبها أن تغير من كلمات حديثها، وتهبط به للمرتبة الدّنيا، حتّى يستطيع من حولها فهم ما تعنيه، كان قاصداً بالطبع العنيد وزهرة، فقال العنيد: أنا حاسس إيّ المقصود، كلام الهانم يخليّ اللي ما ينطقش ينطق، الهانم بتقول بالفم المليان نقرب من بعض ونحبّ، صمّم الإعلاميّ على أنّه لا يفهم ما تقوله السيّدة الكبيرة واتّهمه بأنّه مبتذل حتّى في نطقه لكلمة الحبّ قائلاً: الحبّ هو قيادة الإنسانيّة للأفق الرّحب، وحول هذا الموضوع، راح يخوض من موضوع

لآخر، فقاطعته الهانم، وطالبتة بوقف الاسترسال في الحكايات بمفرده، في إشارة واضحةً بأنّها تعطي الضوء الأخضر للعنيد للإجابة، فقال العنيد، وهو يتسم: على كلّ حال، أنا فكّرت في موضوع الحبّ كثير، قدّامنا طريقة عشرة على عشرة، ونتيجتها في جيبي ميه ميه، علينا أن نخترع، ونصنع محلول حبّ، ناخذ كلام أستاذنا، وكتبه، وكلامه اللي بينقّط عسل، ندوّبه في الميّه، ونملا صهاريج الميّه في البلد كلّها، والنّاس تشرب وتشرب، هنلاقي النّاس في الشّوارع بتاخذ بعضها بالأحضان، عمّال على بطّال زيّ الملوك والرّؤساء العرب، وفي كلّ ميدان نعمل حوض كبير، ونملا بالمحلول نسّميه حوض الحبّ، وساعة ما يستحمّوا يغطّسوا، والميّه تغرّقهم من ساسهم لراسهم، وأيّ واحد نلاقي وشّه مكشّر نزميه في الحوض، يطلع مبسوط وملعلع، إيه رأيكم في أفكارى؟ ضحكّت السيّدة، وصفّقت، فصفّقوا خلفها، بالمثل صفّق الإعلاميّ مجبراً، أمّا الدّكتور "برهان" فصفّق، وأشعل سيجارته، وبدا وجهه سعيداً، لم يسكت الإعلاميّ فكان أسرعهم للرّدّ، فوصف تلك الأفكار بالأفكار السّمجة العابثة، مثلها نخرجه وتنطق به شفاه المخمورين والسّكارى، كأنّهم كانوا منتظرين كلمة الدّكتور "برهان"، من بين دخان سيجارته، وابتسامته الواسعة، بدأ حديثه بسؤال، كون الزّبئق سائلاً أم معدناً، كانت إجابة أغلبهم بأنّه سائل، عرّفهم أنّ الزّبئق هو المعدن الوحيد السائل في الدّنيا، وأبخرة الزّبئق سامّة، وهو يُستخدم في نواح متعدّدة، وقد يخرج غالباً في عوادم الكثير من المصانع، وعرف علماء أوروبا وأمريكا هذه الأشياء ودرسوها بعناية، وبالطّبع، هناك تمويلات ومنظّمات تدقّق وتنقّب، وانقلب يصف بلادنا ودول العالم الثالث بالتّابع الذي يلغي فكره وعقله، فلا فرق بين الإنسان وبين الحمار، وعموم الكائنات، رغم إنسانيّته، ورغم ما

فَضَّلَهُ بِهِ اللهُ عَلَى سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ، فِي حَدِيثِهِ تَصْمِيمٌ عَلَى أَنَّ دَوْلَنَا وَقَادَتَنَا وَمَفْكَرِنَا عَاشِقُونَ لِلجَهْلِ، وَتَقْتَلُهُمُ الْأُنَانِيَّةُ، وَأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَنْحِي شُكْرًا وَتَقْدِيرًا لَوْلَا أُمُورُنَا مِنَ الْأَجَانِبِ، فَقَدْ حَاوَلَ الْأُورُبِّيُّونَ فِي الْبَدَايَةِ تَحْوِيلَ بِلَادِنَا مَرَّةً لثِقَافَتِهِمْ أَوْ لِعَتَمِهِمْ، وَلِلْأَسَفِ لَمْ يَفْلِحُوا بِسَبَبِ جَهْلِنَا بِأَفَاقِهِمُ الرَّحْبَةِ، فَاسْتَعْمَرُونَا، وَأَخَذُوا خَيْرَاتِ الْبِلَادِ، لَكِنَّ عَزَّةَ بِلَادِنَا وَثُورَةَ رِجَالِنَا وَمَلْهَمِينَا، أَوْقَدُوا نِيرَانَ الْعَزَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَرَفَضُوا الدُّلَّ، فِي النِّهَائَةِ عَمَلُوا ثُورَاتٍ وَرَفَعَتْ بِلَادِنَا الرِّايَةَ، وَأَخَذَتْ وَنَالَتْ اسْتِقْلَالَهَا، وَغَنَى الْمَعْنُونُ، وَكُتِبَ كِتَابُ اللَّحْظَةِ، وَرَقَصَ الرَّاقِصُونَ، وَعَمَّتِ الْفَرِحَةُ وَالْبَهْجَةُ الْبِلَادَ، لِنَا الْمُرَادِ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ، وَكَمَا قَالَ "غَانْدِي": "سِيرْ جَعُونَ وَبِصُورٍ جَدِيدَةٍ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِنَا، رَجِعُوا بِصُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، بِدُونِ حُرُوبٍ، رَجِعَتْ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ الْمَفْتَرَسَةِ بِأَقْنَعَةٍ جَدِيدَةٍ، رَسَمُوا وَجُوهًا أُخْرَى أَلْبَسُوهَا أَقْنَعَةَ، وَصَنَعُوا لَهُ أَشْكَالًا جَدِيدَةً، سَمُّوهَا "نِيُولُوك"، لَكِنَّ لَا أُنْيَابَ ظَاهِرَةَ، وَلَا صِرْحَاتِ حَيَوَانِيَّةٍ، ابْتِسَامَةَ فَوْقَ وَجُوهِ الْمَفْتَرَسِينَ، تَأَكَّدُوا مِنْ جَهْلِ بِلَادِنَا وَتَخَلَّفْنَا، فَلَمْ يِقَاتِلُونَا، لَمْ يَرْفَعُوا السَّلَاحَ، وَرَبِّمَا يَمُوتُ فَرْدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ إِنْسَانٌ! بِالطَّبَعِ، هَذَا جَرْمٌ، أَمَّا أَنْ يَمُوتَ آلَافٌ أَوْ مِلَايِينَ مِنَ الْجَهْلَةِ وَالْأَغْيَاءِ، فَلَا ضَيْرَ! وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَوْقِفُوا مِصْنَعِ الْأَسْلِحَةِ، زَادُوهَا، بَاعُوهَا لَنَا، وَهُمْ يَضْحَكُونَ، وَاكْتَفَى سِمَاسِرَةُ بِلَادِنَا بِالْأَرْبَاحِ، اِكْتَفُوا بِمَزِيدٍ مِنَ الْمَمْتَلِكَاتِ فِي بِلَادِنَا، أَوْ خَارِجَ حُدُودِ بِلَادِنَا، فَالزَّمَنُ زَمَنُ السِّمَاسِرَةِ الْأَغْيَاءِ الْأَذْكَيَاءِ، يَشَارِكُونَ فِي ذَبْحِ أَهْلِيهِمْ وَذَوِيهِمْ وَيَرْشِفُونَ كَوْوسَ عَشْقٍ كَاذِبٍ، فَدَخَلُوا وَسَاعَدَهُمُ السِّمَاسِرَةُ بِلَا حَرْبٍ فِي الظَّاهِرِ... هَكَذَا بَدُؤًا، وَعَلَيْنَا أَنْ نَنْهِيَ بَعْضُنَا وَفَقْ أَفْكَارَهُمْ وَرُؤْيَتَهُمْ، فَلْتَرْفَعِ الطَّائِفِيَّةُ وَالْعَنْجَهِيَّةُ وَالْقَبَلِيَّةُ بَيْنَنَا، ارْتَفَعَتْ، وَزَادَتْ، وَلْتَقَاتِلْ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مَزِيدٌ مِنَ الْاسْتِشَارَاتِ

والمصانع في بلاد العالم الثالث، فعلينا أن نفرح، ونهلل، ونقبل أياديهم، ونشيد بأفكارهم، عشاق الأفكار الإنسانية الرائعة، فمثلاً وبصورة مبسطة، لا توجد في بلاد أوروبا أو أمريكا مصانع قدرة، وعلى سبيل المثال مصانع الأسمنت، وما شابهها، أنشأوها واستثمروا فيها رُغوس أموالهم وخبراتهم، وانتشرت في بلاد العالم الثالث، أما السبب الحقيقي والرئيسي فهو انبعاث غازات سامة منها غالباً، منها أبخرة الزئبق، هذه الغازات تؤثر على سلامة العقل والجهاز العصبي للإنسان، وغالباً يصاب البشر في البلاد التي تنتشر فيها هذه المصانع بالضيق والقلق، ويتمادون في العنف، حاولت "مس لافويت" أن تقاطعه أكثر من مرة، وهي تصف أن أحاديثه لا تخلو من إلقاء تبعية الصراعات على الآخرين، وصممت على أن مرجعية كل كلماته فكرة نظرية المؤامرة، دافعت كثيراً، بالطبع ساندها الناشر، فقال بشعبته المعتادة ضاحكاً: سأنشر قريباً كتابك عن وضع اليهود وأفكارهم، والغزو القادم من بلاد أوروبا وأمريكا طبعاً، نظر إليه، وأظهر تحدياً بأنه إن لم ينشره، فأني دار نشر تمنني أن تنشره، دافع الناشر عن نفسه بأنه لم يقل غير ذلك، كان مهموماً أن يسحبه لحديث جانبي بعيداً عما يثير سيئته وسيئتهم، طالب الدكتور "برهان" لدقيقة أو دقيقتين، لينهي حديثه الذي بدأه، فطالب كل الجالسين أن يحسبوا بالعقل والمنطق، فاستطرد قائلاً: عليكم أن تلاحظوا أين تقوم المعارك هذه الأيام؟ نفضت أمريكا وأوروبا أيديهما من الحروب، وأنشأوا، وساهموا في بناء المصانع، وحارب أهل تلك البلاد بعضهم بعضاً تحت العديد من المسميات، حتى لو كانوا أبناء دين واحد، كفروا بعضهم البعض، تأملوا كل الدنيا، وكل البلاد المتخلفة، وعلينا أن نبدأ بأنفسنا، وفي الأيام القادمة، استشعر بأن الخلافات ستكون بين أفراد المنزل الواحد، الإخوة بينهم وبين بعضهم،

تأكدوا مما أقول، فالمصيبة القادمة فاجعة ومرّوعة، في حديثها رفضت "مس لا فويت" كلّ أحاديث الدكتور "برهان"، حاولت أن تدحض كلّ إشاراتهِ وتلميحاتهِ، وطالبته أن يعيد البحث في هذا الموضوع، وأنّ كلّ ما قاله هو افتراءات لا أساس لها من الصّحّة، وصمّمت أنّ مرجعيّة هذا كلّهُ تعود لفكرة نظريّة المؤامرة، تحدّثت عن الحبّ والحريّة والإخاء والمساواة، ومطالبة كلّ إنسان إن أراد أن يُشعل نيراناً فليجعلها نيراناً للمحبّة، وأولى الأشياء بالمحبّة محبّة الحرّيّة، فالمؤمن الحقّ عليه إنارة الطّريق للآخرين... في رشاقة حديثها جاذبيّة للأذن، لهجتها العربيّة الممزوجة بالثأثة في الكلمات، اعوجاج اللسان، وكأنّها تضغط على مخارج الحروف، فتضغط على فتحات ناي فيصدر نغمات متعدّدة متفاوتة الإيقاع، أمّا حركة شفّتها فهادئة كانسياب مياه جدول رقرق، وكأنّها تتزيّن بحديثها، فتصنعه في عقد رصّت أحجاره الكريمة أو حبّاته اللؤلؤيّة لتخطف الأبصار، تدرك "لولا" دون سواها ما يعيشه "حمدي" من قلق، فهو لا يشارك في الحديث كما اعتاد، الصّمت يأخذه، لم ييخ لها بما كان في رحلته الأخيرة، أرجعت كلّ ما هو فيه للاستعداد لحفل الزّفاف، فقد وافق الأب، وأبدى سعادته الفائقة بالنّسب، وحدث تواصلٌ غريبٌ بينهما، حتّى الأمّ اختلفت مشاعرها تجاهه، أمّا ابن عمّها، فقد كان نقله بأمر مباشر من وزير الدّاخليّة، وعودته ثانية لمكانه نتيجة لرجاء "حمدي" للسّيّدة، وتمّت الإشارة إلى أنّ هناك خطأ في صدور القرار، وتمّ سحبه، ها هي الأمور تتضح أمامه، قدرات هذه السّيّدة في تصريف الأمور حولها، استشعر بضالته تارة، وبالرضاء تارة أخرى؛ لأنّه استطاع أن يجد لنفسه مكاناً بينهم، شيءٌ غريبٌ يحاول التخلّص منه، وهو غير مقتنع بما يفعله، أموال لا تعدّ، ولا تحصى، كان نصيبه مبلغاً ضخماً، لم يحلم يوماً بأنّ يلمسه، في

أرقى مكان، وعلى ضفاف النيل، اشترى الشقة، ولم يخبرها، بالطبع ستسأله من أين لك هذا؟ هل يدعي أنه باع أملاكه في بلده؟ لقد أخبرها بتفاصيل كثيرة عن نفسه، وعمّا يملكه، وعن إخوته، وكلّ ما يملكه لا يكفي لدفع تكاليف جزءٍ من تلك الشقة، كانت أحاديث دكتور "برهان" وكأنّها جمرة نار أحسّ بلهيبها المفاجئ، ولا إرادياً، وجد نفسه مشاركاً في الحديث، مطالباً برهان بالترّيث في اتّخاذ القرار، فالتسرع يُفقد الإنسان الكثير، وطالبه بعدم الجهر بما في نفسه، بلّ راح يؤكّد له أنّ كلماته قد تجد صدقاً حقيقياً، فما يستشعره الناس حقيقة، يشبه أنّ بلدهم مستباح، أو معروض للبيع، وأنّه في حالة الغرق، على كلّ غريقٍ أن يلتمس النجاة، بين فعلٍ وردّ فعلٍ لحديثٍ دائر بين حمدي وبرهان، قطع مناوشتهما النّاشر، مطالباً الجميع أن يسمعه، وأنّه شبه متفق مع جميع من تحدّثوا، فقال: يُحكى أنّه في بلاد اليمن، رأى أحدهم الفئران تحفر في سدّ مأرب العظيم، وجد عدد الفئران كثيرة، تأكّد أنّ الغد لا يحمل الخير، وأنّ أراضيهم في الغد ستكون قاحلة جرداء، فعزم على الرّحيل منها، فلو قال بما حدّثته به نفسه، وصرّح علناً، لهرب كلّ الناس، له أراضي كثيرة، وعليه الاستفادة، ويريد بيعها، فأوعز لأصغر أبنائه أن يصفعه على وجهه وهو بين الناس، بعد تردّد من الفتى لم يدم كثيراً، فعل الفتى فعلته، ولطم أباه بين الناس، استغرب الناس الموقف، وهرب الرّجل من مواجهة الناس واختفى لبعض الوقت، سمع الناس بنية الرّجل في بيع أراضيها، وهي من أفضل الأراضي، أمّا السبب الذي انتشر، أنّ الرّجل أقسم بالألّا يعيش في بلد تعرف أنّ أصغر أبنائه لطمه على وجهه، صمّم على الرّحيل من هذا البلد، تنافس الناس على الشراء، وارتفع سعر الأرض، وتكسّب الرّجل من ورائها الكثير، أخذ أسرته، وهرب، واشترى، واستقرّ في الجزيرة العربيّة، بعدها

بفترة انهار سدّ مأرب، وضاعت كلّ الأراضي، ولكنّ من الذي كسب؟... من كان أكثر هدوءًا وحسابًا، كانت ردود الأفعال متباينة غريبة، فهاجمه "برهان"، وقذفه بأنّ تلك أفكار الانتهازين، وأنّها نفس أفكار الرّجل الأوروبي والأمريكّي التي يغطّيها أحيانًا برداء الإنسانيّة، كم ضاقت السيّدة "لافويت" من "برهان"! والغريب أنّها تعشقه، تخافه رغم أنّه لا يملك من حطام الدُّنيا شيئًا، تستطيع أن تسجنه في أيّ وقتٍ تشاء، ولكنها بعيدًا عن كلّ شيءٍ تعشقه، ناورت، ووافقت على كلام "برهان" ما عدا الجزء الخاصّ بالأوروبيين والأمريكيين، وإنّ المطلوب أن ينجو هو وكلّ البشر، أيّا كانوا حتّى لو لم يكونوا من عشيرته أو أهله، دار "حمدي عبد الوارث" في حديثٍ خاصّ، فتذكّر سيّدنا نوحًا - عليه السّلام - وكأنّه يسأل: هل وفقًا لما ندّعيه، فنقول كان من المفروض أن يأخذ كلّ البشر وينجّهم من الغرق؟! أين هي إرادة الله ومشيئته، هل نحن نبشّر بدينٍ مغاير لما وضعه الله سبحانه وتعالى، العنيد يحسّ بالضّجر من الأفاصيص والحكايات التي تتردّد، ينظر إلى زهرة فيذكر سكرهما من كأس العشق، يتذكّر اللحظة التي أذابا فقرهما وبؤسهما في شهد رضابهما، وانفصلا عن كلّ ما حولهما، فكان يمسح بيده في حنوٍّ بالغ على جراح كرامتها المهذرة، ولم ينسّ وهي ترفع عنه ملامح الضّيق والألم من الدُّنيا كلّها، فيطوف في ذاكرتهما معًا، سارحًا غير مهتمّ بما يدور، وكأنّه فاق من غفوة، فكان صوت زهرة يشارك في الحديث، فقالت زهرة: سمعت من زمنٍ طال من أعظم سيّدة في الدُّنيا، وأشارت إلى "مس لافويت"... أنّ الحبّ لا دينَ ولا وطنَ له... صَفَّقَ أغلبهم لها، وزادت حدة تصفيق العنيد، وتحدّثت "لولا" عن تجربتها التي أثارها، ممن أسموهم "عبدة الشيطان"، فقالت عنهم إنّ أغلبهم شباب يسعى للحرّيّة بعيدًا عن أغلال العادات والتقاليد،

فلا فواصل بينهم ولا حواجز تعيق حرّيتهم في كلّ شيء، وعندما سألوها عمّا أبعدها عنهم، بلا تردّد أجابت: فكرة الحرّية المطلقة في كلّ شيء، وخاصّة العلاقات الجنسيّة، أحسّ حمدي برعشة في جسده، وهي تقصّ، كلُّ يدور في فلك أفكار الصّراحة المطلقة وفقاً لرؤى المؤسّسة التي يتّمنون إليها، مؤمنون بأنّ حلّ المشاكل لا يقوم إلّا بالمواجهة، والبداية الصّحيحة أن نكون صرحاء مع أنفسنا أولاً، ثمّ مع من حولنا، وتواصل قائلة: رغم أنّ مؤسّستنا بما فيها من آفاق رحبة، أيّ قارئ أو مفكّر يلاحظ مدى التقارب الفعليّ بيننا وبين أفكار الماسونيّة العالميّة، فالحرّية والإخاء والمساواة نفس المنظومة التي نسعى لترسيخها، فهل نحن مثلهم؟ أم أنّ أفكارنا تجتمع وأفكارهم في بوتقة واحدة؟ أيّهما أفضل لنا؟ وصفت ملامح ليالي المرح التي كانوا يقضونها في أطراف المدن، وخاصّة في الأماكن المهجورة والبعيدة عن العمران، القربان المقدّم من جسد إحداهنّ فوق مذبح يصنعونه، الممارسات الجنسيّة بلا رقيب وبلا حدود، ومرجعيّة ذلك لمن، جماعات مختلفة منها جماعات دينيّة، تقنّعت بالدين في أفكارها، فيقاطع العنيد وهو يمتصّ لعبه، واصفًا هذه الجماعات: يا جماعة جواز إيه وعيال وبلا أزرق، أحسن حاجة في الدّنيا الجماعة اليهود فاتحينها على البحري، واللي نفسه في حاجة يعملها، تغيّر وجه السيّدة، وقاطعته، ولكنّ بدت بعض ملامح كلماتها تعنّفه، فأشارت لحقّ اليهود في الحياة، وأسرعّت تصف أمانيهم جميعًا في السّلام، في الحبّ بين البشر، لم يصمّت "برهان"، فقد راح يصف الماسونيّة بصفات جميلة وآفاق رحبة، ولا يفكّرون في التّفرقة وأنّ أغرب ما قرأه، أنّ محافل الماسون المتنوّعة في أمريكا أخذت أسماء، فمنها ما يحمل محفل "أورشليم"، وبجواره مباشرة محفل "مكّة"، وبالقرب منها محفل يُسمّى محفل "المدينة"، ورغم سرّيّة بعض

المعتقدات إلا أن المرجعية لذلك، إنه لا يقول الحقيقة كذباً وخداعاً، فإنه لا
 يستبعد الخوف على الحقيقة من اضطهاد الجاهلين، أما الإعلامي فقد أقسم
 أن كثيرين من أئمة الفكر والثقافة في كل البلاد العربية ينتمون للماسونية،
 فالمحافل الماسونية منتشرة في كل أنحاء الوطن العربي، بل إنها ليست وليدة
 اليوم، ففي مصر على سبيل المثال، منذ أيام الأفغاني ومن بعده الإمام محمد
 عبده، وكلاهما كان عضواً في المحفل الماسوني، وبدا حديث "برهان" مشفقاً
 على اليهود وما نالوه من عذابات في مختلف العصور، ثم تحوّل في حديثه، وهو
 يرجوهم أن يدققوا في كلماته، فدائماً، وكعادته يبدأ حوارَه بسؤال مطروح،
 كم عدد يهود العالم اليوم؟ كان "حمدي" ينصت إليه باهتمام بالغ، وعلى
 الفور أجابه بأن العدد يتراوح ما بين العشرين والثلاثة وعشرين مليون
 إنسان، فعاد "برهان" يشرح ما يمتلكه اليهود من أموال، وأنهم يستطيعون
 أن يشتروا أي شيء وبأي ثمن في سبيل تحقيق مآربهم، يدركون أن أصحاب
 الديانات الأخرى يكرهونهم نتيجة أفعالهم، فكيف يسيطرون وسيطرون
 أفكارهم، يركبون موجات التغيير التي تعصف بالعالم بين وقت وآخر،
 فالماسونية بأفكارها كما سلف ذكره، دعوة للإخاء والمساواة والحرية، وهم
 يفتقدون هذه الأشياء حتى بين أنفسهم، فيمولون هذه الأفكار، ويسعون
 لنشرها ليس حباً في هذه المبادئ، لكن أملاً أن تنقض كل الديانات بفعل
 أيديهم، ليعادي كل دين المخالف له، إن لم يكن سوى دين واحد في البلد،
 لتكن طوائف... كل يكفر الآخر، في النهاية يشعرون بأنهم الأقوى،
 وللأسف تضيع أمانيتهم دوماً، فأعدادهم القليلة تدفعهم لفعل أي شيء،
 ويصف حالتهم بأن هذا وضع إنساني طبيعي يتولد داخل البشر، الخوف أولاً
 وثانياً وثالثاً، فهم مغتربون بلا وطن وحتى فلسطين يعرفون أنها ليست وطناً

لهم، ولن يكون، لم تتحمّل السيّدة أكثر من هذا، علا صوتها قسراً عنها، مطالباً بأنّ مؤسستنا لا تضع في حساباتها الموضوعات السياسيّة نصب عينها، كما تبعد الأفكار الدينيّة المتطرّفة، فالدّعوة التي ندعو بها لكلّ الإنسانيّة، نساعد الفقراء والمحتاجين، ونحاول أن نشارك البشر في مآسيهم، ودعّمها في كلماتها "الناشر"، وما لبثوا جميعاً أن اصطفّوا تحت فكرة "الإنسانيّة أوّلاً وقبل كلّ شيء"، يضحك "أبو عنيد" ويقول: "عارفين يا بهوات، أنا عمري ما دخلت مكان زيّ المكان ده، ساعات بحسّ إنّي مُت، ودخلت الجنّة، القيامة قامتُ واتحاسبنا، عارفين إنتم من كلامكم وحكاويكم أتأكدت إنكم ما تعرفوش الدُّنيا، دنيتكم غريبة عن الدُّنيا اللي عايشها الغلابة، غير دنيتنا، النَّاس الغلابة اللي ماده إيديها، لو لقيت لقمة ممكن ما تلاقيش الغموس، أنا في آخر ميعاد للغدا شافت عنياً، كمّيّة أكل بتترمي في الزبالة تكفّي بلد"، تبادلوا الكلمات، فذهبت كلّ الأفكار بوجوب الثّورة على القهر والفقير والظلم، أمّا "برهان"، فقال بعد ضحكة طويلة، وهو يشعل سيجارته:

— الثّورة تمثال، النَّاس النَّهارده بترفعه، واحتمال كبير بكره ينصبّوا تمثال

غيره.

وبصورة غريبة وكلمات متدفّقة سريعة هتف "العنيد":

— أنا عن نفسي عايز الدُّنيا كلّها من حوليّاً تولع... والنَّاس كلّها تتكوي

بالنّار، انتم مش من النَّاس... انتم برّه دايرة ناس بلدنا، بتأنّ ردّ عليه حمدي:

— طوفان زيّ طوفان سيّدنا نوح عليه السّلام... يضحك الإعلاميّ قائلاً:

— صح... إمّا الحقّ وإمّا الغرق، فاضوا في الحديث، زخرفوا أمانهم

بأفكار الحرّيّة والحياة الكريمة، فقال أحدهم بأنّ الله سبحانه وتعالى استبدل

الطوفان بمزيدٍ من الرُّسل، وكلُّ الرُّسل دعوا البشر للخير والحبِّ والسَّلام، وجابهه آخرٌ بأنَّ البشر فسَّروا أفكار الرُّسل بما يشتهون، فأخر الرُّسل مضى على وجوده ما يقارب ألف وخمسمائة عام، فلا بد من طوفان جديد، اجتمع أغلبهم على أنَّ الثَّورة حاجة بشريَّة ملحة، فالشَّيطان طوال عمره يلعب داخل عقول البشر، وعليهم أن يكونوا نائمين، ضحكوا جميعاً، وطالبوا بالنَّوم، أمَّا العنيد فقد أقسم بأنَّه حرام أن ينام الإنسان في الجنَّة، فعليه أن يمتَّع عينيه بها في كلِّ لحظة، لكن النَّوم سلطان، وندب حظُّه على النَّوم، وكأنَّ "الإعلاميَّ" ينتظر أن يفرغ من حديثه، فقد أخذ يعدد في جمال المكان ومجموعة المستثمرين الذين أقاموه، وأنَّه كتب عنهم، وأجرى حوارات معهم، وبإشارة خبيثة، أشار أنَّه كان مفروضاً الدُّخول للمدينة وفق شروط معيَّنة، فأَيُّ إنسانٍ ليس له الحقُّ في الدُّخول، ووصف بأنَّه ليس عيباً أن يتمَّ إجراء كشفٍ وقائيٍّ لكلِّ داخلٍ حفاظاً على حياة الرِّوَّاد، وليس من العيب أن يتمَّ حقن الزَّوَّار بمضادَّاتٍ وقائيَّة... أدرك العنيد أنَّ حوارَه يعنيه وبلا تردُّد.

— يا أستاذ، احنا بنخطف ونجري، الموت ما يفرقش كثير عن الحياة، وبيقولوا الموت راحة كمان، لو عجبتي حاجة هاخطفها غصب عن عينك... وراح في ضحكٍ شديد... ما تخدش على خاطرِك منِّي يا أستاذ، أنت تعرف حاجة عن حياة الحيوانات، وبالذَّات حياة القطط والكلاب.

— قصدك إيه؟

— يا أخي مجرد سؤال، جاوب بنعم أو بلا.

— لأ.

— احنا زي القطط والكلاب، ترمي لنا الحاجة برضا نفس، نتفرص ونقعد ناكلها وتتهزَّ ذبولنا ونتمسَّح في أسيادنا، وساعات غصب عنَّا

نخطف، نخطف من الجوع والظروف الي حرمانا، لازم تعرف إن الي يخطف لازم يجري، احنا لازم نخطف ونجري، هي دي الحقيقة، وحياتنا من غير كذب ولا لف ولا دوران، كلّ أمنيتنا في الدُّنيا نعيش، البركة في السّت الكبيرة أحييت جَوّانا فكرة الحياة، أغلب أسيادنا في البلد واطيين، وانت تعرف أكثر مِنّا، قاطعه بحدّة:

— قصدك إيه من كلامك؟ طالبه "برهان" بالهدوء وهو يقول:

— هو كان صريح معاك، قال لك الحقيقة، أضاف وهو بيتسم... موضوع القطط والكلاب غير متوقّف على فقراء ومحتاجين، لازم تعرف إنّ أكبر رُءوس البلد بتعمل نفس العمليّة، وكلّ ديولهم بتلعب وتنكش في الأرض، وتتمسّح، وكلّه بيضحك على كلّه، ومنهم الي يخطف ويجري، ومنهم ينتظر ما يجود به عليه سيّده، نظر للإعلامي، وضغط حروف كلماته... المفروض تشكره، وتشدّ على إيده، وإنّ قال إنّك تعرفهم، طبعا أنت رجل إعلامي كبير، ولك اسمك رغم كلّ ما حصل لك، لا أحد يستطيع أن ينكر دورك، طبعا عارف الناس المستثمرين اشتروا الأرض، وبنوا عليها، أظنّ دفعوا في المتر يومها قروش، فيه ناس كانت بتفرد لهم في في الجرايد وفي التليفزيون مساحات ومساحات، وكان كلّه بيسمر لحساب روحه، فيه قبضوا فلوس وفيه خدوا أراضي، هاج وماج الإعلامي ووصف "برهان" بأنّه يردّد مزاعم آخرين، وأبدى "برهان" اعتذاره معلّلا بأنّه كان يتمنّى أن ينهي هذه الحوارات التّافهة، وفي لفته معتادة منه:

— من حواراتنا الفاتئة مطلوب أن يفتحوا لنا وبنا حديقة حيوانات بشريّة، وقف وأكمل... كثيرون منّا يتأمّلون أنفسهم بلباس مغاير لمبسهم أمام المرآة، ويتمنّون، فالرّوح في صندوق الجسد مأسورة، والنفس تأمر

وتنهى، والجسد لا يشبع ويتمنى المزيد والمزيد، علينا أن نتعزى جميعاً...
صَفَّقَ العنيد...

— الله عليك يا الدكتور... حلو والنبي حلو... أشار عليه بالصمت
وأكمل...

— تعالوا نخلع عن أجسادنا ملابسنا، لتتخيّل أننا في الجنّة ولتوّنا خُلِقْنَا،
لننسى الأرض وما عليها وما فيها، لننعم بنعيم الجنّة، طبعاً ما أقوله مستحيل،
ولن يحدث يوماً، أقلّ الأشياء نخلع الكذب والنفاق، نرتدي لباس الحكمة
والعقل، نتريّث، ولا ننفعل، ولا نتهور، ونبعد عن فكرة "الأنا" التي
تتملّكنا، مجرد محاولة، فالشباب ثورة، ولكن كيف يقدر عمر الشباب؟ كما
ترون تجاعيد بدت في الظهور على وجهي، والشيب غزا ما تبقى من شعر
فوق رأسي، أحسّ كثيراً بأنني أكثر شباباً من الشباب أنفسهم، لقد وهب الله
إبليس الحياة، رغم أنه خالفه وهو القادر على كل شيء، ويعلم مقدار وقدر
الله، فقد أقسم وقال ﴿وَبِعِزَّتِكَ﴾، هل نستطيع أن نخرج إبليس من
أجسادنا، هل نستطيع أن يرتد عن فعلته ويكفر عن سيئاته ويسجد، ضحك
بشدة وأشعل سيجارة، ستمضي الدنيا وسيترع إبليس، وسيقود العالم
للنهاية، والحق هو الله يعلم كل شيء، ولكنّه وهبنا العقل فأغفلنا فكرة الحق،
فحق علينا ما يحدث، جلس وصمت، وجميعهم صمتوا من بعده، فكلُّ يفكر
بصورة مغايرة عن الآخر، تقطع السيّدة الصمت: هل يمكن أن نولد من
جديد؟ هل يمكننا أن نصنع دنيانا من جديد وفق رؤيتنا؟ في صوت يفتقد
الكثير من شجاعته السابقة يردّ حمدي: إنّ التمرّد على الحياة هو سرّ الحياة،
فتمرّد وغير، فقد بدأت الحياة يوم خرج آدم عن طوع ربّه، ولحظة أن تمرّد
إبليس عن أمر ربّه فتمرّدوا تعيشوا، وعادت السيّدة: علينا أن نجرّد إنسانيتنا

من أيّ تماسك عرقيّ أو طائفيّ... فكلّنا بشر... بشر وحسب، أمّا "برهان" فقد لبس رداء الحكمة، وفي هدوء راح يقول: على كلّ إنسان منّا أن يضع نفسه على الجانب الآخر من الحياة، فمثلاً إذا كنّا نمثّل طائفة تحارب طائفة أخرى، فإذا كنّا منتصرين، فبماذا نشعر؟ ولننقل أنفسنا على الجانب الآخر، فما أحاسيسنا ونحنُ منهزمون؟ من يجيد الحسابات ويدرك الأسباب والعلل، سيشقى غالباً، لكنّ كلّ ما هو مطلوب في أحوالنا المتردّية، وبدلاً من الانتقال من جانب لآخر، ألا نستطيع أن نبني جسراً، وتبادل الأماكن، ونسير في الاتجاهين المتضادين ونعبر نهر الحياة، نستمتع بالنسائم، نتبادل الأماكن والحياة، نقسم الطعام والشراب، فلن يعمّر أحدنا في الأرض كثيراً، لتأمل، لنفكر، ولنذكر عظمة القوى التي تسيرنا في الحياة، وعظمة الاختلاف المتباين بيننا، ويصفق "أنيس الروي" الذي أصبح من أكبر النّاشرين، وتهتزّ رأسه طرباً بكلمات "برهان"، ويردّد: مؤيد ومؤيد مائة في المائة، وأشارك في الرأى، وبموجب هذا علينا ألا نفتح كتب التّاريخ كثيراً، وعلينا ألا نقرأ عن ماضينا، فإنّها ذكريات ثقيلة مريرة، وعلينا أن نهيل عليها التّراب، فردّ الإعلامي: من ليس له ماضٍ لا حاضر له ولا مستقبل، علينا بالبكاء فالدموع كما يقولون تغسل العيون، خرجت زهرة التي لم تستوعب الكثير من الأحاديث الدّائرة قائلة: "ماضي ودموع إيه؟ احنا عايشين في الجنّة، ليه مصممين إن كلّ واحد منّا يسحب منديل ويكي وينوح، غيروا الموضوع، حرام"، بخبثٍ سألها الروي: لماذا تخافين من الماضي؟ بتلقائيّة وهي تضحك: شوف يا أستاذ أنا صاغ سليم، وغمزت بعينها للعنيد، وعادت تكمل للروبي، فيه مشروع في راسك، قول وما تتكسفش، ضحكوا ودار الحديث ثنائياً غالباً.

تجلس "مس لافويت" غالباً بمفردها مع كلّ خلية على حدة، وقليلًا ما تعطي الدكتور "برهان" الحق في التواجد معها، تسمع وتنقّب وتخطّط وتكتب وترسل وتنتظر مشورة، أحيانًا وكثيرًا ما تكون صاحبة القرار، تحسّ بأنّ الثورة كلّ يوم تتأجج وتزيد، تستشعر في كلّ الخلايا أنّ أعضاءها متحمّسون لفعل التغيير بأيّ صورة، تتعدّد اللقاءات، وهذا بخلاف جلسات يشرف عليها أساتذة في علم الاجتماع وعلم النفس، يتوجّون أحاديثهم بأفكار الغد، ويتربّع فوق محاضراتهم حقّ الإنسان في الحياة الكريمة، البعض يشير إلى أنّ المدينة الجديدة، وما تزخر به من جمال، ملك خاصّ بها، لكنّ هلّ من حقّ الأجانب التملّك؟ قالوا إنّ قانون الاستثمار الموقع قبل فترة يجيز، فالمدينة تحت إمرتها دائماً، فجميع الخلايا المتوافدة والمقيمة في استضافتها، أمّا الأيام القادمة، فمحجوزة لنوعية مختلفة عن المتواجدين اليوم، فالقادمون أعضاء جمعيات أهلية ونقابية نشطة، في هذه الحالة تختلف المحاضرات وموضوعاتها وأفكارها، أهمّ شيء أنّ السيّدة تحتشم في ملابسها، فلا تبدو كما الآن، فالتبرّج ونصف الثدي الخارج المتبرّم بسجن الملابس لا وجود له، حتّى فتياتها وكأتهنّ يلتزمن وفقاً للقواعد الموضوعة سلفاً، فكما قالوا لكلّ مقام مقال، وليست هذه هي المرّة الأولى، فقد سبق واستضافت المدينة مجموعة من رجال الدين، كما استضافت مسبقاً بعضاً من أفراد الجمعيات في زيارات سياحية، هكذا تتغيّر الدنيا في نطاق الفندق أو الجزء المخصّص للضيوف، لكنّ إذا رغب الضيوف في التّجول والتننّه في مختلف أجزاء المدينة الجديدة، فلا حرج، وليس عيباً، بل ويمكنهم ممارسة ما يشتهون، حتّى لو طلبوا أن يدخلوا صالات القمار، هي ومن يتبعونها يعلمون أنّهم سيفعلون، ولكنّ أغلبهم سيحاول بعيداً عن العيون.

obeikandi.com

الفصل الرابع عشر

رَبِيعٌ مَّتَقِدٌ وَخَرِيفٌ غَاضِبٌ

أمام مزاجه شبه المتقلب والمتذبذب، وما يعكس تردده الدائم طوال عمره، لا يأخذ قرارًا واحدًا بمحض إرادته، فتارة مع الحياة وكثيرًا ضدّها وناقمًا على كلّ ما فيها، موازين تضاربت وأفكار تشتت وأماني لا تستقيم على حال، أبناء طوال حياته يلهث خلف متطلّباتهم، يأخذه الهوس بتأمين مستقبلهم وغدهم، ينسى نفسه وتشريح أعضاء جسده، وتنقّض السُّنون عليه، وخاصّة في وحدته، هم كالنبت الجديد يسعون للنّضج وحصاد ثمار الشّباب، لا لوم عليهم، فهكذا كانت آفاقهم وآرهم فماذا يتبقّى له سوى الصّمت، يحاول أن يهدد نفسه ويخلق الأعذار لبنيه، فكّل ما فعله كان واجبًا تفرضه كلّ الشرائع والقوانين، وعليه ألاّ ينتظر منهم شكرًا وامتنانًا، يهدأ ويحاول أن يروّض نفسه بأنّ عليه أن يتمتّع بالجمال الرّائع الذي يحظف الأبصار في كلّ المواقع، عليه أن يتمتّع بالبحر والطّبيعة والبشر، يدفع نفسه دفعًا، دعها تمضي، ولكنّ عليك أن تعيش ما بقي لك من العمر، لقد دفعت مبلغًا كبيرًا لم تخيّل له لقاء قضاء ليلتين في هذا المكان، لم تشعر ساعتها بأيّ ضيق، ولكنك كنت سعيدًا وأنت تدفع، فلتستكمل سعادتك وعش كما شاء

لك، أنت تمتلك من الأموال ما يكفل لك حياة طيبة حتى يأتي أمر الله وتفارق الدنيا، عشنا ولا تبخل على نفسك وحياتك، كل ما تملكه جمعه بالعمل وما ورثته يوماً ولم تفصح به لأحد، عش وفق هواك، يهدأ، منذ وطأت قدماه أرض المدينة الجديدة، وعلى مشارفها أحسّ بالدنيا الجديدة حوله، تنسم بعرق وأكل باستمتاع وتأمل في شوقٍ وتراخ فوق مخدعه مستريحاً، حاول أن يلقي بأفكاره الغاضبة بعيداً ونجح إلى حدٍّ ما، أغلق كل أنوار الشّاليه وأمام الشّرفة استلقى في مقعد يشبه كثيراً مقاعد البحر، تأمل السّتائر الخفيفة من السّحاب التي تحجب وجه القمر، يدفعها هواء الليل الرّقراق برقة فتفسح المجال لوجه القمر بالظهور، وتعود ستائر السّحب من جديد وكأنّها تداعب عشاق القمر ومحبيه، حاول أن يتذكّر منذ متى لم يرَ وجه القمر، إنّها المدينة الكبيرة ونورها الغالب على معالم الحياة كلّها، يتوه في جمالٍ واع بما حوله، يتوه في أمانيّاته التي بعثها الضّوء القمريّ في ثنايا روحه، مهما كانت الرّياح معاكسة لرحلتي لن أستسلم، لن أترك نفسي مقيّداً بسلاسل منتظراً للموت، أهلاً بالموت فهو حقّ! ولم أفعل ما يخرجني عن شرع الله، لكنّ بيدي أن أغيّر موضع شرع المركب ولأسير وفق رغبتني وليس وفق ما تشتهيهِ الرّياح، لن ألقى باللوم على أولادي، فكم نخاف أن ننقل عدوى الآمنا لأولادنا! كم نتمنّى أن يعيشوا في سعادة! فديناهم تختلف عن ديانا وزمانهم غير زماننا، فكلُّ يفكّر في نفسه، لهم أفكارهم الجديدة المستحدثة، ربّما إذا فتّشنا في قلوبهم سنجد آلاماً كثيرة وغريبة عنّا وعن حياتنا، فما هو السّلام؟ علينا أن نحقّق السّلام، وأيّ سلام بين المتحاربين والأعداء!!! بداية السّلام الإنسان بذاته وبنفسه وبكيانه ووجدانه، هل نهاية الحروب بين الأعداء هي السّلام، ستشتعل الحرب من جديد بأقلّ فتنة ممكنة وسيتبارى كلُّ البشر في إنهاء حياة

الأخر، علينا في البداية أن ننهي الحرب التي تدور رحاها داخل عقولنا وكثيرًا داخل قلوبنا، فعلينا أن نمارس النسيان في الحياة، علينا أن نلقي بالكثير من الهموم في بحر الحياة، حتى نستطيع مراكبنا أن تسير وتبحر وتصل لبرِّ أمانها ومرفأها الأخير... الموت...

يضحك وهو يردّد كلمة الموت، دائمًا الموت يتتبع خطانا وأفكارنا، لا لم يأتِ الموعد بعد، تمنيت أن أغسل قلبي وجسدي تحت المطر ولكن بلادنا بلا مطر حقيقي، وكلُّ بلادنا في أمسّ الحاجة أن تغتسل في فيضان من المياه، فكثير منّا جنب ومنتظر التّطهّر ولكن متى؟!... ها أنا اليوم، البحر أمامي بامتداده اللانهائي، وحمّات سباحة منه المصنوع خصيصًا للأطفال ربّما ليتطهّروا من جنابة أهليهم، حمّات سباحة بلا عدد، وكما قالوا السّباحة في بحور العشق غسيل للقلوب، أظنّ هذه المدينة كلّها هوى وعشقًا للحياة، وما دُمنّا لا نستطيع أن نصنع ونزرع الرّيش في أجسادنا، ولن نستطيع أن نحلق في السّماء بحرّيّة وكما تشتهي أمانينا وأحلامنا، سنظلّ الأرض تجذبنا لتدفننا في بطنها رغم أنّها أمتنا، منها وإليها، طوال عمري أسمى لأنال حرّيتي، كنتُ أعرف منذُ أمدٍ طويلٍ أنّ الحرّيّة وهي فقط دواء لعلّتي وهمّي، لكنّ الخوف جعلني أسير العادات والتقاليد، أحسّ بأنني ولدت مصفّدًا بالأغلال وقيود الاستعباد لم تفارقني منذُ ولادتي، فلم تقطع القابلة القيود فتشابهت عليها والحبل السّريّ فقطعت الحبل السّريّ وخافت بدورها أن تقطع القيود، ظللتُ أسيرًا، الاستعبادُ ليس جديدًا علينا، فاستعباد أبي لأمي وجدّي لجدّي، وعلى المستوى العام العمدة في قريته، والرئيس والملك كلّهم يمارسون سطوتهم وحقّهم، أكثر من يستعبد البشر اليوم رجل الدّين الذي يتفنّن في إخضاع وإذلال من يتبعونه، كثيرًا يلعب بعقولهم وفق رؤيته وآفاقه،

من يوم أن ظنَّ أنَّه شريك الله في ملكوته، نسي أنَّ الغد قادمٌ إليه بالموت، فالجبروت والدَّوام لخالق الكون ومسير الدُّنيا، هو الواحد الأحد وعلى كلِّ البشر الدَّلَّ والخضوع إليه فحسب دون سواه، يخضع له كلُّ مَنْ في الكون من أنبياء ورسل وأولياء وبشر وحتى أقلِّ دابةٍ تمشي فوق الأرض، الماء يطهِّر البدن، وأممي الماء فعليًّا بالنَّوم فيه، لكنَّ الإسلام لم يطالبنا بالموت أو أن نعيش كالأموات قبل أن يأتينا، كثيرون يرفعون راية الإسلام يجرِّمون ما أحلَّ الله، والمصيبة أنَّ أغلبهم للجهل أقرب، تعود ذاكرته وكما ذكر عن سيِّدنا عمر - رضي الله عنه - أنَّه قال لزياد: هل تدري ما يهدم الإسلام؟ زلَّة عالم وجدال منافق بالقرآن وأئمَّة مضلّون... يراجع نفسه في كلماته، هل كلَّ ما يذهب إليه مجرَّد حالة يريد منها إثبات أنَّه مظلوم، هل يلتمس لنفسه الأعذار فيما هو مقدم عليه، أم أنَّه الحقُّ، يحاول أن يزن الأمور بميزان صدق مع نفسه، دائماً تربح وتكسب مطالبه فليس فيها أيُّ خروج، ولكنَّ جميع مَنْ حوله مخطئون، ويسأل، هل تحبو نيران عشقك الخريفي؟ هل مجرَّد رغبة ومخلفات لمشاعر كانت قديماً؟ هل تحيا وفق هواك فيذهب عنك محبوك؟ ولماذا لا يشعرون بي ومطالبي وأمنياتي؟ أغلقوا باب عواطفهم على احتياجاتهم فحسب، مطلوب أن يطلقوا علينا النيران مثل خيل الحكومة عندما لا تصلح لشيء، وأحياناً يجعلونها طعاماً لحيوانات الغابة.

أشياء وحوادث تعصف بفكره، فيشرد ويكاد يقترب من إلقاء كلِّ الأفكار في سلَّة المهمَّلات، علام كلِّ هذا؟ هو صاحب القرار في كلِّ ما يدور، ويأخذ من حديث الرِّسول ﷺ قِدوة، فيتذكَّر منه: "فَأَسْتَمْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتُوكَ"، آه وألف آه لو اقتصر الألم على ألم الجسد فاستطيع مداواته بأيِّ مخدِّر طبيعيٍّ أو غير طبيعيٍّ، أمَّا ألم النَّفس فكيف؟! وألم الرُّوح فما أقساه!!!

يدور في أرجاء المدينة، حياة لم يعرفها، ولم يشاهدها يوماً، لم تطأ قدماه يوماً مكاناً بهذا الجمال، يتمنى عدم النوم حتى لا تفوته لحظة متعة مما يراه حوله، لكن الأفكار تناوشه فيلقي بها جنباً، فيتأمل جمالاً أبدعته يد الإنسان، فالبحر واليخوت ثابتة ومتحرّكة، سباقات متنوّعة فوق سطح الماء، وراء اللنشات الصّغيرة السّريعة، أو ركوب الأمواج في ساعات هياج البحر، أو سباقات القوارب الشراعية الحديثة، الجميع يتفنّنون في إخراج كل طاقاتهم في متعة غوص أو سباحة أو حتى رقص تحت مُسمّى الرياضة، ينظر إليهم وعددٌ ليس قليلاً يفوقه سنّاً يشارك ويستمتع، الكلّ أولاد وبنات كبار وصغار، عرب وأجانب أو مصريون، خليطٌ غير متجانس، همُّهم الوحيد المتعة وحسب، في البداية يحسّهم وكأَنهم من كوكب آخر، عندما تقترب المسافات ويستمتع للحوارات والضّحكات، مجرد حنينه لمعرفة ما يدور فينصت ويلقي بأذنيه مستمعاً غير متجنّس، وهو غير معتاد على تلك العادة السيّئة، الأحاديث الدائرة ليس فيها شيء غريب وخاصّة من المصريين، قليلٌ من الخروج عن النّص المعتاد في الحياة اليوميّة، وهذا أصبح معتاداً اليوم حتى من خلال الأجهزة الإعلاميّة، فهو يسمع الكلام نفسه في الأسواق والشوارع ومختلف الأماكن، هم بشر يتناولون حياتهم كما شاءوا، ابتسم وعليه أن يتصفّح صفحة أخرى من صفحات المدينة الجديدة.

دعك عينيه، أعاد النّظر من جديد، سماح ابنة حبيبة!!! هنا في هذا المكان، مستحيل... مجرد تشابه في الأشكال، ألا يقولون يخلق من الشّبّه أربعين؟! فهذه واحدة منهنّ، اعتدل على كرسي البحر، ونظر ثانية أمامه متأملاً، مجموعة من الفتيات في مرحلة عمريّة متقاربة، يتصاحكن بصوت عالٍ، ضحكاتهنّ مثيرة أو ربّما صاغها هو بذلك نظراً لسنّه والتّفاوت العمريّ

بينهنّ، يلعبنّ، يهرولنّ، يقذفن بأنفسهنّ في الماء ويعدن من جديد، يلحق بهنّ مجموعة من الشّباب، ينقسمون لمجموعتين وفريقيين، كلٌّ على جانبٍ من شبكة منصوبة فوق الرّمال على الشّاطئ أمام عينيه مباشرة، يلعبون، ترتفع أيديهم وترتفع أصواتهم في مرح شبابيّ يفتقده، أو ربّما لم يعيشه يوماً على هذه الصّورة، يقع أحدهم أو إحداهنّ فوق الرّمال بلا ألم ولكن ضحكات فحسب، أشار على الفتى القائم بالخدمة وهو يمرّ من أمامه، طلب منه أن يأتيه بزجاجة من الماء المثلج وبسرعة، لم يتأخّر الفتى شرب كالظّمآن في الصّحراء، ألقى ببعض الماء المثلج على وجهه، ركّز بصره أكثر، كانت رحمة السّماء به كبيرة، جاءت تجري خلف الكُرّة فاقتربت أكثر، تقابلت عيونهما وأحسّ برعشة تأخذ جسده، ماتت الكلمات فوق شفّتيه، تجرّع الماء ثانية وكأنّ حلقة قد جفّ ولسانه قد تسمّر، يكاد يجزم بأنّها هي سماح بنت حبيبة، لكنّ لم تأت الجرأة للحديث أو السّؤال، أمّا هي فكأنّها لا تعرفه، فلو كانت تعرفه لنظرت إليه ثانية، لكنّها عادت لممارسة اللعب دون التفاتة منها إليه، ينتظر ربّما تنظر إليه، ربّما ما زالت غاضبة منه منذ لقائهما وتأخذها ثورة الشّباب وعزّة النّفس، في هذه الحالة لن تسلّم عليه، وحتىّ إنّ كانت غاضبة، يقيناً كانت سترشقه بنظرات نارية كلّها غضبٌ وضيقٌ وتذمّر، تلعب... ترح... لا تهتم، تصرخ تارة، تضحك تارة أخرى، تصطدم بالفتى... يتلامسان، ويخرج من جسديهما ما يشبه الشّراة، هكذا يتخيّل، تقع فوق الرّمال ومن جديد يساعدها آخر ضاحكين، لم يهتم كثيراً بلباسها البحريّ ذي القطعتين بلونه الأحمر النّاريّ، يتأمّل الشّباب فتية وفتيات في لهوهم يقتربنّ ويصطدمنّ ويضحكنّ ولا شهقات عشق تخرج، اعتادوا ذلك غالباً، ينظر إليها من جديد، ليست هي، مؤكّد ليست هي، هل في سؤالها تناول

منه، يكاد ولكنَّ التردُّد عاداته المفضَّلة، يتراجع ويتحرَّك من مكانه؛ ليتأمَّل ساعة الغروب الجميلة، ينطلق ويمشي فوق اللسان للدَّاخل ويلقي بعث أفكاره وخيالاته في البحر، ينظر لكلِّ الغادين والرائحين، يتأمَّل جمال أجساد ووجوه، لكنْ ليس مثلها بلباسها الأحمر أيَّ واحدة تمرَّ به، سماح بلباسها المثير عشَّشت في ذاكرته وهو متيقِّظ، كم جسدها رائع! وسريعاً يستغفر الله العليَّ العظيم، ويتجاسر عقله ويعقد مقارنة بين جسدها وجسد أمِّها، ولكنْ مستحيل أن ترتدي حبيبة مثل هذه الملابس، هل كانت مثلها يومَ أن كانت في مثل سنِّها، هل أدارت رأس زوجها بجملها، تركَ أهله وزوجته وهي أيضاً فعلتْ مثله وهربا، هل حبيبة بمثل هذه الخلاعة في الضَّحكات، وكأنَّ داخله يصرخ مستحيل... مستحيل... حبيبة مثال لكلِّ الجمال الرِّزين الهادئ، حتَّى ضحكاتها وحديثها لا يخرجان عن إطار الأدب يوماً، لم تلتقط يوماً أذناه كلمة تشوّه سيرتها أو تصفها بوصفٍ لا يليق، كلُّ النَّاس يشيدون بها، هذه ليست ابنتها وربَّما أصاب عينه الرَّمد أو ضعف بصره، عليه أن يستعين بنظَّارة طبيَّة في المستقبل، حاول أن يقذف بكلِّ الأفكار من رأسه، فكيف لمثلها أن تأتي إلى هذا المكان، كم تكلفته؟

عازم أن يرى كلَّ ما تحتويه تلك المدينة، فهو ما زال قادراً على المشي لمسافاتٍ طويلة، فالمشي محبَّب إليه منذُ زمن، لم يدرِ إلَّا وهو أمام قاعة مفردة، قرأ على لوحة الإعلانات الخاصَّة بها "مؤتمر الشَّبَاب والحرِّيَّة"، وأسفلها مجموعة من الأسماء يسبق كلاً منها حرف الدَّال، وتحتها مجموعة من أسماء الشَّبَاب، فتيات وفتيان كأعضاء في جماعة التَّغيير والحرِّيَّة المنتشرة في أغلب الجامعات، تنحَّى جانباً ليفسح الطَّريق للدَّاخِلين فقد أذفَ موعد الجلسة، وكأنَّه يسأل هل رأس شعره الأبيض يحول دون دخوله، تأمَّل الدَّاخِلين

فأغلبهم من الشباب وإن استثنى بعضاً منهم، ولكن هؤلاء المسنين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، عزم على الدخول، فدخل بلا تردد، رغم أن القاعة ليست ضخمة، ولكن يتجاوز تعداد مقاعدها الوثيرة الخمسائة مقعد، كل القاعة وثيرة في أضوائها وتجهيزاتها الخاصة بالمؤتمرات، رائعة الجمال والتكوين في تناسقها، في المواجهة منصّة أمامية وخلفية طبيعية رائعة، كان الجلوس على المنصّة الأمامية أربعة أفراد، ثلاثة منهم يحملون درجة الدكتوراه وأوسطهم "مس لافويت"، أمّا مقدّم الحفل أو مؤتمر الليلة فبدا من ملامح صوته ضلوعه في اللغة العربية وقواعدها، فكانت مخرج ألفاظه لها وقعٌ موسيقيّ على الأذان، كان "حمدي عبد الوارث" قد اعتاد التقديم وإلقاء المحاضرات، واقترب من السيّد الكبيرة أكثر وأكثر، كلمته المشيدة بفكرة الحرّيّة، وكيف ارتبطت الحرّيّة بوجود الإنسان فوق سطح الأرض، فطرح أفكاراً عن الحرّيّة استقاها من الكتب والمراجع التي يهواها، ورجع يداوم عليها لتخدمه في مجال عمله، فأشاد بالقائمين على المؤسّسة والأفكار الجديدة، فالملامح الإنسانيّة لا تكتمل بدون الحرّيّة، والشباب هم الثورة واليوم والغد، وإليهم ومنهم وبهم يكون التّغيير، أشار إلى أنّ عدد المتواجدين اليوم هم صفوة الشباب من جامعات مصر ومعاهدها العلميّة، وقد يكون العدد في هذا المؤتمر قليلاً، ولكن هناك مؤتمرات واجتماعات ستُعقد قريباً وتباعاً، فنوّه أنّ عدد الأعضاء في جمعيتهم يقترب من الخمسة والخمسين ألفاً في مختلف الجامعات، أكثرهم ينتمون لجامعات العاصمة، وبعض الجامعات الأهليّة بدأت خطاها وتنظيم جلسات للتّسيق بين أعضائها، حدّد الكثير من الأهداف والأمني، لم يتوقّف النشاط على الجلسات والمؤتمرات في القاعات المغلقة، فكان هناك مسؤولون عن توثيق هذه الجلسات وإذاعتها من خلال

المنتديات الصَّغيرة ومراكز الشَّبَاب، كان لشبكات التَّواصل الاجتماعيِّ دور مهمَّ، فمجموعة من الشَّبَاب يجيدون صياغة الموضوعات الإلكترونيَّة وفتح الصَّفحات الجديدة، كما يرافقتهم في الكثير من أعمالهم مجموعة من الفنيين المخضرمين في أساسيات المونتاج والتَّركيب، وفريق أبحاث من شبَّاب وأساتذة جامعات يتولُّون الرُّدود، والأهمُّ هو إفساح المجال للاستماع لوجهات النَّظر الأخرى، وطرح المزيد من الأفكار التي تثري عمليَّة التَّغيير في سبيل الحرِّيَّة الحقيقيَّة، كانت كلماته قويَّة جميلة، أنهى كلمته وهتفوا... شبَّاب... حرِّيَّة... تغيير... ثلاث مرَّات متتاليات، غنوا بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، تابعت الأحاديث لجالسي المنصَّة، تباروا في استظهار الظلم الواقع على كلِّ البشر في البلد كلَّها، ندَّدوا بالعسف والجور وظلم الفقراء ومَن يعيشون تحت خطِّ الفقر.

خرجتُ سراح ووقفتُ أمام المنصَّة المفردة، تأكَّد وكادَ أنْ يقسمَ لنفسه بأنَّها سراح، وكأنَّها متدرِّبة من قبل فهي ثابتة في وقفها، هادئة وهي تقرأ موضوعها، أحسَّ وكأنَّ عينها مصوَّبَتان إليه دونَ كلِّ الموجودين في القاعة، حاول أنْ يغوصَ في مقعده، وأنْ يتعدَّ عن مرمى بصرها، تحدَّثت عن الشَّبَاب وعن الحرِّيَّة، عن التَّغيير القادم، شكرتُ وأثنتُ على المؤسَّسة التي ساهمت في عددٍ من المشروعات، منها ما هو داخل الجامعة، وخاصَّة المشروع الثقافيِّ، وكم المؤتمرات التي تمَّ عقدها، وناقشتُ بوضوح وحرِّيَّة بعضاً من المشاكل وليست كلَّها، ونوَّهتُ أنَّ هناك خطوطاً حمراءً لأبدٍ من اجتيازها، فدعتُ إلى تكاتف قوى الشَّبَاب من كلِّ الفئات، مطلبٌ واحدٌ، حرِّيَّة بلا حدود، تغيير في شتَّى المجالات، وحرِّيَّة الشَّبَاب فيما يؤمنون به، وخاصَّة المعتقد الدينيِّ، كانت صدمته غريبة وهو يستمع إلى مطلبها بالحرِّيَّة حتَّى

للخارجين عن الدين، أحسَّ برعشةٍ في جسده وتلمل في مجلسه، تسلَّت لممارسة بعض الشباب لطقوس خاصَّة في الأماكن القديمة أو خارج حدود المدن، وكيف أطلقوا عليهم عبدة الشيطان، فهذا حقُّهم وحرِّيتهم، أشارت إلى أنَّهم يخرجون الكبت والقهر هرباً من الجبروت والممارسات القمعيَّة التي يمارسها ضدهم المجتمع، فيسعون لإرضاء تفجَّرحهم بصرخاتٍ هي دعوات للحرِّيَّة، راحت تكيل الثناء للمؤسَّسة التي تساهم بدورٍ فعَّال في حركة التَّنوير للمجتمع، ومساعداتها لكثيرٍ من الطلاب المحتاجين، وعدم تفرقتها بين طالبٍ وطالبٍ بسبب دينٍ ومعتقد، فكلَّ البشر إخوة، وفي حماسٍ منقطع النَّظير هتفت للحرِّيَّة وللتَّغيير والشَّباب، ردَّدوا خلفها في قناعة تامَّة بأقوالها، صفَّقوا ثناءً على قدراتها في رصد الحوادث القائمة وخاصَّة التي يعاني منها الشَّباب، وكأنَّها الجيوش تيمش لطرد المستعمر الدَّخيل! مقارنة بينها وبين أمِّها الصَّامته الهادئة، لا، لا مجال للمقارنة، هل نسيت نفسها ومجتمعها الذي تعيش فيه؟ إنَّها تنتمي للطبقات الدُّنيا في المجتمع، أنا لا أنكر حقَّها في الحياة، لكن ما هذا؟ كلماتٌ حبلت بالمقاومة بصورٍ متعدِّدة، وتحت مسمَّى الجهاد في سبيل الله!!! يلقي بعضهم شاباً، فالجهاد دعوة للحرِّيَّة والمساواة والإخاء بين البشر، يلبسون كلَّ مطالبهم لباساً مصنوعاً وفق آماهم، الكلَّ يسعى ومنظومة تتم، خطط لغد وما بعد الغد، يعيد الكرَّة، ويفكِّر من جديد، فمَن يموِّل هذه المؤتمرات؟ هل هذه السيِّدة التي أشاروا إليها؟ وأطلقوا عليها اسم راعية الحرِّيَّة والتَّغيير في البلاد، شكلها ومظهرها لا يبدو عليها أنَّها مصريَّة، ربَّما مصريَّة ذات جنسيَّة مشتركة، ربَّما كان أحد أبويها مصريَّ الجنسيَّة، أغلب الحديث يبدو ثائراً ضدَّ السُّلطة في البلد، فأين أمن الدَّولة؟ هل يعلمون؟! إنَّهم يتفاخرون بأنَّهم يعرفون دقَّة النَّملة في أقصى أطراف البلاد،

هل تغيب عنهم هذه المؤتمرات؟ مستحيل، من المؤكّد واحتمال قائم أن يكون وراء هذا أصابع أمن الدولة، ربّما تتوازى ليستشعروا الأمان، فهذا سيّتح لهم معرفة من يجاهرون ومن يخرجون عن النظام، في هذه الحالة ستكون فرصة سانحة ليضعوا أيديهم عليهم، أم يتركونهم يفعلون ما يريدون ويتعقّبونهم في السرّ، هل ينفذون المواثيق الدّوليّة الخاصّة بحقوق الإنسان ويندفع كلّ منهم بالحديث؟ فيرصدون ويتعقّبون، ففي حديث السيّدة الكبيرة، تتوّج حديثها بأفكار الحرّيّة، الغريب أنّها وثقت كلماتها بأحاديث من الدّين الإسلاميّ والمسيحيّ، فرّقت بذلك بين الدّين والتّدئين، فلم تنس حقّ كلّ البشر أيّما كان دينهم أو معتقدتهم، حتّى لو كانوا بلا ديانة ساويّة، فحقّ الجميع الحياة، فالهواء ملك لكلّ البشر، لحظتها يتذكّر أنّ البشر صنعوا الغازات السّامة، وما زالت المصانع تعمل على إنتاج المزيد، ويقوم السّامسة بتسويقها، وقد تشتريها حكومات ودول، وربّما تقتل بها مواطنيها، يعود وينصت لحديثها الدائر وثورتها في سبيل البشريّة، وكأنّها تطرح سؤالاً... ألا يسع ملكوت الله كلّ البشر؟ فلماذا يتقاتلون؟ فالأولى أن ينعموا بما أنعم الله عليهم، ترسخ لمفاهيم رائعة في جوهرها، وتقول ثانية... كلّ من يفكّر أن يجرم إنساناً من الحياة لا يستحقّ الحياة، وتتابعت الكلمات وأجاد أصحاب الفخامة والثّقافة الرّفيعه في الكلمات.

استمع، وأحس، وكأنّ زلزالاً يهزّ الجدران حوله، صيحات ثوريّة وتصفيق شديد، شباب ثورة أم ثورة شباب، كلّ يؤجج فيهم الثّورة، يحفّزهم ويدفعهم، يستفزّهم، تناوبوا النّفخ في نيرانهم، أغلب الوجوه التي يراها حوله كانت من ساعات تلهو على شاطئ البحر، بلباس البحر، يتضحكن، يتقافزن، وفي صالات الطّعام يتخيرون ما يريدون وما يشتهون، فهل

يتحدّثون عن أنفسهم أم عن قوم غيرهم؟ وأمّا ما يتقاضاه أعضاء المنصّة فمن الأسرار الخاصّة بالمؤسّسة، في الاستراحة الأولى وفي القاعة الملحقة، أطعمة سريعة وخفيفة ومشروبات مثلجة ودافئة حسب الطّلب، الموائد مختلفة عن موائد الطّعام العاديّة، فهي أعلى بعض الشيء، وكأنّها تشبه ما هو موجود بالملاهي الليليّة، فمائدة مرتفعة وحولها عددٌ من المقاعد المرتفعة بدورها، حتّى يبدو الجالس عليها وكأنّه واقفٌ، على كلّ فردٍ أن يخدم نفسه بنفسه، لم يتردّد، فتناول كأساً من العصير وما لبث أن أعقبه بكأسٍ من الشّاي، جلس على إحدى تلك الموائد، يرشف وينظر حوله، ويتأمّل الوجوه، لحقّ بهائده نفسه أبو عنيد وزهرة، اكتفيا بهزّ رأسيهما تحيّةً له، لقد اعتادا الحياة الجديدة ولكنّهما لم يستطيعا أن يتحوّلا التّحوّل الكامل، تهامسا وتضحكا، لم يهتماً بوجوده أو ربّما اعتادا ذلك، فيتحدّثان وفقّ ما يروق لهما، وكأنّهما أدركا أن الجميع هنا كلّ في دنياه، يصف لها فتاة تتحدّث مع "لولو" بعبارات غزليّة غير عفيفة مطلقاً، تجبس ضحكاتهما وتضربه في صدره، يسألها كم يتمنّى أن يقضي معها ليلة! فتضحك وتسأله بلا حياء وتكون الليلة في المقابر بين الأموات، أم أنّ الحال تغير، تصف له أنّ كلّ البنات ومن تحدّثن عن الفقر والدّل، بأنهنّ جميعاً لا يعرفن شيئاً عن المحرومين من الحياة، لا يعرفن شيئاً عن سكّان العشش والعشوائيات، لا يعرفن موقع الحكر أين، لا يعرفن أنّ في الحجرة الواحدة تعيش أسرة كاملة، وأنّ الرّجل يأتي امرأته... والأولاد والبنات تحت السرير، والسرير يئنّ ويتوجّع مما يحدث فوقه وتحتة، فيبلغ الأولاد أو البنات قبل موعد البلوغ الطّبيعيّ، تقولها وهي تضحك بقوة، يجارها في الضّحك، وهو يصف ويتذكّر حياة المدافن، ولا سبيل آخر أمامه هو أو غيره، يضحك وهو يصف لها الطّعام الذي يتناولونه، ويعقد

مقارنةً بينه وبين أكالات الملجأ، ولا يجد مفراً من وصف كلّ الحضور مقسماً
أنهم كلهم كذابو زفة، تتصدى له وخاصة "مس لافويت"، كلُّ منها يذكر
السيدة بالخير، كلُّ منها يبدي أسفه على أموالها التي تدفعها في سبيل شباب
مثل هؤلاء، كان من الأولى أن يزيد عدد البيوت التي تُؤوي أطفال الشوارع،
أو تحتفظ بأموالهم، وكأنّهما يتساءلان عن مصدر رزقها الذي تنفق من خلاله،
كثيراً ما سألا هذا السؤال، ولكنّ الإجابة المعروفة أنّ هناك مساعدات تأتيها
من الخارج، يلقيان بهذه الأسئلة كما يقولون في سلّة المهملات فهي لن تقدّم
ولن تؤخّر، أخذتهما الحياة الجديدة، نعم، يستمعان لأحاديث بالكلمات نفسها
وبالحروف العربيّة نفسها، كثيرٌ من الكلمات متداولة معروفة، لكنّها لا
يفهman المعنى المقصود، اتفقاً أنّ يلقياً بكلّ الأحاديث الغريبة في البحر،
وعليها أن يواصل العبث المعتاد والأحاديث الخاصّة، عندما تهمس وتسأله
عمّا كان يتمنى، بلا تردّد يجيبها أنّه لم يحلم يوماً أنّ تنقلب الدنيا من حوله بهذه
الدّرجة وهذا فوق كلّ الخيالات، تعاود همسها عن اللحظة، وعمّا يتمناه بعد
ما حدث، فيصف ما أصبح عليه من حبّ للأوراق الماليّة، وخاصّة الجديدة
منها، فلمسها يشعره بنشوة غريبة ويشعره بأنّه على قيد الحياة، يقارن بينها
وبين الشّفاه العذراء الجديدة التي يتفجّر عطر أزهارها، تخرج من حيزّ القاعة
وما تحتويه، وكأنّها عادت لسالف عهدها، فتقول:

— أنا حاسّة إنّك بقيت طمّاع، طمّاع قوي والطمّاع كل دماغك، خائفة
تبصّ لفوق زيادة وتطمع في كرسي... تنظر حولها، وكأنّها تحاول أن ترى
شيئاً ما، أمّا هو فقد انطلق في الضّحك وهو يشعل سيجارة.

— آآآآآه طمعان بس في كرسي معسل، معسل معجون بحته بّني ريحتها
ترجع الميت للدنيا، لو شمّها عزرائيل يرفع إيده عن الميت ويموت عزرائيل

من الضحك! ساعة تبقى أغرب من الخيال، تحيّلني لما عزرائيل يضحك، وكأنه فاق من نوم أو من كابوس... أستغفر الله العظيم، وتصنّع وكأنه يصبق في صدره... أستغفر الله... قصدي سيدنا عزرائيل ويعود لصوابه مكملًا، فاكرة يا زهرة لما كنتا بنموت من الجوع ثلاث مرّات في اليوم، أنا حاسس إنّي باحلم، السّت الكبيرة ربّنا بعثها لنا ولكلّ الغلابة وعيال محرومة... عمرك شفّتي حدّ بيعمل زبّها... أولاد بلدنا يخافوا يمدّوا أيديهم يساعدوا الغلابة، يتوقّف... أنت بتفهمني كلامها؟

— أيّ كلام؟

— لما تقول عيشوا حياتكم، ارفعوا أقدنكم، وطالبوا بحقكم... كلام بينقّط عسل لكن الغريب لما تقول الناس بتصنع الي يعبدوه.

— يا حبيبي دي اسمها الموضة... ثقافة جديدة... شايف كلّ الناس الي بتيجي وتروح ويقولوا كلّ يوم كلام مع الشّباب بالذّات... السّت قالتّ دولت الكهنة وكلامهم وحديثهم يصنع جوّه دماغ الشّباب رب تاني غير الي يعبدوه، السّت بتقول إن كلّهم كدّابين، وإتهم بيمشوا على لحم بطنهم، وكلّهم تقبضهم وتسيبهم هيّهوّهوا، بس من غير أمانة، الكلب أصله أمين، يساعدوا حتّى الكبار يلهفوا ويكوّشوا ويكنزوا الملايين من قوت الغلابة.

— النّاس الكبار دول الي بيسرقوا عيني عينك، رمو ربّنا ورا ضهرهم ده مؤكّد، ما بيخافوش الجرايد ممكن تكتب عنهم وتبقى فضيحتهم بجلاجل وسيرتهم على كلّ لسان وتروح سمعة الواحد... نسيوا ربّنا.

— ومين بيقرأ الجرايد... واحد فاضي لو مشغول مش هيقرأ... لأ طبعًا.

— تحيّلني كلامك صحّ، مفيش وقت للحراميّة والهباشين يقرأوا... يضرب كفاً بكفّ... الله يرحم زمان بقيت ستّ السّتات يا زهرة.

— عينك البصاصة تدبّ فيها.

— ويهون عليك.

— إن شا الله عدوّينك... الدُّنيا ادّتنا وشّها وضحكت لنا، لازم نستفيد من كلّ حاجة بكرة مش مضمون... عموماً أنا بفكرّ في حاجات تنفعنا.

— أنا بقيت عضو كبير ومسئول عن كلّ التّحرُّكات، أنا تحت إيديّ آلاف من شبابنا... يسحب تليفونه المحمول... مجرّد رسالة، يتلمّوا في أيّ منطقة، أقول احرقوا يحرقوا، هدّوا الفرحة يهدّوا، كلّهم مبسوطين بيكسبوا وتمام التّمام... شجّعوا الفريق يشجّعوا... شجّعوا رجل البرلمان يشجّعوا... التّاني اعملوا ضده مظاهرات يوافقوا وكلّه بتمنه يا ستي... السّت الكبيرة صاحبة الفضل.

— علّمتنا نطالب بحقّنا... كترّ خيرها... بس إوعي لنفسك وبكرة...

— سيبى بكرة لما يبجي.

تلتقط أذناه أغلب الحديث الدّائر، يستمع ولا يبدي مجرّد نظرة تجاهها، يتناولان موضوعات غريبة بأسلوب غريب لا يتناسب وهذه المدينة الجديدة، كان يخاف مجرّد الحديث عنها، كان يظنّ أنّ روادها من أرقى طبقات المجتمع، لقد سمع لتوه كلمات يعفّ لسانه أنّ يردّها حتّى لو كان في شرح الشّباب، تحدّثا وأشارا على كلّ الفتيات بأنّهنّ هنّ رواتب ثابتة، وبعضهنّ يتكسّب من العمل في مواقع أخرى، وكلّهنّ بلا استثناء يجدن كلّ شيء، سمع منه وهو يخبرها عن السّرّ الكبير الذي يجّهزون له في المستقبل القريب، وكيف سيتمّ حرق أكثر من مكتبة ضخمة، يكفي أنّ يعطي الإشارة فقط، وتابعوه سينفّذون ويحرقون، يستغربان لفكرة حرق كتب ولماذا؟ يسمّعها، وهي تضحك، وتذهب في احتمالاتها الجاهلة إلى أنّه ربّما تحتوي على كتب في

السَّحَر والجنّ، ومعروف أنّ السيِّدة تكره هذه الأحاديث، ولكنَّها يضحكان، ولا يشغلان بالهما، كلّ ما عليه هو التَّنفيذ، وبمعنى أصحَّ يعطي الأوامر، عندما تشير يده إلى سماح، تطلب منه أن يتأمَّلها جيِّدًا وهي تداعبه بمداعباتٍ فجَّة قولًا وفعلاً، فيبدي إعجابه بها، فتحكي عنها وتقول إنَّها من أسرة عريقة جدًّا، وتأسَّى بعدها، ولكنَّها مريضة بداءِ حبِّ الرِّجال، فهي تغيِّرهم كما تغيِّر ملابسها، تغرق في الضَّحك وهي تتساءل، عن شيءٍ غريب لا تجد له تفسيرًا حبِّها وعشقها للرِّجال فوق السنِّ القانونيِّ، ساعتها تقابلت عينها وعيني جلال الذي ابتسم، أمَّا هي... وضحكت بشدَّة وبلا تردُّ راحت تصف جلال بأنَّه في عزِّ شبابه وهي لا تقصد أمثاله، تقبَّل ضحكاتها واعتذارها المشوب بشيءٍ من السُّخرية بابتسامة هادئة، يتأكَّد من كلّ الأحاديث الدَّائرة أنّ الجميع لهم مصالح مشتركة، والجميع يسعون ويخدمون أهدافهم وأهداف سادتهم.

الحريَّة ترفع عن الإنسان الألم!!! الغريب أنّ مزيدًا من الحريَّة المطلقة يوازي مزيدًا من الآلام الإنسانيَّة المعلنة أو غير المعلنة، أفكار رائعة تستنبطها العقول التي تفيض بالنبل والطَّهارة، تتحوَّر وتحوَّل بفعلٍ مقصودٍ لأداةٍ لنيل أغراض أكثر دناءة وقبحًا، وهذه عقول أخرى تتظاهر وتردّد كلمات عن الحريَّة، وهي مشبَّعة بأفاق وأفكار القتلة والخارجين عن القانون، فإنَّهم يدنِّسون حتَّى ندى الصِّباح ومياه الأنهار، فهل مطلوبٌ أن يجاري الإنسان ما يحدث حوله؟! عليه ألا يقتل نفسه وليحرص على الحياة، عليه أن يتظاهر بأنَّه هو ليس هو...!!!

موسيقى تنساب، أصاغ السَّمع ثانية، تدارك الموقف بسرعة، فلم يعدد سماع تلك الموسيقى التي تصدر من جرس الباب، تأكّد من ذلك، وظنّه العامل، طالبَ العامل بالدُّخول، طالبه ثانيةً بالدُّخول، انفرجَ الباب ودخلت، انتصبَ واقفًا، بدت الدهشة جليّة على وجهه، أغلقت الباب خلفها، خرجت من بين شفّتيه كلمة "ساح" مضطربة، وكأنّها تتأوّه، حروف اسمها من بين شفّتيه متقطّعة، جلست قبل أن يدعوها للجلوس، إنّها تنتمي للجيل الجديد، فمن ساعة أو يزيد، سمعها تردّد ذلك، جيل الحرّيّة، وعدم التقيّد بأيّ تقليد ومعتقد، فكّل الأفكار القديمة بالية، ووجب التخلّص منها، ألم تتحدّث عن الثورة في كلّ نواحي الحياة؟ فليست ثورتها وليدة اليوم، وكانّ ذاكرته عادته، أليست هي من فتحت يومًا صدرها، وفكّت رباط رأسها، وألقته بعيدًا؟! أليست هي من سألته إن كان به حاجة للمرأة؟! فهي مستعدّة أن تهبه ما يشاء؟ مستحيل أن تكون هذه بنت "حبّية" التي ركبت رأسه، ولم يهاجر طيفها عينيه منذ أن عرفها، وهي التي أرته أمّها أكثر من عقد زواج عرقيّ خاصّ بها، وضعت "حبّية" هذا السرّ في رقبته، مستحيل أن يذكر أيّ شيء عن ذلك، لكنّ تحدّثا عنها، هل هي معروفة ومشهورة لهذه الدرجة؟ قالت "حبّية" إنّ هذا سرّ أسرار حياتها، أفصحت له عن خوفها وقلقها مما تفعله ابنتها، عرف منها أنّ هذا هو السبب الرئيسيّ في ابتعادها عنه، فكم تمنّت أن تعيش خادمةً له، ولكنّها تخاف عليه! وضعت ساقًا فوق أخرى، وأشعلت سيجارتها، بدت كفاتنات السّينا، الفتاة لم تتعدّ الثالثة والعشرين من عمرها، يحسّ بأنّه أمام امرأة خاضت تجارب كثيرة في الدُّنيا، ماذا يقول لها؟ كلّ الكلمات ذهبتُ وكانّ كلّ أبجديات اللغة تاهت، مصوّبة نظرها إليه بصورة تقترب من التحدّي، ينتظر أن تفصح

وتقول ما شاءت أن تقول، لم تخرج كلمة من شفيتها، وكأنها اكتفت برسم دوائر دخانية من أنفها وفمها، من بين ضباب الدخان تنظر، وما زال في عينيها تحدُّ غريب، أخيراً استقام من مجلسه، فسألها عمّا تشرب، بلا تردُّد كسرت حدة نظراتها وانقلب الحال، فعاتت بتبسم ابتسامه تعكس حالة مرح شبابي يتناسب وعمرها، فطالبته أن يجلس هو، وأعلنت أن الواجب والأصول تحتم عليها أن تقوم هي بخدمته، أليست أمها خادمته وجاريتيه فعليها أن تقوم بنفس الدور؟ أستغفر الله العظيم، وراح يكيل المديح لأُمها، يقسم بأنَّها ليست خادمة ولا جارية، بل سيِّدة تجر كلَّ البشر حولها على احترامها، ضحكت ضحكة ماجنة مستهتره، وهي تتوجَّه نحو الثَّلَاجَة، أخرجت إحدى زجاجات الخمر ذات النكهة الروسيَّة المعروفة، ورفعتها إلى أعلى، وهي تقول: إنَّه مشروب الجنِّ الروسيِّ، وذهبت تعدُّد مزايا هذا المشروب، فهو الجنُّ المجنون الذي يطلق سراح الألسنة، فتخرج ما بداخل الإنسان، ويدفع للأفعال المجنونة المحبوبة، سألته أن يشاركها في الشَّراب، اهتزت رأسه نافية، حاول أن يتماسك، وأن يبدو هادئاً، فأخبرها بأنَّه لا يشرب الخمر، فهي حرام شرعاً، تحرَّكت مباشرةً، وراحت تعدُّ له كوباً من الشاي، وضعت الشاي، والماء المثَّلَج، وزجاجة الخمر، وكأساً فارغةً، وبعضاً من مكعبات الثَّلَج فوق المنضدة الصَّغيرة أمامه، أعاد عليها القول ثانيةً بأنَّ الخمر حرام، وهي مسلمة، لم تتوان في إطلاق ضحكةٍ فجَّةٍ مقتضبة، وكما جاءت ذهبت الابتسامه، وحلَّت بوادر تذرُّم فوق وجهها، وفي كلمات متحدِّية تجرُّه بأنَّها لا تعرف لها ديناً، فأبوها مسلم وأمها مسيحيَّة، وكلاهما لم يؤمنا بدينهما، وبسخرية غريبة تقول: إنَّهما اخترعا لهما ديناً جديداً... الحبِّ دين كلِّ البشر... وأنا رمز ونتاج الحبِّ ألا يكفي هذا؟ سكبت بعضاً من الخمر في

الكأس، وقبل أن ترفعها إلى فمها، لا شعوريًا امتدَّت يده فأخذ الكأس من يدها، وسحب زجاجة الخمر من فوق المائدة الصَّغيرة، سيطر العنف على معالم وجهه، تحجَّرت عيناه، ونفرت عروقه، وتناثرت كلمات خرجت من فمه ولكن لا يستبين منها سوى قسم بالله، تحرك ففتح باب الشُّرفة وألقى بالزُّجاجة والكأس في الخارج، عاد للجلوس، وحاول أن يكبح جماح غضبه، وأن يبدو هادئًا، طالبها ألا تنسى نفسها أمامه، فأصغر بناته تكبرها في السنِّ، داخله يلعن فصلها وأصلها، وكأنه يقول لنفسه: لو ابنتي مثلها لو أدتها وأد الجاهليَّة، إنَّها فتاة بلا كرامة، وبلا دين، أشعلت سيجارة ثانية، ولم تتحرَّك من مكانها، وكأنَّها تذكَّرت شيئًا فقامت، وتحركت ناحية المطبخ، تصنع لنفسها فنجانًا من القهوة، تتحدَّث، وتواصل الحكايات... لم أصدِّق عيني عندما شاهدتك هنا، لكنَّ الدُّنيا علَّمتني البرود وهُدوء الأعصاب، وتصنَّعت عدم معرفتي بك وأسرعت وتأكدت من اسمك من خلال الاستقبال، يتميِّع حديثها، فلا تستطيع أن تفرِّق ما بين الجد والهزل، لكنني لم أعرف أنَّك بهذا الثراء، ممن يقيمون في أرقى الفنادق، فتسعيرة هذه المدينة تتجاوز أسعار أفخم الفنادق، لست من البشر العاديين، وكيف تعيش في هذا الحيِّ الشَّعبيِّ الذي نعيش فيه؟ وبلهجة فيها الدَّهاء المشحون بالدَّلال، لم أعرف أنَّك بهذا الثراء يوم حدَّثتني "حببيَّة" عنك، حزنت لأجلها؛ لأنني أكثر النَّاس بها علمًا وحبًّا، فليس لنا في الدُّنيا أحد، وطرحت أكثر من سؤال في تتابع سريع، حقيقةً هل تحبُّ أمِّي؟ هل تستطيع أن تجاهر بهذا الحبِّ لأولادك؟ هل تستطيع أن تخبر أهل الحيِّ، وأنتَ الرَّجل ذو المنصب الكبير؟ وهي من تكون؟ مجرد عاملة، تقوم على خدمتك في الجمعيَّة التي ترأسها، أم أنَّك تفكَّر في زواجٍ عرقيٍّ؟ وهذا أظنُّه لا يتناسب وعمرِكَ وعمرها أيضًا، وأظنُّ تكاليف

ليلة واحدة هنا تستطيع أن تجد أكثر من واحدة ترفع عنك كل ألم الوحدة التي تعانيها، تفرغ طاقاتك المشحونة، لهبتها فيها دلالاً ومجوناً، وكله معجون بالدّهاء، وابتسامتها السّاخرة تنفذ لمعاقل قلبه، فتؤجج نيراناً داخله، وكأنّها لا تنتظر منه إجابةً، فتواصل الحكايات والأسئلة، ترفع عن وجهها برقع الحياء، أغلب الرّجال في بلدنا، وخاصّة ممن أصبحوا من الأثرياء تزوّجوا عرفياً، وأنا عن نفسي لي تجارب في هذا الموضوع، وكأنّها تنتظر أن ترى ما تسفر عنه كلمتها، وتتأمل تقاطيع وجهه، في كلماتٍ مثيرة تدغدغ مشاعر أيّ إنسان، وهي لا تأبه مطلقاً بما تقول، أوّل شخص أوقعني في دائرة حبه كان دائماً يناديني بابنتي، الغريب أنّه كان مسلّم النمر، تضحك، وهي تصف حالة الرّجل وكم كان عمره، وكم المبلغ الذي عرضه عليها يومها لتقضي معه ليلةً واحدة، تخوّفها منه دفعه للمزيد، وخوفها أيضاً دفعه أن يعرض عليها أن تزوّجه عرفياً، وحدّد لها المكان والزّمان والمبلغ المتفق عليه، كان عرضاً سخياً، فحلمت بأنّه يمكن أن يكون طوق النّجاة لها في تلك الحياة البائسة التي تحياها، تصمت وكأنّها تستردّ أنفاسها لتواصل الحكايات: وفي مدينة جديدة وحديثة على أطراف المدينة الأمّ، ذهبت معه، لم ترّ عيناى، ولم تطأ قدماي مدينةً في بهائها وجمالها، صحبني زوجي العرفيّ صاحب المقام الرّفيع، تخوّفت، فقد علمت ممن سبقوني بأنّها ليلة جميلة مرعبة لكلّ حديثة عهد، تهيأت لتلك الليلة طبقاً ووفقاً لأحاديثهنّ، وانتظرت، وركبني الرّعب، وتأكدت من صدقهنّ، تضحك بشدّة، أمّا هو فكان تفكيره قد توقّف، وكأنّ عينيه ثبتت على وجهها، وأذناه تنتظران بفروغ صبر المزيد مما تحكيه وتقصّه، فعادت وابتسامتها التي تقطر سخريّة، واكتشفت أنّه شجرة معمرة، لا ثمار لها، مجرد ظلال يستظلّ بها من أذاقته الدّنيا لهيب حرارة بؤسها وشقائها،

فرقصت شبه عارية تلبيةً لرغبته، حتّى هذا التّاريخ لم أتذوّق الخمر، تذوّقتها سمعًا وطاعة، فهو يدفع ويشترى وأنا أمة، أنا ملك يديه، طوع أمره، أتجرّد من ملابسي كاملة، لا مانع، أبقى على قطعة أو قطعتين، لا مانع، كانت أغرب اللحظات، تصدر الأوامر وتمتهن الكرامة وكنت مازلت بكراً، لا أعرف الكثير مما يريد ويطلب، كم تتقرّز نفسي من أفعالٍ مجبرة على فعلها! أفعّلها ولا أبدي تذرماً أو ضيقاً، وبلا أدنى قلق أبتسم وأضحك، يطالبني أن أتأوّه بصورة معيّنة ولا أعرف كيف تتم؟ عليّ أن أصرخ، ففي صراخي نشوة لجسده، أجربّ وأحاول، فمرّة أتأوّه، وثانيةً أصرخ وأصنع مزيجاً من الآهات والصّراخات المحبّبة إليه، حتّى يروح في سباتٍ عشقيّ غريب، يدغدغ كلّ أجزاء جسدي مرّةً بأنامله ويبللها بشفتيه، شهر ويزيد، وأنا أمارس هذه اللعبة، وأرضي شبقه اللاذكوريّ، ينام في سعادةٍ غريبة، لا أستطيع التّوم في الحجرة نفسها، فصوت شخيره يكاد يقتلع الجدران، عندما يصحو، ويتحسّس الفراش، ولا يجدي، فإنه ينهال بسيلٍ من الشّتائم والسّباب واللعنات فوق رأسي ورأس من أنجبوني، أجري وأبتسم أيضاً، فأنا مجردّ جارية، وله الحقّ، وأرجع السّبب لقضاء الحاجة فحسب، غالباً لا يبيت ليلته معي، فلزاماً عليه أن يذهب لزوجته وأمّ أولاده، مواعيد تواجدي معه تتمّ من السّاعة الثّانية ظهرًا وحتّى التّاسعة مساءً، وأعود أبيت مع أمّي، ومرّت الأيام وكانت ورقة الزّواج العرفي بيدي، كان الاتّفاق لشهرين ولكنّه لم يكمل وأطلق سراحي، ووهبني ثمن عذريّتي التي فضّها، تطلق ضحكةً ماجنةً كلّها أم، لكن كيف فضّها؟! هلّ تعرف أنّ هناك في بعض ريف بلدنا، تقوم القابلة بمساعدة العريس في فضّ بكارة العروس، تقليد شبه همجيّ يشترك فيه الزّوج والقابلة، وأحياناً أمّ العروس، أمّا زوجي فهو من كبار القوم،

رجل بلا عضو ذكريّ، تجبس ضحكاتها، وتنظر بعيداً وكأنّها توجّه إليه معنىً مقصوداً به، ألم يدفع ثمن عذريّتي؟ فعازٌ عليه ألاّ يفضّ بكارتي، وهكذا بدون القابلة، هذا اليوم ذكراه لم تبارح خيالي لفترةٍ طويلةٍ، كانت أصابع يديها المغروسة في جسدي سكيناً، يقول إنّها مداعبة، آه من مداعباته، أتألم وأصرخ، ولا أستطيع أن أكتم صرخاتي، تتعاقب صرخاتي بضحكاته الغريبة ويقول إنّهُ يتلذذ بصرخاتي، وتأتيه الشّهوة ويحسّ برجولته الغريبة، لا أستطيع أن أشكو أو أتألم، ألم آخذ أجري؟! وهذا حقّه فليأخذه، ربّما تسألني لماذا؟ بحثت عن عمل أيّاً كان، دلّنتي فتيات الجامعة على أكثر من عمل، كان أكثر الأعمال رواجاً في تلك الفترة الالتحاق بمكتب توظيف خاصّ جدّاً، وكانت الأعمال خدمات في حفلات خاصّة أو غير خاصّة، وكلّ عمل له ثمن، وداخل الجامعة أيضاً وجدت جمعيات خيريّة تابعة لمؤسّسات إنسانيّة عالميّة، كان لا بد في البداية من حضور المحاضرات وتسجيل الأسماء، أمّا العضويّة فوفقاً لقواعد معيّنة، الغريب أنّ أغلب الأعضاء من الفتيات لسنّ في حاجة للعمل، فيبدو عليهنّ الثراء، لم أهتمّ وعملت وأصبحت عضوة فعّالة، ولكن كما قالوا البحر يحبّ الزيادة، وأنا بالطبع أطمع في المزيد.

لم تكن تلك الزبيجة الوحيدة التي تزوّجتها عرفياً، كنتُ أحاول أن أعيش مثل كلّ البشر، تغمز له بعينها بصورةٍ غريبةٍ، وتستطرد، لكنّهم كانوا رجالاً حقّاً ولكنّ عمرهم تجاوز العمر القانونيّ، ذهبت في بكاء غريبٍ وتشنّجت وكادت تسقط من فوق مقعدها، أسرع إليها فنامت في صدره وهي تلهث بلهاثٍ متقطّع يقطع أحشاء قلبه، لا يدري أمتعاطفٌ معها أم ضدها؟ لقد تركها تقصّ ما شاءت، استمع إليها، صدمها بهدوئه وصلابة رأيه، أقسم لها بأنّه صادقٌ في قصّة زواجه من أمّها، أحسّ بأنّها كانت صادقةً أيضاً معه، حتّى

في حالات ضعفها الإنسانيّ، صادقة وهي تصف آثامها وأفعالها الماجنة، وكيف قدّمت شرفها يومًا مقابل المزيد من المال؟ ثمّ انضمامها للمؤسّسة الإنسانيّة، حكّت عن أغلب الشّباب المتتمين إليها وتجمعهم الثّورة على الأوضاع القائمة في البلد كلّها، كلّهم ناقمون، يتحدّثون عن الفساد والرّشوة والانحلال الأخلاقيّ، يضحك وبسرعة يبتلع ضحكاته، فمنظرهم الذي بدا له كلّ قمة الانحلال الأخلاقيّ، هم يجرّمونه ويفعلونه، كيف وجد كلّ هؤلاء الشّباب في النّدوات والمحاضرات الديمقراطيّة المغلّفة بما يشتهون ويودّون، وجدوا في مناقشاتهم المفتوحة تفرّجًا لثورتهم ومعاناتهم، يحاول أن يلتقط منها خيط الحديث فيجابهها بحديثٍ يحاول أن يكون هادئًا وغير جارح لمشاعرها، فيسألها أن تضع مقياسًا مناسبًا يحسب كم عدد هؤلاء الشّباب بالنّسبة لكلّ شباب الجامعة، ستكون النّسبة ضعيفة جدًّا، أغلب الشّباب ينتمون لطبقاتٍ متباينة من الشّعب وظروفهم الاجتماعيّة تتفاوت، ولكنّهم لا يسعون لتلك المنظّمات، كثيرون منهم يعملون في مهنة حرّة شريفة ويواصلون دراساتهم في الجامعة، فأغلب البشر لهم معاناتهم ومشاكلهم، وكلّ صاحب قضية ومشكلة يتخيّل أنّه الوحيد في العالم الذي يعاني، ومرجعيّة هذا كلّه الخواء الدّينيّ والعاطفيّ، فيطرح سؤاله عليها، ألم تحبّي يومًا؟ وكأنّها فاقت من كابوس، فأخذت نفسًا عميقًا، تتحدّث عن هذا الزّمان بأنّه زمن العنف والكرهية، زمن يلهث فيه الجميع وراء المال، وتطالبه أن يتأمّل الدّنيا من حوله بعناية، فهو يعيش في زمنٍ قديم، عليه أن يسمع حتّى للأغاني والموسيقى والأفلام فكّلها عنيفة، توارت قصص الحبّ والرّومانسيّة التي عفا عليها الزّمن، تصفه وتصف جيله بأنّهم سبب البلاء الذي حلّ بالمجتمع، أليسوا هم من أعطوا الفرصة لكلّ السّامسة أن يبيعوا

ويشترؤا؟ صمئوا ولم ىتكلموا، ارئضوا بحياة الظلّ والذلّ كما يقولون، ئئحءء عن أمانها أن يحرق كلّ المءءمع، أن ئشءل النيران ولا ئبئى على شىء، يرجع كلّ هذا لما ئمءلئءه، أم هل اسئسلم كلّ الناس وعبءوا المال؟ إنَّها مهمومة بالمال، لكنّ لم ئرئكب جرمًا إن كانت ئبءء عن الهروب من الفقر، ألم ئمئهن كرامئها؟ هي قالت ولم ئكذب، وما الفرق بينها وبين أولاءه؟ ئنازلوا عمًا ئءءءوا عنه في البءاءة، عنءما فاءء راءءة المال وما قء مءءونه لو ئزوء، فصمئوا وما لبثوا أن وافقوا بعء رفض، الكلّ يقىس كمّ الفاءءة العاءءة عليه، يعىء النظر وىفاء مجال الرؤىة أمام عقله، من بين كلّ المءموع الئى ئزءر بها المءىنة الصاءبة العامرة، إنَّها وأمئالها حالات شاءة نسبئها لا ئءكر بالنسبة لهءه المءموع، من يغءبهم بئلك الأفكار الئى ئءعى الثورة والحرىة والئغىر، هل هناك من وجد فىهم ضاللة لبء أفكار الئءرب؟ طرقت أءنبه كلماء من ءءب رفىقى طاولئءه فى الءفل، فراءق المءكئباء لماذا؟ ثوراء ومظاهراء ىئولئ ئنفاءها كما يقول بمكالمة هاءفىة، يقول إنَّه ىسئطىع أن ىسءر الآلاف لءءمة أصءاب الشأن ممن ىعمل لءبهم، ها هي "سءاء" ئرءء الءءب نفسه، إنَّها لا ئعرف لنفسها وئنا، ولم ئشعر بأنَّها كرامة، نعم... قء ئكون الءنبا ظالمة لها، اسئسلمئ ولم ئقاوم، ربًا لم ئءء من ىعىنها، لم ئءء من يقوى عزمئها للضموء أمام ئيار الءياة المئقلب، وهى مازالئ صغىرة، انهارئ واسئسلمئ وها هي ئبءو أمامه عارىة ئمامًا من كلّ المئل، رفءئ برقء الءىاء من فوق وءهها، فامرأة بلا ءىاء كءواء برى لا ئقىءه موائىق وقواعء!! ىئءكرها من ساءاء قلىلة وهى ئهئف وئئءءء كئائرة ئسئئر هم مسمعىها، ىصفقون وىهئفون، وئئءءء عن بىع نفسها، وءءب رفىقى الطاولة ووصفها بأنَّها عاشقة للرجال وءاصة كبار السنّ،

لكنّها كانت صادقة معه فلم تنكر ولم تخف شيئاً، تحدّثت عن خوفها على أمّها فقالت له:

أمّي تعيش أكبر كذبة في الدُّنيا، تتحدّث عن أمّها بعشيقٍ وتقديسٍ غير عاديين، وكلُّ أمانيتها أن تسعدها وترفع الحزن عنها، وفرحتها لحظة أن تسمع ضحكاتها لا تعادلها سعادة، وفي نهاية ضحكها غالباً مزيد من الدُّموع، تغمز له بعينها وربّنا رزقها بإنسان أخرجها مما اعتادته وعاشت به، وفي الشّتاء عندما يجمعها مخدع واحد، تسمع آهاتها ووسوسة همساتها، فكم تتمنّى أن تقبّل كلّ يوم يديها ورأسها حتّى قدميها! أمّا حديثها عن الأستاذ "جلال"، ففيه وله وحبّ غريب، فرحت في البداية، وقلت لنفسي ستخرج من الكذبة الكبيرة التي عاشتها، ستعيش من جديد، وخفت عليها ولم أشأ أن أحدثها بذلك، فعندما تصف كلمات الأستاذ "جلال" فكأنّها تقترب من الخشوع في الصلّاة، تصف كيف يشرب فنجان القهوة؟ وماذا يسمّي هذا الفنجان؟ قهوة أمّ سماح، مضتْ أعوامٌ كثيرةٌ من البؤس والشقاء تقاسمناها سوياً، تبتسم أمّي أخيراً بعد أن كنّا نبلّل خبز طعامنا بدموعنا غالباً، فرحت لسعادتها وخفت عليها من الإفراط في السعادة، فكُلّ الرّجال هدفهم ومأربهم من المرأة واحد، تتحدّث عن الحرمان، وهل يوماً جرّبه؟ هل شعر أحدٌ من أولاده بالحرمان؟ هل طلب أحدهم يوماً شيئاً ولم يجده؟ هل أحدٌ من أسرته ذاق مرارة الدُّلّ والهوان؟ تضحك من جديد، لا يقاطعها في الحديث فهو يسمع لها بكلّ اهتمام، تتحدّث عن المصيبة الكبرى في حياة أمّها، كيف كانت تحبّ أباهما وكيف هربت معه؟ وأخباره التي انقطعت عنّا، وهي لم تعد تذكر صورته جيّداً، لقد رحلّ وهي طفلة، غصباً عنه ندّت من بين شفّتيه كلمة وحيدة... مات!!! فردّت... أبي مات وهو على قيد الحياة، بدا في عينيهِ

تساوُلُ واستغراب وعدم فهم للكلمة، أمِّي لا تعرف أنَّ أبي كان على قيد الحياة حتَّى وقتٍ قريب، وكان يمارس حياته الطَّبيعيَّة بين أولاده وزوجته ابنة عمِّه، فهي كما ترى مازالت جميلة، وتخيَّل هذا الجمال من ربع قرن، يقينًا كانت فاتنة، أخذ منها ما تمَنَّى، تركها، قالوا إنَّه تُوفِّي إلى رحمة الله، صدَّقت، خافت من أهله، فكما تصفهم أنَّهم يملكون أغلب البلد الذي كانا يعيشان فيه، خافتُ فهربتُ، وإلى أين تذهب... إلى أهلها، وقد خرجتُ حتَّى من ملَّتْهم؟ لو عثروا عليها أيضًا لقتلوها، هكذا أصبح دمها مباحًا، فمن تستجير وتذهب؟ وأنا مازلت طفلة، كنتُ أنا كلَّ حياتها، اشتغلت حتَّى في البيوت، بالطبع تدرك ماذا يحدث لأمثالها؟ وكيف يعاملونها؟ لا تخبرني بما حدث لها، كانت دائميًا تصف البشر ممن تعمل عندهم بكلِّ الخير، مازالتُ تمتلك شهادة الوفاة المزوَّرة التي لا أعلم من أعطها لها، فكلَّ ما تعرفه أنَّ أبي مات، وكانت حتَّى أتيت سيادتك تحلم به دومًا، وتنتظر الموت حتَّى تلتقي به، قلبها من ذهب، الوحيد الذي أخرجها من تابوت عشقه أنت، لو أخبرتها بالحقيقة، ماذا يحدث لها؟ فكَّرت كثيرًا أليس من الأفضل أن أتركها ترح بخيالها في ساعات العشق الكاذبة؟ أتركها تردُّ الحكايات عن الحبِّ والعشق وأقسى درجات الكذب، ظللت كلَّ هذه الأعوام لا أستطيع أن أخبرها، وكانت عيناه تسألها وكيف عرفت هذه الحكاية، تسترد أنفاسها... وشهيق يدفع مزيدًا من الهواء لرئتيها، تزفر زفرة كبيرة، وتواصل، في الصَّفِّ الأوَّل الثَّانوي صمَّمت أن أعمل، بعد مناقشات وبكاء منها وافقت في النِّهاية، رسمت أحلامي في ظلال أسمى آيات الحبِّ والذِّكريات الجميلة، حكاياتها لا تنقطع وتواصل كلَّ ليلة، كنت أتمنَّى أن أجد رجلًا أحبه مثلما تحبُّ أمِّي أبي، كان الحبُّ دواءً للفقير والعوز الذي أشعر به، عشتُ كلَّ أفكار المراهقة البكر

الجميلة، وانتظرتُ فارسًا قادمًا فوق الحصان الأبيض الذي ملَّ من كثرة التَّجوال في عقول المراهقات أمثالي، كم تمنيتُ أن تكون نهاية رحلته عقلي وقلبي أنا؟ كان عملي يقتصر على لفِّ حاجيات الزبائن في ورق الجرائد ثمَّ وضعها في كيسٍ بلاستيكيٍّ، رصدت عيناى وقرأت في صفحة الوفيات اسم المتوفى وصورة تشبه كثيرًا الصُّور التي تحتفظ بها أمِّي، لم أدرِ بنفسى فأخذتُ الورقة بعد أن فصلتها، واحتفظت بها في صدري، خبأتها لأعيدَ قراءتها من جديدٍ فقرأتها أكثر من مرَّة، أعدتُ قراءتها، البلد هو البلد نفسه الذي تحكي عنه أمِّي، العائلة نفس العائلة، إمَّا الذَّكرى السَّنويَّة الأولى للمدعو أبي الذي تركَ أمِّي منذ اثني عشر عامًا، في الصَّحيفة أهل أبي يتقدَّمون بالشُّكر لكلِّ مَنْ واساهم في مصابهم، في اليوم نفسه طلبتُ من أمِّي أن تريني شهادة الوفاة، فاستغربتُ، لم أفصح لها، فكلَّ المطلوب أن أتأكَّد من صحَّة الاسم، إنني أستحي أن أذكر اسمه وقريبًا سأغيِّر اسمي كاملاً، حاولتُ أن أقنعَ أمِّي بمواجهة مشكلتنا والدَّهاب لأهل أبي، ولكنَّها أكَّدت أنَّهم سيقتلوننا، وأيديهم تصل لأيِّ شيءٍ يريدونه وهم لا يخافون اللهَ، هكذا كذب المدعو أبي على أمِّي ونال منها ما أراد وألقى بها، شأنه شأنُ كلِّ الرِّجال، ومن يومه مات الحبُّ في صدري، هي تحدَّثت، وأنا أبتسمُ وداخلي يبكي وفاءها وعشقها، هكذا مات الحصان الأبيض الذي صنَّعته في خيالي مثل كلِّ المراهقات، والفارس أصبح صورةً باهتةً بلا ملامح، مجرد حلقات من دخان تتصاعد وتنتهي، كم تمنيتُ أن تنسى أمِّي هذه الكذبة! لم أستطع يوماً أن أخبرها، تركتها تعيش شبح أوهاهما السَّعيدة، خفتُ أن أكسر قلبها، علينا أن نجابه الحياة، وعلِّي أن أخافَ عليها، عاشتُ وهمَ حبِّ كبير وظلَّت أسيرته، استأذنته في الدُّخول للحجرة، لم يقل شيئاً، وهي لم تنتظر، بعد جلوسه لدقائق

وهو ذاهبٌ بفكره لأكثر من جهة، خرجت عليه بلباس نوم شفاف جميل،
بمرح شبابيٍّ، أخبرته بأنّها قرّرتُ أن تبيت معه الليلة لتؤنس وحدته، تردّد
غريبٌ ومفاجأة كما يقولون من العيار الثَّقيل، يمكنه أن يرفض دون إبداء
الأسباب، لكن هو مقدّم على الزّواج من أمّها، هذا يعني أنّها بمثابة ابنته، فهي
محرمّة عليه، وإن بدا غير ذلك يمكن أن تفسّره الفتاة كما يروق لها، لم يبدِ أيّ
اعتراض، طالبتّه أن يخرج من حزن بدا فوق ملامح وجهه، فتحت باب
الشُّرفة المطلّة على البحر، الأضواء خافتة، ولا يبدو هناك أيّ روادٍ في الجوار،
جهّزت كرسي بحر، وطالبتّه أن يجلس، جهّزت بعضًا من الفاكهة
والمشروبات الغازيّة وغيرها، ابتعدت عن الخمر، وضعت ما جهّزته بينها
وجلست، سحابات متناثرة قليلة وأضواء القمر تحترقها، وموج البحر يعزف
سيمفونيته الشّهيرة، أضواء تتلألأ فوق صفحة المياه من بعيد، أغلقت أضواء
الحجرات والشُّرفة، وسقطت أضواء المصابيح البعيدة هادئة ومعانقة لأضواء
القمر المتسرّب الرّائق الجميل، لم يدم الصمتُ طويلًا، طالبتّه أن يقصّ عليها،
ويحكى عن الحبّ في زمنه، هل اختلف عن اليوم؟ وكيف؟ خرج من صمته
بتشجيعها وبعد أن طبعت على خدّه قبله هزّته، فبدأ يقصّ منذُ قال... أحبّها
وتحبّ ناقتها بعيري، تجوّل كثيرًا في حدائق العشق، وردّد أبياتًا من العصرين
الجاهليّ والحديث، لم ينسَ أغاني أمّ كلثوم أو نجاة أو قصائد الشُّناوي ورامي،
حتّى نزار قبّاني، كلّما طافتُ بذهنه أغنية ردّد كلماتها، غناءً أو شعرًا، تصفّق
وتشجّع وتطالبه بالمزيد، نشوة محبّبة اخترقته وهو المحروم من أنثى تفيض
مشاعره معها، وكأنّه نسي أو كاد ينسى ما كان، فيضّ من النّسمات الرّقيقة
قبل الفجر محمّلة بعبق أزهار الحدائق المنتشرة في كلّ الأرجاء، لم تركه
يطوف بأغانيه وأشعاره بمفرده، فراحت تتذكّر أحدث الأغاني الشّبابيّة،

وتعقد المقارنة بين الأمس واليوم ومَن يكسب في سباق العشق والهوى،
رائحة اليود تزداد ويعرفها أهل السواحل بقرب موعد الفجر والصباح، لم
يشعر بمرور الوقت، غيرت مكانها من جواره وجلست على سور الشرفة
الخارجي، تتسرب أضواء، وتختلس عيناه النظر لتقاطع الجسد الشبائي،
رويدًا رويدًا تنزاح معالم الليل والمساء، وتهلّ بوادر الصباح، تحتضن رأسه من
الخلف، وفي دلالٍ غريبٍ تتمنى أن تنزل البحر في تلك الساعة، يتمنّع وهو
راغب، لم يطل الحديث، دقائق معدودة وكانت بلباس البحر، وهو أيضًا،
تعانقا في موجة صباحية، مضى زمن لم يمس جسد أنثى، كم كان يحلم!
تماسّت الشفاة بعفوية، تشابكت الأصابع، واهتزت الأطراف، وتفجرت
ينابيع جفّ ماؤها من زمن، استشعر بحيوية، ولكن أسرع بالخروج، سرت
الدّماء في الأطراف فانتشت، دخل مسرعًا من باب الشرفة المطل على البحر،
ودخلت خلفه، أسرع يلقي على جسده المياه الباردة علّها تطفى ظمأ الشوق
المهاجم، ثوانٍ وكانت معه تحت شلال الماء المتدفق، ذهبت برودة الماء، غرق
المخدع بأهات ومياه وقبلات... لم يصدّق عينيه، نعم... أسعدته وحققت
كلّ الأمانى الحاملة! لعن نفسه، قام من فوره، نظرت إليه وأشارت بعلامة
تعني القوّة، خرجت كلماتها تشيد بشبابه المتدفق، نهرها وأسرع خارجًا من
الغرفة، دخل الغرفة الثّانية، وأغلق الباب بالمزلاج، بكى وهبطت دموعه،
واستشعر في داخله سعادة غريبة، لقد كانت شهادة الفتاة تنعش فؤاده، قام
من نومه على صوت الهاتف، تكلمت ونغمة مرحة تشيد به وبقدراته، ولم
تنس أن تقول له إنّ هذا مطلب كلّ الرّجال، استطاعت غوايته أم كانت
استعداداته قائمة، كيف كان سيتزوّج أمّها؟ كيف يستطيع أن يعيش معها؟
لم يخرج من الشّاليه، وانتظر ربّما تأتي، ماذا يقول لها؟ وإن أتت ماذا يفعل

معها؟ هل يستطيع النَّظَرُ في عينيها؟ في اليوم التَّالِيَّ أخبرته بسفرها مع فوج شباب الجامعات، يستطيع الخروج وعليه أن يترك الشَّالِيه فقد حان موعد إقامته بالفندق، توافد أعضاء ورؤساء الجمعيات الأهلية تبعاً، غالبيتهم يقاربونه سنًا، مبهورون، تكاد تخرج الدهشة من عيونهم، يتأملون كلَّ شيءٍ حولهم، أغلبهم لم تقع عيناه على هذا الجمال من قبل، أغلبهم لم يعيش في فندق بهذه الفخامة والجمال، إحدى الصَّالات التي شاهدها بالأمس قاعة مناسبات تحوَّلت إلى مسجد وارتفع فيه الأذان، أمَّا الثَّلَاجات الخاصَّة بالحجرات الفندقية فقد احتوت على كلِّ ما لذَّ وطاب، ولكن لا خور أو بيرة، دارت الأمور في رأسه ما السَّبب؟ القائمون على المؤسسة ومَن كانوا يحاضرون للشَّباب تمَّ الاستعاضة عنهم بآخرين، أساتذة في فروع الدِّين المختلفة بملابسهم الأزهرية، أمَّا السيِّدة فقد كان لباسها غير ما رأته عيناه سابقًا، فلم يخرج ثديها خارج نطاق ملابسها المحتشمة وغطاء رأس خفيف، هكذا تحوَّلت الحال، فكلَّ القائمات على الدَّورة من السيِّدات بدت جميعهنَّ محتشمات، أمَّا القادمون فقد تحدَّثوا فيما بينهم بأمانيتهم في المتعة التي لن تتكرَّر ثانية، فتأملوا الأجنبي، واختلسوا النَّظرات، لم يفصحوا عمَّا يتمنُّونه، لكنَّ العيون ترقبهم، وترك لهم مجال المتعة المباح، مناقشات ومحاضرات والسيِّدة في صدر القاعة، تشارك، وتستمتع، وتدلي بدلو أفكارها التي تثيرهم، جوقة من الأتباع تصفِّق، فتدفع جموع الحضور للتَّصفيق، أحاديث مردِّدة سلفًا، مغلفة لتتناسب والرَّواد الجدد، باسم الدِّين دعوة للحريَّة والعدل والحق، محاربة الفقر والدَّعوة للحكم الرِّشيد، دعوات لثورة مغلفة بأردية تتسع لاستيعاب أكبر قدرٍ ممكن من الأشخاص والأفكار، تاه في خضمِّ الأحاديث وتفاعل تارة، وراح يحسب توابع الحديث والفعل، حريق كبير يأكل الأخضر

واليابس معاً، يتنفس بصعوبة بالغّة، شعر بأنه في أمس الحاجة للهواء رغم أنّ القاعة مكيفة ولا أحد يشكو، خرج رغم أنّ المناقشات مستمرة، جميع الحضور يطلبون مزيداً من المعونات، لا مانع من المزيد من المسابقات الدنيّة أيضاً، والمنح الخاصّة بالسفر للخارج مع زيادة مخصصاتها الماديّة، غالباً توافق السيّدة، وتلقي بأوامرها تبعاً للأتباع، تدور في رأسه أفكار كثيرة وغريبة، تسيطر عليه وعلى أفكاره الفتاة التي ضحكت عليه، أخرجته من أمل جميل، وارتاد أفقاً لا يتناسب وسنّه، هل يستطيع أن يتقدّم لحبيبة، بماذا تناديه الفتاة التي ستعيش معها في بيت واحد، هل تقول له يا أبي... يستغفر الله العظيم، كيف يكفر عن هذا الذنب العظيم؟ ليس هو الخطأ الوحيد له في الحياة! كيف استمالته الفتاة، كيف طغى سلطان شهوته في هذا السنّ على عقله وأخرجه من جنّة التقرب، هل ما قالته صدقاً؟ هل كلّ ما يبحث عنه مجرد المتعة فحسب؟ وما هو نالها، فماذا ينبغي بعدها؟ مشاعر متناقضة تتجاذبه، لا ينسى كلمة الفتاة وهي تشيد به وبقدراته، فتاة جامعيّة تسقط في بئر لا مستقر لها ومقتنعة بأفعالها، تسقط عن رأسها كلّ القيم والمبادئ وبلا تردّد تجيبه بأنّها بلا دين، وماذا يدور في تلك المدينة الرّاقية المشيّد بأحدث وأرقى الأفكار العالميّة، الأسبوع الماضي شبابٌ من مختلف الجامعات، يلهجون بالثناء على أصحاب الفكر الأرقى والأعظم، يطالبون بالمزيد من الحرّيّة وينادون بالتّغيير، يساعدونهم ويطلقون ألسنتهم تتحدّث بما تهوى بلا حسابات لمجتمع كامل فيه كلّ المتناقضات البشريّة وشأنها شأن أيّ مجتمع عالمي، هل يضعون سمّ الحرّيّة في منبت شعر الإنسانيّة، يتنافسون ويتنفّسون هواءً مشبعاً بروائح جميلة، وللأسف لا تستمر طويلاً، من ثلاثة أيّام مضت وأتى أمثاله، ممثلو لجمعيّات أهليّة تسعى لتقديم خدمات مجتمعيّة، يمنحونهم ويقرضونهم

ويتركون لهم تقييم البلد الذي يعيشون فيه، أكثرهم حانقون وناقمون، ولكن بصورة مغايرة لما يتفجر في عقول الشباب، قد يغلب عليهم الصمت وقليل من الفكر لكن لا يتسرعون، نام الخوف في صدورهم غالباً، عاشوا الصمت والخرس، وارتضوه وهو واحد منهم، لم يتناول يوماً على أولي الأمر، لكن بيدهم أن يفتحوا الأبواب أمام ثورات الشباب ليرسموا خطط المستقبل ولو بالنيران، يستمعون ويتفاعلون ويتمنون ويرسمون مستقبلاً بسواعد الشباب، تتسارع الحوادث، وخاصة في عقله، يجافيه النوم، تهاجمه "حبية" وتصرخ في وجهه مرة، تأتيه ثانية وهو نائمٌ وساح عارية بين ذراعيه، لا تتكلم، تسقط دموعها، يسرع خلفها، ويتذكر أنه مازال عارياً، يستر جسده، نوم متقطع وصراعات خاصة به، كان يتمنى الحياة حتى يأتيه الموت، لأول مرة يتمنى الموت الآن، كيف يواجه حبيرة؟ كيف ينسحب من وعده لها بالزواج؟ ما هو السبب الذي دفعه للبعد، وتتسع الصورة ويرى كل القادمين أمثاله، قادمون يتسولون ويكذبون، هو واحد منهم، والأسبوع الماضي شباب يسطرون فوق عقولهم التغيير بكل الوسائل الممكنة، لا يتحدثون عن العنف، يشيدون بالسلام وبين ثنايا الحديث دعوة، دعوة لكل الأفكار العنيفة والتغيير ولو بالقوة، هيب في جسده وعقله، ينسى نفسه يفكر في الغد وفي كل هذه الجموع، ليتكلم، مع من؟ في إحدى حلقات النقاش، يجابه السيّد، فيحدثها بأن التوجهات التي كانت مع الشباب، قد تثيرهم وقد تثمر عن حريق كبير في شتى النواحي، واليوم المؤسسة تعطي في سبيل التغيير المنتظر، ماذا تريد السيّد الكبيرة من وراء هذه الندوات والهبات؟ يصم على أنه هناك شيء يدفعها أن تفعل ذلك، يخرج من ترده الدائم، يسألها هل هذه المساعدات لوجه الله تعالى؟ يقول إن لأفعالهم مردوداً، يثرون عليه، يصفونه بالجنون

والخروج عن منظومة الحبّ التي ترسم السيّدة خطوطها وفق منظومة إنسانيّة عالميّة، يطالبون بشطب هذا الشخص من المؤسّسة، وكذلك الجمعيّة التي يمثلها، يطالبهم بالتّأني والتّفكر فيما يقوله، مزيد من الأموال والمعونات عمّت أعينهم، لا تدافع السيّدة عن نفسها، ولكنّ تركهم يحاربونه ويشوّهونه، هو واحد منهم، ولكنّهم أخرجوه عنوة من بينهم، تتسارع الحوادث من حوله، مقصلة تلتف حول عنقه، لا يستطيع المواجهة والمجابهة، يستسلم ويخرج من القاعة، عيون ترقبه وتتأمّل ردّ فعله وفعل الآخرين، وتشعر بالنّجاح والحريق القادم، ماذا يفعل؟ هل يذهب للموت بقدميه؟ إنّهُ يستدعي الآن الموت، ولا يبغى الحياة، يحسّ بالقيود التي تكبله، مع مَنْ يتحدث بما يجيش بصدّره، لمن يشكو همومه، الآن هو لا يتخوّف على نفسه كثيراً، فالغد ليس ملكه، ولا يملك أن يخط فيه كلمة، ولكنّ الشّباب، إنّهُ يخاف على كلّ الشّباب، على الثّورة التي يشعل لهيها فريق قادم، يتمنّى أن تكون أفكاره خاطئة، لكنّه شاهد ورأى بعينه، لماذا كلّ هذه الهبات والعطايا، هل هناك مَنْ يهب بلا مقابل، ماذا يبغون؟ سنّه لا يحتمل الضّغوط العصبيّة التي تهاجمه، يشعر بألم شديد في كلّ ثنايا جسده، أمّا الصّداق فتكاد رأسه تنفجر، لم ترّ عيني يوماً كمّا من المصائب كما رأّت هذه الأيام، رحماك يا ربّ! وما زالت الشّمس تشرق والسّماء تمطر والزّروع تثمر... من غير الله يتحمّل ما يفعله البشر ببعضهم وبأنفسهم؟ سبحانه، لو كان الأمر بيدي لأنزلت صاعقة من السّماء علينا وأنا أوّلهم ولست آخرهم، فأمثالنا ومن رأيتهم في أيّامي السّالفة يجب أن يخرجوا من تحت رحمة الله، الله... الله... المولى سبحانه يسير كلّ شيء، هو يعلم بكلّ شيء وأنا مجرد ذرّة من رمل في صحارى الدّنيا، أنا لا علم لي، ربّما حكّمته أن يترك الشّمس والمطر والرّيح خوفاً على

الحيوانات وحتى لا يأخذها بجرائم البشر، كانت الرسالة التي وصلت إليه أنه ضيف غير مرغوب فيه، عزم أمره على الرحيل ولم يتوان في تنفيذ قراره.

فضت "حبيبة" الخطاب في خوف وتوجس غريبيين، ابتعدت عن العيون، كلمات قليلة يعبر فيها عن تقديره واحترامه لها، لم يشر بكلمة إلى الزواج، اكتفى بكلمة بأنه يتمنى كل الخير لابنتها، ويشير عليها أن تعيد التفكير في الحياة مستقبلاً، رصد لها مبلغاً ضخماً، لم تحلم به يوماً، وأودعه باسمها، والمرسل فاعل خير، ومطلوب أن تقسم هذا المبلغ مناصفةً مع ابنتها، وعليها أن تحرق الخطاب بعد أن تقرأه مباشرة.

مضت أيام ولم يعد الأستاذ جلال، سألوا عنه في كل الأماكن التي يمكن أن يتردد عليها، سألوا عنه في مقر المدينة الجديدة التي عقد فيها اجتماع المؤسسة بناءً على دعوة موجهة إليه، كان الرد: لقد رحل قبل انتهاء الدورة بأربعة أيام، أولاده اجتمعوا وسألوا وأرسلوا وراسلوا مختلف الجهات، لا ردود تشفي قلقهم، حبيبة تبكيه، تجلس وابنتها يتدارسان ما المفروض أن يفعلاه؟ المرأة تتخوف من هذا المال الضخم الذي لم تعنده، الفتاة وكأنها تضحك في سريرتها وتقول محدثة نفسها، لم أعرف أن سعري أنا وأمّي في سوق البشر بهذا الغلاء، لقد دفعت له المقابل، لكنّ قيمتي عنده كانت غالية، لا تصدق أن أمها لم تسلّم له نفسها أيضاً، لقد سقطت كل ملامح الحياء، كم تتمنى أن تسأل أمها! تشعر بخسستها ودناءتها، تستسلم، ولكنها دفعت أمها

بالإسراع بصرف الشّيك، تتخوّف أن يتعقّبوا مصدره، كان جلال واعياً، فقد أرسل الحساب لبنك جديد، لم يتعامل معه مسبقاً، وأرسله باسم فاعل خير، أكثر الثّائرين أعضاء الجمعيّة فأغلب الأموال التي وهبت من مصادر غير معروفة باسمه شخصياً، أولاده لن يتنازلوا عن أيّ مبلغ، لا أحد يعرف ما حدث.

obeikandi.com

الفصل الخامس عشر

الكذبة الكبرى

كُلُّ أدرك وعلم المطلوب منه، كانت سعادتها بالغة، كَلُّ البوادر تشير إلى أنَّ الغد القادم أكثر سعادة، تشعر بأنَّها قدّمت ما هو واجبٌ عليها تجاه عشيرتها، تذكّرت كلماته، إنّها "إنسانة" مقدّسة مولودة وفي رقبته أمان لشعب شرد، ربّما يكون في النيران التي تجتاح سائر المدن في الغد نجاح لمساعيها، لقد ضحّت بعمرها في سبيل تحقيق أمان طائفها وعشيرتها.

كعادتها دائماً، تطالبه بأن نقصي من حياتنا العصبية والمذهبية، فكلنا بشر، علينا أن نزرع الحبّ، يقسم لها بالله أنّه لم يكره إنساناً يوماً ما، فرغم العداء السافر بيننا وبين إسرائيل فإنّه يفرّق ما بين الصهيونية واليهودية، فاليهودية دين نعترف به ونقدّس رسله، وعدم الإيمان باليهودية وبرسلها هو خروج عن تعاليم الدين الإسلاميّ، تقول إنّ السبب الرئيسيّ لكرهية اليهود مرجعيّته نجاحهم في مختلف مجالات الحياة، بلهجة السّاخرة التي اعتادتها في أحاديثه، يؤكّد كلامها وأنهم الأغنى والأثرى، فالمال مرهون بوجودهم وغالباً الثروة والجاه ملك أيديهم؛ لأنهم غرباء دائماً، وقد قالوا المال في الغربية وطن، ويضيف... هم صنّاع الفتن وأساتذة في صناعة أثواب الفتنة بما يتناسب وكلّ شعب، تحاول أن تبدو كلماتها هادئة وهي تتكلّم... من يشعر

باستلاب حقوقه في وطن وفي حرّيّة وغربة ذات عمّن حوله من البشر، بل إنّ جميع من حوله يتخذون منه موقفاً غير محايد بالمرّة، فكان بعدهم وتحوّفهم وانزوائهم بعيداً، أين وطن اليهود؟ ألم يكن لهم حقّ حتّى في بلاد الجزيرة العربيّة، في اليمن، وفي فلسطين... تصمت فيسرح مفكراً محاولاً امتصاص ثورتها الغريبة ومبتعداً بعض الشيء عن الضيق الذي يحسّه بداخله... كم كنت أتمنى أن أزرع شجرة الإنسانيّة وخاصّة في طريق الأشرار، ربّما استساغوا ثمارها وعرفوا قيمتها وتراجعوا، ربّما أدركوا أنّ جذور هذه الشجرة ستمتصّ كلّ رحيق البشريّة وتوزّعه بالعدل على أغصانها وأوراقها وثمارها، وليقتسموا الثّمار، يحدثها عن تعاطفه معهم كبشر، سواء في أوروبا أو أيّام السّبي البابليّ أو ما بعد ظهور المسيح - عليه السّلام - ولا ينكر حقّهم حتّى في صدر الإسلام، نكثوا بعهودهم، لا ينكر منها أنّ الفاروق عمر بن الخطّاب طلب طردهم من جزيرة العرب، وكانت مرجعيّته في ذلك حديث الرّسول ﷺ أنّه لا يوجد سوى دين واحد في جزيرة العرب، فهو يشفق عليهم أحياناً ويتعاطف معهم أحياناً أخرى، لكنّهم هم من ظلموا أنفسهم، فلم يدركوا حقيقة الوجود حولهم، تفنّوا في رفع ذاتهم عن كلّ البشر، حرصوا على المغانم والغنى، حتّى مع رسلهم أرهقوهم بطلباتهم وأفعالهم الغريبة، فلم يطيعوا سيّدنا موسى - عليه السّلام - رسولهم الذي يجب عليهم طاعته، فلم يقاتلوا معه، ويوجد نصّ صريح عندنا في القرآن، فقالوا له اذهب أنت وربّك فقاتلا، وهربوا من مصر بعد أن استولوا على ذهب المصريّات بحجّة التّزيّن به يوم الزّينة وهم عازمون على الهرب، فلم ينسوا أبداً أنّهم أبناء الله، وأنّهم أفضل خلقه وصنعوا حاجزاً بينهم وبين كلّ النّاس، ومن تاريخهم تُروى حكايات في بخلهم واستلابهم الحقوق، فيوم احتاج

إليهم البشر وامتدَّت أيديهم تطلب منهم القرض، نتاج العوز والحاجة، أوثقوا النَّاس بعقود وعهود مجحفة، فيكفي الرجوع لإحدى مسرحيات شكسبير الشهيرة "تاجر البندقية"، هذا انعكاس لواقع حقيقي، في كل الآداب الأوروبية يمكن أن نقرأ مشاهد تعكس حقيقتهم، عندما يضحك وهو يسألها، بأنه يحس أحياناً بحبها الجارف لليهود، حتى أنه يتخيَّل أنَّها يهودية الأصل، تجاهه بضحكات أقوى وهي تقول بأنها "إنسانة" تحب البشر وتدعو للحريَّة والمساواة والإخاء وأفعالها ونشاطها يعكس ما تؤمن به، ويسألها عمَّا تعنيه كلمة المسيح - عليه السَّلام - "ما جئتُ إلا لخراف بني إسرائيل الضَّالَّة" فلماذا خصَّص اليهود بالذَّات... كم هو يكره التَّعصُّب والحقد والكرهية، لا يعرف ولا يجد تفسيراً فكيف لنفس تحمَّز إنساناً على قتل أخيه الإنسان، يبحث وينقُب في كلِّ كتب التَّاريخ والأديان عمَّا يستطيع أن يغيِّر هذه النَّفوس، غالباً يجد ولكن لا يحظى بموافقة أصحاب تلك النَّفوس، فالغسل والتَّطهَّر والصَّلاة لم تؤتِ مفعولها حتى في عهد الأنبياء، يسمع من مشايخ الطُّرق قديماً، إنَّ الله داخلك فتأمله، إنَّ الله في قلبك فحاول ألا يبرح قلبك، فكلنا شركاء في خلافة أرض الله... يطوف بعيداً فيتحدَّث في العشق والحبِّ، تهتزُّ وتزيد هياماً، فنار العشق تجعل البحر مضطرباً، فهمساته العاشقة الممزوجة بعبق آهاته تداعب سطح بحيرتها التي تبدو ساكنة، لكنَّها في جوف بطنها تكاد تنفجر في هوى المحبوب، يصف لها كيف الإبحار في مراكب العشق نحو الخلود، كيف يجتاز البحر، فبعد أن صعَّدت الرُّوح عند الفراعين، اجتازوا بحر النَّيل بأجساد موتاهم، لتغسل أبخرة النَّيل الطَّاهرة النَّقيَّة الجسد والنَّفْس لتصل للشَّاطئ الآخر للحياة الأبقى والأطول والأروع، فالعشق خلودٌ، وليل العشق كالصَّبح فلا ظلام ولا ظلال فيه،

يشمل بقطرة خمر من شفيتها، تحاول أن توقف سيل كلماته العاشقة التي تلهب مشاعرها، تحدّثه عن مشاريعها الإنسانيّة، لا يهتمّ ولا يخرج عن منظومة هواه، تنصت إليه باهتمام بالغ، حديثه العاشق يغلب عليه التوتّر، مشحون بانفعالات إنسانيّة، فالصّراع أساس الحياة، فيطالب أن نعيش وفق منظومة القوّة السّامية والعظمى التي رسمها خالق الكون، وإنّ قدر لنا أن نغيّر فلنحاول ولا نستسلم، فالوحوش الصّارية تشبع جوعها بسفك الدّماء، وينمو الجسد على جسد كائن آخر، ويعيش كائن على قتل أخيه ويحاول دائماً أن يجد مبرّراً للقتل، وكثرة أكل اللحوم تفسد متعة الإنسان بالحياة، كما أنّ كثرة الضّحك تमित القلب، فإذا أكل الإنسان في العهد الأوّل للبشريّة، ثمار الأشجار ونباتات الأرض، وكم الصّحارى والأراضي الصّالحة للحياة تزيد عن حاجة الإنسان، وكلّ إنسان يبخل على أخيه الإنسان بالحياة، لم لا يتشاركون وينعمون ويعيشون؟ عندما ازدادت شراهة الإنسان ذهبت العواطف وذابت المشاعر الرّقيقة، فالزّمن يا حبيبة العمر يلتهم كلّ شيء ولا يشبع كما النيران، علينا أن نستغلّ كلّ لحظات عمرنا وأن نتمتّع، بدت في عينيه دعوة، لم تلبّ دعوته... وفي دلّال، تدعوه أن يقصّ عليها المزيد مما يحتويه كتابه الجديد عن اليهود، يحاول أن يغلق باب هذا الحديث، ولكنها ترفض بدلالها المعتاد، كثيراً ما يبدو على وجهها الضّيق وتحاول مداراته ولكنّ عينه ترصدها، تحت مسمّيات عديدة تخرج مما بدا عليها، فهي راعية لحقوق البشر عامّة، وتدعو للسّلام وتردّد هذه المقولة كثيراً، فندفع كلّ حياتها ثمناً لخدمة البشريّة، يشعر بذلك ولكنها أنثى، يضحك وهو يقول إنّ السّلام ضدّ منظومة وفكر المرأة، فعلى شرف المرأة أقيمت حفلات الاقتتال والصّراع منذ بدء الخليقة، فهل المرأة هي التي اقترحت الحروب، وحتىّ تنال حريتها فعلى

الرَّجال أن يتقاتلوا، هي تعشق حرَّيتها لتتخلص من أكبر عدد ممكن من الرِّجال، وفي حفل نهاية العالم على الجميع أن يرفعوا كؤوس الهوى والعشق، في صحَّة كلِّ النِّساء، وصحَّة ما تبقي من الرِّجال... تسمع وتضحك فيضحك... تحاول أن تغيّر مجرى الحديث، تتحدّث عن كمِّ الصِّراعات التي يعيشها وتعيشها دول العالم النّامي، تشير في خبث إلى تاريخ الإسلام، الجهل والعنجهية والقبلية، يتأمّل مخارج ألفاظها وهي تتحدّث عن الحرّية، إنهم يحتاجون للحرّية ليصيغوا حياتهم من جديد، إنهم يفتقدون الحرّية، فيوم تسطع شمس الحرّية في حياتهم لن يشعلوا شموعًا، الغريب أنّها تشير إلى حبّها للقوّة والعنف والثّورة التي تولّد الحرّية، فهي تعشق الشّمس التي تحرق جباه العصاة... أتمنّى أن أكون شمسًا، يضحك وهو يسمعها، تثيره كلماتها فيعتدل وينظر إليها في تمعّن... فالقوّة ضرورة وأحيانًا يكون العنف بداية معرفة، والثّورة سباط تلهب ظهور البشر السّاكنين القانعين، ربّما صرخوا، ساعتها سيسمعهم الظّالم غضبًا عنه ويمكن في لحظة واحدة أن تتجمّع كلّ الصّرخات وأن تحرق أذنيه، أن تحيل الدُّنيا من حوله نيرانًا متّقدة، فليهرب أو يواجه وغالبًا يستسلم، لتضرب السّياط بكلّ عنف، خاصّة ظهر الدّليل منهم، فالدّليل هو من ملّك أمره لسيد أيّا كان السيّد غير الله، فقد كان الحجاج الثّقفي قويًّا فجمع شتات أمة، فلمّا قال إنّ أمير المؤمنين قلّدي سيفين يوم ولاني عليكم، سيف رحمة وسيف عذاب ونقمة، أمّا سيف الرّحمة فقد سقط مني في الطّريق، وأمّا سيف النّقمة فما هو، انصاعوا وأطاعوه.

كلُّ البوادر تشير لدعوات التّغيير، أغلب البشر في كلماتهم وفي أحاديثهم دلائل النّقمة جليّة، قدّمت الكثير وحدّدت ملامح المرحلة المقبلة، في برامجها

الطّموحة أسرت الجميع بمزيدٍ من المعونات والهبات، الجميع لهثوا خلف كلماتها، وكأنتهم أقسموا يمين الولاء لها ولأفكارها، وكلّ هذا لا يخرج عن دعوى الحبّ والخير والجمال، وأحياناً تحبّ أن تصوغها بصورةٍ أخرى، الحرّيّة والإخاء والمساواة، يشكرونها ويمدحون أفعالها، وهي بعيداً عن كلّ هذا تحمل جواز سفرها الأمريكيّ صاحب العزّة والفخامة، مؤسّستها تلعب في العديد من دول العالم وكلّ البشر يشيدون بها، فالصلة بينها وبين أصحاب الشّأن قويّة متينة، وخدماتها لهؤلاء الأوصياء والكبراء سابقة، شعرت بأنّ هناك بوادر لحركات أخرى لا تنتمي إليها، ولكنها تسعى لذلك، شعورها بالسّعادة كبير فكلّ هذا سيبصّب في بوتقة واحدة ويتحد مع أفكارها المطروحة، قومها الذين استعبدتهم المصريّون وسرقوا تاريخهم، وكما حفظت عن "موسى بن ميمون" عندما يقول في أحد تنبؤاته التي تحققت أغلبها... إنّ المسلمين سوف يزالون من هذه الأرض لبقى عليها اليهود... سيعودون بصورة أخرى، ألم يقل إلههم في التّوراة "أنا الرّبّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديّة"، لم يتبقّ إلّا شيء واحد، إنسان يكاد يسيطر على كلّ مشاعرها وأفكارها، أصبح بالنّسبة لها كالدم في الشرايين، عندما تراه تشعر بكيونتها كأنثى... كـ "إنسانة" تتمنّى الحياة، بالنّسبة لكلّ معارفها كانت مجرد سلعة تُباع وتُشترى في البداية، ثمّ أصبح في رقبتها مستقبل تلك الطّائفة، ورفعوها إلى أعلى، عاملوها كملكة متوجّة، أمّا هو فقد خلع التّاج عن رأسها، أشعرها بإنسانيتها، أخرجها من صمت المشاعر للهيبة، رفع عنها وحدتها التي كانت أسيرتها، تجمّلت له وانتظرت مثل سائر نساء الأرض، تشعر بضيقٍ وألم، إنّه الوحيد الذي يتناول ولا يهّمه من ردودها شيء، فيواصل ذمّه لعشيرتها اليهود، ولكنها لا تفصح وتحمل، فكلّ ما

يشغلها كتابه الذي يشيرون إليه، يقول إنه سيحتوي على حقائق كثيرة، بالوثائق سيثبت زيف الدّعاوى التي يطلقونها، معها يتحدّث بتلقائيّة، لا يخبئ عنها شيئاً ولكنّه يشعر بتدّمرها عندما يتطرّق الحديث عن اليهود، وتفسرّ فعلها دائماً بأنّها تعشق السّلام، فيرفض أحياناً مواصلة الحديث، لكنّها تريد أن ترى ما يحويه هذا الكتاب، ف"أنيس الرّوي" الذي يدير دار النّشر التي افتتحتها له في أرقى الأماكن بوسط البلد، وأصبح يُشار إليها بالبنان، لم يستطع أن يحصل على هذه الأوراق أو مسودّات الكتاب حتّى الآن، عليها مهمّة أساسية الآن، هذا الكتاب وما يحتويه، عليها أن تفتش أوراقه وفي وجوده، لا تستسلم بسهولة كعادتها.

تعثر على بعض من أوراق الكتاب تنشرها أمامها لتقرأ ما جاء بها بلا ترتيب، يبدأ بالإشارة للكاتب الكبير إحسان عبد القدّوس وهو يصف وضع اليهود في مصر، في نهاية حديثٍ طويل يصف منطقة الظاهر بالقاهرة بأنّها مخيم الأغلبية من السكّان اليهود، ثمّ لا يلبث أن يفنّد في أوراق أخرى... سيطرتهم على دور السينما في مصر، وإنشأؤهم لدور السينما لم يتوقّف على القاهرة والإسكندرية، لكنهم أنشأوا في أغلب مدن مصر، أمّا باقي الحكايات عن الفنّانين والممثّلين والممثّلات اليهود وحياتهم في مصر، فقد سمعت هذا الحديث من قبل، تقلّب الأوراق وتبحث عن الجديد، ثمّ ينتقل لكيفية استغلال اليهود لدور السينما في الاجتماعات الصّهيونيّة وعرض الأفلام ذات التّوجّه الصّهيوني... "إستير منقذة الإسرائيليين - خروج بني إسرائيل من مصر - داود وجوليات..."، أمّا مسرح "الهمبرا" بالإسكندرية والذي يملكه اليهود أيضاً، كان أوّل اجتماعات المؤتمرات الصّهيونيّة وضّم ٨٠٠٠ يهوديّ ورأسه "جاك موصيري"، وكانت دعوة لوعده بلفور، أمّا فيلم

"أرض الفراعنة" الذي أخرجه هورد هو كس وأنتجه "وارنر"، فيقول إنَّ اليهود هم بناء هرم خوفو، ثمَّ إشارته لتوغُّل اليهود في مصر وكيف فتح لهم المصريون كلَّ الأبواب، فعاشوا وعاثوا فساداً فيها، ففي أوائل القرن العشرين وعندما زار هرتزل مصر وأسس جمعيّة بني صهيون تحت مُسمّى جمعيّة "بن زيون"، ووصل تعداد هذه الجمعيّات إلى أربع عشرة جمعيّة في القاهرة والإسكندريّة وطنطا والمنصورة وبورسعيد، ثمَّ ردود على أكاذيب صيغت وانتشرت ومدعمة برؤية الأثريين الكبار، فعلى سبيل المثال لوحة الملك مرنبتاح، كيف استغلّوها بكلِّ ما هو مكتوب فيها، فهي وثيقة ذُكِرَ فيها اسم قبيلة "بني إسرائيل" وكلَّ الكتب السّاوية قالت إنَّهم جاءوا إلى مصر ولم ينكز أحدٌ ذلك، فليس هذا جديداً، أقامت الدّعاية الصّهيونيّة الدّنيا ولم تقعدّها، لماذا لوجود اسم بني إسرائيل، وهو في الحقيقة مذكور باسم قبيلة وليست دولة، فعلام كلِّ هذا الغلوّ، ألم يذكر في التّوراة وفي سفر التّكوين أكثر من مرّة "وكنتم غرباء في أرض مصر"؟ أمّا بالنّسبة للملك "شاؤول" ومن قالوا إنّه حرّر مصر من الهكسوس، فقد عاش عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وهذا وفقاً لنصوص توراتيّة، بينما أحس طرد الهكسوس عام ١٥٨٠ قبل الميلاد، أمّا حكاية حتشبسوت وملكة سبأ شخصيّة واحدة، هي عمليّة التفاف حول التّاريخ، وبالرجوع للأثريين الكبار مصريين وغير مصريين سوف نجد أنّ وجود حتشبسوت قبل سيّدنا سُليمان - عليه السّلام - بنحو ٥٠٠ سنة، ومرّة أخرى يعود للتّوراة، ويتساءل لماذا ينكرون سيّدنا إسماعيل - عليه السّلام - جدّ العرب في كلِّ كتبهم، بل ذهب بعضهم إلى عدم ذكر اسمه من بين أبناء سيّدنا إبراهيم - عليه السّلام - اعتادوا التّحريف والكذب، فالرجوع إلى التّوراة وفي سفر التّكوين ذكر أكثر من مرّة، ففي الأوّل

"ياسحاق يُدعى لك نسل، وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة، لأنه نسلك"، هكذا يخاطب الله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أما الثانية "وأما إسماعيل، فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه، وأثمره، وأكثره كثيرًا جدًّا، اثني عشر رئيسًا، يلد، وأجعله أمة كبيرة"، والقرآن الكريم يقول ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، فتاريخهم يسجّل لهم قتلهم للأنبياء، فلم ينسَ مولد أبو حصيرة وما كان يحدث فيه، وحكايات غريبة ورغم أنها بلا تاريخ حقيقي، أمّا ما أثار حفيظتها ما كتبه عن السير "ولتر سكوت" المؤرّخ البريطاني الكبير، وتحليلاته من خلال مؤلّفه الضّخم الرائع "حياة نابليون" فقد قال بالحرف... "إنّ معظم وجوه الثّورة الفرنسيّة كانت وجوهًا أجنبيّة عن فرنسا"، وهي إشارة شبه معلومة عن دور اليهود في الموضوع الأساسي للثّورة، وأشار إلى أنّه أحد ثلاثة أشخاص يعلمون موضع هذا الكتاب في مصر، فقد اختفى هذا الكتاب المكوّن من تسعة مجلّدات ولا يمكن أن تجد له أثرًا حتّى في المكتبات الأوروبيّة، وقال أحدهم إنّ هذا الكتاب اختفى أيضًا من مكتبة الكونجرس ومكتبة البيت الأبيض، وكان السّبب الرئيسيّ في إعدام "روبسير" أحد قوَاد الثّورة الفرنسيّة، إشارته لدور اليهود ومؤامرتهم أثناء الثّورة لتحقيق أغراض خاصّة بهم، تذكّرت اسم الكتاب فقد أشارت إليه يومًا ما في بعض المراسلات، فحكّماء صهيون في مجمّع الثلاثة عشر يطلبون هذا الكتاب، أو إعدامه وحرقه، قلبت الأوراق... لا إشارة ولا تلميح لمكان الكتاب في مصر، وفي أيّ مكتبة من مكتبات القاهرة الكبرى، هلّ تسألّه مباشرة، لكنّه يمكن أن يظنّ بها الظّنون، أشار أيضًا لمجموعات من المخطوطات الأساسيّة وكلّها تُدين إسرائيل قديمًا وحديثًا، لم تستطع أن تحصل على كلّ المعلومات التي أشار إليها، لقد جعل مكان الكتب

والمخطوطات مبهمة، نيران مستعرة داخلها، نعم هي تعشقه ولكن هذه الكتب والمخطوطات مهمّة جدًّا كما قالوا عنها، في النهاية تركت للأيام القادمة فرصة، ثمّ ضحكت وهي تحدّث نفسها بأنّ دعاة الحرّيّة من تابعيها سيحرقون المكتبات الأربعة الكبرى في القاهرة، ففي كلّ الأحوال لن يستطيع الاستفادة منها، أمّا حكاياته وأقاصيصه عن إعادة بناء الهيكل، تتوافق وما سمعته سابقاً، وبحثهم الدّؤوب عن بقايا وذهب الهيكل، ادّعواهم بأنّ المصريين القدماء سرقوا كنوز الملك سُليمان، فيشير لدير قديم به الكثير من المخطوطات الفرعونيّة، لكنّ أين هذا الدير؟ هلّ دير سانت كاترين الموجود في سيناء؟ أمّ دير آخر؟... فأديرة مصر القديمة كثيرة ومتنوّعة، ومرّة يشير إلى أنّ كلّ المتعلّقات التي يمكن أن تكون فيها الإجابة الحقيقيّة حول الهيكل موجودة في مقبرة بوادي النّطرون بصحراء مصر الغربيّة، أمّا الغريب وما أثارها أكثر إشارته لكتاب إنجيليّ، سُمّيَ بإنجيل يهوذا الذي تمّ الكشف عنه في منطقة البهنسا بمحافظة المنيا جنوب مصر، في منتصف السبعينيّات من القرن العشرين، محروقة بعض أجزائه، وكيف عرف بتهريره تحت رعاية رجال كبار من رئاسة الجمهوريّة، ومع من سافر من مصر في حقيبة دبلوماسيّة لشخصيّة أثريّة مصريّة عالميّة، وبلا خوف يذكر أنّه إذا تمّ فتح الموضوع حقيقةً فإنّه مستعدّ لتقديم أوراق تثبت صدق كلماته ومستعدّ أيضاً للشّهادة، وهذا الكتاب فيه حقائق كثيرة غريبة، بعض منها لم يدرج من قبل أو يسمع عنه، يستطيع أن يساهم حال تجميعه في الكشف عن أسرار خطيرة، يشير أنّ البعض يدّعي أنّ الماسونيين اشتروا هذا الكتاب أو الإنجيل بمبالغ طائلة، ولن يستطيع إنسان أن يطّلع عليه، فالاطلاع عليه قاصر على سدنتها وقادتها ومن يحوزون الدرّجة فوق الثلاثة والثلاثين،

نعم... سمعت عن هذا، تعرف كيف خرج من مصر؟ ومع من؟ لكن كيف توصل هذا الرجل بأبحاثه عن هذا الكتاب الذي أحيط تهريبه بأقصى درجات السريّة والكتّان.

تظهر ملامح البراءة وتطفح فوق وجهها عند ذكر دولة روسيا أو الاتحاد السوفيتي سابقاً، أو حتى روسيا البيضاء، يشعر الدكتور بذلك جيداً فيحاول أن يدغدغ أحاسيسها، يعلن لها ذلك صراحة ويقول لها أشعر وكأنك مازلت عذراء لحظة أن يأتي اسم روسيا في الحديث، أحسّ بأنك مراهة لم تتعدّ السادسة عشرة من العمر، أحسّ في حضنك باهتزازة جسدك ورعشته، أمّا شفّتك في تلك اللحظة قمة العذريّة، فأحسّها وقد امتلأت وزاد احمرارها ولكن بشكل طبيعيّ، يمرّ بإصبعه فوق شفّتها فتسبل عينيها في حلم، تجد نفسها فوق مخدعها ما زالت هائمةً، فوق صدره العاري ترسم خطوطاً بأناملها، تحترق أصابعها شعر صدره وتذهب حاملة وتقصّ... عن مسرح البولشوي ومعنى الكلمة المسرح الكبير، من يذهب إلى موسكو ولا يزور هذا المسرح فكأنه لم يزرها، فهو رمز الثقافة والفنّ، بل إنه يعتبر رمزاً قومياً وتراثياً، فأعظم الأوبرات العالميّة تقدّم عليه، أمّا الباليه فروعة الدّنيا في تلك العروض الرّاقصة وتصاحبها أشهر المعزوفات العالميّة، تشعر بأنك على قيد الحياة وربّما تشعر بأنك في جنّة الله في الأرض، تطير في السّماء لا تشعر بأنك مثل سائر البشر، تسحبك الموسيقى والألحان لدنيا رائعة، تطوف بأركان المعمورة هاتماً عاشقاً، فالكثير من الرّوس يعتبرون البولشوي ومسرحه من الأماكن المقدّسة، يعتبرون أن مدرسة البولشوي من أساطيرهم الحقيقيّة التي صنعوها بأيديهم، فطرق التّدريس بها تخضع لناموس خاصّ وكأنك تمارس

طقوسًا سحرية جميلة، تقاليد راسخة في تعليم الرقص منذ ما يزيد عن ٢٥٠ عامًا، وما يقدمه هذا المسرح من فنّ قَمّة في النبل والأصالة وقد كان مقتصرًا على القياصرة والأمراء والملوك والنبلاء من أبناء الطبقة الأرستقراطية، فلو تأملت أحد أوجه العملة الروسية "الروبل" فمطبوعٌ على العملة الورقية واجهة مسرح البولشوي، عندما تتحدّث فإنّها تهيم في دنياها، تعود بذاكرتها للخلف كثيرًا، تتمصّ رحيق ذكرياتها التي مضت، طفولتها ورغم أنّها عاشت حياتها تلك في الملجأ، كلّ ما كانت تحلم به في تلك السنّ كانت تجده، فالطفل الروسيّ ابن المجتمع، قدّموا له كلّ ما تصبو إليه نفسه، حين غريب يدفعها للذكرى، أمنية تراود خيالها تتمنى أن تعيشها، عندما يحدثها عمّا قاله محمود درويش الشاعر الكبير... ظننت أن موسكو هي فردوس الفقراء وعندما كنت أشاهد مشكلاتهم وحياتهم تأكّدت من الكذب الذي أعيشه، لكنّها لا توافقه الرأى، نعم كانت هناك مشكلات وأحيانًا كثيرة سجن لأصحاب الرأى، وبعض من المفكرين كتبوا ذلك، وكلّ مجتمعات الدنيا فيها الصّالح والطّالح ولكنّ مجموع الخدمات المقدّمة للإنسان، يكفي ما يقدم للشباب والأطفال، فلو كنت متزوّجًا ولديك أولاد فإنّ هناك قانونًا بمنع التّدخين داخل المنزل حرصًا على حياة الأطفال وصحتهم.

كانت حالة من العشق الغريب تعترها وهي تتكلّم عن روسيا، لم يرها من قبل في هذا الجمال والتوهّج الأثويّ الرائع، تحرّكت على أنامل قدميها ورغم عمرها أجادت بعض الحركات، ما زالت رشيقة وعامرة بالشباب والحيوية، منى نفسه بليلة جميلة، لم تتوقّف عن الحديث والحركة، انجّهت إلى جهاز البيانو وجلست وتراقصت أصابعها فوق أصابع الجهاز وقفزت ما بين الأبيض والأسود في رشاقة ومنتعة، صاغت ألحانًا مازالت ذاكرتها تحتفظ بها،

صَفَّقَ مشيداً بعد أن أحاط عنقها بيديها، نظرت إليه... بدا أو ربّما ظنَّ أنَّ هناك دموعاً تملأ مقلتها، هذا غريب عليها، هذه المرأة القويّة الحديدية تبكي، دعك عينيه وظنّها تخادعه فيما يرى، قامت... احتضنها فيما يشبه رقصة هادئة وجد أنَّ الدَّموعَ حقيقيّة، لم يشأ أن يسألها، هي عبارة صغيرة طافت فوق شفّتيه... عاشقة أنتِ لموسكو لهذه الدَّرَجَة، نظرتُ إليه وفي عينها يرقد شوق الدُّنيا بأكملها ومن بين بحيرة الدُّموع التي سكنتُ عينها وهي تنظر لعينيهِ، هل تسافر معي إلى موسكو؟ أجابت بلا تردّد وبمنتهى الهدوء:

— أسافر معك إلى أقصى حدود الدُّنيا، فالسَّفر معك إلى جهنّم متعة عمري!

احتضنته واحتضنها بقوة ورفعها بين ذراعيه ودار بها دورةً كاملة في الهواء وهي تصرخ فرحاً ونشوة.

بولفارات... تعني الشّوارع التي غرس على جانبيها ووسطها الأشجار المختلفة، مخصّصة أساساً للمشاة، كم تستريح العين لهذا الكمّ الرّائع من الأشجار، المنظر العام يبعث على مزيدٍ من التأمّل، كلّ شيءٍ متوّج بالجمال والمتعة البصريّة والقلبيّة، فتمائيل ونافورات المياه منتشرة على مدى النّظر، المقاهي وحتىّ ألعاب الأطفال المختلفة التي يزداد بهاؤها بالتفاف الأطفال حولها، مازالتُ بعض المناطق تسمّى باسم البوّابات، ومنها العديد من البوّابات، مثل بوّابة بيتروفسكي، ومازالتُ باسمه حتىّ اليوم، تمائيل المشاهير في الأدب والفنّ والموسيقى من أمثال نيكولاي غوغول وبوشكين وتشيرنوشينسكي، بين جنباته أيضاً المتاحف والمكتبات، ومباني المسرح ومعاهد دراسة الآداب، كما يمكن مشاهدة أقدم الكاتدرائيّات، عندما ذكر

اسم الكرملين تحدّثت بدورها عن السّاحة الحمراء، وعرفته بأنّ هذا المبنى كان باللون الأبيض وكان نسخة من مدينة أسطوريّة من القرن السّابع عشر، وهو عبارة عن مجمّع ثقافيّ ترفيهيّ... هكذا كان، ولقد تغيّرت العاصمة، فقد كانت بطرسبرج وتحوّلت العاصمة إلى موسكو، ولموسكو عاصمة الاتّحاد السّوفيتيّ وضع خاصّ في نفوس أهلها وأغلب الرّوس يبجلونها ويقدّرون بطولاتها وبطولات أهلها في الحرب العالميّة الثّانية، وكيف استطاعت الثّبات ومواجهة العدوان من قوّات النّازي، كانت أوّل الأماكن السّياحيّة التي فكّرت أنّ تصحبه إليها، متحف الفنّ الإسلاميّ ومتحف بوشكين، وقف مبهورًا أمام سجّادة إيرانيّة ضخمة، مرصّعة بأسماء الله الحسنيّ بخيوط من الذهب، وقف كثيرًا أمامها يتأمّلها، حدّثها عن ليو تولستوي الأديب الكبير، وكيف وصف الأديب النّبّيّ في كتابه الرّائع تحت عنوان "حكم النّبّيّ محمّد"، اختار في الكتاب ٦٤ حديثًا من أحاديث النّبّيّ ﷺ، فكتب عنها ونقلها بأمانة العالم وأشاد بمعالم الحضارة الإسلاميّة، وموقفه من الأديان عموماً، مجرّد أنّ سمعت منه الحديث، اصطحبته مباشرة إلى متحفه، وفي المتحف شاهد صورًا كثيرة تعكس حياة هذا الأديب العظيم، ويعتبر المكان الذي كتب فيه أغلب مؤلّفاته، وأغلب عاشقي الأدب في العالم كلّهم يعتبرون مؤلّفاته من أهمّ المؤلّفات وقمّة الثّراث الذهبيّ للأدب والإنسانيّة، فيكفي قراءة أيّ رواية من رواياته لتعرف قدراته، كرواية الحرب والسّلام مثلاً، وشاهد أيضًا مجموعة الرّسائل المتبادلة بينه وبين الإمام محمّد عبده، صحبته لأغلب الأماكن التي يتمنّى ارتيادها ويحلم بها، من التّنزّه على نهر موسكانا،

للمرور بالميادين الشهيرة كالميدان الأحمر، والكرملين ومسرح البولشوي، إلى منتزه غوركوي، لزيارة أكبر حديقة نباتية في أوروبا والتي يزيد عدد نباتاتها المتنوعة عن ٢٠٠٠٠ نوع من النباتات، حتى حديقة حيوان موسكو وهي من أشهر حدائق الحيوان بالعالم، كم كانت سعيدة وهي ترى في عينيه كل هذه الدهشة والإعجاب، لكن ما أثاره وأخذ بلبه فلم يصدق عينيه، كانت محطات مترو الأنفاق، وكأنها قصور مشيدة، فاللوحات الرائعة المؤطرة بإطارات ذهبية مختلفة الأشكال، ألوان تتنوع وإضاءة ساقطة فوقها تزيدها جمالا، تصف له الشعب الروسي وعشقه للثقافة والفن، يكفي أنه ينتظر للحصول على تذكرة لمسرح البولشوي لمدة قد تصل إلى شهر ويزيد، وهو يتخيل أنهم نقلوا صالات العروض ومعارض الفن لمحطات مترو الأنفاق، تتحدث عن الأكلات الروسية التقليدية من لحم الضأن وسمك السلمون، ولكن أمريكا تغزو كل مكان في العالم، فأصبحت الأكلات الأكثر شعبية في مطاعم الوجبات السريعة، الدجاج المقلي الأمريكي الكنتاكي، كل هذا نتاج للانفتاح وسياسته، خاصة بعد البروسترويكا، ظن المشروب الذي قدمته إليه هو العرق سوس أو الخروب، سألها إن كان ظنه صحيحا، فاهتزت رأسها نافية، نعم هو يشبه الخروب ولكنه شراب الكفاس، لم يشعر يوما بمثل هذه السعادة، تتأمله وتتمنى أن تزيد من بهجته، وكأنها عروسان في شهر العسل وأنها لم يتجاوزا الخامسة والعشرين ربيعا، فتنوعت الزيارات والرحلات ومتعته كل يوم تتجاوز خيالاته.

كان الموعد مضروباً مسبقاً، كما اتَّفقا منذ ليلة الأمس، ستركه نائماً وستذهب في زيارة قصيرة لا تتعدَّى ساعات معدودة، ماذا يحدث للمسافر الذي قضى عمره غريباً عندما يعود لموطنه الأصلي؟! عندما يعود لمهد صباه وذكريات حياته الأولى، هل يتذكَّر منها سوى الجميل، النَّفس المشبعة بالحبِّ والخير ستنبش في خلايا ذاكرتها القديمة بكلِّ الحبِّ، ستبحث عن الصُّور الجميلة العالقة بالذاكرة، وكأنَّها طفلة تخطو خطواتها الأولى في طريقها للمدرسة... للحديقة... للعب والمتعة مع قريناتها، إحساسٌ بالسَّعادة غريبٌ بدا جلياً فوق تقاطيع وجهها الذي اقترب من سنِّ الهوى والشَّباب، بلا أدوات تجميل... بلا أقنعة مرسومة بطبيعة إنسانيَّة حقيقيَّة، قبل خروجها مباشرةً من الفندق كتبتْ هبتها للملجأ الذي منحها الحياة والحبِّ، للمكان الذي نبتت فيه معالم حياتها الأولى، لم تذكر في مهدها وطفولتها في هذا المكان سوى الاهتمام، تعلَّمتْ وغنَّتْ ورقصتْ وسعدتْ، هو اللبنة الأولى التي صاغت حياتها فتنوَّعت اهتماماتها، ذكريات الشَّبية وتفوقها في مجالات متعدِّدة، رغم صغر سنِّها ولكنَّهم منحوها لقب قائد مجموعة، ذكريات تستعيدها وتطوف بذاكرتها نبع لكلِّ جمال أحسَّته ومرَّت به، توقَّفت سيارة الأجرة أمام الملجأ مباشرة، وقفت لدقائق معدودة أمام موظِّفة الاستقبال تحت أيِّ اسم تسجِّل زيارتها، هل تكتب اسم "كاتيا" الذي ضاع منها في حياتها الجديدة، أم تكتب "مس لافويت" الأمريكيَّة الصُّنع، أم تكتب الاسم الذي ردَّده عشاقها الصُّغار في الملجأ الكبير في مصر السيِّدة "هبة السَّماء"، سطرَّت في دفتر الزيارات اسم "مس لافويت"، قادتها المضيفة

للسيدة القائمة على إدارة الملجأ، استقبلتها بحفاوة بالغة، تبادلنا حديثاً لم يطل كثيراً، أعجبتُ رئيسة الملجأ بلغتها الروسية، وصفتها بأنها رائعة وكأنها عاشت حياتها في روسيا وليس أمريكا، أكدت لها صدق حديثها وكما اعتادت وبسرعة، أجابت بأنها كانت تنتمي لأسرة أمريكية فولدها عمل أغلب حياته في روسيا في مجال السلك الدبلوماسي، وارتبطت بهذا المكان بعلاقات طفولية لا تستطيع نسيانها، بفتيات في مثل عمرها شاركتهن اللعب والمرح والانطلاق الطفولي في شتى المجالات، تقص عليها عن توأمتها مع فتاة يهودية كانت تعيش هنا، تتصنع أنها تحاول أن تتذكر الاسم كاملاً، وبعد فترة قصيرة تذكرت الاسم الأول "كاتيا"، وراحت تحاول استرداد ما تبقى لها في ذاكرتها للاسم، أخيراً ذكرته كاملاً، كم كانت تتمنى أن تراها! ولكن باعدت الدنيا بينهما، إنَّها في زيارة خاطفة لروسيا، صممت أن تزور مهد الصبا وأيام الطفولة الرائعة، امتدَّت يدها بالشيك الذي رصده كعموينة للملجأ، وقعت عينا السيدة على المبلغ، وكأنَّ عينيها لم تصدقا ما بين يديها، فانطلقت عبارات الترحيب الزائدة والمختلفة عن البداية، ضغطتُ جرساً أمامها، دخل من الباب رجلٌ يقترب من السبعين عاماً، عندما قرأ بدوره الرقم الموجود في الشيك كاد أن يسقط، أسرع الرجل وجلس على أقرب مقعد، صممتُ سيّدة الملجأ أن تستدعي كلَّ العاملين بالإدارة، لكنَّها بابتسامة تفيض بكلِّ معاني الإنسانية والأخوة طالبتها بالترثُّ والهدوء، قصتُ عليها عن التحوّلات الأخيرة التي تمت في السنوات الأخيرة بالنسبة للملجأ، كيف استعادوا كلَّ الأوراق التي كانت مخفية، وعهد البروستريكا

والحرية التي هبت على البلاد، والظروف الراهنة، كيف استطاع كثير العودة لممارسة شعائرهم الدينية؟ وأكثرهم من المسيحيين وقليل منهم من المسلمين؟ كيف كانوا يسجلون الأطفال الصغار في الملجأ بأي أساء ولا يذكرون لهم ديانة؟ كثير من أطفال الزمن الماضي رجعوا إلى السجلات القديمة التي نفّضوا التراب عنها والتي كانت مخفية، منهم من تأكد من تعميده وأنه مسيحي الديانة فرجع ليمارس حياته ووفق الطقوس المسيحية، وعدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة أتضح لهم أنهم مسلمون، يقصون حكايات وتغييرات طفت على المجتمع الروسي في الفترة السابقة، بل إن كثيرين كان لهم عائلات كبيرة ذات شأن وأملاك كثيرة، الخوف دفعهم أحياناً للتنكر، حتى للدين خوفاً على أولادهم، عادت إليهم ممتلكاتهم وأهلوه، طالبتها أن تذكر اسم صديقتها ثانية، كتبه ومدت الورقة للعجوز الذي خرج، تجاذبا أطراف حديث عن كل المتغيرات التي تمت وحدثت في المجتمع في الفترة السابقة، تتحدث الرئيسة عن الأفكار الشيوعية بتذمر واضح، وتشيد بالحياة الغربية، وخاصة أمريكا، تجارها في الحديث، تتحدث عن النظام السابق، وتشبهه بكثير من المنظمات والجماعات صاحبة الفكر الغريب، وعندما ينضم إليها عضو جديد، كيف ينسلخ عن حياته السابقة، وبالمثل النظام السابق حاول أن يغير حتى معتقدات البشر، فتلك الجماعات تطالب الشخص أو العضو الجديد أن يقسم قسم الولاء، فكانوا يعصبون عينيه، أو يكون القسم في الظلام، فالشخص الذي ينتقل من عصر لعصر، من عصر جهل وظلام، وبعد القسم تُرفع العصابة عن عينيه، أو كمن يخرج من الظلام، وكأنه يبدأ

حياته من جديد، ويستقبل ضوء فجر عصرهم، تقارن بين الجماعات الغريبة والنظام السابق الذي حاول أن يرفع عن الناس حتى معتقداتهم، يدخل العجوز ويده مجموعة من الأوراق، وبصوتٍ خافتٍ يقترب من الهمس، يتحدث عن المدعوة "كاتيا"، وانتهائها لأسرة عريقة من أكبر الأسر المسيحية، وأن الأسرة ذات باعٍ كبيرٍ، وتحوّفت في أيام "ستالين"، فأخفت دينها، لكنّ هذه الأسرة لم تخرج من ملّتها، تستمع... تنصت... تكاد عيناها تخرج من محجرهما، ويواصل الرّجل العجوز، لم تأت إلينا، تقريبًا هي الوحيدة التي اختفت ولم تعد لنردّها حقوقها، كئنا نريد أن...

قاطعته وطلبت منها أن تأخذ هذه الأوراق، رفضا طلبها وقال إنها أمانة وحقوق أصبحت اليوم في رقبتهم، أوحى لها بأنّها مستعدة أن تدفع مبلغًا كبيرًا في سبيل الحصول على هذه المستندات والوثائق، أخذت الأوراق... قلبتها وقرأت وأعدت القراءة مرّةً واثنين، ضاعفت مبلغ الهبة، بعد طول حوار، وأمام شبق العشق الدُّولاريّ الذي أصاب أغلب المجتمع الرُّوسيّ، وافقا في النهاية، خرجت... لم تدرِ بنفسها، ها هي الوثائق كلّها بين يديها، نعم... اشترتها وقرأتها قبل أن تشتريها، العجوز استخرج كلّ ورقةٍ ووثيقةٍ وقرأها... سمعتها بأذنيها وقرأتها بعينيها، وكلُّ الأوراق موثقة بأدلةٍ وبراهين ومذيّلة بتوقيعات وأختام، حتى تاريخ تعميدها مذكور أيضًا، الأسرة وقد أشار العجوز أنّها من أعرق الأسر في تاريخ "بطرسبرج"، فأبوها كان الرّاعي الأكبر للكاتدرائيّة القيصرية الأولى في العاصمة القديمة، وأغلب أسرتها كانوا ممن يتقلّدون أعلى المناصب الكنسيّة، ورغم سنوات الحكم

الشَّيْوعِيّ الشَّمُويّ وتَنكَّر النَّاسُ لِلْمَلْهَمِ وَأَدْيَانِهِمْ، فَأَغْلَبَ النَّاسُ نَسْوَا الْمَاضِي،
 إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الْأُسْرَةَ وَتَارِيخَهَا يَذْكَرُ كَثِيرًا فِي مَنَاحٍ مُتَعَدِّدَةٍ، نَعَم... نَخَوْفُوا فِي
 السَّنَوَاتِ السَّابِقَةِ وَأَخْفَوْا تَمَسَّكَهُمْ بِالذِّينِ كَثِيرًا، الْعَدِيدِ مِنْ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ
 تَعَرَّضَ لِلْإِضْطِهَادِ وَالسَّجْنِ، لَكِنَّهُمْ تَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ وَكُلَّ هَذَا فِي
 الْخَفَاءِ، قِصَّ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ الْكَثِيرِ مِنْ مِيرَاثِ أُسْرَتِهَا أَوْ أُسْرَةِ الْفَتَاةِ
 صَاحِبَتِهَا، طَالِبَهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْهَا مِنْ جَدِيدٍ، فَأَقْسَمْتُ لَهُ بِأَنَّهَا سَتَعْتَبِرُ هَذَا
 الْمَوْضُوعَ خَاصًّا بِهَا، أَيَّ قَدَرٍ قَدَّرَ لَهَا وَمَنْ الَّذِي يَخْتَارُ مَصِيرَهُ؟ هَا هِيَ حَقِيقَةُ
 حَيَاتِي أَمَامِي... هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخُوضَ حَرْبًا ضِدَّ قَدْرِي؟ مَتَى...؟ فِي نِهَائِهِ
 عَمْرِي وَبَعْدَ أَنْ عَشْتُ أَكْبَرَ كَذِبَةٍ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَيَاةَ إِنْسَانٍ بِأَكْمَلِهَا
 كَذِبَةً؟ هَلْ أَسْتَمِرُّ فِي تِلْكَ التَّمثِيلِيَّةِ، لَقَدْ ابْتَلَعْتُ الطَّعْمَ وَصَرْتُ صَيْدًا بَيْنَ
 أَيَادِيهِمْ، هَلِ الدُّكْتُورُ "بِرْهَانٌ" صَادِقٌ فِي كُلِّ مَا قَالَهُ؟ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرِي
 الْقَادِمُ؟ هَلْ أَهْرَبُ؟ مِمَّنْ أَهْرَبُ؟ لَقَدْ وَضَعْتُ السَّمَّ فِي عَسَلِ الْأَطْفَالِ، لَقَدْ
 رَسَمْتُ مَخْطَطًا لِلْغَدِ لِلنَّيْلِ مِنْ كُلِّ الْبَشَرِ فِي مِصْرَ، بَرَجَّجُوا عَقْلِي وَفَكْرِي
 وَتَخَيَّلْتُ أَنَّي مَبْعُوثٌ الْعِنَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِأَقْتَصَّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ وَمِمَّنْ جَاوَرَهُ،
 صَدَّقْتُ كُلَّ أَقْوَالِهِمْ، سَرَقْتُ تَارِيخَ شَعْبِ، سَرَقْتُ مَعَالِمَ حَضَارَةٍ، اسْتَمْرَأْتُ
 الْعَمَلَ كَسَمْسَارٍ... أَكْسَبُ... وَلَنْ؟ أَنَا مَنَ عَشَقْتُ رَقِصَ الْفَرَاشَاتِ عَلَى
 أَجْمَلِ أَلْحَانِ الدُّنْيَا، أَنَا مَنَ كُنْتُ أَطِيرُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ قَدَمِي، أَنَا كَعَصْفُورٍ
 أَشْعَلُوا فِيهِ النَّيْرَانَ وَأَطْلِقُوهُ، سَيَحِطُّ فِي حِصَادِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَيَلْتَهُمْ مَا
 تَبَقِيَ لَهُمْ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، لَا مَجَالَ أَمَامِي وَلَا وَقْتٍ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْذِرَ هَؤُلَاءِ
 التَّعْسَاءِ، الَّذِينَ سَيَدْفَعُونَ الثَّمْنَ، لَا مَفْرَ... سَأَمْضِي إِلَى قَدْرِي... لَقَدْ تَأَكَّدْتُ

أن نهايتي هي الجحيم، لقد كنت كثيرًا ما أتخيل نفسي وعقلي فوق كل عقول
 البشر، أنا الوحيدة التي أفهم الدنيا أكثر من أي إنسان على ظهر الأرض، لا
 أعرف أنني أجهل من دابة، لم أعرف أنني مجرد دمية تتحرك وفق رؤاهم، من
 هم؟ ... لعنهم الله، من هم؟ ... تتنفس بصعوبة رغم نسيات عليلة تطلقها
 السماء حولها، قريبًا وعلى مرمى بصرها غابة من الأشجار، بعد عناء توصلت
 إليها، على أحد المقاعد الرخامية جلست، تسقط الدُموع قسرًا عنها، تشعر
 بضياعها وقيمتها الحقيقية التي لم تعرفها، كل أعالي سينتج عنها قتلى
 وجرحي، ثكالي وأرامل وأيتام، وأنا أعمل كل هذا تحت دعاوى الإنسانيّة،
 ملعون الإنسان، ملعون من يقتل إنسانًا بلا مبرر للقتل، ما الأسباب التي
 تدفعني أن أشعل نيران الحقد والكراهية بين بشر يعيشون في بلد واحد، لماذا
 يتركني الله؟! هل هي إرادة الله؟ هل عزرائيل يُنهي حياة البشر بإرادته أم
 بإرادة الله؟ هل نصّبي عزرائيل لكي أقوم مقامه؟ هل يدفعني الله
 لأساعده؟! مازال داخلي مؤمنًا بالإنسان وحق كل إنسان في الحياة، ماذا
 أصاب عقلي، سرقوا عقلي وماذا وضعوا مكانه، لمن ألقى باللوم على كل
 الحضارات البشريّة، ألقى باللوم على الكذبة والأفانين الذين اتخذوا قناعات
 الخير والمساواة والحرّيّة، أين هو الإخاء الذي تحدّثوا عنه؟ كان عقلي مغيبًا،
 أيّ إخاء وأنا أدفع المزيد من الأموال في سبيل نشر التّعرة القبليّة بين النّاس
 من الدّين الواحد، أرصد من الأموال لكلّ من يكتب ويكذب ليلعن ويشعل
 نيران الحقد، كبار كذبة، ومجتمعات يركب رأسها سياسة يبيعون كل شيء،
 عيونهم لا تملؤها أموال الدّنيا، الوحيد الذي لم تبهره الأموال هو "برهان"،

لم يتغيّر حديثه، حتّى التّاريخ طالبتهم أن يحرقوه، رصدتْ لهم الملايين، ليحرقوا المكتبات الأمّ، حتّى لا تتبقّى حقيقة، تضحك... أين عقلي؟! نزعه وغرّنتي الأموال التي اكتسبتها، قال بكلّ بجاحة أنتِ طفلة مقدّسة، أنتِ نتاج ليلة تسمّى ليلة الخروف، لا يعلم من أبوها، أيّ دين هذا؟ تركتْ نفسي نهبًا لأفكارهم، هل يركبون موجة الثّورات؟ هل هم دائماً كاذبون؟ هل بأيديهم نهاية العالم؟ هل كانوا السّبب في إشعال الحروب العالميّة؟ هم السّبب في قتل ملايين البشر، هل حقيقة الخبز المقدّس المعجون بدم ضحيّة صغيرة في السنّ؟ لماذا ألغيتْ عقلي؟ لماذا لا أفكّر؟ لحظات كانت تأتيني أنّي الوحيدة التي تدرك سرّ الكون، أشادوا بعقلي وفكري فتهاوت تحت أقدامهم آمالي، ما ذنب الفقراء، وكلّ ما نهفته من تلك البلد؟ آثار اشتروها بالمليارات تحت مُسمّى كنوز سيّدنا سلّيمان التي سرقتها المصريّون، يسترّدونها وأنا التي أشرف وتحت زعم إعادة بناء الهيكل، نعم... يردّون جزءًا لا يُذكر، إعانات ومعونات لمزيد من الدّماء، إلى أين أرحل؟ لقد قيّدتُ، وكبّلتُ فأنا لا أعرف من أنا، ظننتُ نفسي غير سائر نساء الكون، حلّقت مع رجل في البداية، سرق نفسي وكيّنونتي، ووهبني اسمًا جديدًا، وعقلًا غريبًا، لكنني وجدتُ فيه القوّة، فعشقتّه عشق القتلة للدّماء، أسرني بقيود غريبة، وفرحتُ وحلمتُ، وتتابع الأيام والسّنون، وصرتُ ملكة متوّجة وفق رؤيتهم وفكرهم، عبدتُ عقلي ونفسي، الحقيقة الوحيدة التي عشقتها "برهان".

أنا لا ألوم نفسي، لقد وجدتُ نفسي في الدّنيا وحيدة، فلا صديق ولا قريب ولا أسرة تشاركني فكري وحياتي، حملتني أمواج الخوف من المستقبل،

وما صاغوه في وجداني، وألقتني بين أيديهم، صنعوا مني فارسًا يعيد الحق،
والبداية كذبة، إذن... فكلّ أحاديثهم كاذبة، هل يوجد أمامها خيار جديد،
حافية تحاول تسلق الجبال الوعرة بعد أن نفخوا فيها بكلمات التشجيع والثأر،
ها هي أقدامها دامية، ولم تصل للقمّة بعد، هل سينصبونها ويقلّدونها تاجًا؟
أم سيلعنونها ويقذفونها بكلّ فعلٍ وقح وقبيح؟ لقد سمعت منهم... ما كتبه
في التلمود عن السيّدة مريم العذراء، كيف وصموها بأكاذيبهم؟ تتذكّر الآن
ماذا حدث عندما كتبوا التلمود في القرن الثامن الميلادي، وكيف ثارت
الكنيسة عليهم، كيف أُحرق في إيطاليا، وأُعيد طبعه سرًا في كلّ أوروبا؟
عندما تسمع تلك الأحاديث، كانت تزداد حقدًا على الديانات الأخرى،
وتتذكّر حديث "برهان" عندما ساق حكاية عن السيّدة مريم العذراء،
وكيف كان يبجلها المسلمون وما زالوا!! تتذكّر كلمته من القرآن، وهو يشيد
بالسيّدة العذراء، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾،
تتذكّر أنّها واردة في كتاب المسلمين، هل تستطيع الهروب؟ ممن؟ وإلى أين؟
تحاول أن تقلّب في أوراق ذاكرتها، فليس هناك التزامات، ولا معاهدات بينها
وبينهم، لكنّها تحسّ بأنهم لن يتركوا شيئًا تحت مشيئة الظروف، يقينًا يعملون
حسابات لكلّ فعلٍ وعملٍ يعملونه، ليتمها تستطيع أن تتنازل عن عمرها
السّابق كلّه وتعيش، لا تستطيع الحياة فإنّها كانت تسعى للثأر القائم من
آلاف السنين، لا تعرف الحقائق، تحاول أن تبرّر فعلها الذي كان، هل
طبيعتهم العربيّة وشكوكهم القائمة دائمًا في بعض؟ فهم لا يصدّقون

بعضهم، وما ذنبي أنا؟! فهم أيضًا كذبة ومنافقون، يتمنون القتل لبعضهم، كانت استعداداتهم قائمة، وكلُّ منهم كان يجيئ خنجرًا للآخر خلف ظهره، فهم يأخذون بعضهم بالأحضان، ويذبحون بعضهم، لستُ أنا السَّبب!!... ربِّما أنا دفعتهم للثورة على بعضهم، وحتى اللحظة لم يحدث شيء، فلم أحاكم نفسي، ربِّما هدأت نفوسهم، وتصلحت قلوبهم، كيف؟ لقد دفعتُ وتركتُ الملايين والوقت أزفَ، وهناك قوى أخرى لا أعرف عنها شيئًا تدخل حلبة الصِّراع القائم بلا مساعدات مَنِّي والمؤسَّسة، كمولودٍ جديدٍ ينبت في أحشائها، وهي تخاف المخاض القادم، عذابات النَّفس وآلام البشر يأخذون التَّوم من عينيها، تعاتب نفسها ثانيةً وثالثةً، ولماذا لم تفكِّر من قبل، كانت تظنَّ نفسها صاحبة حقٍّ مشروع تدافع عنه، تطالب نفسها أن تكون هادئة حتى تستطيع أن تفكِّر جيِّدًا، طوال حياتها بعد أن خلعت قناع "الإنسانة" البسيطة، أصبحت محاربة قويَّة حتى وإن فقد السِّلاح، تحاول أن تصفها بتجربة فاشلة والقادم... وكأنَّها تتذكَّر تجربة، ليست تجربة... إنَّها حياة كاملة وضحايا أبرياء، كانت شاحخةً بأفعالها وملكاتهما وقدراتها ونسيَّت أنَّها مثل سائر البشر، أقامت حفلات لكلِّ انتصار تحقَّقه، والآن شعرت بأنَّ كلَّ هذه الانتصارات هزائم، عاصفة من المشاعر الغريبة تجتاح كيانها، كلَّها هزائم وانكسارات، من سِيرِج من وراء أفعالي؟ ومن سيَجني ثمرة الحرائق التي سأشعلها؟ هل أعتبر نفسي "إنسانة" مؤمنة بالله، أشكُّ في نفسي، فلقد رفعت فكرة الإيمان من رأسي، أو بمعنى أدقِّ رفعوها من فكري، فكلُّ مؤمنٍ

بالله يداخله الخوف من إراقة الدماء، وأنا انتشيتُ رغم أنني لم أرَ الدماءَ حتَّى اللحظة، مجهولةٌ حقيقة الحياة، مملوءة بالأقنعة، غموضٌ لا يستطيع أيُّ من البشر التأكُّد من الطَّريق الصَّحيح، لا... هناك بشر يتركون أنفسهم طوعاً وإرادة الخالق سبحانه، يجدون بدل الطَّريق الواحد مئات الطُّرق التي ترشدهم للمسيرة الصَّادقة، هل أغرمتها الحياة بالمجد والشُّهرة وركب رأسها الأمل الكاذب؟ نعم، كانت ضعيفةً ووحيدة، وكانت في أمسِّ الحاجة للأمان، لمن يأخذ بيدها، ويسير بها لشاطئ الأمان ووجدت بغيتها، لكنَّها أخذت، ودفعت كلَّ حياتها وإنسانيَّتها، ها هي كلُّ الأقنعة سقطتُ وظهرت الحقائق بلا رتوش، وعليها في الغد أن تقطع الشكَّ باليقين وتأكَّد من صدق تلك الوثائق التي بيدها، ما ذنبها؟ غسلوا عقلها، غيَّروا أفكارها، تلاعبوا بكلِّ شيءٍ، هل صحيح كلام "برهان" أنَّهم أساتذة في فنِّ الكذب، أيَّا كانت الظروف التي يعيشونها أو عاشوها فهل هذا مبرَّر لأفعالهم اليوم والأمس؟ كيف تخرج من هذا النَّفق المظلم الذي وجدتُ نفسها أسيرته، ولا تدري أيَّ الطُّرق تسلك؟ ليته تستطيع أن تولد من جديد... أفكار مستحيلة تراودها في وضوح النَّهار، تستشعر بأنَّ نهاية حياتها صارت قريبة، الغريب أنَّها تتمنَّى الموت في تلك اللحظة، ستحاول الفرار، ولكنَّ كيف؟ أصبحت تفضِّل الاستسلام، صرخات كالرَّعد تدوي داخل رأسها، تفكَّر في كيفية الحياة رهينة الأمل والحسرة والحزن، تتمنَّى أن تركزَ ولكنَّ إلى أين؟ أن تباعد... ولكنَّ أين ستكون وجهتها؟ كم تتمنَّى أن تفقد ذاكرتها! أن تقطع كلَّ

الرّوابط بينها وماضيها كله، لا تدري كيفيّة الخروج من هذا المصاب الذي زلزلها؟ تفكّر ولا تلبث كثيرًا، فننفض عن رأسها ما ذهب فيه، تتوالى الذّكريات، وتتعثّر ذاكرتها في حادثةٍ ما، فتستقطبها وتستوقفها، فتدرك كم كانت غفلتها عمّا حولها، مسلوّبة الإرادة والفكر، كلّ الأوراق بين يديها صحيحة موثّقة... تعيد النّظر إليها ولكنّها لا تستطيع قراءة شيءٍ منها، تداخلت الحروف وتشابكت الكلمات ولا رؤية واضحة، الحقيقة واضحة ولا مجال لقهرها سوى بمزيدٍ من الكذب، عليها أن تظلّ متقمصة الدّور الذي تلعبه، وأن تستمرّ في كذبتها، كما قال "برهان" فإنّهم يكذبون ويكذبون ويستمرّون، ويضيق البشر بكذبهم فيصدّقونهم، فعليها أن تواصل الكذب، عندما ترتكب جريمة بيدك وهناك أسباب دفعتك لارتكابها، يمكن أن تتقدّم للإعدام وأنت راضٍ عن جرم ارتكبه، أمّا أن ترتكب جريمة لا تدري لها دافعًا وأنت عليها مجبر، مكذوب عليك... وعقلك ذاهب في غياهب كاذبة، مخمور بخمر يُعمي العيون والعقول، يوم يصفّقون لك، ويدفعونك، وتغمد خنجرك في جسد ضحيّتك، وساعة أن ينبلع النّور، وتظهر الحقيقة، فالندم لتلك الفعلّة النّكراء التي تاباها وترفضها كلّ النّواميس البشريّة عامّة، محشورة بين حقائب ذكريات الماضي، تغرقها ولا تستطيع التّنفس، تاهت ولم تدري كم من الوقت مضى!

تدخل جناحها في الفندق الرَّائع المطل على نهر موسكانا، تحاول أن تبدو هادئةً رغم النيران التي تجتاح كيانها، قبّلتها وتركتها، لكنّه لم يتركها فراقصها على أنغام أغنية يعشقها منذ أيام شبابه، أغنية "راسبوتين" لفريق البوني إم الأمريكيّ:

Ra Ra Rasputin Lover of Russian Queen

فلتت من يديه، دخلت لتغيّر ملابسها، لم يتركها، وراءها كان مردّدًا الأغنية ويقول: كم جميل أن تعود ذاكرة الإنسان لأيّام صباه وشبابه! آه يا سيّدة الدنيا وسيّدة قلبي قبل كلّ شيء! تهزّها كلماته العاشقة، تستهويها، ترجعها لمناسك العشق والهوى، هذه هي الأغنية الأجنبيّة الوحيدة التي حفظتها في شبابي، ويردّد من جديد، يحاول أن يراقصها، تمنّى أن تراقصه، وتخبّي رأسها في صدره وتبكي، ورغم كلّ هذا تمنّى أن يصمت، يواصل... قالوا إنّ صاحب الحبّ الرّوحيّ المقدّس، تحاول أن تجاريه، ولكن لا تستطيع، وكأنّ مفردات اللغة هربت من بين شفّتها، يضحك ضحكةً طويلةً في سخرية... إنّه أكبر دجال استغلّ الدّين في تاريخ البشريّة، آآآه كم أحبّ "راسبوتين"! رغم أنّه كان دائمًا مترنّحًا من السُّكر، كان أعظم ما به أنّه لا يهتم بأيّ شخص كان، كان يفعل ما يقوم في رأسه، هل تعلمين أنّ كلمة "راسبوتين" باللغة الرّوسيّة تعني الفاجر؟! الغريب أنّ بداياته وطفولته ظهرت عليه بوادر غريبة، فكان يستطيع التنبؤ بأشياء ستحدث، اقتنع به أهله أكثر يوم أن ضاع فرس من أحد أقاربه، وسألوه... وكان طفلًا فدّهم على من

سرقه ومكانه، بعدها اشتهر في قريته وذاع صيته، وكان له دورٌ كبيرٌ في شفاء ابن القيصر، ثم أصبح صاحب أشهر العلاقات الجنسية الفاضحة في تاريخ روسيا القيصرية، كانت له كلمات وعبارات غريبة "إنَّ الفردَ يمكن أن يصبح أكثر قرباً من الله إذا ارتكب ذنباً شهوانياً عمداً ثم تاب توبةً نصوحاً"، ويقول مرّةً ثانيةً "كثيراً ما يكون ارتكاب الجريمة من أجل التّطهّر من الآثام" منتهى الفوضى والهمجية، كنتُ أشعر وأنا أقرأ هذه الكلمات أن هناك علاقة وثيقة بينها وبين الفوضى الخلّاقة؛ ولذا فإنني أعتبر "راسبوتين" أحد رواد الفوضى الخلّاقة وقد استغل... يتوقّف وينظر إليها، فتنظر إليه وهي شبه عارية، وكأنّها تسأله عمّا أوقفه عن الحديث، فيقدّم اعتذارات لها، ولكنها لا تدرك عمّا يعتذر، فيواصل... كنتُ سأحكي وتأتي سيرة اليهود على لساني، وأنا أعلم مقدّماً أنّك تكرهين الأفكار غير المتسامحة، ولكنها قاطعته، وطلبت منه أن يقصّ ما شاء، كعادة اليهود دائماً يسارعون بركب موجة أيّ فعل يكون أو سيكون، وضعوا يدهم على "راسبوتين" وساعدوه بدون فعل مباشر، فانتشار الفكر الفوضويّ الخلّاق العالق بأذهانهم، فتكلّم "راسبوتين"، وأذاع أخبار القياصرة، وتكلّم عن الفساد الأخلاقيّ، وزرع في صدور النَّاس التذمّر والضيق الذي تحوّل فيما بعد إلى الثّورة البلشفيّة، فكان اليهود هم أوّل من ساعد على قيام الثّورة من خلال أفكارهم التي غرسوها في صدر "راسبوتين" وحكاياته المتداولة، ف"لينين" جدّه يهوديّ، و"تروتسكي" مساعد لينين من اليهود، أمّا "ستالين" فما كان تحوّل أسرته

إلى الأرثوذكسية إلا رغبةً منه في الترقّي، وتربّي "ستالين" على يد يهودي... أمّه كانت تعمل لديه، أمّا نظامه المستبدّ فقد أعدم ملايين الروس بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وكأنتهم رضعوا الكراهية لكلّ الجنس البشري، يكفي أن تعرفي أنّ سبعةً من ثلاثة عشر من أعضاء الحزب الشيوعي من مؤسسي الحزب، وكلّ الدّراسات تقول إنّ "راسبوتين" استغلّ قدراته في التّأثير على القيصر الرّوسيّ "نيقولا" وزوجته "الكسندرا"، فاستطاع أن يعزل كبار المسؤولين بالدّولة، رغم أنّ أكثرهم وُصِفَ بالنّزاهة والكفاءة، وكانت بداية الفوضى التي كثيرًا ما يبحث عنها اليهود في كلّ المجتمعات، وبعض المؤرّخين عقد مقارنةً ما بين الثّورة الفرنسيّة والثّورة البلشفيّة، وخاصّة الدّور اليهودي في كلّ منهما، فمعادل لـ "راسبوتين" في الثّورة الفرنسيّة كان "كودير لوس دي لاكو" وكان كاتب قصص جنسيّة فاضحة، وجعل من قصر الباليه رويال مركزًا للإباحيّة والمجون والخلاعة، وساعده الأيمن في ذلك "جوزيف بالسمو" فنشروا الفضائح وكتبوا يحضّون على الثّورة في الوقت نفسه، وكانت ثورة الفوضى الخلاقّة، التي أشعلت النيران في نفوس الشّعب، ونظر إليها بطرف عينيه، ولكنّها لم تعلقُ وبدت سابحةً في دنيا أخرى بعيدة، أراد أن يستثيرها بكلمة... ففي موضوع إشعال الثّورات أنا مع اليهود الذين... قاطعته بصورة غريبة جعلته يصمت ويستمع إليها... ملعونة الثّورة التي تقتل السّلام بين البشر، ملعونة ثورة تبيد وتحرق وتدمّر ويرفع قاداتها شعارات كاذبة، ملعونة بمنّ يصوغون أفكار البشر بأفكار

يجيدون صياغتها ويسرع خلفها الشَّبَاب غير المدرك لحقيقة مآرب أصحابها،
 يتقاتلون، مَنْ يموِّهم؟ ألا يفكِّرون؟ مَنْ يعطيهم السَّلاح ليقتلوا أهلاً لهم؟
 هل حقاً هم صادقون؟ أشك... مستحيل... انهارت في بكاءٍ غريبٍ، لعمره
 معها لم يرها بهذه الصُّورة، أخذها بين ذراعيه، راح يربّت على رأسها، يمسح
 عن عينيها شلال الدُموع السَّاقط بغزارة غريبة، ويحتضنها ثانيةً، يجلسها
 ويسرع بكأسٍ من الماء، تشرب وتنظر للسَّقْف وتلقي رأسها للخلف، وكأنَّها
 تستجير بشيءٍ مجهول، يحاول أن يخرجها فيداعبها بكلماتٍ، لا تستجيب
 لدعاياته، يشرح لها أجمل لحظات العشق وخاصةً بعد نوبة بكاءٍ للمرأة،
 تتسلَّل أنامله فتبعدها، يداعب أجزاء يعلم أنَّها مصدر إثارتها، ترتعش
 وتحاول الابتعاد، يواصل وتستسلم ومعها يذوب، يصحو قبلها... يتأمل
 النُّهر والأشجار والبشر وساعات الصُّباح الأولى، يطلب أن يأتيه الإفطار
 للجنّاح الخاصَّ بهما، يجلس في الشُّرفة وهو يتناول إفطاره ويتركها سابحةً في
 النُّوم، تشنَّجت كثيراً أثناء النُّوم وكانت هذه الفعلة ليست من صفاتها المعتادة
 غالباً، صدرت منها آهاتٌ غريبة واقتربت في بعض الأحيان من صرخات
 مكتومة كان يدفعها أن تصحو، ولا تلبث أن تواصل النُّوم، أيضاً غير معتاد
 هذا النُّوم الغريب فإن استيقظت يصعب أن تعود إلى النُّوم، يدخل الحجره
 ويتأملها وهي نائمة، يقترب من المخدع ويجلس على حافّته، تمتدّ يده... ترفع
 شعرها عن وجهها، يعيد تأمُّل وجهها الصُّبوح، وجنتيها رغم عمرها وكأنَّها
 بكرٌ ملمسها لا يختلف كثيراً عن أوراق الورد في نعومتها، تفتح عينيها تسقط

نظراتها عليه، يميل عليها يطبع فوق شفيتها قبلة، يسرع ويأتيها بكأس من العصير، ترشف بعضاً منه وتنظر إليه نظرة غريبة، وتقول إنه الحقيقة الوحيدة في حياتها، ويصفها بأنها هدية ربّ السّماء إليه، يرفع الغطاء ويدخل تحته محتضناً إيّاها، يسألها عمّا بها... لقد كانت في نومها مضطربة، في أسى بالغ تحبّه بأنّها لم تتناول أيّ عقال منوم سوى أمس، تنام في صدره وتداعب شعره وتتقابل عيونها وتعتمد في جلستها، وتسأله عمّا يقول عن اليهود، يتسم ويقول وهو يحتضنها، أنا لم أقلّ عنهم شيئاً، هل تسمعين عن "فرانز كافكا"؟ في أحد خطاباتّه... أحياناً أرغب في حشرهم في درج خزانة القماش لمجرّد أنّهم يهود بما فيهم أنا، ثمّ أنتظر ثمّ أفتح الدّرج قليلاً، لأرى إنّ كانوا قد اختنقوا جميعاً، وإن لم يكونوا قد اختنقوا... أَدفع بالدّرج ليغلق ثانية، واستمرّ في فعل هذا إلى أن تنتهي المهمّة...

أسبوعٌ كاملٌ لا يجد لها أثراً، اختفت، أخيراً لجأ للسّفارة المصريّة، قصّ على أحدهم، فلم يهتم كثيراً، طالّبوه أن يعود...

تمّت

المنيا في ٢١/٧/٢٠١٤م

٢٣ رمضان ١٤٣٥ هـ

obeikandi.com

للمؤلف

في الرواية:

- ١ - كلاب الصّيد دار سندباد للطبع والنشر.
- ٢ - انتقام سرب الحمايم العمياء دار الشباب العربي.

في القصّة القصيرة:

- ١ - اقتلوا الموتى الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- ٢ - مطلوب أفضل جحش دار الأحمدي للطبع والنشر.
- ٣ - من يوميات مدرّس متمرّد بورصة الكتب للنشر والتوزيع.

في قصص الأطفال:

- ١ - كنز أجدادي بورصة الكتب للنشر والتوزيع..

في المسرح:

- ١ - لن تسقط المنذنة ... المسرح العربيّ - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- ٢ - الملونون ... كتب مسرحيّة ... هيئة قصور الثقافة... أخرجت أكثر من مرّة في نوادي المسرح.

٣ - فرعون الأمريكاني دار حراء للطبع والنشر - طبعة ثانية في نصوص جديدة - أخرجت أكثر من مرّة مسرحيًا.

٤ - محاكمة عيلة صابر سلسلة الجنوبي - هيئة قصور الثقافة

٥ - من أولها كذب هيئة قصور الثقافة... وصدرت في أسبوعين متتالين في مجلّة مسرحنا.

٦ - الخوف علينا حقّ ... نصوص مسرحيّة - هيئة قصور الثقافة.

obeikandi.com